
المركز القومى للترجمة
تاريخ
الحروب الصليبية
الجزء الثانى
تحرير
جوناثان رايلى سميث
ترجمة وتقديم وتعليق
قاسم عبده قاسم
المشروع القومى للترجمة
1292



هذه مجموعة من الدراسات الجديدة حول الحروب الصليبية تعكس تزايد الاهتمام بدراسة الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة التاريخية الفذة، وقد صحبتها مجموعة من الصور والرسوم المأخوذة عن مخطوطات العصور الوسطى، والحديثة أيضاً. وقد صحبت هذه الصور والرسوم مادة إضافية مهمة عن تاريخ الحروب الصليبية بجوانبها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

تاريخ الحروب الصليبية

(الجزء الثانى)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٩٢
- تاريخ الحروب الصليبية ج٢
- جوناثان رايلى سميث
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ
الحروب الصليبية
(الجزء الثانى)

تحرير : جوناثان رايلى سميث
ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تاريخ الحروب الصليبية
تحرير : جوناثان رايلى سميث ؛ ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده
قاسم - ط١ القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٤٢٨ ص ، ج٢ ، ٢٤ سم
١ - الحروب الصليبية
(أ) سميث ، جوناثان رايلى (محرر)
(ب) قاسم ، قاسم عبده (مترجم ومقدم ومعلق)
(جـ) العنوان ٩٥٣,٧٣٩٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٤٤٣١
الترقيم الدولى 977-437-645-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

(٩)

النظم الرهبانية العسكرية ١١٢٠-١٥١٢م
الأصول والتأسيس

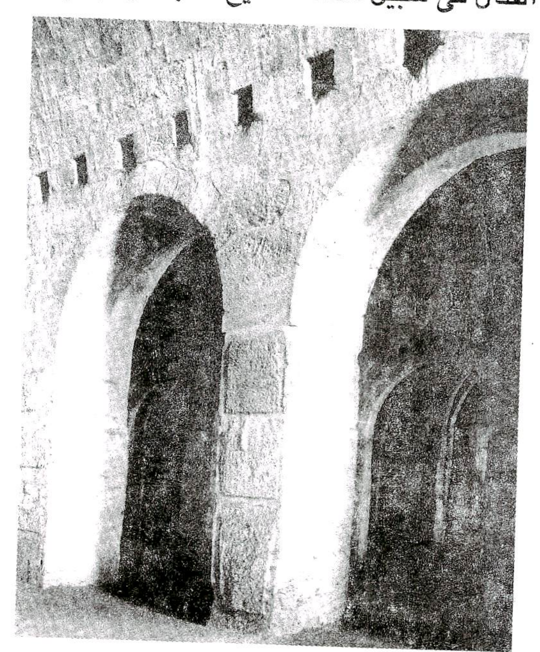
آلان فورى

كان ظهور النظم الرهبانية العسكرية أحد وجوه التنوع المتزايد الذى ميَّز الحياة الدينية للمسيحية الغربية أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر. إذ عاش أعضاء النظم الرهبانية العسكرية وفق قواعد تشبه تلك التى كانت للنظم الديرية القائمة، وقامت هذه النظم جزئيًا على أساس القواعد الديرية ؛ بيد أنها كانت طريقة دينية امتزجت بالقتال. كذلك كانت النظم الرهبانية العسكرية تتألف من الإخوة العلمانيين بصفة رئيسية . وعلى الرغم من أن جميع هذه النظم كانت تضم قساوسة بين أعضائها ، فإن الغالبية كانوا علمانيين بأيديهم معظم السلطات . وكان يتم تجميعهم فى رتبتى الفرسان والمساعدين (سيرچنت) فى النظم الرهبانية العسكرية الرئيسية، وكانت صفوف المساعدين (السرچنت) تضم المشاة وغير العسكريين على السواء . وربما يكون مدهشًا أن الكثير من النظم ضمت عضوات من النساء على الرغم من أنهن لم يشاركن فى الأنشطة العسكرية.

كان تنظيم الداوية (المعبد) أول نظم الرهبنة العسكرية، وتأسس فى القدس ١١٢٠م تقريبًا، وأخذ اسمه من المبنى الذى سمّاه الصليبيون معبد سليمان ، حيث تأسس مقر قيادة الداوية. وكانت مهمته الأساسية حماية الحجاج المسافرين فى أنحاء الأرض المقدسة ، بيد أنه فى غضون سنوات قليلة كان جزءًا من القوة العسكرية الصليبية ضد المسلمين. وكان الداوية فى قيامهم بهذه المهمة يلبون حاجة ملحّة : إذ يتضح من كتابات الحجاج أن الطرق لم تكن آمنة فى مملكة بيت المقدس عقب الحملة

الصليبية الأولى؛ ففى أوائل القرن الثانى عشر، كان حكام المستوطنات الصليبية يفتقرون إلى القوات الكافية.

وفى بعض الأحيان ساد افتراض بأن نظام الرهبنة العسكرى المسيحى كان تقليداً للرباط عند المسلمين، وكان هذا مكاناً حصينا ينقطع سكانه للعبادة والجهاد ضد أعداء الإسلام. بيد أن هناك اختلافات مهمة بينهما: إذ كان المرابطون فى الرباط، مثلا، يمكثون فترة محدودة فقط فى العادة، ويمكن مقارنتهم بالصليبيين لا بالنظم الرهبانية العسكرية. فضلاً عن أنه لم يظهر أن أولئك الذين عاشوا فى مملكة بيت المقدس أوائل القرن الثانى عشر كانوا على معرفة بوجود الرباط الإسلامى. والحقيقة أنه يمكن النظر إلى نظام الرهبنة العسكرية باعتباره نتاجًا للمجتمع المسيحى. وإذ كان القتال فى سبيل هدف صحيح قد بات يُعتبر إحدى وسائل الخلاص

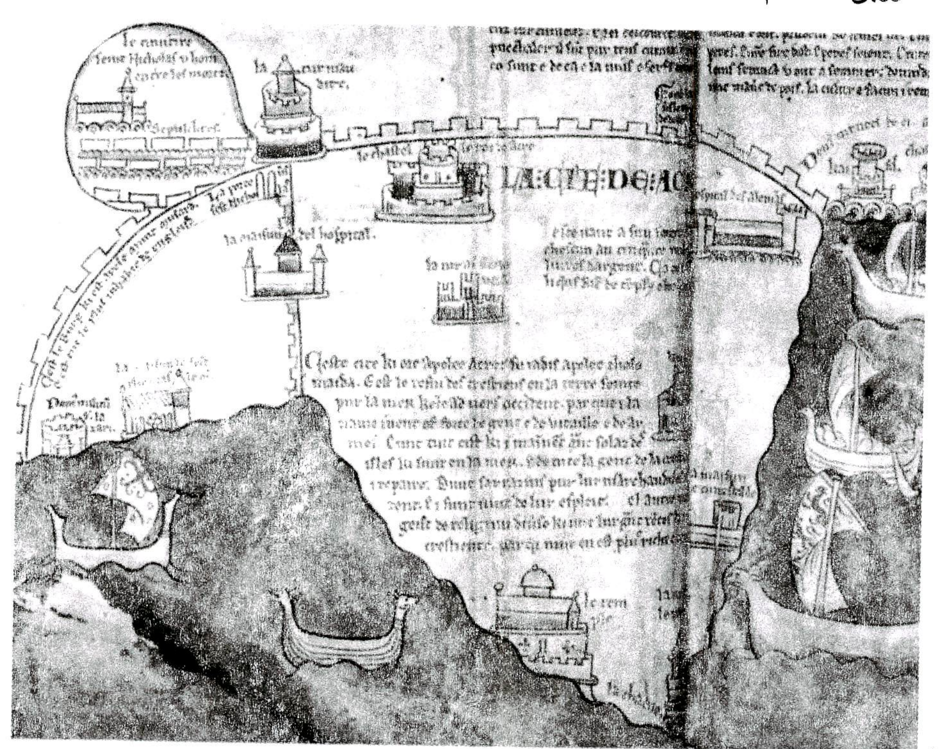


إسطبلات الداوية بالقدس. عندما كانت قيادات الداوية موجودة بالمسجد الأقصى، استخدموا اسطبلات تحت الأرض فى الركن الجنوبى الشرقى من ساحة المسجد الأقصى. وكتب ثيودوريك الذى جاء حاجًا فى القرن الثالث عشر أنها «من أعمال البشر العجيبة» وأكَّد، بقدر من المبالغة، أنها يمكن أن تأوى عشرة آلاف حصان.

المسيحى، وعملاً من أعمال الخير، بحيث يكون مهنة مقبولة للرجال العلمانيين الراغبين فى أن يعيشوا عيشة دينية: ذلك أن تحريم القانون الكنسى لحمل السلاح، والذى ظهر فى نظر البعض عقبة فى سبيل تطور الرهبنة العسكرية ، لم يكن لينطبق سوى على رجال الكنيسة. ومن الأمور المعروفة أن الشكوك ثارت حول المؤسسة الجديدة. إذ يظهر من خطاب كتب فى السنوات الأولى من عمر تنظيم الفرسان الداوية أنه حتى بعض أعضاء الداوية كانت تراودهم الشكوك فى مهمتهم. وكان هذا راجعًا جزئيًا إلى أن نظرة الشك كانت تحوم حول أى تجديد أو ابتكار فى العصور الوسطى. وثمة سبب آخر للقلق تمثل فى أن البعض رأى فى نظام الرهبنة العسكرية مؤسسة أدنى قدرًا من المؤسسة الروحية . وفى بعض الأحيان كانت المعارضة تثور من جانب أولئك الذين كانوا يعتبرون القتال خطيئة مهما كانت دواعيه. ويبدو أن هذا الموقف قد تسبب فى أهم الانتقادات الموجهة ضد المؤسسة الجديدة. وكان هذا أساسًا هو الرأى الذى سعى سان برنار الكليرڤوى لمواجهته فى كتابه De laude novae militiae، الذى كتبه لدعم تنظيم الداوية . ومع هذا، وعلى الرغم من إعلان الشكوك، فإن الداوية سرعان ما حظوا بدعم واسع النطاق ومساندة عريضة ، حسبما يتضح من أعمال مجمع ترو‌ى سنة ١١٢٩م، عندما تمت مناقشة ممارسات الداوية وشعائرهم وتمت صياغتها فى دستور أو قاعدة . وفى ذلك الوقت كان النظام قد بدأ أيضا يجتذب الحماية فى الكثير من بلدان الغرب، وقد زادت حماية الداوية بسرعة فى معظم الممالك الغربية.

وعلى الرغم من نجاح نظام الداوية فلم يتم تأسيس أية نظم رهبانية عسكرية أخرى فى الأرض المقدسة على غرار الداوية؛ ولكن عدة مؤسسات دينية كانت قائمة فى مملكة بيت المقدس الصليبية. وكان مستشفى سان چون، الذى قام بالقدس قبل الحملة الصليبية الأولى لرعاية الفقراء والمرضى، يضطلع بمسئوليات عسكرية بحلول ثلاثينيات القرن الثانى عشر (وهو الذى عرف باسم الاسبتارية) على الرغم من أنه لم يكن هناك إجماع من المؤرخين على أن الاسبتارية أنفسهم حملوا السلاح فى ذلك الحين. وقد تطور نظام الفرسان التيوتون نابعًا من المستشفى الألمانى الذى أقيم فى عكا زمن الحملة الصليبية الثالثة؛ كما أن دير الرهبان النظاميين الذى تحول فيما بعد إلى نظام

سان توماس فى عكا ، قد تأسس على نحو مشابه أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وقد حدث تحول هاتين المؤسستين سنة ١١٩٨م ثم عشرينيات القرن الثالث عشر على التوالى . وليس واضحًا ، على أية حال، متى أُنشئ مستشفى سان لازاروس للمجذومين، وقد ورد ذكره للمرة الأولى فى المصادر سنة ١١٤٢م لقيامه بواجبات عسكرية . ومن بين المهام الأولى، المعروف أن أعضاء هذا النظام شاركوا فيها، معركة لافوربى ١٢٤٤م.



خريطة عكا. تركزت مملكة بيت المقدس فى القرن الثالث عشر حول عكا. والخريطة التى رسمها متى الباريسى للمدينة توضح المبانى المملوكة للمعبد، ومستشفى سان چون، والنظام التيوتونى (مستشفى الألمان hopital des alemans) وسان توماس فى عكا وسان لازاروس.

ولاتمدنا المصادر الباقية سوى بمعلومات ضئيلة عن أسباب هذه التحولات . ومن الواضح أن الداوية قد أرسوا السابقة ، بيد أن السبب فى تقليدها ليس واضحًا . ففى بعض الحالات كانت ثمة مؤثرات خاصة فاعلة : إذ تُعزى عسكرة نظام سان توماس فى عكا إلى بطرس دى ليروش، أسقف وينشستر ، الذى كان فى الشرق وقت أن كان الدير يعانى الاضمحلال. ولكن هناك أيضا عوامل إضافية أكثر عمومية. وربما كانت المؤسسات موضع الدراسة بصفة خاصة - باستثناء نظام سان توماس فى عكا - تضم أعضاء قادرين على القتال ، ولابد أن هذه التنظيمات قد لقيت التشجيع للقيام بواجبات عسكرية نتيجة النقص الدائم فى المحاربين بالأرض المقدسة.



منحة قلعة أوكليه لنظام سانتياجو ١١٧٤م. توضح هذه المنمنمة من سجلات ألفونسو الثامن ملك قشتالة وزوجته ليونور وهما يمنحان أوكليه لبدرو فرناندز رئيس النظام . وفى سبعينيات القرن الثانى عشر كان تنظيم سانتياجو الذى كان تأسيسه فى ليون، قد صار نظامًا عالميا.

وعلى الرغم من أن مؤسسة النظام الرهبانى العسكرى قد ظهرت فى الأرض المقدسة، فإنها لم تلبث أن ظهرت على مناطق حدودية أخرى للمسيحية الغربية. وكان الداوية والاسبتارية أول النظم التى حملت السلاح فى إسبانيا. وكان اهتمامهم في البداية منصبًا على شبه الجزر الأيبيرية باعتبارها مصدرا للدخل وتجنيد المحاربين فقط ولكن فى سنة ١١٤٣م تمكن كونت برشلونة من إقناع الداوية بالإسهام فى الحرب ضد المسلمين ، ومع منتصف القرن الثانى عشر كان الداوية قد حملوا السلاح للقتال ضد المسلمين فى إسبانيا. ولكن فى الربع الأخير من هذا القرن تم تأسيس سلسلة من النظم الرهبانية العسكرية فقد تم تأسيس نظام كالاترافا فى قشتالة سنة ١١٥٨م ، وسانتياجو فى ليون سنة ١١٧٠م ، وتم تأسيس نظام مونتجواديو ، الذى كانت ممتلكاته موجودة أساسًا فى أراجون حوالى سنة ١١٧٣م ، وبحلول سنة ١١٧٦م كان النظام الذى صار يُعرف فيما بعد باسم Avis آڤيس قد تأسس فى البرتغال كما حدث بالنسبة لنظام سان خوليان دى بريبروا- الذى كان سابقًا على القنطرة- فى مملكة ليون. والنظم الرهبانية العسكرية الوحيدة التى تأسست فى إسبانيا بين أواخر سبعينيات القرن الثانى عشر وسنة ١٣٠٠م كانت تنظيم سان چورچ دى ألفاما ، الذى تأسس عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر، وسانتا ماريا دى إسبانيا، الذى ظهر فى سبعينيات القرن الثالث عشر. هذه المؤسسات الإسبانية كانت نظمًا رهبانية عسكرية منذ البداية، كما أنها تأسست تقليدًا للداوية والاسبتارية ، ولكن فى شرح هذا التأسيس من الضرورى أن نأخذ فى حسابنا طموحات مؤسسيها وأعضائها الأوائل- إذ إن مؤسس مونتجواديو ، مثلا ، كان عضوًا منشقًا عن نظام سانتياجو- وكذلك مواقف الملوك الإسبان الذين ساندوا مؤسساتهم . فمن الواضح أن الحكام المسيحيين فى إسبانيا كانوا يأملون فى الحصول على مساعدة عسكرية على الأرض ، ومن الواضح أن نظام سانتا ماريا دى إسبانيا كان ينال دعم ألفونسو العاشر ملك قشتالة كوسيلة لكسب المساعدة البحرية فى وقت كان معظم الصراع ضد المسلمين متمركزا حول السيطرة على مضيق جبل طارق . وينبغى أيضًا أن نلاحظ أن نظام

كالاتراڤا قد ظهر لأن الداوية ، الذين كان قد تم منحهم قلعة كالاتراڤا من قبل ، كانوا عاجزين عن الدفاع عنها. وكانت للنظم المحلية الميزة الإضافية المتمثلة فى أنهم لم يكونوا مضطرين إلى إرسال جزء من دخلهم إلى الأرض المقدسة: ومن خلال محاباة عدد من المؤسسات ، كان بوسع الحكام أن يضمنوا ألا تصبح مؤسسة واحدة منها أقوى مما ينبغى : وربما كان هذا الاعتبار يفسر المحاباة التى أظهرها ألفونسو الثانى ملك أراجون لنظام مونتجواديو .كذلك يبدو أن الحكام الإسبان قد تصوروا فى البداية إمكانية استخدام النظم الرهبانية المحلية ضد منافسيهم من المسيحيين ، بيد أن النظم الإسبانية الكبيرة – سرعان ما مدت ممتلكاتها فى جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وتبنت موقفًا محايدًا فى الصراعات بين الملوك المسيحيين.

وعلى الرغم من الدعم الملكى لم تزدهر كل النظم الرهبانية الإسبانية ، فقد تم إدماج مونتجواديو أولاً سنة ١١٨٨م مع نظام مستشفى «الشافى المقدس» فى ترويل، ثم مع الاسبتارية سنة ١١٩٦م؛ وعلى الرغم من أن بعض الإخوة رفضوا الاتحاد وأسسوا أنفسهم فى مونفراجوى، على نهر تاجوس فى قشتالة فقد تم استيعاب هذه المجموعة فيما بعد فى كالاتراڤا . وبينما حدثت هذه الاتحادات بسبب الصعوبات التى واجهتها داخل مونتجواديو ، كان الاتحاد بين سانتا ماريا دى إسبانيا وسانتياجو نتيجة للخسائر التى منى بها نظام سانتياجو فى معركة موكلين سنة ١٢٨٠م . ونجت النظم الرهبانية الإسبانية الأخرى وتوسعت ، ولكنها بقيت مؤسسات خاصة بشبه الجزيرة الأيبيرية أساسًا ؛ وعلى الرغم من أنه كانت هناك اقتراحات عديدة بأن تمد أنشطتها إلى شمال أفريقيا، والأرض المقدسة، بل حتى إلى منطقة البلطيق، فإن أيًا من هذه الخطط لم تكن لها نتائج دائمة.

وفى أوربا الوسطى، على خلاف إسبانيا، لم يكن الداوية والاسبتارية أول النظم التى حملت السلاح. ففى بواكير القرن الثالث عشر كان الاعتماد على المؤسسات الجديدة ونظام التيوتون بدلاً منهما. وقد لعبوا جزءًا رئيسيًا فى إخضاع بروسيا

وليفونيا، وهو ما تم - على الرغم من النكسات والتمرد- بنهاية القرن الثالث عشر . وكان نظام إخوة السيف ونظام دوبرين قد قاما أصلاً لتوفير الحماية والمساعدة للأنشطة التبشيرية: وقد تم تأسيس نظام إخوة السيف فى ليفونيا سنة ١٢٠٢م بدعم من الأسقف ألبرت ، على حين أنشئ نظام دوبرين في بروسيا، ربما سنة ١٢٢٨م بمبادرة من الأسقف كريستيان أسقف بروسيا والدوق البولندى كونراد أمير موساڤيا، وعلى أية حال كان كل من هذين النظامين الرهبانيين قد أدمجا في التيوتون فى ثلاثينيات القرن الثالث عشر .

كانت أول مرة يمدُّ هذا النظام اهتمامه إلى أوربا الوسطى سنة ١٢١١م ، عندما أعطاه الملك أندرو الثانى ملك المجر ناحية بورزنلاند، التى تؤدى إلى شمال جبال الألب الترانسيلڤانية وواجه الكومان الوثنيين. ومن الممكن أن يكون نظام الفرسان التيوتون قد رأى فى هذا الجهد ما يوفر مجالاً أكثر للتوسع مما كان محتملاً فى الأرض المقدسة، حيث كان داخلاً فى منافسة مع الداوية والاسبتارية الراسخين تماماً . بيد أنه فى سنة ١٢٢٥م طرد أندرو التيوتون ، وواضح أن السبب هو أن النظام كان يسعى إلى الاستقلال عن الملك المجرى . وحوالى هذا الوقت ، حدث أن قدَّم كونراد أمير موساڤيا البولندى ، الذى كان واقعًا آنذاك تحت الضغط البروسى ، للنظام التيوتونى إقليم كولم لاند. وقد مهدت المفاوضات الناجمة عن ذلك، والتى ضمت الإمبراطور فردريك الثانى، الطريق أمام تأسيس دولة مستقلة فى بروسيا تحت سلطة النظام التيوتونى . وبحلول سنة ١٢٣٠م ، كان التنظيم قد بدأ شن حملاته ضد البروسيين، وبعد ذلك بسنوات قليلة ، فى أعقاب الاتحاد مع إخوة السيف ، وطد التيوتون أنفسهم فى ليفونيا على الرغم من أن سلطتهم هناك لم تكن ممتدة مثلما كانت فى بروسيا.

وعلى الرغم من أن نظام الفرسان التيوتون يظهر بهذه الطريقة كأنه صار النظام الرهبانى العسكرى الوحيد الذى يحارب على هذه الجبهات ، فقد كان لا يزال هناك مكان لنظم رهبانية عسكرية أخرى فى أوربا الوسطى . فبعد طرد نظام التيوتون من

المجر وتأسيسه نفسه كقوة مستقلة فى بروسيا، ربما كان على حكام المجر وبولندا أن يولوا وجوههم صوب مكان آخر سعيًا وراء المساعدة . وثمة محاولة جرت سنة ١٢٣٧م من جانب كونراد أمير موساڤيا لإعادة تأسيس نظام دوبرين فى قلعة دروهيتشين على نهر بوج لم تلبث أن أخفقت ، ولايبدو أن الداوية قد استقروا بشكل دائم فى لوكوف، على حدود بولندا الشرقية ، التى أُعطيت لهم فى خمسينيات القرن الثالث عشر. وبنفس الطريقة لم يتول الاسبتارية مهام الدفاع الدائم عن ناحية سيڤران التى كانت تمتد من جبال الألب الترانسيلڤانية إلى الدانوب والتى خصصت لهم من جانب بيلا الرابع ملك المجر سنة ١٢٤٧م.

كان بيلا الرابع يأمل فى مساعدة الاسبتارية ليس ضد الوثنيين فحسب، وإنما أيضًا ضد الانفصاليين؛ وعل الرغم من أن المساعدة لم تأت فى هذه الحالة فإن الداوية والاسبتارية والتيوتون فى الجنوب قد أسهموا فعلاً فى الدفاع عن الإمبراطورية الصليبية بالقسطنطينية ، والتى كانت قد أقيمت سنة ١٢٠٤م بعد الحملة الصليبية الرابعة . وبينما تزايد شن الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر ضد المعارضة المسيحية، فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن شن الحملات الصليبية ضد البيزنطيين كان يعتبر وظيفة مناسبة وصحيحة للنظام الرهبانى العسكرى. وفى الحقيقة أن الجهود قد بُذلت أيضا خلال القرن الثالث عشر لتأسيس النظم الرهبانية العسكرية واستخدامها لأغراض الحرب ضد الهراطقة وأعداء البابوية ومن يخلون بالسلام داخل العالم المسيحى الغربى. وفى عدد من المناسبات حثَّ البابوات النظم الرهبانية العسكرية على التدخل فى الصراعات الداخلية فى مملكتى قبرص وبيت المقدس، وتوقع البابا كليمنت الرابع فى سنة ١٢٦٧م أن يساند الاسبتارية شارل أنجو ضد آخر سلالة الهوهنشتاوڤن فى جنوب إيطاليا. كذلك بُذلت المحاولات لتأسيس نظم رهبانية عسكرية جديدة فى جنوب فرنسا لضرب الهرطقة. ولم تسفر هذه المحاولات عن أى نجاح دائم، ولكن فى إيطاليا كان لنظام مريم العذراء المباركة تاريخ أطول : إذ إن قاعدته التى

جمعت سنة ١٢٦١م ، حددت وظائفه بأنها الدفاع عن العقيدة والحرية الكنسية ، وإجهاض الاضطرابات المدنية. كانت مثل هذه التطورات على أية حال ذات أهمية قليلة وطوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت الوظيفة الأولية للنظم الرهبانية العسكرية هى القتال ضد غير المسيحيين على حدود العالم المسيحى الغربى.

الأدوار العسكرية

كان الإخوة الذين يمكنهم تقديم الخدمة العسكرية فى النظم الرهبانية العسكرية من الفرسان والسرچندية (المساعدين) المسلحين. وكانت الاختلافات بين الفرسان والسرچندية فى الشئون العسكرية اختلافات فى الدرجة ولم تكن اختلافات نوعية . كان تسليح الفرسان أكثر، وبينما كان السرچندية يمتلكون حصانا واحداً فى العادة ، كان مسموحًا للفرسان بثلاثة أو أربعة ، ولكن على الرغم من أنه كان يمكن استخدام السرچندية جنوداً مشاة ، فإن أسلحة المجموعتين وتجهيزاتهما كانت متشابهة ؛ ولم يكن المساعدون يشكلون أبداً فرق الفرسان الخفيفة من النمط الذى كان موجوداً فى بعض جيوش المسلمين. وكان هؤلاء الإخوة أعضاء دائمين فى نظام ما ، ولكنهم فى بعض الأوقات كانوا يتلقون المساعدة من أفراد كانوا يعيشون مع الإخوة فى النظام ويقاتلون إلى جانبهم لفترة ما . وفى الأرض المقدسة كان المفروض أن يقدم هذا النوع من المساعدة أولئك الصليبيون القادمون من الغرب، وتكرس قاعدة الداوية ثلاث عبارات لهؤلاء الرجال ، وقد استمر تقديم هذا النوع من الخدمة فى القرن الثالث عشر . وكان عاديًا أن تطلب النظم الرهبانية العسكرية أيضا الخدمة العسكرية من الأفصال الإقطاعيين التابعين لها، وفى بعض المناطق على الأقل كان يتم استئجار المرتزقة . وفى الأرض المقدسة كانت القوات مدفوعة الأجر، بما فى ذلك قوات التركوبولى turcoples . الذين كان يتم تجنيدهم من السكان المحليين والذين كانوا فى بعض الحالات من الفرسان ومسلحين بالقسى.

وعلى جميع الجبهات كانت فرق النظم الرهبانية العسكرية لاتشكل سوى عنصر واحد من عناصر عديدة فى القوات الصليبية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بدور مستقل فى بلاد الشام والبلطيق أكثر من دورهم فى إسبانيا. كانت قيادة حرب الاسترداد الإسبانية Reconquista فى أيدى الحكام المسيحيين لشبه الجزيرة ، وكانوا يسعون إلى الحفاظ على السيطرة القوية على المهام العسكرية . وصدرت وثائق عديدة للنظم الرهبانية العسكرية فى إسبانيا تقرر أنه كان عليهم أن يشنوا الحرب ويعلنوا السلم بناءً على أوامر الملك، وعادة ما كانت النظم تراعى هذه القواعد، على الرغم من بعض الاحتجاجات الصادرة عن البابوية. وعلى أية حال، لم يكن الملوك الإسبان يحاولون عرقلة المبادرة تمامًا ،كما أن النظم قد شنت بالفعل هجمات لحسابها- ذلك أن المصادر السردية ، مثلاً ، تسجل الاستيلاء على عدد من قلاع المسلمين على أيدى نظام سانتياجو وكالاترافا أواخر عشرينيات القرن الثالث عشر وأوائل ثلاثينيات القرن نفسه - ولكن مثل هذه الحملات حدثت داخل إطار السياسة الملكية. وفى الشرق على النقيض من ذلك كان بوهيموند الثالث أمير أنطاكية قد سمح سنة ١١٦٨م للاسبتارية بشن الحرب والتفاوض على الهدنة حسب رغبتهم ، ووعد بأن يراعى أى وقف للقتال فيما بينهم. وثمة وعد مشابه قدمه ليو الثانى ملك أرمينيا ١٢١٠م . وليس هناك تسجيل لتنازلات من هذا النوع فى مملكة بيت المقدس خلال القرن الثانى عشر، بيد أن تدهور السلطة الملكية هناك أتاح للنظم الرهبانية العسكرية فى القرن الثالث عشر أن تتابع سياساتها الخاصة فى جميع أنحاء فلسطين وبلاد الشام . وفى العقود الأولى من القرن كان الداوية والاسبتارية يتخذون موقفًا عدوانيًا فى الشمال، وقد ساعدهم هذا على انتزاع الإتاوة من الحكام المسلمين المجاورين؛ كما أنهم شكلوا سياساتهم الخاصة فى الجنوب تجاه دمشق ومصر ، على حين كانوا يتفاوضون فى وقت لاحق ، عندما زادت قوة المماليك، على عقد الهدنة مع الغزاة المماليك. وعلى أية حال ، تمتعت النظم الرهبانية العسكرية بأكبر قدر من حرية العمل فى منطقة البلطيق. أما فى بروسيا فكان نظام التيوتون خاضعًا لسلطة أكبر ، وعلى الرغم من أن نظام إخوة السيف فى ليڤونيا

وبعده التيوتون لم يكونا يتمتعان نظرياً بمثل هذا الاستقلال الكامل، فإنه لم تكن هناك سلطة لأحد عليهم فى الميدان. وهكذا كتب هنرى أمير ليڤونيا عن رئيس نظام إخوة السيف فى أوائل القرن الثالث عشر يقول : «حارب معارك الرب، وكان يقود جيش الرب، فى كل حملة ، سواء كان أسقف ريجا حاضراً أو غائباً».

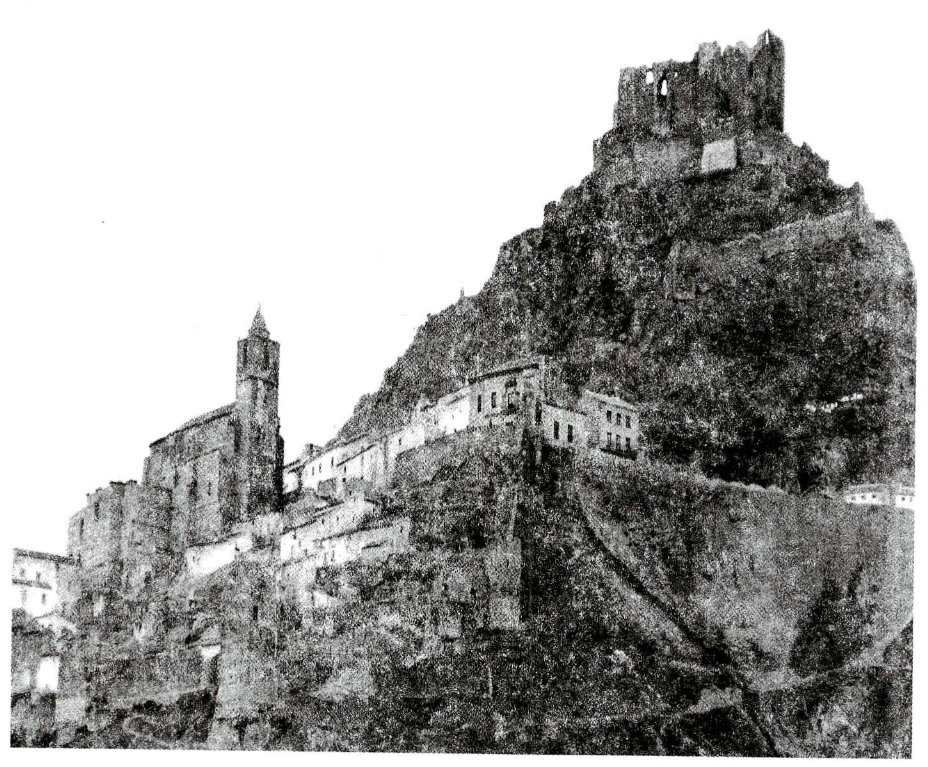


بغراس . ربما حدث فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر أن أسند إلى الداوية مهمة الدفاع عن تخوم أمانوس شمال إمارة أنطاكيا . والرسم عبارة عن نقش يرجع إلى القرن التاسع عشر لأطلال قلعة بغراس، التى هجرها الداوية فى النهاية سنة ٦٨م.

كذلك اختلفت الشئون الحربية التى كانت توجهها النظم الرهبانية العسكرية إلى حد ما من حيث الأهداف والمنهج . ففي بلاد الشام وإسبانيا كان الغرض الرئيسى للحرب الهجومية ضمان السيطرة على الأرض: ولم يكن تحويل المسلمين إلى المسيحية هدفًا مباشرًا . وعلى أية حال ، ففى منطقة البلطيق كان الغزو مصحوبًا بتعميد الوثنيين .كذلك كان إقليم البلطيق مختلفًا من حيث إن الحملات كانت غالبًا ما تحدث فى الشتاء ، عندما تتجمد المستنقعات والنهر، وتكون الحركة أسهل . ولكن على جميع الجبهات كانت النظم الرهبانية العسكرية تهتم أساسًا بالشئون الحربية على الأرض. وحتى نظام سانتا ماريا دى إسبانيا لم يكرس نفسه للحرب فى البحر بصفة حصرية ، وفى شرق المتوسط لم يحدث سوى فى نهاية القرن الثالث عشر أن كان الداوية والاسبتارية يطورون أساطيل خاصة بهم.

وعلى الأرض كانت أنشطة الأنظمة الرهبانية العسكرية تتضمن الدفاع عن المواقع الحصينة والقتال فى الميدان على السواء. وفى فلسطين وبلاد الشام أثناء القرن الثانى عشر كان الداوية والاسبتارية مسئولين عن عدد متزايد من القلاع، وهى قلاع إما منحت لهم أو بيعت إليهم من قبل الحكام والنبلاء الذين كانوا يفتقرون إلى القوة البشرية أو الموارد اللازمة للدفاع عنها بكفاءة . وقد تم تقدير أن الاسبتارية كانوا فى سنة ١١٨٠م مسئولين عن الدفاع عن حوالى خمس وعشرين قلعة فى الشرق. وقبل سنة ١١٥٠م كان الاسبتارية مسئولين عن بيت جبرين وكان الداوية مسئولين عن قلعة غزة قرب الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس. على حين كانت التحصينات الأقل لديهم تضم حصونًا تقع على امتداد طرق الحج وتوفر الملجأ والمأوى لأولئك الذين يسافرون إلى بيت المقدس أو إلى نهر الأردن. وعلى أية حال ، ففى القرن الثانى عشر، كان بحوزة هذين النظامين قلاع فى شمال بلاد الشام أكثر مما يملكونه فى مملكة بيت المقدس. وفى سنة ١١٤٤م أعطى ريمون الثانى أمير طرابلس للاسبتارية مجموعة من الحصون ، بما فيها الكرك دى شيڤالييه ، بالقرب من الحدود الشرقية لكونتيته ، على حين كان الاسبتارية فى شمال إمارة أنطاكيا مسئولين عن تخوم أمانوس . وأهم قلاع الاسبتارية فى الإمارة كانت قلعة مرقط ، التى أخذها النظام سنة ١١٦٨م «بعد أن

تحقق سيدها السابق من أنه لايستطيع الحفاظ على قلعة مرقط، كما كان ذلك ضرورياً لصالح المسيحية، بسبب النفقات الزائدة والقرب الشديد من الكفار» . وكانت معظم هذه القلاع قد سقطت فيما بعد معركة حطين. وعلى أية حال ، تمت استعادة بعضها كما تم الاستيلاء على معاقل جديدة على أيدى الداوية والاسبتارية فى القرن الثالث عشر، على حين صار التيوتون أيضا فى ذلك الوقت مسئولين عن



قلعة سيجوار دى لوسييرا فى الأندلس أعطيت إلى نظام سانتياجو سنة ١٢٤٢م خلال فترة التقدم المسيحى السريع فى إسبانيا ، وفى سنة ١٢٤٥م صارت مقراً للقائد العام **Comendador mayor** للنظام فى قشتالة ، الذى كانت قاعدته قبل ذلك فى أوكليس.

وضع الحاميات فى القلاع والدفاع عنها ، لاسيما فى ظهير عكا. لقد كانت النظم الرهبانية العسكرية مضطلعة بالعبء الرئيسى فى الدفاع.

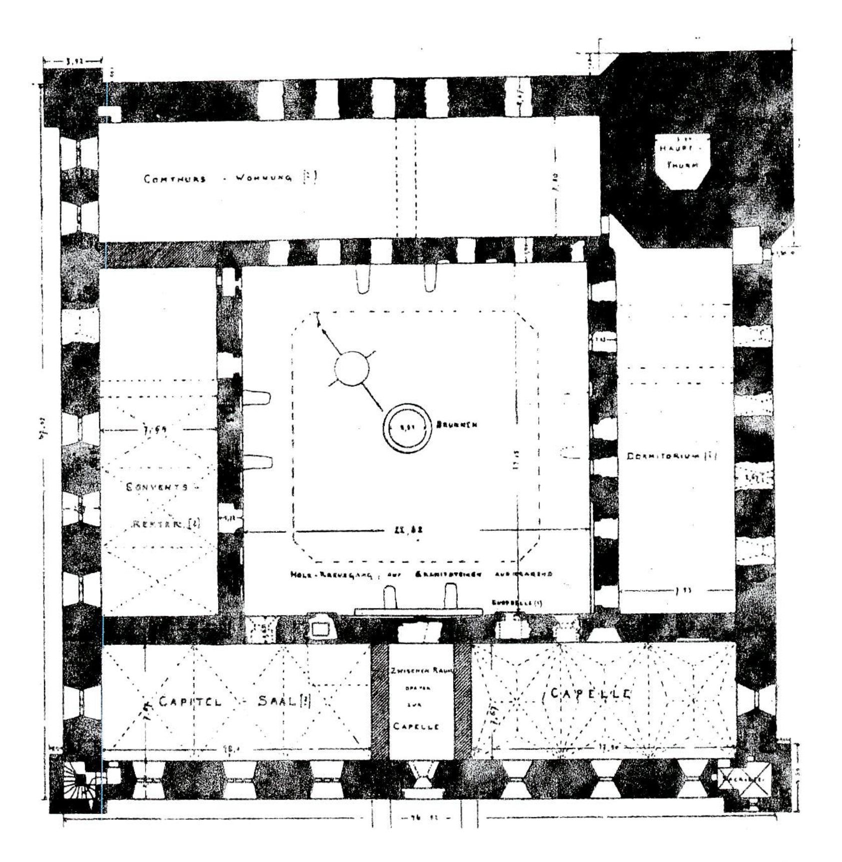
لم تكن مسئوليات النظم الرهبانية العسكرية محدودة فى نطاق توفير القوة البشرية للدفاع عن القلاع: فقد أخذت على عاتقها أيضًا مسئولية بناء معاقل جديدة وكذلك إصلاح وتوسيع القلاع القائمة. وكان من بين مبانى الداوية قلعة الحجاج ، التى بنيت على الساحل سنة ١٢١٧م / ١٢١٨م، وقلعة صفد التى كانت قد بنيت بعد استعادة المكان من المسلمين سنة ١٢٤٠م. وإلى جانب بناء القلاع الجديدة، مثل قلعة بلڤوار ، كما قام الاسبتارية أيضا بتوسيع قلعة الكرك دى شيڤالييه، حيث تمت إضافة حصن خارجى مُسوَّر عند انعطاف القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر تقريبًا.

ولدينا قدر أقل من المعلومات التفصيلية عن عمليات البناء فى إسبانيا ، ولكن الواضح أن عددًا كبيرًا من قلاع الحدود فى شبه الجزيرة الأيبيرية خضعت لسيطرة النظم الرهبانية العسكرية. ففى أراجون وقطالونيا خلال القرن الثانى عشر كان الاعتماد أساسًا على الداوية والاسبتارية : وثمة محاولة من جانب ألفونسو الثانى لتحسين نظام مونتجواديو فى جنوب أراجون باءت بالفشل . ولكن فى الجزء الجنوبى من مملكة ڤالنثيا، التى تم غزوها قرب منتصف القرن الثالث عشر، كان الملك الأراجونى چيمس الأول يحابى نظام سانتياجو أساسًا. وبنفس الطريقة ، وعلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة، كان الداوية والاسبتارية يخدمون الحكام البرتغاليين فى القرن الثانى عشر، على حين كانت النظم الإسبانية ، وخاصة أڤيس وسانتياجو، هى المفضلة فى القرن الثالث عشر. وعلى أية حال ، ففى وسط شبه الجزيرة كان الملوك القشتاليون وملوك ليون يعتمدون أساسًا وبشكل متواصل على النظم الرهبانية العسكرية الإسبانية - وبصفة خاصة كالاتراڤا وسانتياجو - للاضطلاع بحماية قلاع الحدود.

أما فى إقليم البلطيق فقد تم إنشاء القلاع على أيدى النظم الرهبانية مع تقدم عمليات الغزو . وقد تم هذا، مثلاً ، على يد نظام التيوتون عندما كان يتقدم على امتداد نهر الفستولا ثم تنظيم Frisches Haff فى بروسيا . وفى ليفونيا قدمت النظم الرهبانية العسكرية إسهامًا مهمًا فى بناء القلاع. وفى كل من الناحيتين غالبًا ما كانت الأبنية الوثنية البدائية المقامة من الأخشاب تلتهمها النار أثناء الهجمات ويتم استبدالها ، على الرغم من أن التحصينات الباكرة التى بنتها النظم الرهبانية العسكرية نفسها كانت فى معظمها من الأخشاب والطين، ولم يحدث حتى وقت لاحق أن صارت البنايات الأكثر حذقًا هى الشائعة، مع التوسع فى استخدام الآجر.

ولايجب افتراض أن كل القلاع التى كانت بحوزة النظم الرهبانية العسكرية كان يتم الدفاع عنها بواسطة حاميات كبيرة من الإخوة . وفى سنة ١٢٥٥م قرر الاسبتارية أنهم ينوون الاحتفاظ بستين فارسًا فى الكرك دى شيڤالييه ، وكان هناك تقرير بضرورة وجود ثمانين من الداوية فى حامية صفد. وهذه الأرقام من بين أكبر الأرقام التى يمكن تصديقها ، وغالبًا ما كان عدد الإخوة فى قلعة ما أقل كثيرًا من ذلك، لاسيما فى إقليم البلطيق وإسبانيا. وتقرر إحدى المؤرخات: إن سبعة إخوة فقط تركوا فى ثورن على نهر الفستولا ، بعد أن كان نظام التيوتون قد حصَّنها فى سنة ١٢٣١م وفى بعض التحصينات الصغرى لم تكن هناك حاميات دائمة من الإخوة.

وعلى أية حال ، كان الإخوة الذين يدافعون عن قلعة ما يحصلون على مساندة القوات المساعدة . وربما كانت هذه القوات تضم الأتباع الإقطاعيين من النواحى المحيطة. ولكن الاستعمار على أيدى الغربيين كان ضروريًا فى الغالب قبل أن يمكن الحصول على المساعدة الكافية من الرعايا، وفى بعض الأقاليم كانت إعادة الاستيطان تشكل مرحلة مهمة فى عملية



تخطيط لقلعة تنظيم التيوتون فى ميوى. وعلى الرغم من أن التحصينات التى بناها التيوتون فى بروسيا كانت بدائية ، فبطول أواخر القرن الثالث عشر كانت تبنى معاقل أكبر حجمًا . وقد أُعطى النظام ناحية ميوى، على الضفة الغربية لنهر الڤستولا سنة ١٢٧٦م؛ وربما يكون مبنى جديداً قد بدأ بناؤه قرب نهاية القرن.

ضمان السيطرة المسيحية على النواحى الحدودية. وعلى الرغم من أنه يبدو أن الاستعمار فى أراضى النظم الرهبانية العسكرية ببلاد الشام كان محدوداً للغاية؛ فقد كانت النظم جميعا تسعى إلى اجتذاب المستوطنين فى الأراضى الخاضعة لسيادتهم فى الأجزاء التى تم غزوها فى إسبانيا: وكثير من الوثائق التى أصدرتها النظم بخصوص الاستيطان نجت من عوادى الزمن. بيد أنه لم يكن من السهل دائمًا جذب

المستوطنين لأراض تركت بوراً وكانت لا تزال خاضعة للتهديد، وقد كانت عملية إعادة الاستيطان فى إسبانيا عملية بطيئة ، على حين لم يكن الاستعمار على أيدى الفلاحين الغربيين فى سويسرا يحرز الكثير من التقدم حتى السنوات الختامية فى القرن الثالث عشر ، بعد أن كان إخضاع البروسيين قد تم بشكل تام، وفى ليڤونيا لم يكن هناك أبداً أى استيطان على نطاق كبير من جانب المزارعين الغربيين.

ومع هذا فغالبًا ما كانت النظم الرهبانية العسكرية تحظى بالمديح بسبب أعمالها فى الدفاع عن القلاع الحدودية ، كما أنها قامت بعض الأحيان بمقاومة شديدة حاسمة. فقد صمدت قلعة بلفوار التى يملكها الاسبتارية على مدى ما يزيد على سنة بعد معركة حطين ، ولم يكن صلاح الدين قادراً فى ذلك الوقت على أن يستولى على الكرك دى شيڤاليه أو مرقط. وبالطريقة نفسها، أبدى الإخوة فى نظام كالاتراڤا مقاومة طويلة فى قلعة سالڤا تيرا التى يملكونها فى قشتالة، عندما تعرضت للهجوم من جانب خليفة المسلمين الموحدى . ومن ناحية أخرى، كانت هناك مناسبات سقطت فيها المعاقل بسرعة . فقد استسلمت قلعة غزة التى كانت بحوزة الداوية دون قتال بعد معركة حطين، كذلك خسر تنظيم كالاتراڤا عدة حصون فى إسبانيا بعد هزيمة المسيحيين فى معركة الأرك Alarcos سنة ١١٩٥م . وفى بعض الحالات، يمكن تفسير النصر أو الهزيمة فى ضوء عوامل بعينها . فقد سلَّم الداوية غزة لكى يُطلق سراح قائدهم الأسير لدى المسلمين ، على حين أن المصادر الإسلامية قررت أنه بسبب الموقف الاستثنائى والقوة التى كانت تتمتع بها قلعة مرقط بقيت القلعة تحت سيطرة الاسبتارية بعد معركة حطين. بيد أنه عادة ما كان الموقف العسكرى والسياسى العام ، أكثر من العوامل الأشد خصوصية ، هو الذى كان يحسم مصير معاقل النظم الرهبانية العسكرية . فبعد الهزائم القاسية فى ميدان المعركة ، مثل معركة حطين ومعركة الأرك ، كان يصعب الاحتفاظ بالقلاع، لاسيما عندما كانت الحاميات يتم تخفيضها أو نقلها لتوفير قوة قادرة فى ميدان القتال . وعندما حدث فى بلاد الشام أواخر القرن الثالث عشر أن واجهت النظم الرهبانية العسكرية قوة المماليك الصاعدة، ولم تستطع أن تُعوِّل على جيوش الإنقاذ لنجدتها، لم يكن ممكنًا أن تعوِّل الحاميات وقتًا طويلاً بسهولة ؛ بل

إنه فى بعض الأحيان كانت الفكرة أنه يفضل الاستسلام لضمان الخروج الآمن للمحاصرين ، بدلاً من القتال حتى النهاية المريرة. وفى ستينيات القرن الثالث عشر ، سقطت قلاع عديدة مملوكة لنظام التيوتون فى بروسيا على نحو مشابه فى أعقاب حركات التمرد واسعة الانتشار، لأنها كانت تفتقر إلى الموارد لمواصلة المقاومة لفترة طويلة. بيد أن النظم الرهبانية العسكرية كانت تسعى ، فى دفاعها عن المعاقل، إلى القيام بواجبها الذى لم يكن من السهل إنجازه بأيدى غيرهم.

وفى ميدان المعركة كانت النظم الرهبانية العسكرية مضطرة فى العادة إلى تقديم عدد ثابت من الرجال، ومن الصعب تقييم حجم فرقهم العسكرية على أية جبهة . ولكن أعداد الإخوة كانت صغيرة بالفعل، حتى بمقاييس العصور الوسطى. وثمة خطاب صادر عن الداوية من الأرض المقدسة سنة ١١٨٧م يحكى أن النظام فقد ستين من الإخوة فى كريسون فى شهر مايو



معركة بين الصليبيين والخوارزمية . فى معركة فوربى [غزة] (١٢٤٤م) عانت قوات مملكة بيت المقدس هزيمة قاسية على أيدى الخوارزمية. وفى رسم متى الباريسى يحمل راية الداوية المرقَّطة فارس يهرب من المعركة . والحقيقة أن فرق النظم الرهبانية العسكرية فى معركة لافوربيه تم القضاء عليها كلها تقريبا.

من تلك السنة وأن مائتين وخمسين آخرين قتلوا فى معركة حطين: أما الدير المركزى «فقد هُدم كله تقريبا» . وهناك خطاب آخر كتب بعد هزيمة لافوربيه سنة ١٢٤٤م (معركة غزة) قرر أن كلاً من الاسبتارية والداوية فقدوا ما يزيد على ثلاثمائة فارس لكل منهما، ولم ينج من الداوية سوى ثلاثة وثلاثين ومن الاسبتارية ستة وعشرين. ومن ثم فربما كان كل من النظامين قادراً على أن يدفع إلى ميدان المعركة فى مملكة بيت المقدس بقوة قوامها حوالى ثلاثمائة من الإخوة . فإذا ما قبلنا هذه الأرقام، فإن الفيالق المشتركة لكل من هذين النظامين كانت مماثلة من حيث الحجم للقوة التى كان يمكن جمعها من خلال الالتزام الإقطاعى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، وفى القرن الثالث عشر كانت إسهاماتهما أكبر فى نسبتها .

كانت النظم الرهبانية العسكرية أقل أهمية من حيث العدد فى شبه الجزيرة الأيبيرية . وعندما فقد نظام سانتياجو سيده وخمسة وخمسين من الإخوة فى معركة موكلين سنة ١٢٨٠م، كانت الخسارة جسيمة بالقدر الذى دفع بالنظام إلى الاندماج مع نظام سانتا ماريا دى إسبانيا؛ وفى سنة ١٢٢٩م لم يكن فيلق الداوية يضم سوى واحد على خمسة وعشرين من القوة التى هاجمت ماللوركا، على الرغم من أن الداوية كانوا هم النظام الرهبانى العسكرى الأكبر فى الأراضى الأراجونية. ولكن ينبغى أن نتذكر أن حكام إسبانيا المسيحيين كان يمكنهم أن يستدعوا فرقاً عسكرية أكبر من القوات المسيحية العلمانية مما كان يمكن لأقرانهم فى بلاد الشام تعبئته، لأن المسيحيين الغربيين كانوا يشكلون شطراً من سكان ممالك شبه الجزيرة أكبر كثيراً مما هو موجود فى الدويلات الصليبية. كما استفاد الحكام الإسبان من الالتزام العام بالخدمة العسكرية، وكذلك طلب القوات من النبلاء.

كما أن المؤرخات التى تحكى عن القتال فى إقليم البلطيق تعطى الانطباع المستمر بأن أعداد الإخوة فى الميدان كانت صغيرة بالمقارنة إلى أعداد القوات الأخرى التى يتم تجميعها محليًا. إذ إن المؤرخة المعروفة بعنوان Livonian Rhymed Chronicle، مثلاً ، تحكى أنه فى سنة ١٢٦٨م جمع القائد الإقليمى لنظام التيوتون فى ليفونيا كل ما يمكنه من الإخوة ، وأن مجموعهم كان مائة وثمانين ضمن قوة قوامها ثمانية عشر ألفًا . ومن الواضح أيضًا أن التقدم الرئيسى فى تلك النواحى كان غالبًا ما يعتمد على المساعدة التى كانت تُقدمها القوات الصليبية. ومن ثم فإن الغزوات التى تمت فى ساملاند سنة ١٢٥٥م قد تأثرت بالمساعدة التى قدمها أونكار الثانى ملك بوهيميا ، والحاكم العسكرى لبراندنبرج، وقوة كبيرة من الصليبيين.

وعلى الرغم من أعداد الإخوة المحدودة، فإنهم فى الشرق على الأقل، حظوا بتقدير خصومهم بسبب شجاعتهم وتصميمهم ؛ إذ إن المؤرخ ابن الأثير، مثلاً، قد وصف أحد الاسبتارية فى قلعة الكرك دى شيفالييه بأنه شوكة فى حلق المسلمين. كذلك كان الإخوة الرهبان يقدمون قوة أكثر تنظيمًا من الفرق العسكرية العلمانية. إذ إن تقاليد الداوية وأعرافهم كانت تحتوى ترتيبات صارمة بشأن السلوك فى المعسكر وأثناء الزحف ، كما كان الإخوة الرهبان الفرسان فى جميع النظم الرهبانية العسكرية ، طبعًا، ملتزمين بيمين الطاعة الذى أقسموه ، وهو ما عززه التهديد بالعقوبات القاسية جراء عدم إطاعة الأوامر فى ميدان القتال. وكان عقاب الفرار من المعركة فى النظم الرهبانية العسكرية الكبرى الطرد من النظام، على حين كان الداوية الذين يشنون هجومًا بدون إذن يفقدون صفتهم ويجردون من مسوحهم فترة من الزمن.



جدارية فى كنيسة الداوية بكريساك – سور – شارنت. على الرغم من أن غالبية الداوية الذين انضموا للنظام فى فرنسا لم يخدموا فى الشرق إطلاقًا، فإن مثل هذه الجداريات كان تذكرهم بالغرض الأصلى للداوية.

ولم يكن ممكنًا أن يقضى التهديد باللوم على كافة أشكال عدم الطاعة فى ميدان القتال، ولكن عدداً من منظرى الحركة الصليبية اتفقوا مع رأى چيمس مولاى، رئيس الداوية، بأن الإخوة الرهبان الفرسان كانوا أرقى من القوات الأخرى بسبب القسم الذى قطعوه على أنفسهم.كما كان بعض المنظرين يرون أن النظم الرهبانية العسكرية فى بلاد الشام كانت لها ميزة التجربة. ومن المؤكد أن كبار المسئولين فى النظم كانوا

يخدمون فترة طويلة عادة ، على الرغم من أن الإخوة الفرسان فى الداوية من رتبة ضباط الصف كانوا عادة من المجندين حديثًا فى الشرق، كما كانوا يخدمون فى الأرض المقدسة وهم لا يزالون فى سن الشباب لفترة محدودة فقط. وبطبيعة الحال لم تكن الخدمة الطويلة والتجربة تؤدى دائمًا إلى القرارات السليمة ؛ فإن الخسائر التى وقعت فى كريسون سنة ١١٨٧م كانت بسبب أن قائد الداوية جيرارد ريدفورت رفض المشورة واشتبك بقواته مع قوة من المسلمين أكبر كثيرا من قواته. وعلى أية حال ، فعادة ما كانت المشورة التى يقدمها كبار الإخوة فى النظم الرهبانية العسكرية على جميع الجبهات تكشف عن تقدير واقعى للموقف السياسى والعسكرى، وغالبًا ما كانت تميل إلى الحذر . وفى أثناء الحملة الصليبية الثالثة قدم الداوية والاسبتارية مشورتهم بعدم حصار بيت المقدس، لأنهم أثناء الحصار سيكونون مكشوفين أمام قوات صلاح الدين، تمامًا مثلما حدث فى غزو ماللوركا عندما قدم الاسبتارية نصيحتهم مسبقًا للملك الأراجونى بعدم مهاجمة المسلمين فى التلال وراء إنكا بسبب الخطر الماثل . ولم يكن الإخوة الرهبان الفرسان فى مناطق الحدود متعصبين، وكانوا مستعدين للقتال إلى جانب غير المسيحيين إذا ما تطلب الموقف العسكرى هذا.

وفى إقليم شرق المتوسط، كانت خبرة النظم الرهبانية العسكرية ومعرفتها تستخدم غالبًا بوضع فرق الإخوة الرهبان فى مقدمة القوات الصليبية أو لحماية المؤخرة، مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة وحملة لويس التاسع على مصر. ولم يكونوا منوطين بهذا الدور فى إسبانيا ، حيث كانت الكتلة الأساسية من القوات من الإسبان؛ ولكنهم فى إسبانيا غالبًا ما كانوا يساعدون فى توفير نواة الجيش عند بداية الحملات ، كما كان من الصعب تعبئة المزيد من الفرق العسكرية العلمانية بسرعة كبيرة. كذلك لم تكن الخدمة التى يقدمها الإخوة الرهبان الفرسان تتأثر عادة بجوانب القصور والقيود التى كانت سمة عامة من سمات الخدمة التى كانت تقدمها القوات العلمانية . وعادة ما كان الصليبيون على جميع الجبهات يحاربون لفترة محدودة فقط،

على حين كانت هناك حدود زمنية للخدمة التي يدين بها الرعايا في إسبانيا ؛ وهكذا تم التخلي عن حصار أوبيدا الذى فرضته بعض ميليشيات المدن القشتالية لأن مدة خدمتهم كانت قد انقضت .

بيد أنه على مستوى الممارسة لم يكن الإخوة الرهبان أنفسهم دائمًا جاهزين للقتال ضد العدو. ففي بعض الأوقات كانت أسلحتهم توجه ضد رفاقهم المسيحيين دفاعًا عن مصالح النظام وحفاظًا عليها. ويمكن توفير الأمثلة من جميع الجبهات . ففي ليفونيا كان رهبان إخوة السيف سنة ١٢٣٣م مشتبكين في صراع ضد مؤيدى المندوب البابوى بلدوين ألفا؛ وفي الشرق صارت النظم الرهبانية العسكرية متورطة في الصراعات السياسية الداخلية التي ميزت القرن الثالث عشر ، مثل حرب سان ساباس، وكذلك الانغماس في المنازعات الخاصة؛ وحدث نفس الأمر في قشتالة، التي كانت ضحية عدم الاستقرار السياسي أواخر القرن الثالث عشر. هذه الأنشطة استخدمت موارد ربما كان يمكن استخدامها ضد المسلمين بدلاً من ذلك. وفي بلاد الشام كان استقلال النظم الرهبانية العسكرية يعني أيضًا أن بوسعهم رفض الخدمة حينما تُطلب ؛ وعلى الرغم من أن النظم الرهبانية العسكرية تمتعت بقدر أقل من الحرية في إسبانيا ، فإنها كانت تكشف عن قدر متزايد من التردد في تقديم الخدمة هناك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وتتضمن سجلات الملوك الأراجونيين دعوات متكررة بعد عدم استجابة النظم الرهبانية العسكرية للطلب الأول للخدمة، كما أنها تتضمن التهديدات بالتصرف ضد ممتلكات النظم الرهبانية العسكرية لعدم انصياعها للمطالب الملكية. ومع هذا، فإذا كانت هناك أوقات لم يكن ممكنًا فيها الاعتماد على النظم الرهبانية العسكرية ، فقد أسهمت هذه النظم في الشرق ومنطقة البلطيق إسهامات مهمة في ميادين القتال ضد العدو، كما لعبت دورًا مهمًا على كافة الجبهات في حشد الحاميات والدفاع عن المعاقل. وفي منتصف القرن الثاني عشر ، كان أماليك ملك بيت المقدس الصليبي يخبر الملك الفرنسي : «إذا كان يمكننا إحراز أي شيء ، فإن ذلك يكون بواسطتهم».

الأنشطة الأخرى

فى ميدان المعركة، يبدو أن الاسبتارية وبعض النظم الإسبانية كانوا يقدمون الرعاية للجرحى والمصابين: ولكن أعمال الخير – التى شكلت جزءًا من وظائف النظم الرهبانية العسكرية– كانت تتم بشكل أساسى بعيدًا عن ميدان المعركة. وعندما تم دمج مونتجوديو مع مستشفى المخلِّص المقدس سنة ١١٨٨م، اضطلع بمهمة دفع الفدية لتحرير الأسرى المسيحيين، وقرر دستور نظام سانتياجو أن كافة الغنائم التى يستولى عليها النظام ينبغى أن تستخدم فى أغراض مماثلة. والحقيقة أن سانتياجو صار يمتلك عدة مستشفيات تقدم الفدية فى معظم أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان كل من سان چون ونظام التيوتون قد تأسسا من أجل رعاية الفقراء والمرضى ، واستمرا يقومان بهذه المهمة بعد أن صارا نظامين رهبانيين عسكريين . وعلى الرغم من أنه فى ستينيات القرن الثانى عشر عبَّر البابا ألكسندر الثالث عن قلقه من أن الوظائف العسكرية للاسبتارية غلبت على أعمالهم الخيرية، فإن الحاج المسيحى چون فورز بورج ، الذى زار بيت المقدس فى ستينيات القرن الثانى عشر ، كتب عن المستشفى ما نصه : «هناك عدد كبير من المرضى– نساءً ورجالاً – مجتمعون فى عدة مبان، وتتم معالجتهم يوميًا بنفقات كبيرة. وعندما كنت هناك ، علمت من المستخدمين أنفسهم أن إجمالى عدد المرضى يصل إلى ألفين». لقد كان الداوية ، حسبما اتضح كثيرًا أثناء محاكمتهم غير ملزمين بتقديم الرعاية الطبية ، ولكنهم – مثل جميع النظم الرهبانية العسكرية الأخرى – كان ينتظر منهم أن يوزعوا الصدقات . وكان هذا الواجب يتم القيام به جزئيًا بتخصيص عُشر مقدار الخبز المخبوز والمستخدم فى أديرة الداوية للفقراء.

وكان حتما أن يصير أعضاء من جميع النظم الرهبانية العسكرية منشغلين بإدارة الضياع ، وتحمل تنظيم التيوتون مسئولية حكم بروسيا كلها، على حين تمتعت النظم الرئيسية فى الأرض المقدسة بسلطة سياسية معتبرة أيضا. وهناك عدة نظم رهبانية عسكرية – وخاصة الداوية – طورت أيضا مصالح مصرفية وفى مجال إقراض

الأموال. وغالبًا ما استخدمت مقارهم أماكن لإيداع الأموال ، والمجوهرات والوثائق. وفى بعض الأحيان يتم التأكيد على أن الطبيعة العسكرية والدينية للنظم الرهبانية العسكرية تمكنت أيضًا من ترتيب نقل البضائع من مكان إلى آخر. وكان يتم تسهيل العمليات من هذا النوع من خلال شبكة الأديرة التى كانت النظم الرئيسية تملكها فى جميع أنحاء العالم المسيحى الغربى . وكانت كثير من الودائع من نوع ذى طبيعة مؤقتة، بيد أن بعض الأفراد كانوا يتلقون عوائد العميل ويدفعون ما عليه دفعه . وفى معظم القرن الثالث عشر كان تنظيم الداوية فى باريس يقوم بدور الخزانة للملوك الفرنسيين ؛ وكان كثير من النبلاء ، بما فيهم إخوة لويس التاسع لهم حسابات مع الداوية هناك.

وصار الداوية أيضا مهمين بشكل خاص فى مجال إقراض الأموال. ففى أراجون، مثلاً كانوا يقدمون المال منذ ثلاثينيات القرن الثانى عشر، وفى أواخر القرن الثالث عشر كانوا يقدمون القروض بانتظام إلى التاج الأراجونى. وفى القرن الثانى عشر، عادة ما كان يتم السعى للحصول على القروض للوفاء بحاجات خاصة، ولكن فى القرن التالى صارت الاستدانة ملمحًا منتظمًا من التمويل الحكومى؛ إذ إن الالتزامات النقدية للحكام كانت تتزايد، غالبًا ما كانوا يتوقعون دخولهم وعوائدهم فيلجأون إلى القروض قصيرة المدى لمواجهة حاجاتهم. وتحولوا صوب أولئك الذين كان رأسمالهم كافيًا لتقديم مبالغ ضخمة، ولم يكن هؤلاء يضمون الشركات التجارية الإيطالية فقط، وإنما كان الداوية من ضمنهم أيضًا، على الرغم من أنه كانت هناك مناسبات كان نظام الداوية نفسه مضطرًا للاستدانة لمواجهة المطالب الملكية من المال: وللحفاظ على الود الملكى لم يكن بوسع الداوية أن يرفضوا بسهولة طلبات القروض.

المـــوارد :

كان حتمًا أن تتطلب للأنشطة العسكرية والخيرية للنظم الرهبانية العسكرية نفقات ضخمة للغاية، كما كانت تعتمد على مدى توفر الموارد الكافية. وكان يتم الحصول على

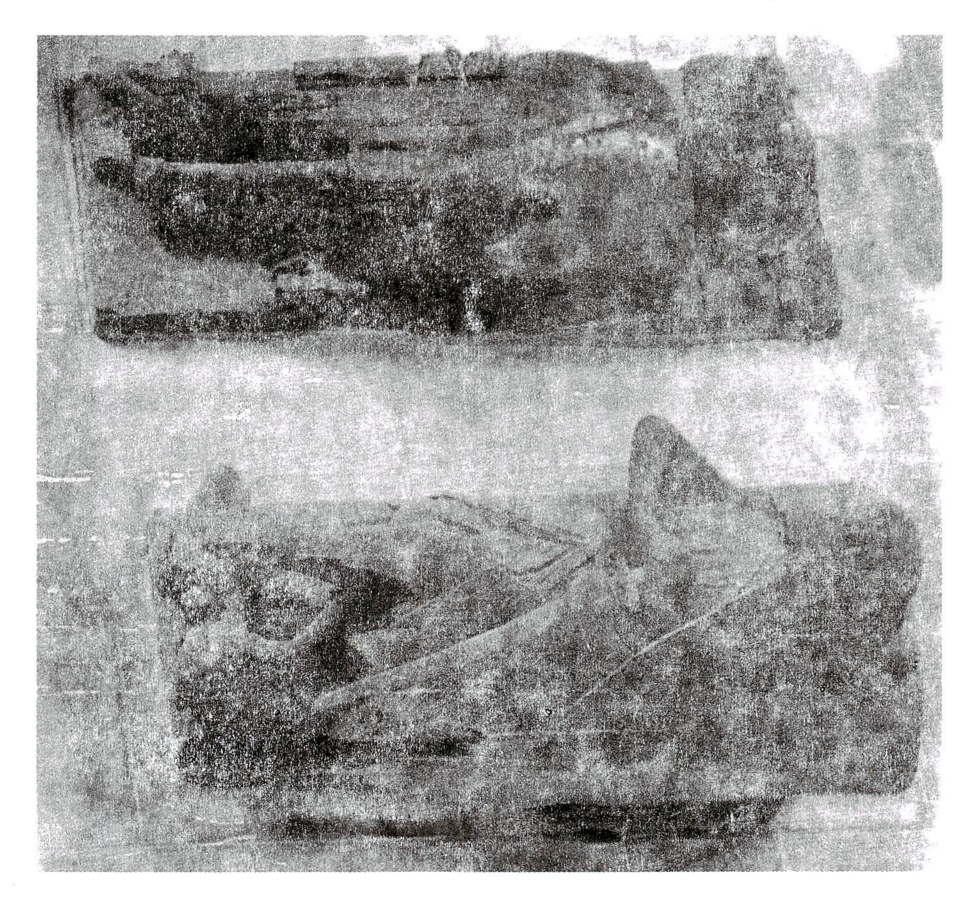
الدخل بعدة طرق . وكانت أعمال الحرب الناجحة بحد ذاتها أحد الموارد، وعادة ما كانت فى شكل الغنائم والضياع فى الأراضى التى تم غزوها . على حين كان يتم تحصيل الجزية على بعض الجبهات . بيد أن معظم النظم الرهبانية العسكرية كانت تتلقى أكثر دخلها من الأملاك الواقعة فى مناطق بعيدة عن النواحى الحدودية . وكان الداوية والاسبتارية قادرين على القيام بدور قيادى فى الدفاع عن الأرض المقدسة لأنهما- بخلاف الحكام والنبلاء فى الشرق اللاتينى، الذين كان عليهم أن يعتمدوا أساساً على الدخل المحلى- كانا يستطيعان أن يعولا بشكل منتظم على موارد الدخل فى جميع أجزاء العالم المسيحى الغربى. وكانا، على أية حال ، النظامين الوحيدين اللذين حازا ممتلكات معتبرة فى جميع مناطق الغرب.

وكانت الهبات فى المناطق البعيدة عن حدود العالم المسيحى الغربى تقدم من جميع طبقات المجتمع العلمانى، على الرغم من أن الرعاية من جانب رجال الكنيسة كانت محدودة . ذلك أن المانحين كانوا يسعون جزئيًا من خلال هباتهم إلى دعم القضية المسيحية ضد الكفار . وفى القرن الثانى عشر، كان مفهوم الحرب المقدسة لا يزال جديداً نسبيًا ، وأثَّر على نماذج الحماية فى زمن كانت شعبية الأديرة الأقدم تخبو وتتضاءل . وكانت لدى البعض أسباب أكثر خصوصية لدعم أحد النظم الرهبانية العسكرية : فقد كانت الهبة فى بعض الأحيان بديلاً عن الذهاب فى حملة صليبية، على حين كان بعض الرعاة رجالاً أخذوا شارة الصليب وكانت لهم تجربة شخصية فى عمليات النظم العسكرية والخيرية . وفى حالة اتخاذ قرار بإسباغ الحماية على نظام رهبانى عسكرى ، كان الأفراد يتأثرون أحيانًا بالروابط الشخصية والعائلية . كذلك كانت العوامل الجغرافية ذات أهمية؛ فغالبا ما كان المانحون يسبغون رعايتهم وحمايتهم على نظام له دير فى المناطق المجاورة . ولكن جميع المانحين كانوا يسعون بهباتهم إلى الرضى الإلهى فى الدنيا وفى الآخرة على السواء . فقد كانت أسماء الرعاة تُتلى ضمن الصلوات التى كانت تقام فى أديرة النظم الرهبانية العسكرية ، على الرغم من أن المانحين من النظم الرهبانية العسكرية لم يكونوا يسعون عادة إلى تأسيس أديرة جديدة بالطريقة التى كانت الأديرة تتلقى بها الأوقاف من جانب الرعاة

الأثرياء . لقد كان المانحون فى القرن الثانى عشر يتوقعون أن يتم استخدام الدخل الناتج من هباتهم أساسًا فى الأغراض العسكرية والخيرية . أما فى القرن الثالث عشر، على أية حال، فكان هناك اتجاه متزايد من جانب الرعاة لمنح هبات لأوقاف لصالح قساوسة الكنائس الصغيرة ، أو لإقامة القداس ، أو للمصابيح التى ينبغى إيقادها أمام المذابح فى كنائس النظم الرهبانية العسكرية. وكان بعض المانحين أيضا يتوقعون أن يحصلوا على أكبر فوائد مادية- مثل الصيانة- وهى ما كانت كثيرا ما يكلف بها المانحون الذين يمنحون الأديرة.

وقد أضافت النظم الرهبانية العسكرية إلى هبات الأراضى بشراء الممتلكات . فقد كانت تلك النظم تستثمر فوائد الدخل بطريقة كان لابد لها أن تحقق الربح على المدى الطويل ؛ وفى بعض النواحى كانت عمليات الشراء أكثر عددًا من الهبات ، على الرغم من أنها عادة لم تكن تُدانيها فى قيمتها. وكانت الحيازات التى تتم عن طريق الهبات أو الشراء تختلف تمام الاختلاف من حيث طبيعتها . ولأن بعض الأنشطة العسكرية والخيرية كانت مكلفة ، فإن النظم الرهبانية العسكرية لم تستطع ، شأنها شأن معظم المؤسسات الديرية، أن تضع قيودًا على أنواع الممتلكات التى يمكن اعتبارها مقبولة . وتقرر العبارة الثانية فى قاعدة نظام التيوتون أنه، بسبب نفقات الحرب ورعاية الفقراء والمرضى **«يمكن للإخوة أن يتملكوا الممتلكات الثابتة والمنقولة على السواء... أي الأرض والحقول والكروم، والنواحي بالمدن، والطواحين والتحصينات والكنائس الأبرشية، والكنائس الصغيرة ، والعشور وما أشبه»**. وهذه القائمة ليست كاملة ؛ إذ إن هدايا الخيول والسلاح أو الهدايا النقدية كانت شائعة ، كذلك كانت النظم الرهبانية العسكرية تتلقى الامتيازات ، التى كانت إما توفر الغرض لزيادة دخلها أو تتيح لهم الاحتفاظ بالمزيد من دخولهم لاستخدامهم الخاص . فقد سمحت البابوية ، مثلاً لأولئك الذين كانوا يقدمون هبة ما لأحد النظم الرهبانية بالحصول على واحد من سبعة من قيمة الكفارة التى تم تحويلها لقاء الغفران، وكانت معظم النظم أيضًا قد حصلت من البابوية على إعفاء جزئى من دفع العشور. وكان بوسع النظم أيضًا أن تزيد من دخلها بالعمل فى استصلاح الأراضى وهو ما كان يحدث فى معظم أرجاء العالم المسيحى الغربى

خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكان إقراض الأموال مصدراً إضافيًا للدخل، على الرغم من أن تفاصيل قليلة هى التى وصلتنا عن الأرباح التى تم تحقيقها . وكان من الشائع القول بأن النظم الرهبانية العسكرية قد سعت أيضًا إلى زيادة مواردها بإساءة استخدام حقوقها وامتيازاتها .



كنيسة الداوية فى لندن . اعتمدت النظم الرهبانية العسكرية على أريحية الرعاة، الذين دخل منهم كثيرون أحد الأنظمة لفترة قصيرة قبل وفاتهم أو اختاروا الدفن هناك . هذان التمثالان لوليم مارشال ، أو أيرل لبمبروك الذى مات سنة ١٢١٩م وابنه وليم، الأيرل الثاني، وقد دُفن كلاهما فى كنيسة الداوية بلندن.

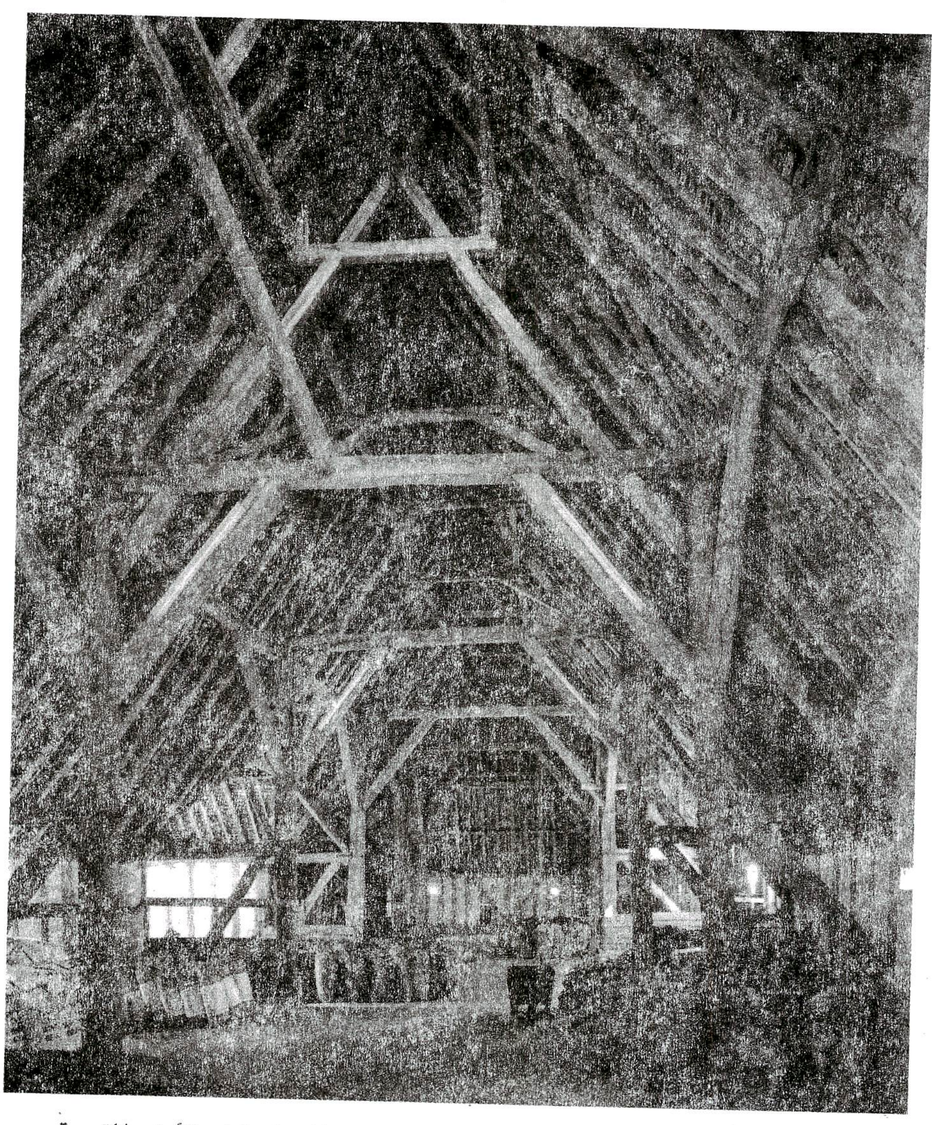
وعلى الرغم من أن النظم الرهبانية العسكرية كان لها طرق مختلفة فى الحصول على الثروة، فلم يحدث أن احتفظت كل هذه النظم بأهميتها. ففى بلاد الشام وفى إسبانيا، عندما توقفت حركة «الاسترداد Reconquesta» فى منتصف القرن الثالث عشر، تضاءلت فرص الإفادة من الحرب ضد المسلمين ؛ وفى معظم الأنحاء بعيداً عن الحدود المسيحية قل تدفق الهبات فى القرن الثالث عشر، وكذلك تناقصت أعداد عمليات الشراء. وكانت النظم الرهبانية العسكرية تخسر حظوتها لدى الرعاة، بينما يمكن أن يُعزى تدهور عمليات الشراء إلى الموقف المالى للنظم الرهبانية العسكرية.

ولم تكن النظم الرهبانية العسكرية تخفق فقط فى زيادة ثروتها؛ بل إنها كانت تفقد أيضًا موارد الدخل الموجودة، خسروا الضياع فى الشرق عندما تقدم المماليك: ففى سنة ١٢٦٨م كان قائد الاسبتارية يزعم أنه لم يتلق أية عوائد فى مملكة بيت المقدس على مدى ثمانى سنوات. بيد أن كثرة التهديدات البابوية ضد أولئك الذين اعتدوا على ممتلكات النظم الرهبانية العسكرية تكشف عن أن الاحتفاظ بالحقوق فى أى مكان بالعالم المسيحى الغربى كان يتطلب يقظة دائمة. وكان القساوسة من بين أولئك الذين عملوا على انتهاك هذه الحقوق ، لأنهم كانوا شغوفين، لصالحهم المالى الخاص، بالحد من امتيازات النظم الرهبانية العسكرية فى أمور مثل حق الدفن . وقد تأثرت النظم الرهبانية العسكرية أيضا باتجاهات أكثر عمومية ، مثل التضخم، وفى أجزاء عديدة من العالم المسيحى الغربى انخفض الدخل ، فى المدى القصير على الأقل، بسبب أمور الحرب وغيرها من مسببات الاضطراب.

ولايجب أن نتصور أن معظم الموارد التى كانت النظم الرهبانية العسكرية تتلقاها بالفعل كان يمكن تكريسها للأنشطة العسكرية والخيرية، أو استثمارها فى الأملاك . إذ إن جزءًا كبيراً من دخل الداوية والاسبتارية فى غرب أوربا كان يستخدم فى الحفاظ على مقار إقامة الإخوة الرهبان هناك، حيث كانت غالبية الداوية والاسبتارية يعيشون

فى الغرب. كذلك استهلكت الالتزامات الدينية على شكل الصدقات وصلوات القداس تستهلك موارد الدخل : فوفقًا لتحقيق أجرى سنة ١٣٠٩م، كان أكثر من ربع دخل الداوية فى كريسينج، فى إيسيكس يستخدم فى هذا الغرض . وكان لابد أيضًا من دفع مرتبات لأولئك الذين تلقوا وعودًا بالرعاية، وللرجال الذين كان أحد النظم الرهبانية العسكرية يحتاج مؤازرتهم. وكان الدخل الذى يمكن للنظم الحصول عليه قد انخفض أكثر بسبب الرسوم والضرائب التى كان لابد من دفعها لجهات خارجية . وفى القرن الثالث تم تقييد الامتيازات التى كانت قد مُنحت فى وقت سابق ؛ وهكذا تم تحديد الإعفاء من العشور على يد إنوسنت الثالث سنة ١٢١٥م ، ثم تم تخفيضها أكثر بالمساومات المحلية بعد اندلاع الصراع مع الأبرشيات. كذلك سعى بعض الحكام العلمانيين إلى تخفيض الإعفاءات من الضرائب التى كان أسلافهم قد منحوها من قبل، عندما واجهتهم الحاجات المالية. كذلك كان متوقعًا من النظم الرهبانية العسكرية أن تسهم فى أشكال جديدة من الضرائب العامة التى كان يتم فرضها فى القرن الثالث عشر سواء من جانب الملوك أو البابوات : وعلى الرغم من أن البابوية لم تطلب إسهامات فى الضرائب التى فرضتها لمساعدة الأرض المقدسة، فإن النظم الرهبانية العسكرية طلب منها فى عدة مناسبات أن تسد حاجات البابوية فى الغرب.

وبينما لم يحدث أبدًا أن امتلكت بعض النظم الرهبانية العسكرية الأصغر حجمًا ، مثل مونفراجو، من العوائد ما يكفى لجعلها قابلة للاستمرار فى الحياة ، فغالبا ما كانت المؤسسات الراسخة ذاتها تواجه صعوبات مالية عندما تأخذ على عاتقها أعباء إضافية أو عندما كانت تعانى نكسات عسكرية خطيرة . إذ إن الاسبتارية ، مثلاً تخطوا حدودهم عندما آزروا بقدر من الحماسة المغالية خطط غزو مصر فى ستينيات القرن الثانى عشر، وفى إسبانيا وجد الملك القشتالي أن من الضرورى أن يقدم العون إلى الكالاتراڤا بعد خسائرهم فى أعقاب هزيمة



شونة القمح فى معبد كريسينج. اعتمدت النظم الرهبانية العسكرية فى الأرض المقدسة بشكل متزايد على العائدات والإمدادات المجلوبة من ضياعها فى غرب أوربا . والصورة لواحدة من شونتين ترجعان إلى القرن الثالث عشر مملوكتين لدير الداوية فى كريسينج فى إيسيكس (إنجلترا) .

معركة الأرك . بيد أنه خلال القرن الثالث عشر نجد أن هناك أدلة متزايدة على وجود المزيد من الصعوبات المالية طويلة المدى التى عانت منها المنظمات الرهبانية الرئيسية فى أثناء القرن الثالث عشر . ذلك أن الإشارات إلى الديون تتزايد ، ولم تكن هذه بأية حال دائمًا من الديون قصيرة المدى. وعند بداية القرن الرابع عشر سعى الاسبتارية إلى التغلب على الصعوبات المالية فى ألمانيا بتقييد تجنيد الأفراد ومنع الأبنية الجديدة: بيد أن الحل الأكثر شيوعًا تمثل فى التخلص من الأملاك. وكان هذا ربما يوفر الحل على المدى القصير، ولكن على حساب الدخل فى المدى الطويل.

وقد تأثرت كل من الأنشطة الخيرية والأنشطة العسكرية بهذه المشكلات. وفى سنة ١٣٠٦م كان قائد الاسبتارية يؤكد أن نظامه لم يعد يمتلك الموارد اللازمة لرعاية المرضى بشكل كاف، وفى عدة مناسبات فى أواخر القرن الثالث عشر زعم قادة الداوية أنه، بسبب الفقر، ربما كان من الضرورى الرحيل من الأرض المقدسة. وفى إسبانيا كان قائد نظام سانتياجو بالمثل فى سنة ١٢٣٣م يجادل بأن موارده لاتكاد تكفى للدفاع عن معاقل التنظيم، كما يبدو أن الإحجام عن أداء الخدمة بشبه الجزيرة الأيبيرية قد تزايد بسبب المشكلات المالية. ذلك أن الكثير من النظم الرهبانية العسكرية كان يجد صعوبات متزايدة فى الوفاء بالتزاماته .

تجنيد الأفراد

كانت هناك حاجة إلى مدد ثابت من المجندين ، وكذلك الموارد النقدية ، خاصة وأن معدل الوفيات فى النظم الرهبانية العسكرية ربما كان أعلى منه فى الأديرة الدينية ذات الطبيعة التأملية . فكانت معظم النظم تجند أفرادها أساسًا فى إقليم واحد، وإن لم يكن ذلك هو الأسلوب الوحيد : فقد كان المرشحون للدخول فى النظم الإسبانية يأتون بشكل أساسى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكان معظم أعضاء تنظيم التيوتون من

الناطقين بالألمانية . وكان الداوية والاسبتارية فقط هم الذين اجتذبهم المتقدمون من جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى ، على الرغم من أنه حتى هذين النظامين تطلعا إلى فرنسا باعتبارها منطقة التجنيد الرئيسية لهما. ومثلما هو الحال فى الأنظمة الديرية، على أية حال، كانت هناك متطلبات للدخول فى هذه النظم الرهبانية العسكرية. إذ كان ينبغى أن يكون المجندون جميعًا من الأحرار ، وفى القرن الثالث عشر كان مطلوبًا أن يكون الراغبون فى الدخول إلى رتبة الفرسان من أصول تنتمى لطبقة الفرسان. وكان لابد أيضا للمجندين من الفرسان فى الداوية والاسبتارية فى ذلك الوقت أن يكونوا أبناء شرعيين . وعلى أية حال، كان المرشحون الفرسان يشكلون أقلية بين المجندين فى نظم مثل الداوية والاسبتارية : إذ كانت الأغلبية تدخل رتبة السيرچنت. وفى معظم النظم لم يكن مسموحًا للمرشحين المتزوجين بالانضمام بدون موافقة زوجاتهم ، وزيادة على ذلك كان يتم سؤال المجندين عن صحتهم وعن أوضاعهم المالية. وفى العصور الوسطى الباكرة، كانت الأديرة تعتبر عمومًا أماكن مناسبة للجوء الأبناء المعوقين والمشوهين ، وكانت النظم الرهبانية العسكرية ترغب بصفة خاصة فى عدم التقيد بهؤلاء : كما أنها سعت إلى ضمان عدم إرهاق كاهلها بديون المجندين فى صفوفها . وعلى الرغم من أنه فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر كانت هناك معارضة متنامية فى الكنيسة ضد ما كان يُفرض على من يدخلون الحياة الدينية من هبات يمنحونها للدير، وكان موت هذه الممارسة بطيئًا فى النظم الرهبانية العسكرية. وكانت هذه النظم ، على أية حال ، أكثر اتساقًا مع الممارسة الكنسية الجارية برفض نذر الأطفال للخدمة الكنسية أو الديرية. وعلى الرغم من أنه كان شائعًا تربية أولاد النبلاء وتنشئتهم فى الأديرة ، بدلاً من وضعهم داخل أحد بيوت النبلاء، فإن الأطفال الذين عاشوا فى بيت تابع لأحد النظم الرهبانية العسكرية لم يكونوا ملتزمين بأن يقطعوا على أنفسهم يمينًا أو قسمًا أو عهدًا؛ كما أن عدة نظم كانت تضع حدودًا للسن التى يُسمح فيها بالدخول إلى النظام . وتكشف سجلات محاكمة الداوية عن أنه فى

الواقــع انضــم عدد قليـــل عندما كانوا فى سن العاشـــرة أو الحادية عشـــرة فقط، بيـد أن هـــؤلاء كـانوا اسـتـثناء : فـقـد كـان مـتـوسط سن التـجنيـد هو منتـصف العشرينيات.

وكما يتضح من صياغة التنظيمات ، لم يكن هذا يعنى أن الأبوين كانا يحرمان من أى رأى فى اختيـار مستقبل أبنائهم، ذلك أن الأبناء الصغار الذين كـان يشكلون نسبة معتبرة من المجندين كانوا، علاوة على ذلك ، بحاجة إلى مورد يتعيشون منه . وتنطوى الكلمات الموجهة إلى المرشحين فى احتفالات القبول على أن الدخول كان فى نظر البعض يوفر حياة مريحة. ففى بعض الحالات كانت هناك وعود بتعزيز المكانة الاجتماعية. وكون الاعتبارات من هذا النوع ذات أهمية فى أغلب الأحوال أمر يمكن أن نستشفه من زعم أحد الداوية بأنه عندما انضم إلى النظام «سألوه لماذا أراد أن يفعل هذا، طالما أنه كان نبيـلاً وغنيًا ولديه مـا يكفيه من الأرض». بيد أن مـعظم المصـادر الباقية تؤكد على الاهتمامات الروحية للمجندين ولاينبغى عدم حسبان هذا بخفة أكثر من اللازم ، وربما كان القتال ضد الأعداء يبدو طريقة مفهومة لخدمة الرب، ولضمان الخلاص، أكثر من الانغلاق داخل أحد الأديرة بالنسبة لبعض الناس، خاصة فى الفترة الصليبية الباكرة. وعلى أية حال، كـان هناك أيضـا العامل الإضـافى المتمـثل فى أن النظم الرهبانية العسكرية كـانت أقل انغـلاقًا من الأديرة : ذلك أن أولئك الذين كـانوا يدخلون الأديرة بوصفهم رهبانًا فقط كـان بمقدورهـم أن يصيروا أعضـاء كـاملين فى أحد النظم الرهبانية العسكرية . ولاينبغى كذلك إغفال روابط العائلة والجوار مع أحد النظم الرهبانية عند تفسير أمور تجنيد الأفراد.

وفى غالب الأحوال كانت صعوبة جذب المجندين تنشأ فى السنوات الأولى للنظام؛ كما أن بعض المؤسسـات ، مثل مونتجوديو ، ربما لم تتغلب أبدًا على مشكلة جذب ما يكفى من أعداد المرشـحين ، ولكن مـا إن رسـخت أقدام الداوية والاسبـتارية – على الرغم من أنها اجتذبت عددًا قليلاً من المرشحين الكنسيين– فـإنهما لم يواجـها سوى

القليل من الصعاب فى تجنيد ما يكفى من الرجال العاديين فى معظم أنحاء الغرب، حتى فى القرن الثالث عشر. وكان بعض المرشحين لايقدرون على الدخول فى النظام سوى بفضل تدخل الرعاة ذوى النفوذ فقط، ويحكى المؤرخ متَّى الباريسى أنه بعد هزيمة لافوربى سنة ١٢٤٤م «ضم الداوية والاسبتارية العديد من الرجال العاديين المختارين» . وفى القرن الثالث عشر ، ربما لم يكن الموقف الذى واجهته النظم الرهبانية العسكرية فى شبه الجزيرة الأيبيرية موقفًا مواتيًا على هذا النحو.

التنظيم : فى السنوات التى أعقبت مباشرة تأسيس أى نظام رهبانى عسكرى، كان النظام يتكون من مجموعة صغيرة من الإخوة تحت قيادة قائد : وفى هذه المرحلة كانت هناك حاجة إلى آلية حكم صغيرة . وعندما تم تحقيق مكاسب فى تجنيد الأفراد والحصول على الممتلكات، صار من المعتاد تأسيس أديرة تابعة ، سواء فى أقاليم الحدود أو فى غيرها . فإذا ما كان التوسع كبيرًا ، كانت الحاجة تنشأ فى الحال إلى قيام رابط من الحكم بين الأديرة ومقر أركان النظام لأنه صار من الصعب للقادة أن يشرفوا على الأديرة البعيدة ، وكانت الحاجة لنظام يمكن من خلاله توجيه الموارد والمجندين إلى مناطق الحدود من الأديرة الكائنة فى أجزاء أخرى من العالم المسيحى الغربى. أما النظم الرهبانية العسكرية التى كانت تحارب على جبهات متعددة فكانت تتطلب أيضًا قائدًا عسكريًا فى كل ناحية. وكانت أشكال التنظيم الموجودة آنذاك فى عالم الرهبنة لاتناسب أغراض النظم الرهبانية العسكرية ومقاصدها ، وقد تبنت أهم هذه النظم ممارسة تجميع الأديرة فى إقليم ما تحت ما كان يسمى أقاليم أو مقاطعات. وعلى الرغم من أنه كانت هناك اختلافات فى التفاصيل ، فإن النظم الرهبانية الرئيسية تبنت نظامًا للحكم ذا ثلاث روابط.

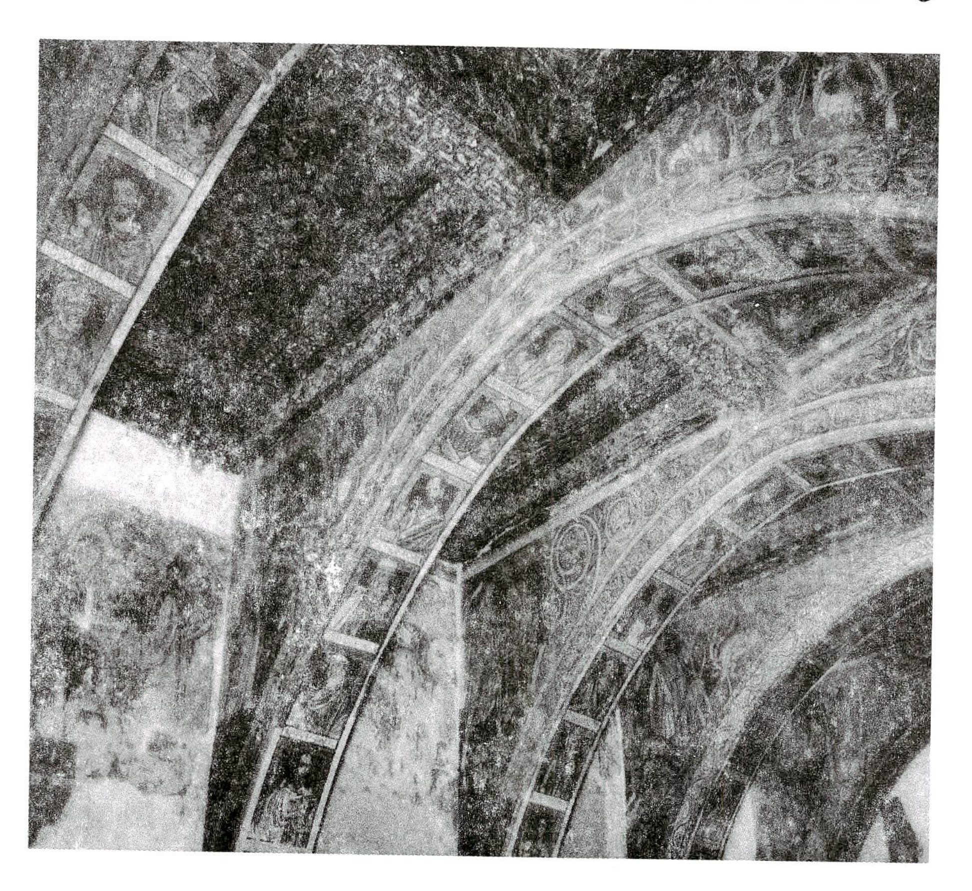
أما فى المناطق الحدودية، فغالبًا ما كانت الأديرة موجودة فى القلاع ولها مسئوليات عسكرية، على حين كانت المهمة الأساسية لها فى أى مكان آخر إدارة الممتلكات فى المناطق

المحيطة بها . وعادة ما كان معظم أعضاء الدير من الإخوة غير الكنسيين ، على الرغم من أن بعض النظم ، مثل سانتياجو، كانت تمتلك عدداً من الأديرة المنفصلة للكنسيين من الرجال والنساء. وفى بعض الأحيان كانت أديرة الراهبات تضم ما يصل إلى أربعين أو خمسين راهبة ، ولكن أديرة الذكور البعيدة عن مناطق الحدود لم تكن



تمثال لكونراد أمير ثورنجيا، رئيس نظام الرهبان التيوتون ١٢١٩-١٢٤٠م، فى كنيسة Elisabethkirche Marburg. وكان كونراد ينتمى إلى الشريحة العليا من طبقة النبلاء، ولكن المسئولين الكبار فى النظم الرهبانية العسكرية عادة ما كانوا يجيئون من عائلات أدنى مرتبة ولم يشترك فى القتال سوى أقلية من الإخوة فى أهم النظم الرهبانية العسكرية ؛ إذ مات معظم أعضاء هذه النظم فى فراشهم بدلاً من ميدان القتال.

تضم عادة أكثر من حفنة من الرهبان الذين كانت أعداد الأغراب الذين عاشوا أو عملوا هناك تفوقهم كثيراً، وبصفة عامة كان رئيس الدير يسمى القائد "Commander" أو المعلم "Preceptor" وعادة ما كان يُفرض من أعلى، ولم يكن منتخباً بواسطة الإخوة فى الدير. وكان عليه أن يتأكد من أن القاعدة مرعية،



جدارية فى دير سيجينا فى أراجون . كانت عدة نظم رهبانية عسكرية ، بما فيها مستشفى سان چون وسانتياجو وكالاتراڤا، تمتلك أديرة للراهبات ؛ وقد كرست تلك الراهبات أنفسهن للحياة التأملية ولم تكن عادة مسئولات عن رعاية المرضى. وقد دمرت النيران الجداريات فى دير الاسبتارية بسجينا سنة ١٩٣٦م.

وفى مناطق الحدود كان يقود إخوته فى التنظيم فى ميدان المعركة ؛ كما كان مسئولا عن إدارة أملاك ديره، والذى كان يجب دفع جزء من عوائدها فى المناطق غير الحدودية إلى رئيسه فى كل عام وكان لديه عدد قليل من الموظفين المرؤوسين ، ولكن كان عليه أن يحكم بمشورة جماعة الرهبان فى الدير، التى كانت تجتمع اجتماعًا مشتركًا مرة فى الأسبوع . كذلك كان رؤساء الأقاليم أو الأديرة يُعينون من أعلى ، وكانت لهم وظائف مشابهة لتلك المنوطة بالقادة فى النظم الرهبانية العسكرية. وفى نظم الداوية والاسبتارية والتيوتون عادة ما كان رؤساء الأقاليم فى غرب أوربا ملزمين بإرسال ثلث موارد أقاليمهم إلى مقر أركان النظام . وعند هذا المستوى كان هناك أيضا عدد قليل من الموظفين المساعدين، بيد أن الرؤساء الإقليميين كانوا يأخذون المشورة من جماعات الرهبان فى الإقليم، والذين كانوا يجتمعون سنويًا ويحضر اجتماعاتهم رؤساء الأديرة . وفى مقار أركان النظم الرئيسية ، كان يساعد القائد موظفون من بينهم القائد الكبير ، وهو مارشال له مسئوليات عسكرية ، وموظف يسمى drapier كان مسئولاً عن الملابس، وعلى أية حال فإننا لانجد مثل هذه الوظائف فى النظم الأصغر حجمًا . وكان على القائد أن يستشير أعضاء ديره المركزى، الذين كان يفترض أنهم يلتقون أسبوعيًا فى اجتماع الدير، وقد تبنت كل النظم الرهبانية العسكرية، مهما كان حجمها ، ممارسة عقد جمعيات عمومية دورية ، كان يحضرها الإخوة من مختلف الأقاليم .

وفى جميع المستويات كان الموظفون توازنهم جمعيات الرهبان . وفى بعض المسائل مثل قبول المجندين ، غالبًا ما كان هناك مطلب بأنه يجب اتخاذ القرارات فى اجتماعات جمعيات الرهبان، كما صار من المعتاد أيضا القيام بأنماط عديدة أخرى من الأعمال فى هذه الاجتماعات. إذ كانت الجمعيات

المركزية والإقليمية مناسبات يتم فيها دفع الرسوم وتسوية الحسابات . وفى بعض النظم كانت تسوية الحسابات ترتبط بتسليم المناصب بشكل دورى كل فترة ؛ ومن ثم كانت التعيينات تتم أيضًا فى اجتماع جمعية الرهبان عموما . بيد أن الموظفين من الناحية العملية كانوا يتمتعون بقدر كبير من حرية التصرف، ولم يكونوا محكومين بمرؤوسيهم . أما جمعيات الراهبات الإقليمية والعامة فلم تكن تجتمع سوى مرات قليلة، وكانوا يفتقرون إلى استمرارية العضوية ؛ كذلك لم تكن كل الجمعيات تمتلك الخاتم الخاص بها ، وحتى عندما لم تكن هناك عمليات تفتيش ، يبدو أن الرغبة كانت تتجه إلى تقييد حرية الموظفين بشكل صارم أكثر من اللازم . وفى العادة لم يكن يحدث سوى عندما يكون هناك سلوك خاطئ متواصل أن يتدخل المرؤوسون ، مثلما حدث فى الاسبتارية سنة ١٢٩٦م ، عندما سعى الدير المركزى لعلاج أخطاء سلسلة من القادة الجدد . وربما كان يمين الطاعة ذا تأثير كابح على المرؤوسين ، ولكن ينبغى أن نتذكر أنه فى دنيا العلمانيين كان هناك تردد مشابه فى فرض القيود الدائمة على الحكام.

ومن ناحية أخرى ، لم يكن الموظفون دائمًا يجدون أنه من السهل الاستمرار فى الإشراف الوثيق على جميع مرؤوسيهم . وكان قادة النظم الرهبانية العسكرية الرئيسية يسعون إلى ممارسة السلطة على جميع أنحاء الغرب المسيحى ، وفى النظم التى كانت قواعدها فى الأرض المقدسة كان الموقف قد بات أكثر صعوبة من خلال الحقيقة القائلة بأن مقر قيادتها لم تكن فى موقع مركزى من الناحية الجغرافية . وصارت الزيارة ممارسة اعتيادية فى كل النظم الكبيرة ؛ ومع هذا ، وعلى الرغم من أنه كان بوسع رؤساء الأقاليم أن يحملوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة شخصيًا ، فكان من المعتاد أن يتصرف قادة النظم الرهبانية العسكرية من خلال



خاتم إخوة السيف فى ليڤونيا ١٢٢٦م . هذا الخاتم الذى ينقش سيفًا وصليبًا ، باسم قائد النظام والرهبان وتقول الأسطورة .

SIGILLUM MAGISTRI ET FRATRUM Milicie XPI DE LIVONIA

ولكن قادة النظم الرهبانية العسكرية بصفة عامة كانت لهم أختامهم الخاصة.

مندوبيهم. ومن الواضح أنه كان هناك احتمال وجود تيار يميل نحو الاستقلال الإقليمى، لاسيما وأن معظم الإخوة كانوا من أبناء المناطق التى يقيمون بها، وكان هناك خطر أن تسبق الروابط المحلية وروابط الولاء الطاعة لقائد النظام. ومع هذا وعلى الرغم من أن الأقاليم أحيانا أخفقت فى التزاماتها المالية ، فإن المحاولة الجادة الوحيدة

لتحقيق قدر أكبر من الاستقلال الإقليمى قبل سنة ١٣٠٠م كانت هى تلك المحاولة التى جرت قبل نهاية القرن الثالث عشر من جانب أعضاء نظام سانتياجو فى البرتغال: فقد نجحوا بمساندة الملك البرتغالى فى تقليل سلطة القائد عليهم.

أما الأديرة التى كانت تضم الرهبان أو الراهبات الكنسيين، وعلى عكس الأديرة التى كان يسودها الإخوة العلمانيون (أى أديرة النظم العسكرية) ، فقد كان من حقها انتخاب رؤسائها؛ فقد كان الإخوة المدنيون، بطبيعة الحال، خاضعين فى شئونهم الروحية لزملائهم من القساوسة ولكن حكم النظم الرهبانية العسكرية كان أساسًا بأيدى الإخوة المدنيين ، وفى المستويات الأعلى كان الحكم بأيدى الإخوة الفرسان. وعادة ما كان الموظفون المركزيون الكبار ورؤساء الأقاليم ينتمون إلى صفوف الفرسان، ومن المؤكد أن الفرسان كانوا أكبر مجموعة فى الدير المركزى للداوية ، حيث كانت تتم إدارة الشئون اليومية للنظام .كما أنهم كانوا أكبر عنصر فى الجميعات العمومية . وفى نظام الداوية ونظام التيوتون نعرف أنهم كانوا يسودون فى المجالس التى تنتخب قادة جدداً ، لأن هذه المجالس كانت تتألف من ثمانية فرسان ، وأربعة من السيرچنت ، وقس واحد. وعند المستوى الأكثر محلية ، عادة ما كان الفرسان مسئولين عن الأديرة التى تنتمى إلى النظم الكبرى فى أقاليم الحدود ، ولكن فى مناطق أخرى من العالم المسيحى الغربى غالبًا ما كان القادة السيرچنت ، وفى بعض الأحيان كان لهم مرؤوسون من الفرسان . وفى هذه المناطق يبدو أن التعيينات كانت تتقرر بناءً على مدى ملاءمة الشخص للوظيفة وليس حسب الرتبة .كذلك كانت جمعيات الأديرة المحلية تتكون إلى حد كبير من السيرچنت ، لأنهم كانوا يشكلون أكبر مجموعة فى المناطق البعيدة عن حدود العالم المسيحى. ولم تكن الأدوار المنوطة بالرتب المختلفة تراعى الانسجام دائمًا. ولكن يبدو أن الخلافات الوحيدة الطويلة بين الرتب كانت تلك التى عاناها نظام سانتياجو وكالاتراڤا، حيث كانت الشكوى متكررة من جانب القساوسة بانتهاك حقوقهم، وفى نظام الاسبتارية ، حيث كانت راهبات سيجينا فى أراجون قد اصطدمن فى عدد من المناسبات مع رئيس إقليمهن.

ولم تكن للأديرة الرهبانية العسكرية سيطرة كاملة على شئونها الخاصة. وعلى الرغم من أن معظمها تمتعت بامتياز الإعفاء وبهذا كانت متحررة من السلطة الأسقفية، فإنها بقيت خاضعة للسلطة البابوية ، وكان البابوات يتدخلون عندما يعتبرون أن هناك حاجة إلى التصحيح. كذلك كانت هناك تدخلات بابوية من آن لآخر فى التعيينات بالمناصب فى النظم الرهبانية العسكرية : وكان هذا يحدث إمَّا لأسباب سياسية أو لأن أحد البابوات يرغب فى مجاملة أحد ذوى النفوذ. كذلك كان التدخل من هذا النوع يُمارس من قبل الملوك، وللأسباب ذاتها، على حين كان إرسال الإسهامات المالية إلى الأرض المقدسة يتعثر بسبب الحكام فى الغرب. أما النظم الرهبانية العسكرية التى تنضم إلى مؤسسات دينية أخرى، فكانت خاضعة على أية حال لمزيد من الإشراف الخارجى المنتظم، وهناك عدة نظم إسبانية ، من بينها كالاتراڤا ومونتيجواديو وسانتا ماريا دى إسبانيا اندمجت فى الرهبان السسترشيان ، على حين تم دمج نظام آڤيس والقنطرة فى كالاتراڤا. وليس من المعروف دائمًا أسباب هذه الترتيبات ، على الرغم من أنه فى حالة كلاتراڤا يمكن تفسيره فى ضوء الظروف التى ألمت بتأسيس النظام: فقد تم تأسيسه بعد أن كان مقدم السسترشيان فى فيتيرو قد تقبل مسئولية الدفاع عن قلعة الكالاتراڤا سنة ١١٥٨م ، عندما لم يعد بوسع الداوية الحفاظ عليها . وكانت العلاقة التى تأسست مشابهة لتلك العلاقة التى تحققت بين الأديرة السسترشيانية، وكان لمقدم الدير الرئيسى حق الزيارات التفتيشية ، مع دور فى انتخابات القادة . بيد أن معظم النظم الرهبانية العسكرية كانت خاضعة من الناحية النظرية للبابا.

الحياة فى الأديرة

كان المجندون فى النظم الرهبانية العسكرية يقسمون الأيمان الديرية العادية بحياة الفقر والطهارة والطاعة - وكان الاستثناء نظام سانتياجو ، الذى كان يسمح للرجال المتزوجين بالعضوية الكاملة - وكان يتوقع منهم أن يعيشوا شكلاً من حياة الرهبنة داخل أحد الأديرة ، ويناموا فى أجنحة نوم مشتركة ويأكلوا فى صالات طعام

مشتركة. وكان جميع الإخوة المقيمين فى الأديرة مُلزمين بحضور صلوات القدس ولكن، لأن كثيرًا منهم كانوا أميين، لم يكن متوقعًا منهم سوى مجرد الاستماع لما يتلوه القساوسة ، وأن يتلوا عددًا معينًا من الصلوات الربانية لكل ساعة من ساعات الصلاة اليومية السبع. وكانت الفترات فيما بين الخدمات الكهنوتية تُقضى فى الشئون العملية. ولم يكن من المتوقع أن يقوم الإخوة المدنيون بالقراءة التأملية؛ وعلى الرغم من أن النشاط الأدبى لم يكن غائبًا تمامًا فى النظم الرهبانية العسكرية ، فإن الكتب الوحيدة التى وُجدت فى معظم أديرة الداوية وقت محاكمة الداوية كانت هى الكتب التى يحتاجونها لأداء الخدمات الكنسية. وكان بعض الإخوة ينشغلون بالإدارة والعمل الخيرى، على حين كان السيرچنت غالبًا ما يقومون بالأعمال المنزلية والزراعية . وعلى أية حال ، فإن ما نعرفه قليل عن التدريب العسكرى والتمرينات التى كان يتم القيام بها أثناء فترات السلم. وكانت القواعد والتنظيمات تهتم بمجرد ضمان تجنب الأنشطة المميزة للفرسان العلمانيين ، مثل الصيد والقنص بالصقور . وعلى حد تعبير كلمات قاعدة الداوية «ليس من اللائق لنظام دينى أن ينغمس بهذه الطريقة فى المسرات الدنيوية »، على الرغم من أنه فى الأراضى البور كان يسمح للإخوة فى نظام الإخوة كالاتراڤا بأكل الحيوانات التى اصطادوها . وعلى خلاف الرهبان ، فالواقع أنه كان مسموحًا لأعضاء النظم الرهبانية العسكرية بأكل اللحم ، على الرغم من أن ذلك كان ثلاثة أيام فى الأسبوع فقط. وكانت فترات الصيام التى يخضعون لها أيضا أقل صرامة مما كانت عليه فى الأديرة . وعلى الرغم من أن فترات الصيام- باستثناء منطقة البلطيق - لم تكن تصادف موسم شن الحملات العسكرية ، وعلى الرغم من أن أقلية فقط من الإخوة كانت تشترك فعلاً فى أعمال الحرب، فقد كان الاهتمام منصبًا على ضمان أن الإخوة كانوا أقوياء بما يكفى للقتال . وكما كان الحال فى الأديرة ، كان من المعتاد مراعاة الصمت أثناء تناول وجبات الطعام . وفى مسألة الملابس قدمت قاعدة الداوية أيضًا تنازلاً بالسماح بارتداء الكتان، بدلاً من الصوف ، فيما بين عيد الفصح وعيد كل القديسين بسبب حرارة الجو فى بلاد الشام . ولكن كان يجب الحفاظ على البساطة فى الملابس والمعدات، كما كان ينبغى تجنب المغالاة .

وتم وضع نظم متدرجة من الجزاءات لعقاب أولئك الذين يخالفون التنظيمات ، مع أحكام تتراوح ما بين الطرد والتكفير عن الذنب عدة أيام فقط ، وقد يكون مصحوبًا بالضرب في بعض الأحيان. بيد أن المراسيم والأوامر لم تستطع أن تمنع مخالفة النظام، وكان هناك أيضًا بعض التراخي في مراعاة الأوامر. ولم تكن الحياة المشتركة مرعية في صورتها الكاملة. وهناك عدد متزايد من الإشارات إلى غرف أو أجزاء يملكها الموظفون الأفراد، ومع بداية القرن الرابع عشر كان الإخوة العاديون في مقر أركان الاسبتارية في ليماسول بقبرص على ما يبدو يشغلون حجرات أو قلايا رهبانية خاصة بهم . وعلى أية حال ، فإن الإشارات إلى عنابر النوم - سواء في الأديرة الرئيسية أو الصغيرة - نجدها في سجلات محاكمة الداوية. وكان هناك أيضا بعض الاسترخاء المسموح به في تنظيمات الطعام؛ وكان هذا يُبرر أحيانًا ، وليس دائمًا بالضرورات العسكرية . أما القواعد الخاصة بالملابس والمعدات فلم يكن هناك تساهل فيها، وإنما كان من الصعب فرضها ، إذ إن تشريعات الاسبتارية التي ترجع إلى القرن الثالث عشر ، مثلاً تتضمن، إدانات متكررة للملابس المزركشة والذهب والفضة في المعدات .كذلك لم تكن هناك مراعاة متسقة للقيود المفروضة على الصيد.

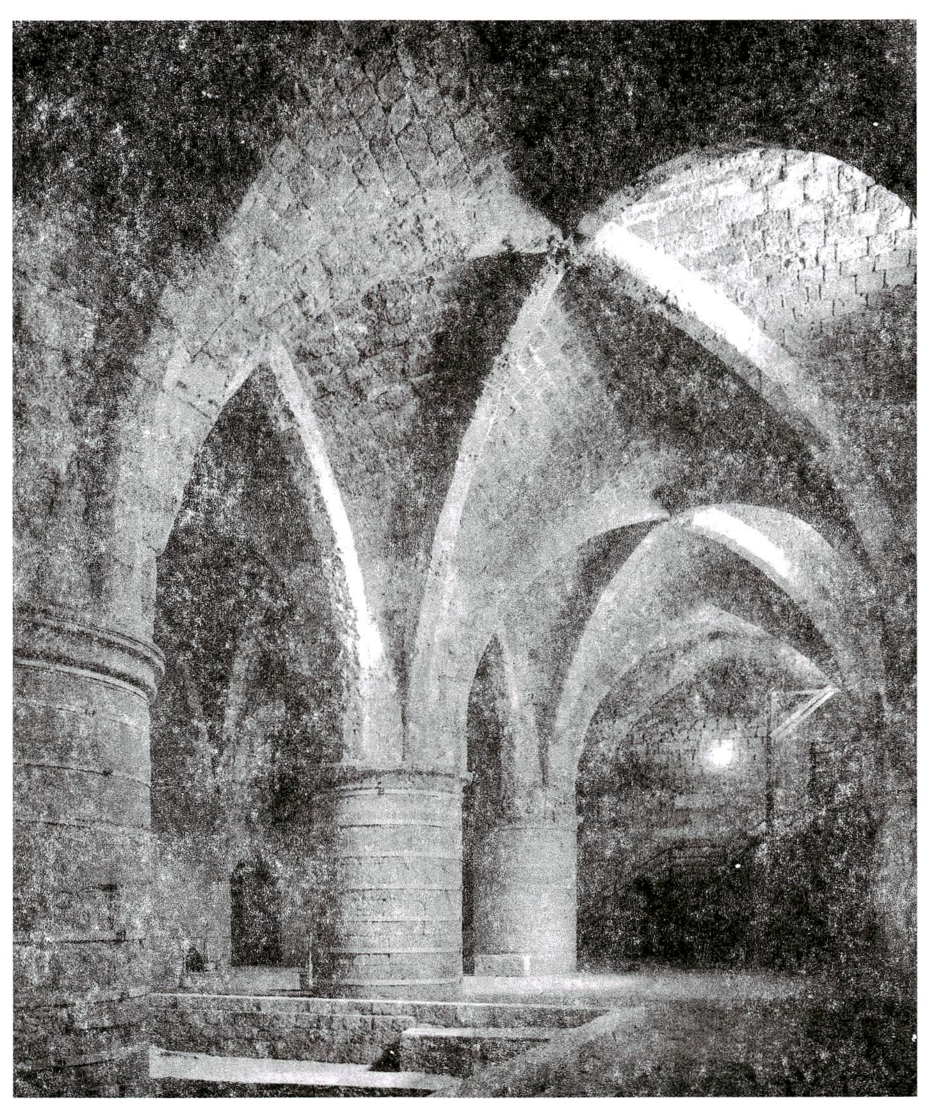
وغالبًا ما كان عدم وجود مدة لاختبار الراهب الجديد يعيق فرض نظام صارم للحياة في النظم الرهبانية العسكرية، وهي فترة كانت ستتيح لكل من المرشح للنظام ولمن يستقبلونه أن يقيّموا مدى ملاءمته للحياة الدينية، وكانت أيضا ستوفر الفرصة للتعليم والتوجيه . وعلى الرغم من أن نظام كالاترافا استمر يصرُّ على فترة اختبار ومراقبة، فإنه مع منتصف القرن الثالث عشر كان يمكن للمجندين في نظام التيوتون أن يدخلوه دون أن يمروا بفترة الرهبنة، واختفت تلك الفترة لدى الداوية تمامًا . وحتى عندما لم تكن هناك فترة اختبار ومراقبة ، كانت النظم تسعى بالفعل إلى تقديم بعض التعليمات: وقد تم هذا في نظام الداوية أولاً في نهاية احتفال القبول، عندما كان يتم إخبار المجند بالجزاءات التي توقع على المخالفات المتنوعة ويحيط علمًا بتفاصيل النظام اليومي. بيد أن ذلك بالنسبة للمجند لم يكن ممكنًا أن يكون طريقة فعالة في التعلم، وعلى

الرغم من أنه كانت هناك ، فى نظام الداوية وغيره من النظم، قراءات عامة دورية للتنظيمات ، فإن سجلات محاكمة الداوية أوائل القرن الرابع عشر تكشف النقاب عن جهل واسع النطاق وعن معرفة غير دقيقة بين الإخوة . فقد قيلت تقديرات مختلفة تمامًا، على سبيل المثال ، لعدد الصلوات الربانية التى تنبغى تلاوتها فى كل قُدَّاس . وقد أدى غياب فترة الرهبنة، مع أمية كثير من الإخوة، حتمًا إلى خلق مشكلات خاصة؛ ولكن المستويات المتدهورة كانت ظاهــرة مشتركة فى كافة ثنايا الحياة الديرية.

النقاد والأدوار المتغيرة:

على الرغم من أن فيض الهبات استمر متدفقًا حتى القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من استمرار المجندين فى التقدم إلى النظم الرئيسية ، فإن النظم الرهبانية العسكرية تعرضت فى غضون القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر إلى حملة متصاعدة من النقد. ذلك أن الشكوك التى تم التعبير عنها عندما برزت هـــذه المؤسســة للمرة الأولى ترددت أصــداؤها من قبل بعـض الكتــاب اللاحقيــن ، ولكن النظم كانت تتعرض لهجوم متزايد على أسس أخرى. وعلى العموم كانت النظم الرهبانية متهمة بالكبــر وبالجشــع أيضًا . ولكن كان هنــاك أيضًا استهـجان متزايد فى استخدامات النظم لثرواتها. وجادل بعض النقاد بأن الإخوة عاشــوا عيشة سهلة ومرفهة ، وأنهم كرَّسوا مواردهم لتحقيق هذه الغاية . وقيل إنه نتيجة لذلك لم تكن النظم الرهبانيــة العســكرية تحتفـظ بالعدد الذى يجب وجــوده من الفرسـان فى مناطق الحدود، ولاسيــما فى الأرض المقدسة: ومن بين أولئك الذين رفـعوا أصواتهم بالجــدل كان المؤرخ متى الباريسى مؤرخ ســان ألبان فى كتــابه «المؤرخة الكبرى "Chronica majora" وعميد لنكولن فى مجمع ليون الكنســى سنة ١٢٧٤م .

وقد كان اللوم يوجه إلى الإخوة المقيمين فى مناطق الحدود بسبب استعدادهم لاستخدام العنف ضد إخوتهــم المسـيحيين . وكانت هذه الشكوى تتردد كثيــرًا من



صالة الطعام فى مقر أركان الاسبتارية فى عكا . على الرغم من أنه بحلول أواخر القرن الثالث عشر كان هناك عدد متزايد من الإخوة فى النظم الرهبانية العسكرية يمتلكون غرفًا أو قلايا خاصة بهم، فإن الحياة المشتركة لم يتم التخلى عنها تمامًا، وفى الأديرة الأكبر حجمًا كانت الوجبات لا تزال تقدم فى صالات الطعام.

نظام التيوتون فى منطقة البلطيق، وانتشر زعم على نطاق أوسع بأن النظم الرهبانية العسكرية، خاصة الداوية والاسبتارية، كانوا يوجهون أسلحتهم ضد بعضهم البعض بسبب المنافسة المريرة التى كان يُظن أنها قائمة بينهما . وكانت المنافسة تبدو كذلك عقبة فى سبيل التعاون المثمر فى ميدان المعركة . وكان ثمة ظن أيضًا بأن العمل العسكرى الفعال ضد المسلمين فى الشرق قد عرقله الاستقلال الذى تمتعت به النظم الرهبانية العسكرية، بينما كان هناك زعم آخر بأن النظم الرهبانية العسكرية فى إقليم شرق المتوسط كانت مترددة فى انتهاج سياسات عدوانية إزاء الأعداء. وعندما تشاور الداوية والاسبتارية مثلاً ، ضد الهجوم على القدس أثناء الحملة الصليبية الثالثة، أثاروا استهجان الصليبيين الفرنسيين . والحقيقة أن البعض كان يظن أنهم على علاقة صداقة زائدة بالمسلمين . ومن ناحية أخرى انتقد روجر باكون الراهب الفرنسسكانى الإنجليزى فى ستينيات القرن الثالث عشر النظم الرهبانية العسكرية بسبب أعمالها القتالية أصلاً. وكانت حجته ، التى كانت حجة نفعية، أن أنشطتهم العسكرية حالت دون اعتناق الكفار المسيحية. ومن الواضح أن هذه كانت وجهة نظر الأقلية ، ولكن نظام إخوة السيف ونظام التيوتون فى إقليم البلطيق واجها انتقادات فى مناسبات مختلفة لأنهما لم يوسعا من نطاق التنصير ولأنهما انتهجا سياسات حالت دون ذلك.

ومن الواضح أنه يجب النظر إلى مثل هذه الانتقادات فى سياقها . إذ كانت لكل النظم الرهبانية العسكرية نقائصها . كذلك لم يكن كل الذين انتقدوا النظم الرهبانية العسكرية نقادًا بشكل متسق: إذ إن هذه المؤسسات كان لها من يدافع عنها ، حتى من بين أولئك الذين كانوا فى بعض الأوقات على استعداد لإبداء الاستهجان واللوم. فقد عبر البابوات عن انتقاداتهم ولكنهم أيضًا ساندوا النظم طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكان بعض النقاد منحازين بشكل واضح . فقد خسر رجال الكنيسة من غير الرهبان الدخل والسلطة نتيجة الامتيازات التى منحت للنظم الرهبانية

العسكرية من جانب البابوية ، وفى القرن الثالث عشر كان يطلب منهم مرارًا وتكرارًا الإسهام فى الضرائب لمساعدة الأرض المقدسة. وفى منطقة البلطيق كان كثير من الناقدين من منافسى نظام التيوتون . وكان بعض خصوم النظم الرهبانية العسكرية ومعارضيها ، علاوة على ذلك ، لايقيمون تعليقاتهم على أساس من التجربة الشخصية ، ولكنهم فقط كانوا يرددون ما بات يمثل وجهة النظر المتفق عليها . كذلك كان كثير من النقاد يتلقون معلومات مضللة ولم يكونوا يتمتعون سوى بفهم محدود لوضع النظم الرهبانية العسكرية . وكان لديهم فكرة تتسم بالمبالغة عن موارد النظم الرهبانية العسكرية، ولذلك افترضوا أنه لايجب أن تكون هناك صعوبة فى تمويل الدفاع عن الأرض المقدسة. بيد أن قوائم الجرد التى تم إعدادها خلال محاكمة الداوية تزيح النقاب عن علامات قليلة للنفوذ.كذلك كانت هناك مبالغة فى مدى المنافسة . ويمكن تفسير الشكاوى بشأن سياسات النظم باتجاه الأعداء فى الأرض المقدسة جزئيًا فى ضوء المفاهيم الخاطئة واختلافات النظرة. فغالبًا ما كان الصليبيون يفتقرون إلى فهم واضح للظروف السياسية فى الشرق ولم يستوعبوا أين كانت توجد مصالح المستوطنين اللاتين على المدى الطويل ؛ فقد كان عليهم أن يقاتلوا المسلمين ويحبذوا السياسات العدوانية ، دونما أى تفكير فى المستقبل.

ومع هذا فإن النقد لم يكن كله ظالمًا . إذ إن النظم الرهبانية العسكرية أساءت بالفعل استخدام الامتيازات ؛ ولم يكن ممكنًا دائمًا تبرير استخدام السلاح ضد الإخوة المسيحيين بحجة الدفاع عن النفس، على حين كان تصميم نظام التيوتون على تأكيد استقلاله فى المجر أولاً ثم فى بروسيا يوحى بأن النظام لم يكن مهتمًا بتوسيع نطاق الصراع ضد الكفار فقط.

وقرب نهاية القرن الثالث عشر كان كثير من الناس يظنون أن النظم الرهبانية العسكرية تحتاج إلى إصلاح رئيسى . فقد أولت السلطات الكنسية، وكذلك كتاب المقالات الصليبية ، عناية كبيرة للموضوع . وقد اقترح البعض أن استقلال النظم

الرهبانية العسكرية فى إقليم شرق المتوسط كان ينبغى كبحه ، ولكن كثيراً ما كان يدور الجدل بأنه لتجنب المنافسة فإن بعض النظم الرهبانية العسكرية أو كلها يجب أن تندمج سوياً . هذا الرأى طرحه منظرون عديدون ، مثل ريموند لول وبيتر دوبوا ، وكذلك طرحته المجامع الكنسية الإقليمية التى دعا البابا نيقولاس الرابع إليها لتدبر الموضوع فى سنة ١٢٩١م . وفى بعض هذه المجامع كان هناك ادعاء أيضًا بأنه يجب تقدير قيمة موارد النظم الرهبانية للكشف عن عدد الفرسان الذين يمكن الحفاظ عليهم وإعاشتهم من الأراضى المملوكة لهذه النظم. وعلى أية حال، كان بيتر دوبوا مجنداً للرأى القائل بأن ممتلكات النظم الرهبانية العسكرية فى الغرب ينبغى مصادرتها واستخدامها بطرق أخرى فى خدمة الأغراض والمقاصد الصليبية.

وعلى الرغم من أن بعض المنظرين تطلعوا إلى مستقبل يكون فيه هناك نظام واحد يمكنه تسلم زمام القيادة فى القضية المسيحية فى حوض البحر المتوسط الشرقى، فإن الإصلاحات المقترحة لم تجد طريقها إلى التطبيق ، وبدلاً من ذلك نتج التغيير عن الظروف المتغيرة فى مناطق الحدود.

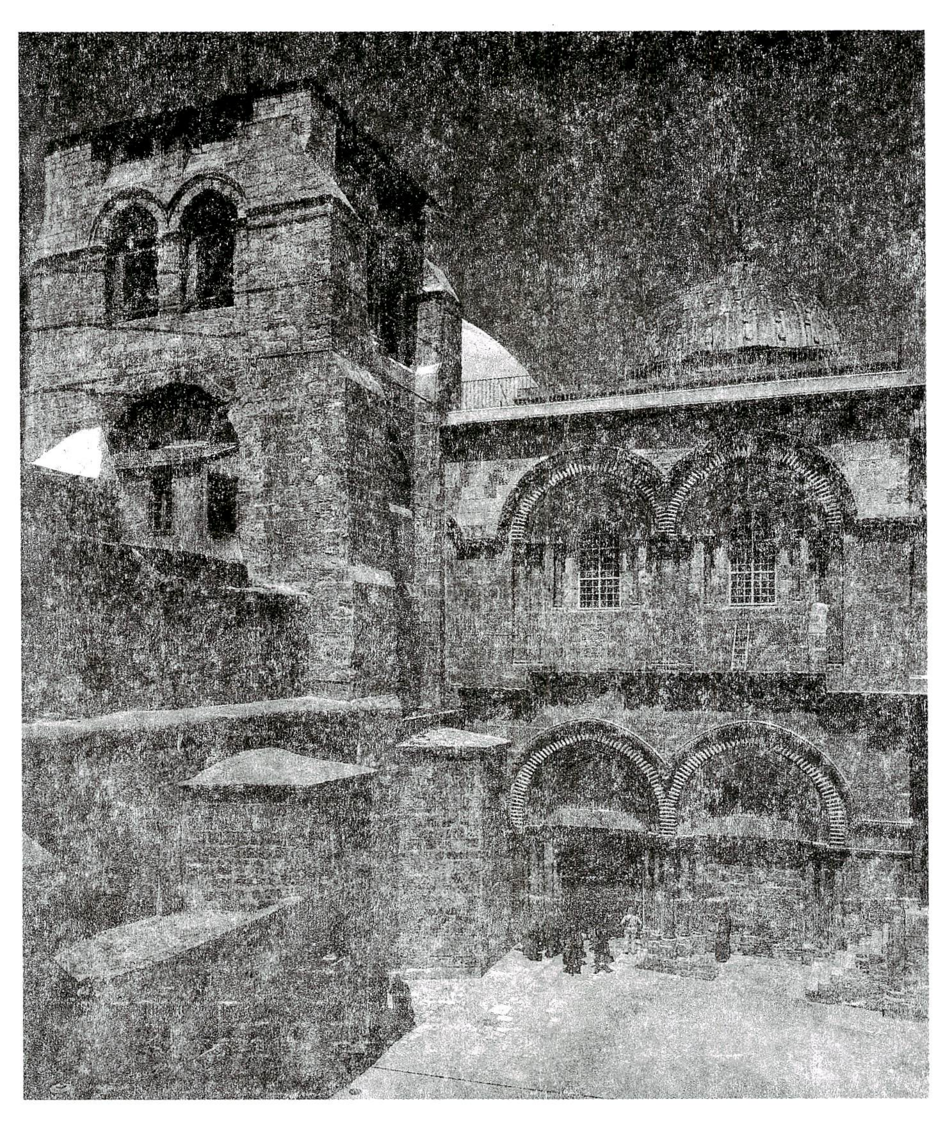
قد حدث التغيير بقدر أكبر من التدريج فى إسبانيا ، حيث قُيِّض لحركة الاسترداد أن تتوقف فى منتصف القرن الثالث عشر . وتحول التركيز إلى التورط فى الصراعات بين المسيحيين وكان على الحكام الإسبان أن يتوقعوا من النظم الرهبانية العسكرية أن تقدم لهم خدماتها ضد منافسيهم المسيحيين ، مثلما حدث عندما قام الفرنسيون بغزو أراجون سنة ١٢٨٥م ؛ وفى قشتالة انزلقت النظم الرهبانية العسكرية فى الصراعات الداخلية أواخر القرن الثالث عشر. وفى شرق المتوسط ربما كان انهيار المستوطنات اللاتينية فى سنة ١٢٩١م بمثابة نقطة انعطاف أشد وضوحًا ؛ بيد أن خسائر تلك السنة لم تقض مباشرة على سبب وجود النظم الرهبانية العسكرية، لأنه لم يكن من الواضح للمعاصرين أنهم فقدوا الأرض المقدسة إلى الأبد، فقد نقل الاسبتارية والداوية ومعهم نظام سان توماس فى عكا، مقار قياداتهم إلى قبرص التى كانت تبعد بمسافة

مائة ميل فقط عن سواحل بلاد الشام ، وفى السنوات التالية تم شن عدة حملات ضد المسلمين من هناك.

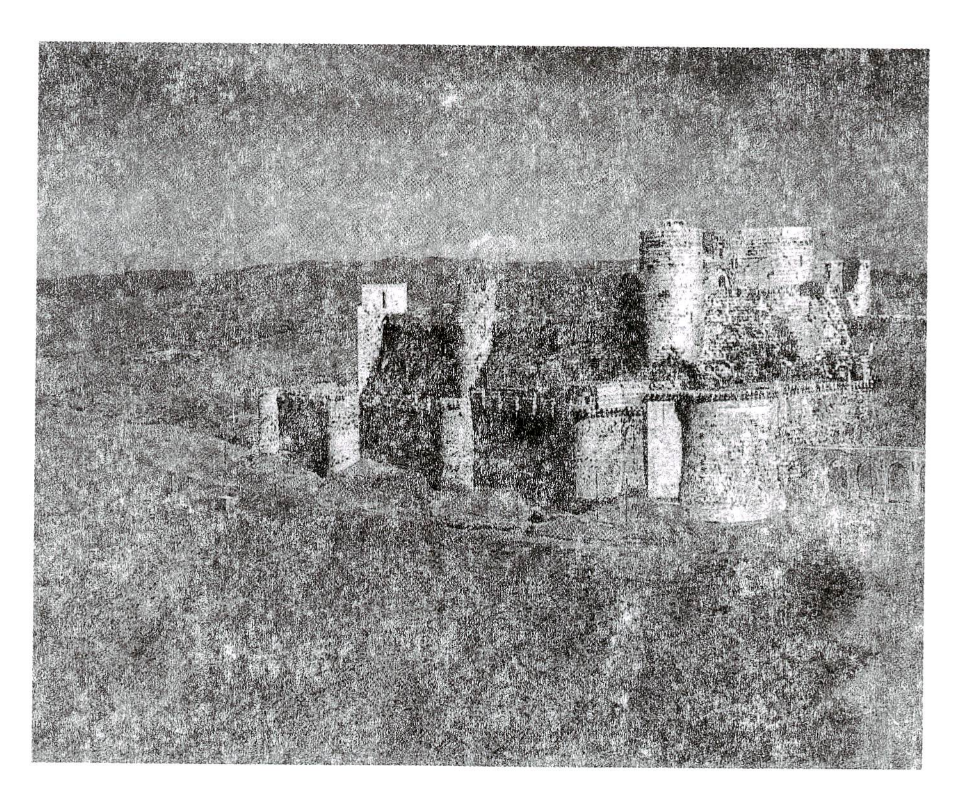
على حين دخل قادة الاسبتارية والداوية فى المناقشات الجارية حول أفضل طريقة لاستعادة السيطرة على الأرض المقدسة. ومع هذا فإن الاسبتارية واجهوا مشكلات فى قبرص، وفى العقد الأول من القرن الرابع عشر خلقوا حكمًا جديداً لأنفسهم بغزو جزيرة رودس تجاه الساحل الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى. ومن الواضح أن نظام سان لازاروس قد نقل مقر قيادته فى الوقت نفسه إلى فرنسا ، حيث لم يعد له دور عسكرى، على حين تمركز قائد نظام التيوتون والدير التابع له فى البندقية . ولكن فى سنة ١٣٠٩م انتقل مقر قيادة التيوتون مرة أخرى إلى ماريينبرج فى بروسيا، ومنذ ذلك التاريخ صارت مصالح النظام متمركزة فى إقليم البلطيق.

محاكمة الداوية

بينما كانت نظم رهبانية عسكرية أخرى تضطلع بأدوار جديدة ، تم القضاء على الداوية. ففى أكتوبر سنة ١٣٠٧م – وكانت قيادة النظام ما زالت فى قبرص– تم القبض بصورة مفاجئة على الداوية فى فرنسا بمبادرة من الملك فيليب الرابع. وزُعم أنه أثناء احتفالات القبول تم إجبار المجندين على إنكار المسيح، والبصق على الصليب ، وممارسة القبلات الفاحشة؛ كذلك واجه الإخوة الاتهام بعبادة الأصنام، وقيل إن النظام يشجع الممارسات الجنسية الشاذة . وقد احتج البابا كليمنت الخامس على تصرف الملك فيليب الرابع ، ولكن بعد أن أدلى قائد الداوية چيمس مولاى، وعدد كبير من الداوية باعترافاتهم، أمر جميع الحكام الغربيين بالقبض على الداوية والاستيلاء على ممتلكاتهم. وكان الإقليم الوحيد الذى ثارت به صعوبات جمة فى وجه تطبيق تعليمات البابا هى أراجون حيث تحصن الداوية فى قلاعهم وقاوموا ، وفى بعض الحالات استمرت المقاومة على مدى أكثر من سنة . وفى بواكير من سنة ١٣٠٨م



كنيسة الضريح المقدس بالقدس، تم استكمال الواجهة الجنوبية سنة ١١٤٩م وتضم خليطًا من الطرز والعناصر الغربية والشرقية. وبرج الأجراس (الذى تهدم منه الطابق الأعلى حاليًا) تمت إضافته سنة ١١٥٤م ، وقد بنى فوق الكنيسة الصغيرة ذات الطراز البيزنطى التى تنسب إلى القديس يوحنا الحوارى.



حصن الكرك دى شيفالييه. قام الاسبتارية الذين تم منحهم القلعة سنة ١١٤٤م بأعمال ترميم وبناء واسعة فيه، بما فى ذلك مبنى السور الخارجى عند انتهاء القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر . وقد سقط الحصن بأيدى المماليك سنة ١٢٧١م.

تم تأجيل المزيد من التحقيقات فى التهم بسبب المشاجرات التى نشبت بين فيليب والبابا، ولكن بحلول سنة ١٣١١م تم توجيه الاستجوابات من جانب محاكم التفتيش والقساوسة فى جميع أنحاء البلاد بالغرب . وقد تباينت النتائج ، وعلى الرغم من أنه فى فرنسا وبعض أجزاء إيطاليا اعترف معظم الداوية بأخطر التهم، فلم يتم الحصول على أى اعتراف بهذه المسائل فى قبرص وأراجون وقشتالة أو البرتغال، على حين اعترف ثلاثة فقط من الداوية فى إنجلترا بحقيقة التهم الرئيسية . وفى ضوء هذه

الخلفية اجتمع مجمع ڤيينا الكنسى أواخر سنة ١٣١١م لتقرير مصير النظام . ولم يتم الاستماع إلى مجموعة من الداوية وصلوا لتقديم التماس دفاعًا عن النظام، على الرغم من أن أغلبية القساوسة الحاضرين شعروا بأنه كان ينبغى منحهم فرصة الاستماع إليهم؛ وفى ٢٢ مارس سنة ١٣١٢م ، وبعد يومين من وصول فيليب الرابع إلى ڤيينا، أعلن البابا كليمنت الخامس إلغاء نظام الداوية . وبسرعة تمت إحالة معظم الباقين من الداوية إلى التقاعد ، ولكن مصير ممتلكات الداوية كان مسألة لم يتم حسمها بمثل هذه السهولة.



سان برنار رئيس الرهبان السسترشيان فى كليرڤو. كان سان برنار رجل الكنيسة البارز بالغرب فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ولعب دوراً مهمًا فى جمع قاعدة الداوية سنة ١١٢٩م، كما كتب كتابه بعنوان : «فى مديح الميليشيا الجديدة De Laude novae militiae التى سعى فيها للرد على منتقدى الأنشطة العسكرية لنظام الداوية .

ومنذ زمن المحاكمة كان هناك موضوعان رئيسيان للمناقشة الخاصة باضطهاد الداوية. ويهتم أولهما بمسألة ذنبهم أو براءتهم ، على حين يهتم الثانى بدوافع فيليب الرابع. ومن الصعب أن نصدق أن الداوية كانوا مذنبين فى معظم التهم الخطيرة التى اتهموا بها. وغياب دليل يجرِّمهم، مثل الأصنام أو نسخ من المنشورات السرية ، لاسيما فى فرنسا، حيث أخذ الداوية على حين غرة ، أمر له مغزاه بحد ذاته. وفضلاً عن ذلك ؛ فإن شهادات أولئك الذين



قلعة الداوية فى ميراڤيت، على نهر الإبرو فى إسبانيا . كانت ميراڤيت التى حصل عليها الداوية سنة ١١٥٣م، إحدى القلاع التى قاوم منها الإخوة الأراجونيون والكتلان چيمس الثانى بعد أن قام الملك الأرجونى بالقبض عليهم فى نهاية سنة ١٣٠٧م وأثناء الحصار الذى استمر عاماً كاملاً ، أوقعت منجنيقات الداوية دماراً كبيراً بأجزاء من المدينة الواقعة أسفل القلعة.

اعترفوا بأكثر التهم أهمية ليست مقنعة : فهى شهادات ليست متسقة ، ولم يتم تقديم تفسير مقبول لتقديم الممارسات المذكورة فى عرائض الاتهام ، على حين أنه حتى فى فرنسا لم يسع أحد إلى الدفاع عن الأنشطة المزعومة . والاعترافات تعطى انطباعًا بأن أعدادًا كبيرة من الداوية كانوا يفعلون ما لم يكن أحد منهم يؤمن به ؛ كما أن بعض الداوية الفرنسيين تراجعوا عن اعترافاتهم فيما بعد، وهى خطوة أثبتت عدم جدواها بالنسبة للمذنب ، كما أنه ليس من المحتمل أنها، إذا ما كانت الممارسات قد استمرت فترة طويلة ، كانت ستنجو من التحقيق فى فترة سابقة ، لأنه فى الداوية ، كما فى النظم الأخرى ، كانت هناك حالات ارتداد، وقام كثير من الإخوة بالاعتراف أمام قساوسة من غير الداوية. وفى هذا السياق ، من الجدير بالملاحظة أنه خلال المحاكمة لم يزعم أى شاهد ممن كانوا قد استمعوا إلى اعترافات الداوية قبل سنة ١٣٠٧م أنه وجد أى خطأ . كذلك ينبغى أن نتذكر أن الاتهامات ضد الداوية لم تكن جديدة؛ إذ يمكن أن نجد سوابق فى تهم وُجهت ضد الهراطقة المزعومين أو ضد المسلمين فى وقت سابق. وتبقى حقيقة أن كثيرًا من الداوية اعترفوا بالفعل؛ بيد أن هذه النتيجة تم الوصول إليها من خلال التحقيق الدؤوب والماكر، والحرمان ، والتعذيب: وغالبًا ما كان البرئ يدان بجريمة لم يرتكبها بهذه الوسائل .

والأمر يزداد صعوبة إذا ما حاولنا أن نتبين الدافع وراء القبض على الداوية الفرنسيين، وذلك يرجع جزئيًا إلى أن ثمة شكًا فى مدى تورط الملك نفسه فى اتخاذ القرار. وشاع الجدل بأن التاج الفرنسى كان بحاجة إلى المال وأن الدافع كان ماليًا. ومن المؤكد أن الملك الفرنسى ، شأنه شأن كل الحكام الآخرين، كان يحصل بالفعل على فائدة مالية قصيرة المدى عندما كانت أملاك الداوية تحت سيطرته، بيد أن هذا

ليس بالضرورة مؤشراً على الدافع الأساسى؛ ولايبدو أن الحكومة الفرنسية كانت تضغط بإلحاح من أجل الحصول على امتيازات مالية طويلة المدى . وثمة حجة أخرى قالت إن التاج كان يسعى إلى مد سلطته ، ولم يكن يستطيع أن يتسامح أو يحتمل منظمة عسكرية مستقلة وأرستقراطية داخل مملكته. ولكن فى فرنسا كان الداوية ذوى صفة تكاد ألا تكون عسكرية ؛ كما أن عضويتها لم تكن قاصرة على الأرستقراطيين أساسًا ؛ بالإضافة إلى أن استقلالها كان محدودا فى الممارسة العملية. كذلك تم تفسير المحاكمة على أنها تأكيد للسلطة الملكية فى سموها على السلطة الكنسية. ومع هذا فإن قضية تتضمن الهرطقة وعبادة الأصنام لم تكن مناسبة لمثل هذا القصد؛ فقد كان على الحكومة الفرنسية أن تتقبل أن إصدار الحكم على أى نظام رهبانى كان من شأن البابا، حتى ولو كانت قادرة على إرهابه والتأثير عليه. وقد وضع بعض المعاصرين المحاكمة على خلفية الاقتراحات الجديدة التى كانت قد صيغت جزئيًا بهدف مدٍّ النفوذ الفرنسى فى الأرض المقدسة ؛ إلا أنه ليس واضحًا أن أيا من هذه الاقتراحات قد جاء من الحكومة الفرنسية ومن الصعب نسبتها إلى موقف التاج أثناء المحاكمة. وعلى أية حال ، فإنه من الممكن أن يكون فيليب الرابع قد صدَّق بالفعل الشائعات التى كانت تدور حول الداوية. ويبدو أنه كان مهمومًا بشكل متزايد بالأمور الدينية بعد موت زوجته سنة ١٣٠٥م ، وربما كان الشك قد ساوره فى أن يتخذ البابا ما كان سيعتبره تصرفًا كافيًا، ولكن من الصعب الوصول إلى استنتاجات حاسمة.



فيليب الرابع وأفراد من أسرته. ثار جدل كبير حول أسباب قيام الملك الفرنسي بالقبض على الداوية ، ولكن ربما اهتم بالموضوعات الدينية بصورة متزايدة بعد موت زوجته (وهى ليست فى الصورة).

تُعتبر الفترة الباكرة من القرن الرابع عشر ، من عدة جوانب علامة على نهاية المرحلة الأولى من تاريخ النظم الرهبانية العسكرية، ومع هذا ، وعلى الرغم من القضاء على الداوية وانتقاد جميع النظم ، فقد كان ينظر إلى هذه المؤسسة على أنها ذات قيمة، على الرغم من أن أدوار النظم الرهبانية العسكرية كان يتم تعديلها .

(١٠)

المسلمون والحملات الصليبية ١٠٩٦-١٦٩٩م
توقع يوم القيامة

روبرت إيروين

كانت تفاصيل الكيفية التى سينتهى بها العالم معروفة تمامًا للمسلمين فى العصور الوسطى بحيث إن المؤرخ العربى ابن كثير ، الذى عاش فى القرن الرابع عشر (الثامن الهجرى) ، شعر بأنه يستطيع أن يختتم تاريخه الذى يحمل عنوانه «البداية والنهاية» برواية ظرفية عن التتابع المتوقع لأحداث الأيام الأخيرة فى عمر الدنيا. فقد كان كثير من المسلمين فى فترة الحروب الصليبية يعتقدون أن من علامات القيامة أن تطلع الشمس من الغرب وهى معتمة فى حالة كسوف ، ويلى ذلك ظهور جحافل يأجوج ومأجوج، ثم تختفى هذه الحشود التابعة ليأجوج ومأجوج (وتقول رواية كتبت فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر إنهم سوف يشربون مياه بحيرة طبرية حتى تجف قبل أن يتوجهوا صوب الشرق) . وسوف يعقب ظهور يأجوج ومأجوج ظهور المسيح الدجال الأعور ليجوب أنحاء فلسطين على ظهر جحش ووراءه حاشيته المؤلفة من سبعين ألف يهودى. ويقوم الأعور الدجال بمعجزات زائفة فى محاكاة ساخرة للسيد المسيح. ولكن بعد أربعين يومًا سوف ينزل المسيح من السماء لكى يذبح الدجّال الأعور قبل أن يدمِّر الصليب ويدعو الناس كافة إلى اتباع الدين الإسلامى. وأخيرًا ستشرق الشمس من الشرق . ومع دوى صوت أول نفخة فى النفير ستموت جميع الكائنات الحية. وعند صوت النفخة

الثانية سوف يبعث حيًا كل رجـــل وامرأة عاشا على ســـطح الأرض ويؤتى بهم إلى القـــدس لحسابهم . وثمة روايات أخرى أوردت الأحداث المتتابعة على نحو مختلف اختلافًا طفيفًا ، وأكدت بعض هذه الروايات على دور المهـــدى ، وهـــو شخص سوف توجهه العناية الإلهية ويظهر فى الأيام الأخيرة، قبل ظهور المسيح الدجّال ليجلب للمسلمين النصر والعدل(*).

إن التخمينات بشأن الأيام الأخيرة ودور المهدى فيها كانت كثيرا ما تُضفَّر مع النبوءات الخاصة بانتصار الإسلام على المسيحية وحول المصائر المستقبلية للقدس والقسطنطينية وروما. وثمة قول يُنسب للنبى محمد (عليه الصلاة والسلام) كان منتشراً بالفعل قبل قدوم الحملة الصليبية الأولى، يقول ما معناه إن الساعة لن تقوم حتى ينصر الله أمتى على القسطنطينية . وبغض النظر عن الحديث ، فإن الكثير من المواد الأخروية قد نسبت زيفًا إلى كعب الأحبار(**). وثمة نوع أدبى هو «الملاحم» ، وهى كتابات تتناول الحروب العنيفة فى الأيام الماضية ، كان يُنسب زوراً إلى النبى دانيال المذكور فى الكتاب المقدس أو فيما بعد إلى الصوفى ابن العربى الأندلسى الذى عاش فى القرن الثالث عشر (السابع الهجرى) . وقد تم إنتاج الكثير من الأدب الملحمى الباكر وقت أن كان المسلمون يناضلون للدفاع عن بلاد الشام ضد محاولات البيزنطيين إعادة الاستيلاء عليها. وكانت النبوءات تميل إلى التأكيد على أن المسلمين سوف يواجهون عدة شدائد ونكسات - بل إنهم قد يخسرون القدس أمام المسيحيين لفترة من الزمن - قبل أن يحققوا النصر النهائى . وكانت هناك حكايات عن تمثال يحمل طلاسم

(*) هذه التصورات الفولكلورية لاعلاقة لها بما جاء فى القرآن الكريم الذى يصف القيامة دون أن يتحدث عن أى من هذه الموضوعات التى هى تصورات تعكس الرغبة فى معرفة ما سيحدث فى نهاية العالم من ناحية، وتعكس أصداء البيئات المحلية وثقافاتها من ناحية أخرى، بدليل الاختلاف القائم فى ترتيب أحداثها ، واختلاف شخوصها ما بين «المسيح الدجال» ، و«المهدى المنتظر» ، والسيد المسيح نفسه . (المترجم)

(**) ذكر المؤلف الاسم خطأ "Ka'b ibn al- Akhbar" ، ونطقه العربى «كعب بن الأخبار» وزعم أنه من صحابة النبى عليه الصلاة والسلام. (المترجم)

سحرية منتصب فى وسط القسطنطينية ، وعادة ما كان يُمسك كرة كتب عليها «سوف أحكم العالم طالما بقيت هذه الكرة الأرضية فى يدى» ، بيد أن المصادر العربية ذكرت أن الكرة لم تعد فى يد التمثال . ووفقًا لبعض الأساطير الإسلامية فإن المهدى كان هو الذى سوف يفتح القسطنطينية، بعد أن يكون قد استولى على روما . وفى الفترة التى سبقت قدوم الحملة الصليبية الأولى مباشرة، وكانت التوقعات الإسلامية (واليهودية) تركز بصـــفة خاصة على نذير اقتراب سنة ٥٠٠ هجرية (الموافقة لسنة ١١٠٦-١١٠٧م) .

وبالنسبة للمسلمين ، والمسيحيين واليهود ، كان الشرق الأدنى أواخر القرن الحادى عشر يمر بفترة تفتقر بشدة إلى الأمان . وبينما توقع البعض إحياء الدين الإسلامى فى نهاية القرن الخامس الهجرى، ترقب الآخرون فى خوف ظهور المهدى ونهاية العالم . وعلى مستوى أكثر دنيوية كان كثير من المسلمين يأملون فى نصر حاسم فى الصراع الطويل الممتد من أجل السيطرة على بلاد الشـــام بين الخلفـــاء الفاطميين فى مصر، وسلاطين الأتراك السلاجقة فى أراضى المشرق الإسلامى . وأيا ما كان الناس يتوقعونه فمن المؤكد أنه لم يكن غزواً تحت راية الدين تقوم به شعوب من أوربا الغربية.

فسيفساء الشرق الأوسط :

كان نجاح الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارات مسيحية فى المنطقة العربية إحدى النتائج الصغرى نسبيًا لتفكك سلطنة السلاجقة بعد موت السلطان «ملك شاه» سنة ١٠٩٢م، إذ إن التقاليد القبلية للأتراك السلاجقة كانت تُجنِّد تقسيم الحكم بين أفراد العائلة ، وبعد وفاة ملك شاه ، اقتتل أقاربه فيما بينهم على إمبراطوريته فى إيران وما وراء النهر، والقوقاز وبلاد الشام. وقد ساند القادة الأتراك وسادة الحرب التابعون لهم فى بلاد الشام وغيرها الأمراء المتنافسين كما أنهم انتهجوا سياسات

محلية جنحت إلى الاستقلال بشكل متزايد . وفى الوقت نفسه، انتهز القادة العاملون فى خدمة الفاطميين المصريين فرصة التنازع السلچوقى لكى يحققوا مكاسب على حسابهم فى فلسطين وبلاد الشام. فقد ناضل بركياروق، الابن الأكبر لملك شاه، لكى يؤسس سلطة قلقة على الأراضى الداخلية فى الإمبراطورية ، بيد أنه كان لا يزال الشخصية الأكبر فى الاتحاد الإقليمى (السلچوقى) عندما مات سنة ١١٠٥م.

ومنذ سنة ١٠٣٨م فصاعداً ، كان السلاطين السلاچقة يتظاهرون بأنهم يحكمون باعتبارهم تابعين للخليفة العباسى فى بغداد وباعتبارهم المدافعين عن المذهب السنى . وعلى مستوى الممارسة الواقعية، كان للعباسيين فى القرن الحادى عشر قليل من السلطة السياسية الفعَّالة ، حتى داخل مدينة بغداد، كما أن الخليفة المستظهر (١٠٩٤-١١١٨م) كان لديه الكثير من الوقت لمتابعة شغفه بالشعر والخط الجيد. وحتى مع هذا، كان الخليفة العباسى ، من الناحية الرسمية على الأقل ، يحظى باعتراف غالبية المسلمين السنة بأنه الرئيس الدينى(*) والسياسى للعالم الإسلامى. ويستمد المسلمون السنة اسمهم من السنة، وهى أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله هو وصحابته ، وهى عبارة عن مجموعة من المورثات المتناقلة شفويًا ساعدت فى تشكيل الشريعة وفى توجيه سلوك الأفراد المسلمين. واعترف المسلمون السنة بالسلطة السياسية العليا للخلفاء ، حتى مع أن هذه السلطة كانت آنذاك مسألة تشريعية.

وقد اختلفوا فى هذا عن المسلمين الشيعة الذين يرون أن السلطة السياسية والدينية النهائية لايمكن أن يتولاها سوى على بن أبى طالب، زوج ابنة النبى عليه

(*) هذا أيضا نوع من الخلط الناتج عن عدم المعرفة الدقيقة : فقد كان الخليفة شخصية سياسية، ولم تكن له صلاحيات دينية. والسبب فى ذلك أن الإسلام (فى المذهب السنى خاصة) لايعرف رجل الدين . ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة كان عليه الحفاظ على الدين والشريعة ولكنه لم يكن فوق الشريعة وإنما كان خاضعاً لها . ولم تكن الخلافة دولة دينية (المترجم)

الصلاة والسلام، ثم بعد ذلك يتولاها الأئمة الذين انحدروا من صلبه وهم خلفاؤه الروحيون .. وتعنى عبارة «شيعة على» الجماعة أو الحزب الموالى لعلى . وهناك مجموعة رئيسية من الشيعة تؤمن بأنه بعد اختفاء ، أو احتجاب ، الإمام الثانى عشر سنة ٨٧٨هـ ، صارت السلطة الروحية النهائية مُعلَّقة . وقد انتظر الشيعة الاثنى عشرية عودة الإمام المحتجب (الغائب) الذى سوف يتم بعودته فرض العدالة الإسلامية على الدنيا بأسرها . وعلى أية حال، فهناك فرقة شيعية أخرى ، هم الشيعة الإسماعيلية ، تؤمن بأنه بعد اختفاء الإمام اسماعيل (الصادق) سنة ٧٦٠م، الذى يعتبر الإمام السابع حقًا، دخلت الإمامة فى طور الاحتجاب . وفى خلال القرن الحادى عشر حدثت انشقاقات أخرى> مثل الدروز أولاً ثم الإسماعيلية النزارية أو الحشاشين ، الذين انفصلوا عن الخليفة الفاطمى فى القاهرة وعارضوا مزاعمه .

وعلى الرغم من أنه يستحيل أن يكون الناس جامدين مذهبيًا فى مثل هذا الأمر، فإنه يبدو من المحتمل أن معظم المسلمين فى بلاد الشام وفلسطين فى القرن الحادى عشر والثانى عشر كانوا من السنة الذين يدينون بالولاء للخلفاء العباسيين. وعلى أية حال، فإن الفروق بين المذهب السنى والمذهب الشيعى لم تكن واضحة تمامًا على الدوام، وكان لكثير من السنة توجهات شيعية، على حين كان هناك كثير من الشيعة الذين لم يجدوا غضاضة فى خدمة الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة . وقد عاش السنة والشيعة جنبًا إلى جنب فى المدن الإسلامية الكبرى . وعلى الرغم من أن السنة كانوا هم الأغلبية ، فإن الأقلية الشيعية كانت كبيرة جدًا وفى بعض أجزاء بلاد الشام كان الشيعة يشكلون الأغلبية . وربما كان معظم الشيعة فى بلاد الشام من الاثنى عشرية، ولكن مؤيدى فرقة الإسماعيلية الحشاشين قاموا بمحاولات متكررة لكى يستولوا على حلب وغيرها من المدن الكبيرة فى بلاد الشام أوائل القرن الثانى عشر، قبل أن يختاروا فى النهاية إقامة إمارة إقليمية صغيرة تتمركز حول قلعة مصياف فى جبل لبنان.



كان رجال القبائل التركية البدوية يشكلون جزءًا كبيرًا من القوات المساعدة التى حاربت ضد الصليبيين. كذلك كان المماليك أيضا يُجندون عادة من بين الأتراك القاطنين فى مناطق الاستبس . وكان القوس المركب المنحنى (المرسوم أعلى الصورة يمينًا) المصدر الرئيسى للقوة العسكرية للأتراك.

وخارج أراضى الخلافة الفاطمية، فى معظم مناطق العالم الإسلامى، كان الشيعة يجدون أنفسهم فى وضع معاكس لهم. وعلى الرغم أن إيران الحديثة شيعية بشكل غالب ، فإنها كانت فى العصور الوسطى أحد معاقل المذهب السنى . وعلى أية حال فإن الحسن الصباح، الذى ولد فى إيران لأبوين عربيين ، أسس فرقة الحشاشين الإسماعيلية فى المرتفعات الواقعة جنوب بحر قزوين، واستولى أتباعه على قلعة الموت سنة ١٠٩٠م ثم على قلاع أخرى فى الإقليم سقطت بأيدى الإسماعيلية.

ومن الواضح أنه سيكون من الخطأ أن نفكر فى بلاد الشام قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى على أنها بلاد إسلامية خالصة. إذ لم تكن هناك انشقاقات مذهبية فيما بين المسلمين فحسب، ولكن حسبما جاء فى الفصل السادس، كانت لا تزال هناك جماعات مهمة من الأهالى المسيحيين فى المدن وفى الريف على السواء. وإحدى الجماعات المسيحية وهم النصارى





كان من عادة الحكام المسلمين منع نقش صور تشخيصية على العملات تفضيلا للخط العربى. وعلى أية حال، أصدر بعض الأمراء المسلمين، ممن حكموا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالمنطقة العربية ، أعداداً كبيرة من المسيحيين ، عملات تحمل صوراً ، ربما بقصد التوافق مع توقعات رعاياهم. وعلى اليسار عملة نحاسية سلجوقية تظهر فارساً راكباً . وعلى اليمين عملة من الموصل يظهر عليها الهلال (رمز الإسلام) يمسك به أمير جالس.

الملكانيـون ، (أو الروم الأرثوذكس) كـانوا يتطلعــون إلى الإمـبراطــور البيزنطــى بوصــفه زعيمهم وحاميهم ، ولكن الطــوائف المسيحــية الأخرى - ومن بينهــم اليعـاقبــة والنسـاطرة والمارونيــون (المــوارنة) - ربما كـانوا يفضلون ممارسة عباداتهم بحرية تحت حكم المسلمين . وقد ارتقى كثير منهم تحت حكم الحكام المسلمين، وكان النصارى من الأهالى بارزين بصفة خاصــة فــى الإدارة



البـابوات والأباطرة . على العمـوم لم يكن المؤرخـون المسلمـون يهتمـون كـثيراً بتـاريخ أعدائهم المسيحـيين (الغربيين) ولم يعرفوا عنه سوى قدر ضئيل . وعلى أية حال فإن كاتب تاريخ العالم المؤرخ الفارسى رشيد الدين الذى عاش فى القرن الثالث عشر والذى عمل تحت رعاية المغول وحمايتهم ، نجح بالفعل فى جمع قليل من المعلومات عن أشخاص مثل الامبراطور فردريك الثانى والبابا جوريجورى التاسع اللذين يصورهما هذا الرسم فى الأسلوب الفارسى النمطى.

المدنية وفى الطب. وكان بروز المسيحيين أشد وضوحًا فى مصر ، حيث كان الأقباط المسيحيون يسيطرون على الإدارة المالية، على حين كان بعض ضباط الجيش من المسيحيين الأرمن .

لقد كان الموقف السياسى فى المنطقة العربية عشية الحملة الصليبية الأولى أشد تعقيدًا من الموقف الدينى : والواقع أنه لايمكن فصل الموضوعات السياسية والدينية عن بعضهما بسهولة فى السياق الإسلامى . فقد كانت أهم الملامح المميزة للتاريخ الإسلامى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر انهيار إمبراطورية السلاچقة الكبار. فبعد موت ملك شاه، حاول الخليفة المستظهر بالله أن يلعب دور الوسيط بين الفرقاء السلاجقة المتحاربين ويستفيد من صراعاتهم بزيادة سلطته المستقلة فى بغداد. وبالمثل ، وفى كل مكان آخر فى الإمبراطورية السلجوقية المنهارة ، كان الحكام والجنود المعينون لحكم المدن والولايات السلجوقية ينتهزون فرصة الصراع بين أبناء الأسرة لكى يجعلوا من أنفسهم حكامًا مستقلين . وبعض أولئك الذين فعلوا هذا استغلوا حصولهم رسميًا على منصب الأتابك (معلم الأمير) لكى يحجبوا حقيقة اغتصابهم السلطة المستقلة . وكان الأتابك نوعًا من المربى أو المعلم العسكرى الذى يُعهد إليه بحماية ونصح أحد الأمراء الذين لم يبلغوا سن الرشد من أبناء الأسرة السلجوقية الحاكمة وربما يكون قد تم تعيينه حاكمًا على إحدى الولايات. وعلى كل حال، وكما قد يتوقع المرء، فإن الأتابكة، فى إمارة بعد أخرى، قد نحُّوا الأمراء جانبًا وانتزعوا السلطة المستقلة لأنفسهم عمليًا. وهكذا ، فإن الموصل ، مثلاً ، كانت قد وقعت فى تسعينيات القرن الحادى عشر تحت سيطرة قربوقا، الذى كان هو الأتابك بها. وفى أماكن أخرى بالعراق، وغرب إيران، وبلاد الشام ، سعى سادة الحرب الأتراك المستقلون والمرتزقة الطموحون ، وكذلك الأتابكة المغتصبون للسلطة ، لزيادة أملاكهم على حساب كل منهم الآخر.

وفى أواخر القرن الحادى عشر كانت بلاد الشام عبارة عن منطقة حرب شاسعة بين القادة والأتباع السابقين السلاجقة من ناحية والجيوش العاملة فى خدمة الخلفاء الفاطميين بمصر من ناحية أخرى. ومنذ سنة ١٠٦٤م فصاعداً دخل التركمان ، وهم قبائل بدوية تركية، بلاد الشام. ولم يكن هؤلاء التركمان تحت سيطرة السلطان السلجوقى، ولكن بعد عدة سنوات احتلت القوات السلجوقية النظامية جزءًا كبيرًا من بلاد الشام، بما فى ذلك محور المدن الإسلامية الكبرى فى داخل بلاد الشام، والممتد من حلب فى الشمال عبر حماة وحمص ، حتى دمشق فى الجنوب، وعلى أية حال، كان السلاچقة وحلفاؤهم أقل نجاحًا فى الاستيلاء على المدن الساحلية وكان الفاطميون لا يزالون موجودين على الساحل وفلسطين.

وعشية الحملة الصليبية الأولى، كانت حلب ومعظم شمال الشام، تحت حكم رضوان أو على الأقل يدعى حق حكمها، وهو ابن أخ الملك شاه. وكان لرضوان أن يخضع فيما بعد لنفوذ مندوبى الإسماعيلية الحشاشين ، ولم يكن محبوبًا باستمرار لدى أهل حلب . ولم يكن غير محبوب فى هذه المدينة فحسب ، وإنما كانت هناك معارضة لطموحاته فى بلاد الشام من جانب أخيه الأصغر دُقاق ، الذى كان الحاكم الاسمى لدمشق . وفضلا عن ذلك كانت مدينة أنطاكية غرب حلب تحت حكم الأمير ياغى سيان متحالفة مع دمشق ضد حلب . وكان سكان أنطاكية المسلمون أقلية عددية على ما يبدو ، لأنه حتى سنة ١٠٨٤م كانت المدينة مدينة بيزنطية، كذلك كانت أملاك رضوان معرضة للتهديدات بسبب طموحات كربوقا أتابك الموصل.

ويبدو أن كل مدينة تقريبًا فى بلاد الشام كان لها حاكمها الخاص بها . وكان كثير من هؤلاء الحكام من الأتراك ومن العسكريين . وهكذا كانت حمص تحت سيطرة جناح الدولة ؛ وهو واحد من الأتابكة الأتراك. ومن الجدير بالملاحظة هنا أنه على الرغم من أن معظم سكان بلاد الشام كانوا من العرب، فإن معظم أفراد النخبة العسكرية فى

المنطقة كانوا من الأتراك، ومن الأكراد بدرجة أقل. وعلى كل حال، فإنه منذ منتصف عام ١٠٨٦م فصاعداً ، كانت مدينة وحصن شيزر فى شمال بلاد الشام تحت حكم بنى منقذ، وهى قبيلة عربية شيعية المذهب على مذهب الاثنا عشرية، وكانت مدينة طرابلس وميناؤها قد نجحت فى التمرد على الفاطميين سنة ١٠٧٠م وكانت تحكمها أسرة من القضاة حتى استيلاء الصليبيين عليها سنة ١١٠٩م . وكانت غالبية سكانها من الشيعة. كذلك كان ميناء جبلة جمهورية مستقلة . وكان ميناء بيروت تحت حكم الفاطميين وكانت أساطيلهم تنقل إليها الإمدادات . كما كانت صور وصيدا وعكا تحت السيطرة الفاطمية ، ولكن منذ سنة ١٠٨٩م فقط وبشكل مرتبك ، كذلك كانت هناك حركات تمرد متكررة ضد الحكم المصرى جرت بشكل مرتبك.

أما بالنسبة للقدس، فإن أتسيز القائد التركى، كان قد استولى عليها من الفاطميين سنة ١٠٧٤م، ولكن فى سنة ١٠٩٨م ، قام الفاطميون ، منتهزين فرصة انشغال الأتراك السلاجقة بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى شمال بلاد الشام، بإعادة احتلال المدينة. ووفقًا للرحالة الفارس ناصر خسرو ، الذى زار القدس فى خمسينيات القرن الحادى عشر، كان عدد السكان حوالى عشرين ألفًا ، وكان يزورها عدد كبير من الحجاج المسلمين، الذين كانوا لسبب أو لآخر غير قادرين على الحج إلى مكة والمدينة. فقد كان بالمدينة (ولا يزال) «ثالث الحرمين» ، واختار كثير من المتدينين المسلمين الإقامة بها. وللقدس مكانة خاصة فى السيناريو الذى يتصوره بعض المسلمين للقيامة. ففى يوم الحساب عندما ينفخ فى النفير إيذانًا بالبعث للمرة الثانية ويُبعث جميع الموتى أحياء من جديد ، سيجد بنو آدم أنفسهم مجتمعين فى وادى جهنم خارج السور الشرقى للقدس. ولذلك اختار كثير من المسلمين أن يموتوا ويدفنوا بالقرب من هذا الموضع ومسجد قبة الصخرة فى حرم المسجد الأقصى ببيت المقدس الذى كان قد تم استكماله سنة ٦٩٢هـ . وأسباب بنائه غامضة ، ولكن بحلول القرن الحادى عشر

شاع الاعتقاد على نطاق واسع بين المسلمين أن البراق المجنح انطلق من الصخرة يحمل النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى رحلة الإسراء الإعجازية.

وعلى الرغم من أن الفاطميين قد أجهدوا أنفسهم بالفعل لإعادة احتلال القدس فى سنة ١٠٩٨م، فإن المدينة لم تكن ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهم . إذ كانت الرملة هى عاصمتهم فى فلسطين وكانت عسقلان قاعدتهم البحرية الرئيسية . وخارج مدن فلسطين لم تكن لهم سيطرة على الإطلاق وكان التركمان والبدو يروعون القرويين ، والتجار والحجاج من جميع الديانات. وثمة خطاب مكتوب سنة ١١٠٠م كتبه حاج يهودى أقام بمصر يكشف كيف أنه كان يحاول عبثًا أن يصل إلى القدس على مدى خمس سنوات ، ولكن عصابات البدو واللصوص جعلوا من المستحيل اجتياز الطريق إلى المدينة.

وعلى كل حال ، فإن الخطر الذى كان يواجه الحجاج فى فلسطين لم يكن السبب المباشر لقيام الحملة الصليبية الأولى . وإنما كانت المكاسب الإقليمية على حساب البيزنطيين فى آسيا الصغرى التى جناها سلطان سلاچقة الروم قلج أرسلان الأول هى التى قادت الإمبراطور أليكسيوس الأول (كومنينوس) ، إلى طلب المساعدة العسكرية من الغرب . وكان قلج أرسلان ينتمى إلى فرع منفصل من عشيرة السلاچقة وكان فرعًا على خلافات دائمة مع «السلاچقة الكبار» فى إيران والعراق . والواقع أن محاولة قلج أرسلان للإفادة من تنازع السلاچقة العظام فى أعالى العراق هى التى أدت إلى موته سنة ١١٠٧م. وفى آسيا الصغرى نفسها، تحدت سيادة سلاچقة الروم سلالة حاكمة منافسة من محاربى الحدود الأتراك، هم الدانشمند ، الذين كان مركز قوتهم فى شمال الأناضول. ولكن سلاچقة الروم والدانشمند كانوا يحكمون أراضى كان سكانها يتألفون فى غالبيتهم من المسيحيين اليونانيين .

الجهاد المسيحى والرد الإسلامى(*) :

إذا ما وضعنا فى اعتبارنا حالة الانقسام فى العالم الإسلامى، فلن تدهشنا الانتصارات المتوالية التى حققتها جيوش الحملة الصليبية الأولى فى الأناضول ، وشمال بلاد الشام وفلسطين. وعلى الرغم من تجريد الجيوش من حلب ودمشق والموصل لنجدة أنطاكيا (أثناء حصار الصليبيين لها) فى سنة ١٠٩٧م - ١٠٩٨م، فإن تحركاتها كانت عشوائية ، أما المدن الساحلية الصغرى باتجاه الجنوب فقد كانت فى حال من الضعف الشديد تحول دون مقاومتها لتقدم الصليبيين، وعندما خسر الفاطميون بيت المقدس أمام الصليبيين ربما كان هناك البعض بين المسلمين السنة رأوا فى فقدان هذه المدينة على أيدى أعدائهم الشيعة ما يرضيهم(**).

والخطاب الذى كتبه حاج يهودى تخلَّف فى مصر سنة ١١٠٠م يعطينا صورة عن الكيفية التى كانت تبدو بها الأمور فى أعقاب الغزو الصليبى للقدس مباشرة. فهو يكشف عن أن الوباء كان قد دمَّر مصر وأضعفها ، ولكن مع هذا فإن الوزير الأفضل والقائد لجيش مصر ، كان على ثقة من أنه سوف يسترد القدس فى وقت لاحق تلك السنة. وقد فشل كثير من المسلمين أيضًا فى البداية فى تقدير المغزى الكامل للحركة الصليبية ولاحتلال الصليبيين بيت المقدس. فقد انتشر مفهوم خاطئ على نطاق واسع نظر إلى الصليبيين الفرنج على أنهم قوات بيزنطية ولم يكن متوقعًا أن يبقوا فى القدس فترة طويلة . وحتى مع هذا ، وعلى الرغم من كل الانقسامات السياسية والدينية بين المسلمين وعلى الرغم من تفشى الجهل على نطاق واسع بين المسلمين بأصول الصليبيين ودوافعهم ، فقد كانت هناك غضبة سريعة ضد المجازر الصليبية التى

(*) يستخدم المؤلف هنا مصطلح «الجهاد» بدلاً من الحرب المقدسة ؛ وهو هنا يريد تشبيه الحملة الصليبية بالجهاد لأسباب تتعلق بوجهة نظره . وعلى أية حال، فإننا لانوافق على هذا التشبيه (المترجم)

(**) هذه رؤية خاصة جدا بالكاتب لانجد ما يشير إليها، ولو بشكل غير مباشر، فى مصادر ذلك العصر ، بل إن هناك دلائل تاريخية كثيرة تدل على العكس، وربما يكون عذر هذا الكاتب عدم معرفته بأن القدس بالنسبة للمسلمين جميعًا «أولى القبلتين وثالث الحرمين» (المترجم)

ارتكبت في أماكن مثل معرة النعمان ، حيث تم ذبح الكثير من السكان ، وما فعله الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس.

وقرب نهاية سنة ١٠٩٩م، قام قاضي قضاة دمشق، الهروى ، بقيادة وفد من اللاجئين إلى بغداد طلبًا لمساعدة الخليفة المستظهر . وخاطب الهروى الخليفة بشكل جعل الدموع تتساقط من عيون سامعيه ، وسرعان ما تبنى الشاعر ابن الأبيوردى خطاب الهروى ليجعل منه قصيدة مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرصةٌ للمراحم

وشر صلاح المرء دمع يفيضه   إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

أما الخليفة الذى لم يكن لديه أى جنود يمكنه أن يتحدث عنهم ، فقد كتب إلى برقياروق يطلب منه أن يفعل شيئًا ، ولكن السلطان السلجوقى ، الذى كان فى ذلك الوقت مشتبكًا فى حرب شمال إيران ضد أخيه، غياث الدين محمد ، لم يفعل شيئًا .

وفى سنة ١١١٠م قام وفد مماثل برئاسة قاضى حلب الشيعى ابن الخشاب بزيارة بغداد عازمًا على عرض رأيه فى بلاط الخليفة بوجوب القيام بتصرف جماعى مُنسق ضد الفرنج . وبدعم من الصوفية والتجار، نظم ابن الخشاب مظاهرة فى جامع الخليفة ببغداد أثناء صلاة الجمعة وتكرر هذا الفعل بعد أسبوع . ثم تم اعتراض موكب زوجة الخليفة إلى بغداد بطريقة مماثلة . واستشاط الخليفة غضبًا . حقا إن غياث الدين محمد الأول، الذى تولى حكم سلطنة السلاجقة بعد موت برقياروق سنة ١١٠٥م، وعد بأنه سوف يفعل شيئا وبدأ استعداداته للجهاد. وعلى أية حال ، فإن ضحايا الصليبيين فى بلاد الشام لم يتلقوا أية مساعدة ذات بال من أى من المتنازعين على حكم سلطنة السلاجقة .

وفى وقت مبكر بدأت الدعاية التى شنها المسلمون ضد الصليبيين شعرًا وتوافقت مع التقاليد التى حكمت موضوعات الشعر العربى المتعددة. وهكذا فإن القصائد التى تناولت أعمال التدمير والنفى التى جلبها الصليبيون كانت تميل إلى التعبير فى الشكل

الذى طوره العرب البدو قبل الإسلام فى رثاء الأطلال. وقد قيلت قصيدة من هذا النوع بعد نهب الفرنج لمعرة النعمان وذبح أهلها سنة ١٠٩٨م.

فكرة الجهـاد

على الرغـــم من أن الردود الأولى للمســـلمين على قدوم الحمــلة الصليبية كانت مرتبـكة حتمًا كما كانـت غالبًا ما تتـم فى أشـكال عتيقـــة غـير مناسبة ، فـإن بعض الزعـمـاء المسلمين توصلوا بسـرعـة إلى إدراك المغـزى الكامل للغـــزو الصليبى وانطلقوا يحاولون تنظيم حمـــلة مضــادة . وكان على بن طاهـــر السُلمى (٤٣١-٥٠٠هـ / ١٠٣٩-١١٠٦م) فقيهًا دينيًا مسلمًا ارتبـــط بالجـامع الكبـــير فى دمشق. وكان كتابه الذى يحمل عنوان «كتــاب الجهاد» (سنة ١١٠٥م) أول مقـــالة



حلب واحدة من المدن الرئيسية فى بلاد الشام المسلمة ، كانت تحكمها قلعتها الضخمة الذى يرجع الفضل فى بنائها إلى حد كبير للأسرة الزنكية والحكام الأيوبيين. وعلى كل حال هناك نقش على مدخل البوابة يخلد ذكرى إنجازات السلطان المملوكى «قلاون» قاهر عُبَّاد الصليب، إسكندر زمانه ، فاتح عواصم الفرنج، وقاهر جيوشهم.

عن الجهاد تكتب بعد وصول الفرنج إلى المنطقة العربية. وبخلاف بعض معاصريه، فإن السُلمى لم يخلط بين الصليبيين والبيزنطيين. وبدلاً من ذلك اعتبر حملة الفرنج جزءًا من «الجهاد» المسيحى من الغرب، الذى كان يهدف إلى مساعدة المسيحيين الأهالى وكذلك غزو بيت المقدس . وقدم انتصار الصليبيين فى بلاد الشام باعتباره من أعراض التدهور الأخلاقى والسياسى للمسلمين والحالة الواهنة للخلافة ، ولكنه قدم أيضًا لقرائه الثقة اليقينية فى النصر مستقبلاً ، طالما أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد تنبأ بأن المسلمين سوف يخسرون القدس برهة من الزمان ، ولكنهم لن يستردوه فحسب وإنما سوف يمضون قدمًا لفتح القسطنطينية.

كذلك كان السُلمى مدركًا للصراعات بين المسيحية والإسلام والتى كانت قائمة فى إسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا. وكان استعداده للنظر إلى الحروب الصليبية داخل سياق النضال بين الديانتين ، على امتداد كل السُبل عبر المتوسط، قد ترددت أصداؤه فيما بعد فى مؤرخة كتبها المؤرخ ابن الأثير الموصلى الذى عاش فى القرن الثالث عشر : «وكان ابتداء دولة الإفرنج ، واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلاؤهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة [١٠٨٥- ١٠٨٦م] ، فملكوا مدينة طُليطلة وغيرها من بلاد الأندلس... ثم فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة [١٠٩١-١٠٩٢] قصدوا جزيرة صقلية وملكوها ... فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة [١٠٩٦-١٠٩٧م] خرجوا إلى بلاد الشام...».

وهناك مؤرخ آخر أقام فى حلب فى بواكير القرن الثانى عشر، هو حمدان بن عبد الرحيم الذى كتب بالفعل كتابًا عن تاريخ الفرنج الذين غزوا بلاد الإسلام. ولم يصلنا كتاب عبد الرحيم سوى فى شذرات نقلها عنه المؤرخون اللاحقون . وفقدانه أمر محزن بصفة خاصة لأن ابن عبد الرحيم كان فى وضع يسمح له بأن يكتب مثل هذا الكتاب، لأنه حاز فى البداية قرية إقطاعًا من السيد الفرنجى لتل الأثارب ثم التحق فيما بعد بأول قائد عظيم للجهاد ، وهو عماد الدين زنكى.

وعلى الرغم من أن كتاب السلمى كان أول مؤلف عن الجهاد كتب استجابة للحملة الصليبية، فإنه لم يكن أول كتاب عن الموضوع . فالحجة النهائية للجهاد نجدها فى القرآن الكريم نفسه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢١٦) ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (سورة التوبة :٢٩) ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة التوبة : ٣٦) .

إن الجهاد الذى يترجم عادة فى الإنجليزية على أنه الحرب المقدسة "Holy war" يعنى حرفيا "Striving" فى اللغة الإنجليزية : أى الجهاد من أجل انتصار الإسلام. ووفقا للمذهب السنى، فإن قيادة الجهاد لتوسيع رقعة دار الإسلام قد أنيطت بالخليفة . وفى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (الثانى والثالث بعد الهجرة) كان الجهاد أحد واجبات الخليفة العباسى. إذ إن هارون الرشيد، على سبيل المثال، كان يقود قواته ضد البيزنطيين سنة ويستريح سنة لكى يحج. وكان الجهاد(*). يتم فى الأراضى الشرقية ضد الأتراك الوثنيين فيما وراء النهر ووسط آسيا وكذلك ضد الهندوس عبدة الأصنام فى شمال الهند. وكان المتطوعون فى هذه الحروب المقدسة يسمون الغزاة (مفردها غاز) . وكانوا يحاربون توقعًا للغنائم ، أو الشهادة إذا ما سقطوا أثناء المعركة.

(*) استخدم الكاتب كلمة "Jihads" (أى جهادات) ، وهو ما يعنى أنه يظن أن الكلمة تُطلق على الحملة الواحدة ، شأنها شأن «الحملة الصليبية Crusade»، مما يشى بعدم فهمه تمامًا لمعنى الجهاد . (المترجم)

و«بحر الفضائل» كتاب موسوعي يميل إلى الوعظ من نوع أدبي لتثقيف الأمراء كتبه في الخمسينيات أو ستينيات القرن الثاني عشر كاتب فارس مجهول، ربما كان مقيما في حلب تحت حكم نور الدين. وبما أن المؤلف كان مهتمًا بالنضال ضد الفرنج في بلاد الشام بشكل واضح ، فإنه يرسي المذاهب والترتيبات المتعلقة بالجهاد، حسب المفهوم السائد في منتصف القرن الثاني عشر. وهناك نوعان من الجهاد : فهناك الجهاد الداخلي ضد أخطاء المرء الأخلاقية وجهاد خارجي ضد الكفار . ووفقا لكتاب «بحر الفضائل» – وهنا يعكس ، مثلما هو الحال في أي كتاب آخر، التفكير التقليدي في الموضوع– هناك نوعان من الجهاد الخارجي. أولهما ، هناك الجهاد الهجومي . وهو واجب جماعي فرض على الجماعة المسلمة أن توسع من نطاق دار الإسلام. وسوف يرغب بعض المسلمين في المشاركة في هذه الحملات الهجومية ضد جيرانهم من غير المسلمين ؛ وعلى جميع المسلمين مساندتهم بالأموال والعتاد، ثانيهما هناك الجهاد الدفاعي لرد المعتدين الذين احتلوا أراضي المسلمين. وهذا النوع من الحرب الدفاعية فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر على القتال .

ويبحث كتاب «بحر الفضائل» حقوق أولئك الذاهبين للجهاد وواجباتهم بقدر من التفصيل. إذ يجب أن يحصل المحارب على إذن من والديه إذا ما كان قاصرًا . فإذا ما كان متزوجًا فلابد من أن يتأكد من أن زوجته مستعدة لذلك بشكل صحيح ، ولايجب أن ينتظر أجرًا . (وربما يدفع بيت المال أجرًا للنصارى واليهود لكي يحاربوا في صفوف المسلمين). ولايجب على المسلم أن يفرَّ من ميدان المعركة إذا ما واجه أكثر من اثنين من الكفار. ولايجب قتل النساء والأطفال .

أما القواعد المتعلقة بالغنائم فهي معقدة إلى أقصى حد. وهنا تبدو بعض مزاعم كتاب «بحر الفضائل» غريبة . فهو يجادل بأنه حتى الحيوانات التي تشارك في الجهاد

تستحق أن تحصل على مكافأة ، ومكافأة الفيل يجب أن تكون أكبر من تلك التى ينالها جمل أو حمار. وفى مواضع أخرى من الكتاب، يصرُّ المؤلف، ومن الواضح أنه أحد العلماء ، على أن الفقهاء لهم الحق أيضًا فى الغنائم التى تم كسبها فى الحرب ضد الكفار: فيقول إنه ينبغى الانتباه لئلا يظن أحد أن الغازى هو فقط الذى يشرع سيفه بيده ويواجه الكفار ؛ لأن العالم فى أحد المساجد وفى محراب يمسك بيده قلمًا ويعرف براهين الإسلام، محارب وقلمه أمضى من السيف. وعلى الرغم من أن مؤلف «بحر الفضائل» يحتقر المسيحيين ويحطُّ من شأنهم ، فإنه يرى أن الزنادقة بين المسلمين أشد خطرًا . ويرى أن إراقة دماء الزنادقة يعادل سبعين غزوة تحت راية الجهاد .

وبينما جادل بعض المنظرين فى العصور الوسطى بأن الجهاد كان حربًا دفاعية فقط، فإن هذه كانت وجهة نظر الأقلية على حين كان معظم الفقهاء يرون أن فرض الجهاد لايسقط حتى يدخل العالم كله فى دين الإسلام. ويصرُّ كتاب «بحر الفضائل» على أن أول واجب للحاكم المسلم هو الجهاد وتحقيق النصر للإسلام، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يدخل فى صلح مع الكفار، وهو ما يعنى أن من الأفضل أن يموت الحاكم لا أن يظل على قيد الحياة، لأنه سيكون من المفسدين فى الأرض . وعلى أية حال ، فإن مؤلف الكتاب اعترف بأنه مهما كان التنظير الدينى الذى يطمح إليه، فإن الفرنج فى بلاد الشام واصلوا الازدهار والتقدم على حين كان المسلمون يشنون الحرب على المسلمين(*).

(*) اختار الكاتب كتابًا ثانويًا لمؤلف مجهول لكى يأخذ منه فكرته عن الجهاد ، وتجاهل كبار الفقهاء المسلمين، والآيات القرآنية الكثيرة الواردة عن الجهاد، والكثير من الكتب والرسائل التى كتبت فى هذا الموضوع، ولذلك جاء عرضه لفكرة الجهاد على هذه الصورة المتهافتة . وقد التزمنا بعرض أفكار كاتب هذا الفصل كما هى . (المترجم)

وفى الفقه الشيعى يكون من حق الإمام وحده الدعوة إلى الجهاد الهجومى، وبما أن الإمام مستور ، فإن هذا الواجب المخصوص معطل حتى اقتراب يوم القيامة، وهكذا ، على سبيل المثال، فإنه على الرغم من أن الفاطميين الشيعة وبنى منقذ الشيعة الاثنى عشريين سادة شيزر، اشتبكوا مراراً وتكراراً فى معارك ضد الصليبيين، فإن الجهاد لم يلعب دوراً فى ايديولوچيتهم. وكذلك ، كان كثير من المسلمين ، لاسيما من الشيعة والصوفية ، يؤكدون على أن الجهاد الخارجى يأتى فى المرتبة التالية بعد الجهاد ضد الشر داخل روح الإنسان ذاته .

وأكد الدعاة إلى الجهاد على المكانة الخاصة للقدس فى الإسلام . وفى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر تمت كتابة مقالات تم تكريسها للحديث عن فضائل القدس، أو فلسطين، أو بلاد الشام كلها . ومثل هذه المقالات اعتمدت على كتب مشابهة كُتبت أثناء الحروب العربية ضد البيزنطيين . وهناك موضوع قريب من هذا يتناول «الزيارات» ، إلى مشاهد الأنبياء والشهداء والأولياء الصالحين فى أراض تصادف حينذاك أنها كانت تقع داخل الأراضى التى يحتلها الفرنج الكفار.

الجهاد فى الممارسة العملية

كان تاريخ المنطقة العربية كلها فى الفترة من تسعينيات القرن الحادى عشر إلى تسعينيات القرن الثالث عشر محكوماً سياسياً بسقوط السلاچقة ، وصعود الخوارزمية وسقوطهم ، وقدوم المغول. وشهدت الفترة نفسها النصر السياسى الواسع لحماة السنة على الشيعة. وبصفة خاصة، ثم تدمير القوة الإقليمية للحشاشين فى إيران أولاً ثم فى بلاد الشام. وعلى الرغم من أنه سيكون من عوامل التضليل بشكل خطير أن نضع هذه الفترة من تاريخ المنطقة العربية تحت لافتة «عصر الحروب الصليبية» ، فإنه لا يزال حقًا أن تاريخ بلاد الشام ومصر فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر هو فى الأساس قصة الاتحاد المتنامى لتلك الأراضى الإسلامية رداً على التحدى الذى فرضته المستوطنات اللاتينية بوجودها .

إذ لم يُترك مسلم واحد فى القدس بعد أن كان الصليبيون قد ذبحوا أو أسروا السكان المسلمين جميعًا سنة ١٠٩٩م؛ وفيما بعد تمت دعوة المسيحيين العرب من شرق الأردن للاستقرار فى القدس لإعادة السكان إلى المدينة. وفى بعض الأماكن ، مثل الرملة، هرب السكان مقدمًا قبل قدوم الصليبيين . وفى البلدات والقرى الأخرى فضلوا البقاء. وقد جلبت المستوطنات الصليبية انضباطًا أفضل إلى المناطق الساحلية ودرجة من الحماية للمزارعين من غارات البدو والتركمان . أما المسلمون الذين بقوا فى الأراضى التى استولى عليها الصليبيون فكان عليهم أن يدفعوا ضريبة رأس معينة، على عكس الموقف فى الأراضى الإسلامية حيث كان على المسيحيين واليهود أن يدفعوا الجزية. ومن ناحية أخرى ، وبخلاف المسيحيين اللاتين، لم يكونوا يدفعون ضريبة العشور. وقد مرَّ ابن جبير، الحاج المسلم إلى مكة قادمًا من الأندلس، فى طريق عودته إلى وطنه بأراضى مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ١١٨٤م ، وزعم أن الفلاحين المسلمين كانوا يلقون من الفرنج معاملة حسنة ويدفعون ضرائب أقل مما كان يدفعه الفلاحون تحت حكم حكامهم المسلمين المجاورين بل إنه ظن أنه ربما كان هناك خطر طويلُ المدى من أن يتحولوا إلى المسيحية(*).

ومع هذا، فإن الأدلة لا تسير كلها فى اتجاه واحد، بل إنه فى بعض تلك المناطق التى اختار المسلمون البقاء بها، كانت هناك حركات تمرد تالية وعمليات نزوح جماعية.

(*) يقول نص ابن جبير : «ورحلنا من تبنين، دمرها الله ... وسكانها كلها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولايعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضًا ... وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ، أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله، فإلى الله المشتكى من هذه الحال..».

(الرحلة، طبعة دار صادر- بيروت ١٩٦٤، ص٢٧٤- ص٢٧٥) . (المترجم)

فقد كانت هناك حركات عصيان بين المسلمين بإقليم نابلس سنة ١١١٣م، وفى ثلاثينيات وثمانينيات القرن الثانى عشر فى منطقة جبل بحره ، وفى سنة ١١٤٤م فى المنطقة الجنوبية من شرق الأردن. وفى وقت لاحق من القرن الثانى عشر كانت هناك انتفاضات فلاحية فى فلسطين تصادفت مع هجمات صلاح الدين. وفى خمسينيات القرن الثانى عشر، وبعد عدة احتجاجات ضد عمليات اغتصاب الأملاك والمظالم التى ارتكبها حاكم ميرابل ، قام سكان القرى الثمانى فى إقليم نابلس بالنزوح الجماعى وهربوا إلى دمشق عبر نهر الأردن . وقد استقر هؤلاء ومن سبقهم من اللاجئين فى مدن الداخل، لاسيما فى بعض أحياء حلب ودمشق ، حيث شكلوا جماعة ضغط صاخبة لشن الجهاد الذى سيعيد إليهم منازلهم. وكانوا يتطلعون إلى قائد يقود عملية الجهاد.

كان إيلغازى ، أول مرشح معقول يقدم نفسه للقيادة ، عضواً فى عشيرة أرتُق ، التى كانت واحدة من الجماعات القبلية التركية الكثيرة التى انتهزت فرصة انهيار الإمبراطورية السلجوقية لكى تنشئ لنفسها إمارات إقليمية صغيرة . وكان يحكم ماردين عندما طلب منه أهالى حلب سنة ١١١٨ أن يتولى أمر مدينتهم ويدافع عنها ضد روچر حاكم أنطاكيا الصليبى. وأخذ إيلغازى الأيمان والقسم من أتباعه التركمان بأن يحاربوا تحت راية الجهاد وذهب ليحرز أول نصر إسلامى فى ساحة الدم. وعلى أية حال ، فقد أخفق إيلغازى من عدة وجوه فى التوافق مع الصورة المثالية لقائد حركة الجهاد . إذ إنه لم يكن سكيراً يعاقر الخمر فقط، ولكنه كان فى الحقيقة أكثر اهتماماً بتدعيم سلطته الخاصة حول ماردين منه بتدمير إمارة أنطاكية . ومات إيلغازى سنة ١١٢٢م دون أن يرتقى إلى مستوى الآمال التى عقدها الحلبيون عليه .

أما عماد الدين زنكى ، أتابك الموصل (١١٢٧-١١٤٦م)، فكان أكثر توفيقاً فى طرح نفسه زعيماً لحركة الجهاد. وكتب المؤرخ ابن الأثير الذى عاش فى الموصل فى

القرن الثالث عشر أنه لو لم ييسر الله سبحانه وتعالى برحمته فتح الشام على يدى الأتابك عماد الدين زنكى لكان الفرنج قد اجتاحوها تماما. وقد تحرك زنكى لاحتلال حلب سنة ١١٢٨م. وإذْ كان أهلها خائفين من كل من تهديدات طائفة الحشاشين داخل المدينة وتهديدات الفرنج خارجها، فإنهم لم يقاوموه . وكان زنكى مثل كثير من الأتابكة الذين عينهم السلاجقة ، فقد استفاد من موقعه لكى يؤسس إمارة مستقلة فعليًا فى شمال العراق وبلاد الشام. وفى هذه الإمارة قلد زنكى نظم ومؤسسات سلاطين السلاجقة فى إيران . وكان مثل السلاجقة يرعى هو وموظفوه تأسيس المدارس والخانقاوات.

كانت المدرسة ، التى ترجع أصولها إلى الأراضى الشرقية للسلاطين السلاجقة، مؤسسة تعليمية لها أساتذتها المتخصصون فى الدراسات القرآنية والشريعة . وكانت مؤسسة سنية تمامًا والواقع أن أهم أهدافها كان مواجهة الدعوة الشيعية . أما الخانقاه (والتى عرفت أيضا باسم الزاوية) فكانت مساكن للصوفية يقيمون بها، ويدرسون ويمارسون طقوسهم . وقيض للصوفية أن يلعبوا دورًا مهمًا فى الحروب ضد الصليبيين. وكان تكاثر المدارس والخانقاوات فى بلاد الشام تحت حكم زنكى وخلفائه جزءًا من حركة أوسع للإحياء الأخلاقى، فيها كرس الحكام وأعضاء النخبة الدينية أنفسهم للقضاء على الفساد والهرطقة فى المجتمع المسلم، باعتبار ذلك جزءًا من الجهاد الأكبر الذى كانت له أهداف أوسع كثيرًا من مجرد إزاحة الفرنج من الشريط الساحلى لفلسطين. وكتاب «بحر الفوائد» الذى ناقشناه فى الصفحات السابقة ، يعكس بأمانة أيديولوچية ذلك العصر. فبالإضافة إلى الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنج فهو يحض قراءه على عدم قراءة الكتب العابثة ، وعدم الجلوس على الأراجيح، وارتداء الثياب الناعمة، وعدم الشرب فى أكواب من الذهب، وعدم التفوه بالنكات غير اللائقة، وما إلى ذلك.



محاربون مسلمون يقاتلون . على الرغم من أن العرب البدو كانوا نادراً ما يرتدون الدروع، فإن الفرسان المسلمين المحترفين كانوا يرتدون صديريات الزرد (سلاسل الصلب) التى كانت تشبه كثيراً ما يلبسه أعداؤهم الصليبيون. فى هذا الرسم المصرى الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر يظهر المحاربون الفاطميون وهم يحملون نفس نوع الدروع التى كان يفضلها معاصروهم الغربيون.

وعلى الرغم من أن الأتقياء المسلمين، لاسيما فى حلب، كانوا ينظرون إلى زنكى باعتباره رجل القدر والقائد الجديد للجهاد ، فإنه طوال الشطر الأكبر من حياته العملية لم يفعل الكثير لتحقيق توقعاتهم والحقيقة ، إنه قضى معظم وقته يحارب منافسيه من

المسلمين. وكان يأمل بشكل خاص فى أن يضيف دمشق إلى أملاكه فى بلاد الشام، ولكن حاكم دمشق معين الدين أنُر، استطاع أن يعرقل طموحات زنكى بالتحالف مع مملكة بيت المقدس. وعلى أية حال ، ففى سنة ١١٤٤م، استطاع زنكى بالفعل أن يسترد مدينة الرها من الصليبيين. وقد كتب المؤرخ ميخائيل السوريانى مرثية بمناسبة سقوط الرها قال فيها : **«بقيت الرها صحراء، مشهدًا متحركًا يغطيه رداء أسود، أسكرتها الدماء وغصت بجثث أبنائها وبناتها ! لقد جرى مصاصو الدماء وغيرهم من الوحوش الضارية ودخلوا المدينة فى الليل لكى يولموا وليمة من لحوم من راحوا ضحية المذبحة ، وصارت مسكنًا ومقرًا لبنات آوى؛ لأن أحدًا لم يدخل هناك سوى أولئك الذين كانوا يحفرون بحثًا عن الكنوز».**

ولكن حسب رواية ابن الأثير عندما تفقد زنكى المدينة أعجبته وأدرك أنه لن يكون من حسن السياسة أن يدمر مثل هذا المكان. ومن ثم أصدر أوامره لرجاله بأن يعيدوا كل رجل وامراة وطفل إلى منازلهم ومعهم كل ما سُلب منهم ، وأعيدت المدينة إلى حالتها السابقة ووضع زنكى حامية للدفاع عنها.

وقد خلف زنكى ، الذى اغتاله أحد العبيد سنة ١١٤٦م، فى حكم حلب ابنه نور الدين محمود، وكان نور الدين بمساعدة فريق من المتحمسين للجهاد داخل أسوار دمشق، هو الذى دخل ظافرًا إلى هذه المدينة سنة ١١٥٤م . وهناك أمر نور الدين بعمل منبر لكى يوضع فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، توقعًا لفتح المدينة الوشيك على أيدى جيوشه. وعلى أية حال، فإن غزو مصر برهن على أنه أولوية مُلِحَّة . إذ كانت عسقلان قد سقطت فى أيدى الفرنج سنة ١١٥٣م، مما وفر للأساطيل الصليبية ميناء على مسافة تتيح له ضرب دلتا النيل . وكان الخلفاء الفاطميون فى مصر قد صاروا دمى عاجزة بأيدى الوزراء العسكريين المتحاربين والفرق العسكرية ذات التقسيمات العرقية. وكان هناك بمصر فى خمسينيات وستينيات القرن الثانى عشر من يحبذون الاتفاق مع مملكة بيت المقدس لضمان مساعدتها فى دعم نظام الحكم الفاطمى،

على حين كان البعض الآخر يفضلون طلب المساعدة من نور الدين في دمشق لصد الكفار.

ظهور صلاح الدين

في نهاية الأمر كان هناك جيش مسلم أرسله نور الدين نجح في الاستيلاء على السلطة في مصر وقضى على الطموحات الصليبية في المنطقة . بيد أن نور الدين نفسه لم يربح سوى أقل القليل من نجاح حملته العسكرية ، إذ إن الجيش الذى كان معظمه من الأتراك والذى أرسله إلى مصر كان تحت قيادة مجموعة مختلطة من الأتراك والأكراد، وكان أحد الضباط الأكراد، وهو صلاح الدين من عشيرة أيوب الكردية، هو الذى حظى بالسيطرة الفعلية وعُيِّن وزيراً في مصر سنة ١١٦٩م . وقد أنهى صلاح الدين حكم الفاطميين على مصر ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت الدعوة في الصلاة الجامعة باسم الخليفة العباسى في بغداد وباسم نور الدين محمود سلطان دمشق . وفى مصر كان المذهب الشيعى شأنا خاصاً بالنخبة وحتى في ذلك الحين كان هناك مسلمون كثيرون من السنة أصحاب السلطة، ومسيحيون ويهود. وعلى الرغم من أنه كانت هناك مقاومة قليلة لعودة المذهب السنى، فإن صلاح الدين وخلفاءه كانوا حريصين على إعادة المذهب السنى عن طريق المدارس ورعاية الصوفية.

كان صلاح الدين مستعداً على الدوام لإعلان الولاء لنور الدين محمود، ولكنه كان أقل إقداماً في إمداد سيده فعلاً بالمال والمساعدة العسكرية التى طلبها منه مرات ومرات . وعندما توفى نور الدين محمود في سنة ١١٧٤م ، تقدم صلاح الدين ودخل دمشق وأحل نفسه محل ابن نور الدين. ويمكن فهم الجزء الأكبر من حياة صلاح الدين بوصفه حاكما لمصر ودمشق على أفضل وجه في ضوء محاولاته الفاشلة لأخذ الموصل من الأمير الزنكى الذى يحكمها وثانياً في ضوء سعيه لأن يخلق إمبراطورية تحكمها عشيرته . وكان عليه أن يرضى توقعات أقاربه الأيوبيين بأن يقتطع لهم إقطاعات .

هذه الإمبراطـورية العشائرية تم بناؤها إلى حد كبير على حســـاب جيـــران صـــلاح الدين المسلمين فى بلاد الشام والعراق واليمن(*) . وطوال حياة صـــلاح الدين كان جزء كبير من مـــوارده مكـــرسًا لتحقيق توقعات أقاربه وأتباعه . لقـــد كان الكرم من الصفات الجوهرية التى ينبغى توفرها فى الحاكم المسلم فى العصور الوسطى .

وعلى أية حال ، كان صلاح الدين أيضا تحت ضغط نوع مختلف من المثاليين الأتقياء واللاجئين من فلسطين بإعلان الجهاد ضد المستوطنات اللاتينية . وكان المفكرون المدنيون البارزون من أمثال «القاضى الفاضل» وعماد الدين الأصفهانى ، وكلاهما كانا من العاملين فى بلاط صلاح الدين، يزعجان سيدهما ، ويحثانه على وقف القتال ضد الجيران المسلمين وأن يوجه جيوشه ضد الكفار . وكان القاضى الفاضل وتابعوه فى الديوان يحولون هذا الديوان إلى أداة رئيسية للدعاية لصلاح الدين، ومن خلال الخطابات التى كانت ترسل إلى جميع أرجاء العالم المسلم، قدموا أنشطة صلاح الدين على أنها تهدف إلى هدف واحد نهائى ، وهو تدمير الإمارات اللاتينية . وعندما قام أعضاء من بيت زنكى وغيرهم من أعداء صلاح الدين بمهاجمته واتهموه باغتصاب الحكم وبأنه يحابى أقاربه ويعكف على توسيع مصالح عائلته ، استطاع مؤيدو صلاح الدين أن يشيروا إلى قيامه بالجهاد الذى أسبـــغ الشرعية على توليه السلطة. وحتى مع هذا لم يكن صلاح الدين نشـــيطًا حقًا فى الميدان ضد الفرنج الصليبيين حتى سنة ١١٨٣م ؛ بعد أن اعترفت حلب الزنكية بسيادته .

(*) يكتب الكاتب وفقًا للمفاهيم الغربية التى لاتضع فى حسبانها المفاهيم الإسلامية عن الجهاد وعن أهمية توحيد الجهود فى مواجهة عدو غاصب جاء من بلاد تبعد مئات الأميال، ومن ناحية أخرى أثبتت تجارب مقاومة الكيان الصليبى، قبل صلاح الدين وبعده ، أن توحيد الجهد هو السبيل الوحيد للانتصار فى المواجهة. (المترجم)

جيوش صلاح الدين

على الرغم من أن الجيوش التى قادها صلاح الدين ضد الإمارات اللاتينية كانت من الوجهة الرسمية مكرسة للجهاد، فإنها لم تكن مكونة من «الغزاة». وبدلاً من ذلك ، كان جيش صلاح الدين مثل جيوش عماد الدين زنكى ونور الدين محمود، يتكون أساسًا من الجنود الأتراك والأكراد المحترفين وكان معظم الأمراء يتلقون إقطاعًا، أى حق جمع عائد الضرائب المفروضة على قرية ، أو ضيعة أو منشأة صناعية معينة، ويحتفظون بالعائد لأنفسهم فى مقابل القيام بالخدمة العسكرية . وعلى الرغم من أنهم كانوا يتلقون الإقطاعات، فإنهم كانوا يتوقعون أيضا أن يأخذوا بعض المنح والعطايا عند القيام بحملة عسكرية. وبالإضافة إلى ذلك ، كان المماليك يشكلون جزءًا مهمًا من قوات النخبة لدى صلاح الدين ، كما كان شأنهم فى كل جيش مسلم تقريبًا فى العصور الوسطى. كما كان صلاح الدين ومعاصروه يحبذون المرتزقة ، بل إن السلاجقة فى الأناضول استفادوا من المرتزقة الفرنج . وأخيرًا ، كانت أعداد جيوش صلاح الدين تتضخم أثناء الحملات العسكرية بانضمام كتائب قبلية من البدو والتركمان الذين كانوا يحاربون بوصفهم خيالة خفيفة على أمل الحصول على الأسلاب والغنائم.

كانت قوات النخبة من الأتراك خبراء فى استخدام القوس المنحنى المركب المصنوع من طبقات من العظام القرنية والأوتار وعادة ما كان طولها يبلغ مترًا عندما لايكون مشدودًا . كان القوس التركى، مثل القوس الإنجليزى الطويل، لم يكن ممكنا لأى أحد أن يتعامل معه إلا بعد تدريب ولابد أن تكون عضلاته قوية بما يكفى . وبخلاف القوس الإنجليزى كان القوس التركى سلاحًا هجوميًا للخيالة وله قوة اختراق أكثر ومرمى أهداف أطول من القوس الطويل. وعلى أية حال ، كانت جمهرة البدو والتركمان من القوات المساعدة يستخدمون أقواسًا أكثر بساطة ، وكانت سهامها أقل كثيرًا فى قوتها، ومن ثم كانت هناك روايات عن الصليبيين الإنجليز الزاحفين تجاه أرسوف سنة ١١٩١م ، الذين غطتهم السهام لدرجة أنهم بدوا كما لو كانوا مجموعة

من الخنازير التى يُجز صوفها ، على الرغم من أنه لم ينلهم أذى على نحو أو آخر. وعلى العموم كانت القوات المسلمة فى الاشتباك المتلاحم تستخدم حربة خفيفة ، أو رمحًا، أو سيفًا . وعلى الرغم من أن معظم الرجال لم يكن يحميهم سوى درع من الجلد - إذا توفر- فإن الأمراء والمماليك الذين يضعون دروعًا مصفحة أو من الزرد كانت تتوفر لهم حماية ثقيلة بقدر ما تتوفر لخصومهم الفرسان. ومع استثناء استخدام الثقل المضاد للمنجنيق لقذف القذائف لأغراض الحصار لم تكن هناك ابتكارات مهمة فى التكنولوچيا العسكرية الإسلامية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

مكيدة عربية شامية فى عصر صلاح الدين :

يلقى «كتاب الاعتبار» (لأسامة بن منقذ) ضوءًا مثيرًا على المواجهات بين المسلمين والصليبيين(*) فى ميدان القتال وفى خارجه . إذ إن مؤلفه الأرستقراطى أسامة بن منقذ كان مولودًا فى شيزر شمال الشام سنة ١٠٩٥م ، وتوفى ١١٨٨م. وكان قد بلغ التسعين من عمره، أو كاد، عندما كتب مقالته عن أن القدر الإلهى يحسم كل الأمور ولاسيما عمر الإنسان، وبما أن معظم العبر مأخوذة من حياة أسامة نفسه، فإن الكتاب يظهر كأنه سيرة ذاتية . وإذا ما نظرنا إليه هكذا بدا كتابًا حافلاً بالثغرات والنقص ، يقدم رواية متقطعة عن تعاملاته العديدة مع الفرنج . والحقيقة أنه خلال الأربعينيات الباكرة من القرن الثانى عشر، كان أسامة وراعيه معين الدين أنر، حاكم دمشق ، على اتصال منتظم بالملك فولك، وزارا مملكة بيت المقدس فى مهمة دبلوماسية . بيد أن العمل كان يختلط بالمتعة غالبًا، ومع كل اللعنات التى صبها أسامة على الفرنج، فإنه كان يخرج معهم للصيد، وسنحت له فرص عديدة للتعرف عليهم اجتماعيًا .

(*) يستخدم الكاتب كلمة المسيحيين فى النص الأصلى Christians، وهو احتكار للمسيحية لامعنى له، لأن الصليبيين ليسوا هم كل المسيحيين بطبيعة الحال. (المترجم)

ووفقًا لرواية أسامة فإن « ... **الفرنج ، خذلهم الله، ليس فيهم من فضيلة سوى الشجاعة...**» بيد أن أسامة نفسه كان يُعلى هذه الفضيلة على سواها، وفى روايته المتوازنة بشكل لافت للنظر عن عادات الفرنج ، فإنه يتجشم عناء الإشارة إلى الجوانب السلبية والإيجابية على السواء. فمن ناحية ، بعض الممارسات الطبية الفرنجية غبية وخطيرة ؛ ومن ناحية أخرى تعمل بعض أدويتهم جيداً بشكل لافت . ومن ناحية ، تبدو الإجراءات القانونية الفرنجية عن طريق المبارزة شاذة وعبثية ؛ ومن ناحية أخرى ، نال أسامة نفسه العدالة من محكمة فرنجية . ومن ناحية، يتصرف بعض الفرنج الذين وصلوا حديثًا إلى الأرض المقدسة تصرفات الهمج البرابرة ، ومن ناحية أخرى، هناك من الفرنج من هم أصدقاء أسامة والذين يفهمون الإسلام حقًا.

وبينما يختار أسامة التركيز على المرات الكثيرة التى كان قد واجه الفرنج فيها فى قتال التحامى ، فإن كتابه يخلو من أية إشارة إلى الجهاد. وفى جزء منه قد يعكس هذا حرجًا بأثر رجعى عن تعاملاته الدبلوماسية مع الفرنج ، ولكن الحاصل أيضا أن أسامة كان، مثل بقية بنى منقذ ، مسلمًا شيعيًا ومن ثم لم يكن يؤمن فى الصلاحية الدينية الخاصة للجهاد الذى يُشن تحت قيادة محارب مغتصب مثل صلاح الدين(*).

وبالصدفة ، كتب عدد كبير من معاصرى أسامة ، من شهود العيان على الحروب الصليبية، سيرهم الذاتية ، التى لانعرف عنها سوى من الاقتباسات الواردة فى كتب الآخرين. وقد كتب عبداللطيف البغدادى (١١٦١-١٢٣١م) ، وهو طبيب عراقى، كتابًا من هذا النمط. ولو أن هذا الكتاب قدر له البقاء، فربما كان أكثر إثارة من سيرة أسامة بن منقذ الذاتية ، لأن عبد اللطيف البغدادى ، الذى كان رجلاً ذكيًا غير عادى عاش حياة مثيرة ، قد زار صلاح الدين فى أثناء حصار عكا ثم زاره فيما بعد فى بيت

(*) هذا تخريج بالغ الغرابة من كاتب هذه المقالة الذى لايخفى انحيازه فى دراسة علمية، ولم يكن هناك فى سيرة أسامة بن منقذ ما يشير - من قريب أو بعيد- إلى توتر علاقته بصلاح الدين أو غيره . وعلى أية حال، فإن هذا التخريج لايجد ما يسنده من حقائق التاريخ ويبقى مجرد اجتهاد من الكاتب . (المترجم)

المقدس بعد الصلح مع ريتشارد . وكتب عبد اللطيف أيضاً رسالة فى الكيمياء، ناقش فيها اعتقاد الكيمائيين بأن الإكسير (الذى اعتقدوا أنه يحول المعادن الخسيسة إلى ذهب) يوجد فى مقلة عيون الشباب . وتذكر عبد اللطيف البغدادى أنه كان حاضراً فى أعقاب إحدى المعارك بين الصليبيين والمسلمين وهو يرى الكيمائيين المنظفين يتحركون ما بين جثة وأخرى فى الميدان الدموى، وينتزعون مقلات العيون من الكفار الموتى.

شعراء الحرب

كان أسامة بن منقذ شهيراً فى زمانه ليس باعتباره كاتب سيرة ذاتية ، ولكن باعتباره شاعراً . وعلى الرغم من أنه كان قد درس القرآن بعناية، فإن قيمه الأخلاقية كانت مستمدة جزئياً فقط من القرآن ومن قانون السلوك الذى التزم به واللغة التى وصف بها معاركه مع الفرنج وغيرهم تدين على الأقل بالكثير لتقاليد شعر البدو العرب فى الحجاز قبل الإسلام.

وفى هذا الصدد لم يكن أسامة مختلفاً عن الكثير من الأنصار البارزين لحركة الجهاد الإسلامية(*). وكانت مجموعة المستشارين حول صلاح الدين فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثانى عشر تضم بعض أبرز الكتاب فى القرن الثانى عشر . ولم يكن عماد الدين الأصفهانى، الذى عمل فى بلاط صلاح الدين، مجرد مؤرخ للمديح والإطراء، ولكنه كان أيضاً واحداً من أشهر شعراء العصر . أما القاضى الفاضل ، رئيس ديوان الإنشاء فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، فكان أسلوبه النثرى المسجوع المثقل بالمجاز محل تقليد الكتاب العرب على مدى عدة قرون تالية .

(*) استخدم الكاتب هنا مصطلح الصليبية المضادة الإسلامية Muslim Counter - Crusade وهو مصطلح غريب حقاً. (المترجم)

وقيل إن أسامة بن منقذ كان يحفظ عن ظهر قلب حوالى عشرين ألف بيت من الشعر الجاهلى . كانت قوة ذاكرة أسامة استثنائية . ولكن حتى صلاح الدين الذى كان مغامرًا عسكريًا كرديًا(*)، كان مع هذا عارفًا بالأدب العربى. ولم يكن صلاح الدين يحمل فقط مجموعة من أشعار أسامة معه أينما ذهب ، ولكنه كان يحفظ «ديوان الحماسة» لأبى تمام (٨٠٦-٨٤٥م) ، وكان يسره أن يقتبس منه ويستشهد به . وكان أبو تمام قد جمع الأشعار البدوية وقدمها لقرائه دليلاً إلى السلوك الطيب . وفى الفترة الأيوبية اعتاد الناس على حفظها عن ظهر قلب ولم يكونوا يكلفون أنفسهم مشقة وضعها على رفوفهم . ووفقا لأبى تمام «السيف أصدق إنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب» . والقصائد التى اختارها تحتفى بالقيم العربية التقليدية ، ولاسيما الشجاعة ، والرجولة والكرم.

وبصفة أكثر عمومية فإن الأنواع ، والصور، والمجاز، والأوضاع العاطفية التى كان شعراء الجاهلية روادها ساعدت على إملاء أشكال الشعر الذى يخلد ذكرى الهزيمة والنصر فى الحرب ضد الصليبيين بل تشكيل صورة الذات عند النخبة من المحاربين المسلمين . وهكذا تطورت هذه العبارات المجازية للتفاخر بالقتال المباشر والنجاحات الصغيرة للإغارات على ظهور الجمال فى شبه الجزيرة العربية القرن السابع الميلادى وتم إحياؤها وأعيد تطبيقها على الجهاد الذى قام به محاربون من أجناس مختلطة ومن أشباه المحترفين فى الشام ومصر . وقد اشترك أقارب صلاح الدين وخلفاؤه معه فى أذواقه وكتبت قلة قليلة منهم الشعر بأنفسهم. والصالح نجم الدين أيوب، آخر سلطان أيوبى كبير على مصر (١٢٤٠-١٢٤٩م) استخدم اثنين من كبار الشعراء عملا مستشارين له هما بهاء الدين زهير وابن مطروح .

(*) يكتب هذا الكاتب بلغة منحازة تجافى الأصول الأكاديمية ؛ صحيح أن صلاح الدين كان كرديًا ؛ ولكنه لم يكن مغامرًا عسكريًا . كما أن الأكراد ، من ناحية أخرى، نسبوا أنفسهم إلى أصول عربية. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الجهاد، وهو من الفروض الإسلامية، كان هو الذى يستدعى قتال الفرنج الصليبيين ولم يكن هناك أساس عرقى أو قومى فى هذا (المترجم)

التبادل الثقافى

كان الأرستقراطيون من المسلمين والفرنج قادرين على الاستمتاع بصحبة كل منهما الآخر وقد يخرجون للصيد سويا. كذلك كان هناك قدر كبير من التجارة بين المسلمين والصليبيين ، - وبصفة خاصة - التجار الذاهبين والعائدين ما بين دمشق وميناء عكا الذى كان بأيدى الصليبيين. وقد لاحظ الرحالة ابن جبير أن **«أهل الحرب فى حربهم والدنيا فى عافية»** . وعلى أية حال ، فإنه على الرغم من أنه كانت هناك اتصالات عديدة بين المسلمين والصليبيين ، فقد كان هناك قدر قليل من التبادل الثقافى . إذ إن التقارب لم يؤد بالضرورة إلى تشجيع الفهم المتبادل. ووفقا لكتاب «بحر الفوائد» ، لم تكن كتب الأجانب تستحق القراءة. وأيضا حسبما جاء فى كتاب «بحر الفوائد» فإن كل من يؤمن بأن إلهه خرج من عورة امرأة لهو مجنون حقًا ؛ ولايجب مخاطبته ، وليس فيه ذكاء ولا إيمان.

وعلى الرغم من أن أسامة بن منقذ لم يكن يستطيع الحديث باللغة الفرنسية ، فيتضح من مذكراته أن عدداً من الفرنج كان يمكنهم الحديث بالعربية . وقد تعلموا اللغة العربية لأغراض عملية. فقد كان رينالد دى شاتيون (أرناط فى المصادر العربية) أمير الكرك وموآب ، يتحدث العربية ويعمل عن قرب مع البدو المحليين فى شرق الأردن. أما رينالد الصيداوى، فلم يكن فقط يتحدث العربية، وإنما استخدم دارسًا عربيًا لكى يعلق على الكتب المكتوبة بهذه اللغة . وعلى أية حال ، لم تترجم أية كتب عربية إلى اللاتينية أو الفرنسية فى الشرق اللاتينى، ولم يشغل العرب أنفسهم بالأدب الغربى. وقد استخدم الملك أماريك (عمورى) طبيبًا عربيًا، هو أبو سليمان داود، كان قد عاد به من مصر فى وقت ما إبان الستينيات من القرن الثانى عشر ، وكان على هذا الطبيب أن يعالج ابنه المجذوم بلدوين. وكان من الشائع أكثر من هذا اعتماد المسلمين على الأطباء المسيحيين المحليين. والتأملات حول النقل من الشرق إلى الغرب عن طريق الشرق اللاتينى ، لأشياء مثل العقد المدبب ، والرنوك المتباهية ، والأساليب الجنسية ، ووصفات الطهو، وما إلى ذلك بقيت مجرد تخمينات . وقد أعجب أفراد

النخبة المسلمة والنخب الصليبية بتعصب كل منهما الآخر لديانته وخصاله الحربية. ولم يتبادلا الاهتمام بالعلم أو الفن لدى كل منهما الآخر. فقد حدثت التبادلات الثقافية المهمة فى زمن أسبق وفى أماكن أخرى. وانتقل التعليم العربى فى معظمه إلى العالم الغربى عن طريق إسبانيا وصقلية وبيزنطة .

حطين وما بعدها

احتل صلاح الدين حلب سنة ١١٨٣م وميافارقين سنة ١١٨٥م، وتحققت له السيادة الاسمية على الموصل سنة ١١٨٦م . وساعتها فقط بدأ هجومه الأكبر ضد مملكة بيت المقدس الصليبية . وفى يونيو سنة ١١٨٧م عبر نهر الأردن بجيش قوامه ثلاثين ألف جندى على الأرجح ، منهم حوالى اثنى عشر ألفًا من الفرسان النظاميين . وكان بعض الباقين من المتطوعين للجهاد، ولاحظ المؤرخون المسلمون الدور الذى قام به هؤلاء المتطوعون، الذين كانوا يقومون بأعمال مثل إشعال النيران أمام الجيش الصليبى. وربما كان صلاح الدين يأمل فى الاستيلاء على قلعة طبرية. ومن المحتمل أنه لم يكن يتوقع أن يواجه جيش ملك بيت المقدس جاى فى المعركة ولايبدو أنه قد اتخذ استعدادات مسبقة لكى يفيد من النصر المدوى الذى حققه فى حطين(*) . وقد تم دفع فدية لمعظم أسرى الصليبيين البارزين ، ولكن الصوفية حصلوا على إذن بقتل الأسرى من الداوية والاسبتارية.

وفى أعقاب المعركة مباشرة ، تحرك صلاح الدين بسرعة لاحتلال سلسلة من الأماكن ضعيفة الدفاعات على الساحل وغيره من المناطق، قبل أن يتحول ضد القدس

(*) مرة أخرى يبدو كاتب هذا المقال مصرًا على الانحياز والخروج على أصول البحث والانسياق وراء مشاعره الخاصة . إذ إن عددًا كبيرًا من الباحثين والمؤرخين يقفون على الطرف النقيض فى تقييمهم لأداء الجيش الذى قاده صلاح الدين الأيوبى، وخطط المسلمين وخطط الصليبيين فى معركة حطين. ولكن «آفة الرأى الهوى» . (المترجم)

التى استسلمت يوم ٢ أكتوبر . وفشل صلاح الدين فى الاستيلاء على ميناء صور الذى استخدم فيما بعد قاعدة مهمة للحملة الصليبية الثالثة. وفى محادثة بعد سنتين من حطين ، وبينما كان صلاح الدين وكاتب سيرته المعجب به بهاء الدين بن شداد راكبين باتجاه عكا ، أخبره صلاح الدين : «عندما لايتبقى بعون الله فرنجى على هذا الساحل، أنوى تقسيم ممتلكاتى ، وأصدر آخر أوامرى؛ فإذا ما رحلت عنهم، سوف أمضى فى هذا البحر إلى جزائره لمطاردتهم ، حتى لايبقى على وجه الأرض أحد لايؤمن بالله، أو أموت فى هذه المحاولة » وعلى أية حال ، فشل صلاح الدين ومستشاروه فى التنبؤ بأن سقوط بيت المقدس بأيدى المسلمين ستنتج عنه الدعوة إلى حملة صليبية كبيرة أخرى فى الغرب . وفى الوقت نفسه ، كتب ديوان الإنشاء بشارات النصر إلى الخليفة العباسى وغيره من الحكام المسلمين، وتفاخرت خطاباتهم بتحرير «شقيق الحرم المكى» من الأسر لكى يبرروا بهذا أنهم فرضوا الوحدة بالقوة فى سبيل الجهاد . ثم ، عندما وصلت فيالق الحملة الصليبية الثالثة من الغرب، بدأت حرب الكرّ والفرّ . كانت فى الواقع حرب استنزاف ، استنزفت موارد المسلمين إلى أدنى حد . وعلى حد تعبير القاضى الفاضل «أنفق صلاح الدين دخل مصر لكى يربح الشام، ودخل الشام لكى يكسب الجزيرة ، ودخل الجزيرة لفتح فلسطين . ولأن صلاح الدين كان بحاجة دائمة إلى المال ، فقد واجه صعوبات كبيرة فى إبقاء جيوش كبيرة العدد فى الميدان. فقد كان حائزو الإقطاعات يريدون الإشراف على الحصاد فى القرى التى تدخل فى إقطاعاتهم، على حين كان أقارب صلاح الدين أحيانا يهتمون بمواصلة مشاريعهم الخاصة على حافة الإمبراطورية الأيوبية أكثر من اهتمامهم بمساعدته للتصدى لجيوش الحملة الصليبية الثالثة. وهناك تلميحات فى المصادر الأدبية العربية من تلك الفترة بأنه كان هناك البعض يعتبرون صلاح الدين شخصية «أخروية، محاربًا من يوم القيامة»، ولكن بعد وقت قصير من عودة الفيالق الصليبية إلى أوربا، توفى صلاح الدين بعد أن أرهقته الحروب ضد الصليبيين ، سنة ١١٩٣ متأثرا بالحمى .

ورثة صلاح الدين

تحققت انتصارات صلاح الدين بثمن باهظ وكان خلفاؤه يهابون مواصلة سياسة هجومية لاضرورة لها قد تجلب عليهم مكاسب إقليمية فى بلاد الشام أو فلسطين ، ولكنها قد تكلفهم شن حملة صليبية جديدة . وبعد وفاة صلاح الدين، تم تقسيم إمبراطوريته بين أقاربه الذين يتبادلون العداء ، والذين أكد معظمهم ارتباطهم بمواصلة الجهاد كما فعل زنكى، ونور الدين وصلاح الدين، بيد أن هؤلاء الأمراء، الذين لم يكن بعضهم أكثر من زعماء لفرق عدوانية مؤلفة من الضباط الأتراك والمماليك، كانوا عادة أكثر اهتماما بالتنافس على السيادة داخل الإمبراطورية الأيوبية . وفى بعض الأوقات كان واحد أو آخر من الأمراء الأيوبيين يتحالف مع الفرنج فى الدويلات اللاتينية ضد الآخرين من أقاربهم . وعادة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن دائمًا ، كان يتم الاعتراف بحاكم مصر من قبل بقية عشيرته باعتباره السيد والسلطان ، على حين كان غيره ممن يحكمون فى دمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها ، ملوكًا (أى أمراء) . كان العادل سيف الدين أخو صلاح الدين سلطان مصر من سنة ١٢٠٠م إلى سنة ١٢١٨م وهكذا كان هو المسئول اسميًا عن الأمر عندما نزلت الفيالق الأولى من الحملة الصليبية الخامسة على دلتا النيل على بعد عدة أميال غرب دمياط سنة ١٢١٨م. وعلى أية حال، كان ابنه الكامل هو الذى قام منذ البداية بتوجيه العمليات الدفاعية، ثم عندما توفى العادل فى أغسطس ، خلفه على عرش السلطنة . ونجح الصليبيون فى نهاية المطاف فى الاستيلاء على دمياط فى نوفمبر سنة ١٢١٩م . ولكن على المدى الأطول حاق بهم الفشل فى التقدم بسرعة إلى القاهرة على حين أرسل أقارب الكامل فى بلاد الشام والجزيرة ، فى حماسة ، فيالق من القوات لمساعدة مصر . وفى النهاية سلم الصليبيون دمياط إلى الكامل سنة ١٢٢١م.

وقد أفاد الشاعر ابن عنين من الشكل التقليدى للقصيدة لكى يحتفل بالنصر:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة لقينا دون دمياط جحفلاً من الروم لايُحصى يقينًا ولاظنا

قد اتفقوا رأيا وعزمًا وهمة ودينًا وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ولوغًا لكنا ملكنا فأسجحنا

وتمضى القصيدة على هذا النحو على مدى عشرين بيتًا أو نحوها . ووفقا للشاعر حارب الصليبيون جيدًا وعامل المسلمون الصليبيين الذين استسلموا معاملة طيبة. وبطبيعة الحال (وهذا حقًا بيت القصيد) يكون المديح كله إلى بيت أيوب وأميره البارز الكامل.

وهناك شاعر مادح آخر؛ يقول ما معناه إنه إذا كان هناك المهدى فهو السلطان الذى أحيا دين خير أمة وكتابها.

وعلى أية حال ، فعلى الرغم من الميراث البطولى لصلاح الدين والانتصار الأيوبى فى دمياط، فإنه يمكن فهم تعاملات الأيوبيين مع الصليبيين أوائل القرن الثالث عشر على نحو أفضل فى ضوء الحاجة إلى التعايش أكثر من الرغبة فى مواصلة الجهاد. وعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية لايمكن أن تقر العقد الرسمى لأى نوع من السلام الدائم مع الكفار ، فإن متطلبات التجارة والزراعة أدت إلى التفاوض (عادة) حول هدنات لمدى عشر سنوات لكل منها كما أرسيت هذه الهدنات فى بعض المناطق الزراعية التى تعاون فيها المسلمون والصليبيون فى الإدارة وجمع المحاصيل . وهكذا تم السماح بوجود «دار الصلح» بين «دار الإسلام» «ودار الحرب» المتعارضتين تمامًا . لم يكن تفرغ صلاح الدين الصارم لشئون الحرب والسياسة هو الذى سار على نهجه خلفاؤه . لقد كانت فترة أوائل القرن الثالث عشر فترة عصر عظيم بالنسبة للأدب العربى، وكان يحتفى بمباهج الحياة : الحفلات ، ورحلات النزهة ، والحب ، ومعاقرة الخمر. والشاعر الشهير بهاء الدين زهير (ت ١٢٥٨م) ألف ديوانًا كانت قصائده دليلاً على الحياة الناعمة dolce vita التى عاشها البعض تحت حكم الأيوبيين؛ كما فى

القصيدة التى يتحدث فيها عن نفسه وهو يزور الحانات والأديرة فى مصر مع محبوبته ويسكر بحيث يتخيل الراهبات بوجه القمر والخصر النحيل.

وعندما سلم الكامل القدس إلى فردريك الثانى سنة ١٢٢٩م تحت وطأة التهديد من تحالف أقاربه المعادين له ، أثار عمله هذا موجة واسعة من النقد فى جميع أنحاء العالم المسلم. وعلى أية حال، كان أشد منتقديه قسوة هم الأمراء الأيوبيين الآخرين ، الذين كانوا على استعداد لعقد مثل هذه التحالفات التكتيكية مع الفرنج عندما يناسبهم ذلك مثلما فعل. ومات الكامل سنة ١٢٣٨م. ولم يكن حق الابن البكر فى وراثة العرش يعنى شيئا داخل ممتلكات الأيوبيين ، وكان الابن الثانى للسلطان الكامل هو الذى استولى على حكم مصر سنة ١٢٤٠م(*). وكان الصالح نجم الدين أيوب قد احتل بالفعل مدينة بيت المقدس بشكل مؤقت فى سنة ١٢٣٩م وكان له أن يضم دمشق إلى ممتلكاته سنة ١٢٤٥م . وفى صراعاته مع الأمراء الأيوبيين المنافسين ومع الصليبيين الذين استمروا فى التسكع على الشريط الساحلى فى فلسطين ، اعتمد الصالح نجم الدين أيوب كثيراً على فرقة مماليكه البحرية. وكما لاحظنا من قبل، فإن جميع الزعماء المسلمين تقريبًا قد أفادوا من قوات المماليك، ولكن الصالح أيوب اشترى أعداداً لم يسبق لها مثيل من المماليك القفچاق من مناطق الاستبس جنوب روسيا . ودربهم تدريبًا جيداً على فنون الحرب وجعلهم يدينون بالولاء التام له .

وعندما نزلت حملة لويس التاسع الصليبية أرض مصر سنة ١٢٤٩م ، ومات الصالح أيوب عندما كان يدير أمور الدفاع فى المنصورة بالدلتا ، كان ضباط المماليك هم الذين تولوا توجيه أمور الحرب إلى حد كبير. وقد وصف المؤرخ المعاصر «ابن واصل» المماليك البحرية الذين هزموا الفرنسيين فى المنصورة سنة ١٢٥٠م بأنهم «داوية الإسلام» . وبعد أشهر قليلة قامت قوات النخبة هذه باغتيال توران شاه، ابن

(*) توحى عبارة المؤلف هنا أن الكامل قد جعل الحكم للصالح أيوب، والحقيقة أنه فضل عليه ابنًا غير شقيق ، وقد كسب الصالح بعد عدة معارك ومناورات سياسية ، وبعد أن ذاق مرارة السجن فترة من الزمن . (المترجم)

الصالح نجم الدين أيوب، والوريث المفترض له. وقد كان فعلهم بداية عقد من الاضطراب السياسى الحاد فى كل من مصر وبلاد الشام، اقتتل فى طياته الأمراء الأيوبيون ، والقادة الأتراك والأكراد والطوائف المملوكية المتنافسة ، على حكم ولايات الإمبراطورية الأيوبية .

هذا النوع من الصراع المميت، الذى أعطى المستوطنات اللاتينية فسحة لالتقاط الأنفاس ، كان نوعًا من الترف بشكل ما ، وهو أمر كان يجب التخلى عنه عندما دخل المغول بلاد الشام . وعلى الرغم من أن الجيوش المغولية كانت قد توغلت فى المنطقة العربية منذ عشرينيات القرن الثالث عشر واحتلت شطراً كبيراً من الأناضول فى أربعينيات القرن، فقد بدأ مشروع أكثر تنظيماً للغزو فى خمسينيات القرن الثالث عشر تحت قيادة هولاكو ، حفيد چنكيز خان. وفى سنة ١٢٥٨م كانت قلعة الحشاشين فى ألموت قد وقعت فى قبضتهم ؛ وفى سنة ١٢٥٨م تم نهب بغداد عاصمة الخلافة العباسية؛ وفى يناير ١٢٦٠م عبر المغول نهر الفرات ودخلوا بلاد الشام . وهجر الناصر يوسف ، الحاكم الأيوبى لحلب ودمشق ، كلتا المدينتين وذهب إلى المغول وهرب إلى الصحراء. وفيما بعد قبض عليه المغول وأعدموه .

وتركت مهمة إعداد جيش من المصريين وآخر الصامدين فى بلاد الشام إلى السلطان قطز ، الذى كان أميراً مملوكيا اغتصب السلطة . وخرج من مصر لمواجهة المغول فى معركة عين جالوت يوم ٣ سبتمبر . وعلى أية حال فإن ثمار الانتصار الذى حققه قطز ، جناها مملوك آخر هو بيبرس، الذى اغتال قطز ، وأعلن نفسه سلطانًا على مصر والشام. كان الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) قد صار سلطانًا باستخدام سكين الاغتيال وظل سلطانًا بأن برهن على أنه قائد حربى كفء . ولم يتوقف الدعاة المدنيون أمام حقائق اغتصابه السلطة؛ ولكنهم ركزوا بدلاً من ذلك على كفاءته فى قيادة الجهاد . وقد أظهر بيبرس طوال حكمه طاقة هائلة فى الدفاع عن بلاد الشام على حدود الفرات ضد المغول الوثنيين . كما أنه استولى على قيصرية وأرسوف ، وأنطاكيا والكرك دى شيڤاليه من الصليبيين. وأخيراً كان هو وموظفوه حريصين على تقديم هذا

الجهاد العسكرى باعتباره جزءًا من برنامج أوسع للإصلاح الأخلاقى والبعث الروحى. وأعيدت الخلافة العباسية تحت الحماية المملوكية بالقاهرة . وقد أعلن السلطان نفسه حاميًا للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وبيت المقدس . واتخذت الإجراءات ضد شرب الخمور والمخدرات ، وتم التحقيق مع الزنادقة . وفى سياق سلسلة من الحملات فى الستينيات والسبعينيات من القرن الثالث عشر تم احتلال قلعة الحشاشين فى بلاد الشام .



قارب نهرى يحمل رماة سهام من المماليك يجثون على ركبهم بالقسى. هذه الصورة الجلدية لقارب استخدمت فى مسرح خيال الظل المصرى فى العصور الوسطى. وكان يتم الاحتفال بالانتصارات الحقيقية والخيالية للمسلمين على الصليبيين فى بابات خيال الظل والملاحم الشعبية.



هولاكو إيلخان المغول فى إيران (١٢٥٦-١٢٦٥م) ، يظهر فى هذه المنمنمة الفارسية التى ترجع إلى القرن السادس عشر ممسكًا بقوس مركب غير مشدود وهو يشرب ما يحتمل أنه شراب «القمز» (وهو لبن الخيل المختثر) . كان القوس والسهم من رموز السلطة الملكية لدى المغول والأتراك.

وبنهاية عهد بيبرس كانت خريطة المنطقة العربية تبدو مختلفة تمامًا عما كانت عليه فى تسعينيات القرن الحادى عشر . إذ إن إخفاق الأيوبيين فى التصدى للمغول قد جرد الأسرة من جدارتها ، كما أن بيبرس كان قد استولى على إماراتها ولم يترك سوى حماة تحت حكم أمير أيوبى يدفع الجزية، وفى ذلك الحين صارت مصر والشام جزءا من إمبراطورية واحدة . وقد امتدت أملاك السلطان من حدود النوبة إلى حدود أرمينيا الصغرى. وعلى نحو مشابه إلى حد ما، اختفت الإمارات التى كانت قد قامت بعد السلاچقة فى الشرق وحلت محلها إيلخانية مغولية.

عبيد على ظهور الخيل

كان السلاچقة قد استخدموا المماليك، ووفقًا لأحد المصادر ، كان لدى ألب أرسلان أربعة آلاف مملوك فى جيشه فى معركة مانكرت سنة ١٠٧١م. وعلى الرغم من أنه يبدو أن أمراء صلاح الدين كانوا فى غالبيتهم من الأتراك والأكراد الأحرار ، فإن قوات الصدام لديه كانت من المماليك. أما الاستثناء الذى تمايزت به سلطنة المماليك فى مصر والشام (١٢٥٠-١٥١٧م)(*) فهو الدرجة التى كان المماليك يحتكرون بها المناصب العسكرية والمدنية الكبرى .

وكان سلاطين المماليك يشتركون فى أنهم وضعوا فى الميدان جيوشًا أكبر عددًا وأفضل تدريبًا من أسلافهم الأيوبيين. ففى البداية ، كان معظم المماليك الواردين إلى مصر والشام من الترك القفچاق من مناطق الاستبس شمال الروسيا، ولكن منذ ستينيات القرن الرابع عشر فصاعداً كان هناك تحول جزئى فى سياسة الشراء وتم تجنيد أعداد متزايدة من الچراكسة من القوقاز . وعلى الرغم من أن الترك والجراكسة كانوا أغلبية سائدة ، فقد كانت هناك أيضا أعداد لابأس بها من الأوربيين- مجريين ،

(*) ذكر الكاتب تاريخ ١٢٦٠م بداية لتاريخ السلطنة ، متجاهلاً ، أو غير عارف، بأن هذا التاريخ بدأ مع السلطانة «شجر الدر» سنة ١٢٥٠م، كما أسقط سلطنة قطز . (المترجم)

وألمان ، وإيطاليين وغيرهم – فى صفوف المماليك. وكان معظم هؤلاء الأوربيين قد أسروا شباباً فى الحروب فى الأرض المقدسة والبلقان أو فى غارات القراصنة ثم اعتنقوا الإسلام.

وقد انخرط شباب المماليك بقلعة القاهرة فى جدول صارم للتدريب العسكرى وكان يطلب منهم قطع شرائح من أكوام الصلصال بسيوفهم – يصل عددها إلى ألف – مرة يوميًا لبناء عضلات سواعدهم . وكانوا يتعلمون ركوب الخيل بدون سروج وقذف السهام من فوق ظهور الخيل، مع تركيز خاص على تعليمهم كيف يطلقون سهامهم نحو الخلف وهم على السروج . وكان هناك تمرين مهم يتمثل فى التصويب على ثمرة قرع معلقة على صارى مرتفع . وكان على القواس راكب الخيل أن يرخى زمامها لكى يطلق سهامه ويوجه الحصان بساقيه وركبتيه عندما يطلق السهام، وكان يحدث أن يموت المماليك عندما يتصادمون فى الساحة . كذلك كان من الشائع حدوث وفيات فى لعبة الكرة (البولو) ، وهى رياضة أرستقراطية كانت تعتبر أيضا من أنواع التدريب على شئون الحرب. كما كانت لبعثات الحج المنظمة على نطاق واسع وظيفة مشابهة فى كل من الأراضى الملوكية والمغولية .

كذلك كان المماليك يتلقون الدروس فى اللغة العربية والإسلام ، وكانت قلة قليلة يعرفون القراءة والكتابة . ويفسِّر لنا تكوين نخبة عسكرية متعلمة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تكاثر الرسائل التى كُتبت عن الفروسية ، بيد أن الكتب التى أُلفت فى هذا الموضوع لم تتناول فقط التعامل مع الخيل ، ولكنها تناولت كل المهارات المرتبطة بأمور الحرب، بما فى ذلك استخدام السيف والقوس والحربة ، وفيما بعد المدفع فضلاً عن استخدام آلات الحصار وتوجيه الجيوش . وقد اشترك المؤلفون فى تقديم مثل هذه الرسائل باستهلالات تسبح بحمد الله تؤكد على أهمية هذه المهارات فى خوض الجهاد فى سبيل الله . وهكذا، على سبيل المثال، زعم الطرسوسى أن كتابه عن استخدام القسى والرمى بالسهام كان مؤلفًا لصلاح الدين فى جهاده ضد الكفار. وفى

رسالة لاحقة عنوانها كتاب معرفة الفروسية ، دافع مؤلفها بدر الدين بكتوت الرماح عن نوع من تنصيب المرء لنفسه فارسًا فى الجهاد، وكتب أنه إذا كان أحد يرغب فى أن يكون مجاهدًا ، فيجب عليه أن يذهب إلى ساحل البحر، ويغسل ملابسه، ثم يتوضأ ، ويتضرع إلى الله، ثم يغوص فى البحر ثلاث مرات قبل أداء الصلاة.

وعلى الرغم من زيادة الاحتراف والتفرغ فى الجيش المملوكى، فإن حملتهم ضد المستوطنات اللاتينية كانت نوعًا من حرب الاستنزاف ، كانت حملات الحصار فيها تتخللها فترات من الهدنة. وتخبرنا وثائق الهدنة، التى بقيت منها أعداد كبيرة، بالكثير عن المجتمع فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر، حيث إن عباراتها العديدة تضع شرطًا بإقامة مراكز الجمارك ، وعودة العبيد الهاربين، والضرائب المشتركة على مناطق الحدود، وإعادة البضائع التى تحملها السفن الغارقة ، والمرور الآمن للتجار عبر الحدود.

وقد استأنف السلطان المنصور قلاون (١٢٨٠-١٢٩٠م)، الهجوم طويل المدى الذى شنه السلطان الظاهر بيبرس ضد المواقع اللاتينية، والذى بدأ سنة ١٢٦٣م . فقد استولى على مرقط ومرقليا سنة ١٢٨٥م، ثم طرابلس سنة ١٢٨٩م . إذ كان المماليك يدفعون آنذاك جيوشًا كبيرة بحيث إن الصليبيين لم يكونوا يجرؤون على مواجهتهم فى معركة مفتوحة . وفى غضون هذه العقود يبدو أيضا أنهم صاروا مهرة فى حفر خنادق الحصار وزادوا من الإفادة من المنجنيقات لرمى القذائف . وعندما قام الأشرف خليل ، ابن المنصور قلاون وخليفته (١٢٩٠-١٢٩٣م) بالتحرك أخيرًا ضد عكا سنة ١٢٩١م ، جلب معه اثنتين وسبعين آلة من آلات الحصار. وقد بشر سقوط عكا فى أيدى المماليك بإخلاء ما بقى من بلدات ومعاقل للصليبيين . وإذْ تعلم الأشرف خليل الدرس من تجربة صلاح الدين ، وخوفًا من أن يستفز استيلاؤه على عكا حملة صليبية جديدة ، أمر بتدمير كافة المدن والقلاع الصليبية على ساحل فلسطين والشام بشكل منظم بحيث يحول دون استخدامها قواعد لأية حملات صليبية فى المستقبل.

وتم نهب الكنائس والقصور اللاتينية(*) وفى العقود التالية كانت الأعمدة القوطية وغيرها من الغنائم من بلاد الشام تستخدم كثيراً فى تزيين مساجد القاهرة . وقد أمر السلطان الأشرف خليل بتخليد ذكرى نصره على لوحة من الفريسكو فى قلعة القاهرة تظهر جميع المعاقل اللاتينية التى سقطت . وفى السنوات التى أعقبت سقوط عكا مباشرة ، حولت الجيوش المملوكية انتباهها ضد الخارجين والمسيحيين فى مرتفعات بلاد الشام ولبنان والذين كانوا يقاومون فى عناد فرض السلطة المملوكية. وكان الموارنة على وجه الخصوص هم الذين عانوا من الحملات المجردة ضدهم فى سنوات ١٢٩٢م، ١٣٠٠م، ١٣٠٥م . وعانى المسيحيون الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامى فى أثناء فترة الحروب الصليبية. فقد كان هناك شك بأنهم يتجسسون أو يعملون طابوراً خامسًا لصالح الفرنج وفيما بعد لصالح المغول، أيضًا ، وفى مقالة كتبت قرب نهاية القرن الثالث عشر ضد المسيحيين كتبها ابن الواسطى، زعم أنه فى أثناء حكم بيبرس استخدم أهل عكا بعض المسيحيين لإحراق أجزاء من القاهرة. وبعد الإطاحة بالفاطميين لم يعد هناك استخدام للمسيحيين فى المناصب العليا فى الجيش، على الرغم من أن المسيحيين استمروا فى العمل بمجال الضرائب فى دمشق والشام، وكانت هناك حملات متكررة ضد استمرارهم فى مثل هذه الأعمال واتهموا أحيانا بأنهم يسيئون استخدام مناصبهم لاضطهاد المسلمين. وكانت هناك فى فترة المماليك أمثلة متفرقة على إجبار الموظفين المسيحيين على اعتناق الإسلام– حتى على الرغم من أن إرغام النصارى واليهود على اعتناق الإسلام محرم فى الشريعة الإسلامية – كما أن العامة، الذين كان الصوفية يتزعمونهم أحيانا، كانوا يهدمون الكنائس بذرائع واهية. وهكذا فإن الحروب الصليبية ، التى كان أحد أهدافها المعلنة مساعدة وإنقاذ

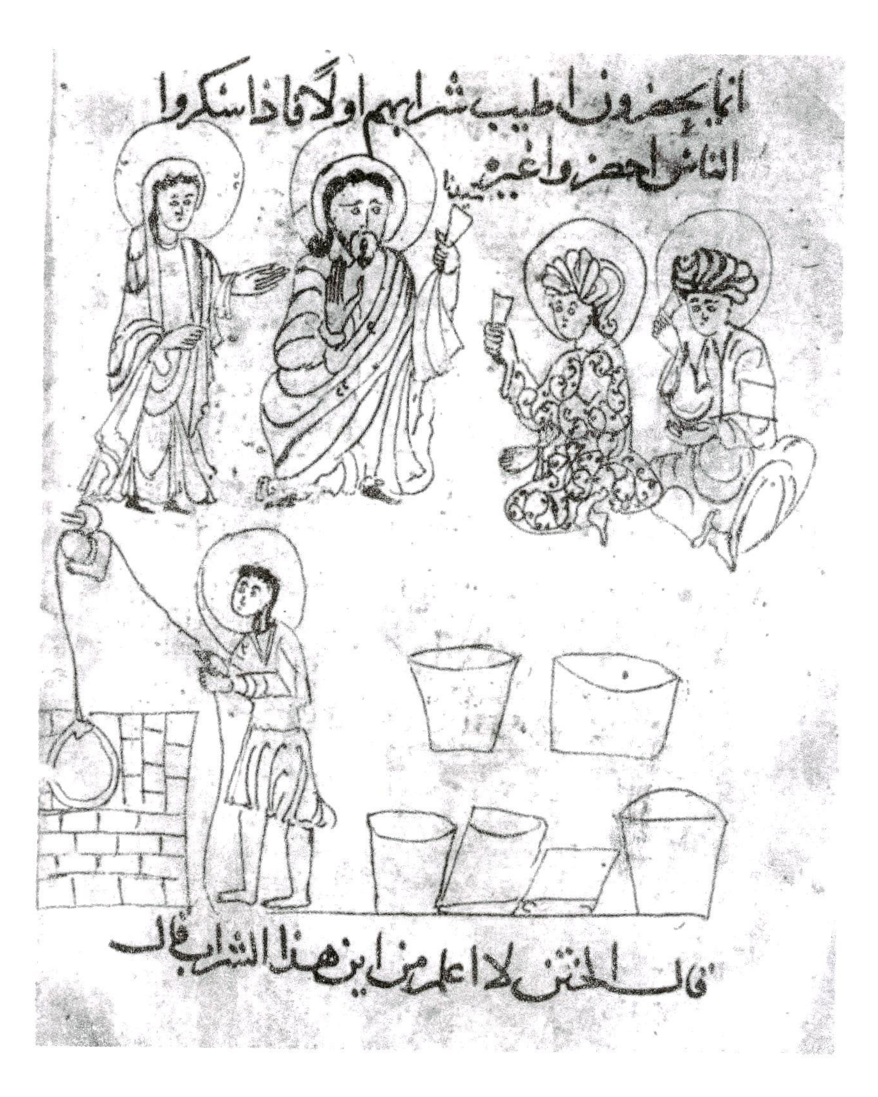
(*) يتجاهل الكاتب هنا حقيقة بسيطة وواضحة مؤداها أن ما يسميه «الكنائس والقصور اللاتينية»، كانت أصلاً من أملاك العرب وعلى أرضهم ، ولم يكن المسلمون هم الذين هاجموا الصليبيين فى أوربا؛ ولكن العكس هو الذى حدث وقد نجح المسلمون فى القضاء على المشروع الصليبى واستردوا ما كان لهم . (المترجم)

المسيحيين المحليين فى الشرق، كان لها تأثير طويل المدى فى إضعاف وضعهم المحمى داخل المجتمع المسلم.

الأندلس

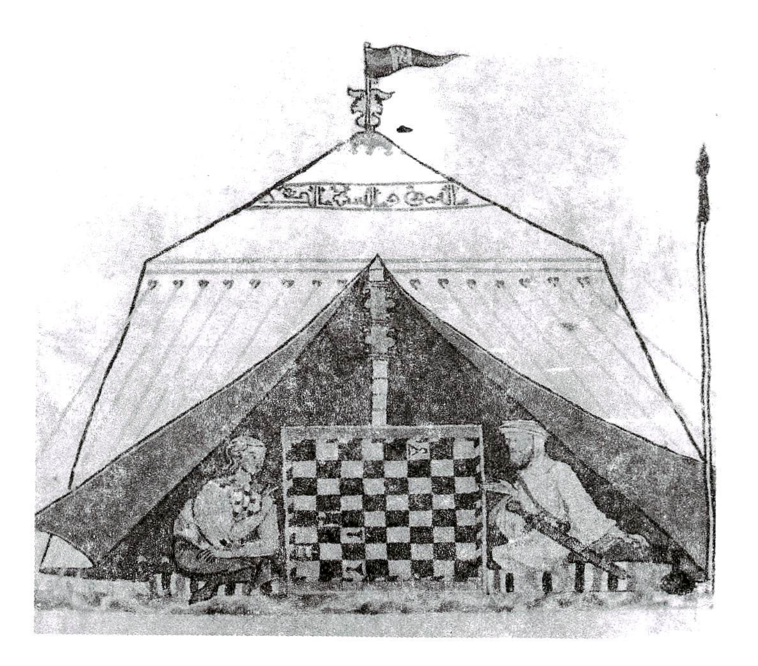
بينما كانت الجيوش المسلمة فى بلاد الشام وفلسطين وآسيا الصغرى تحقق مكاسب راسخة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر على حساب الأوربيين، كان المسلمون على الطرف الآخر من البحر المتوسط يفقدون الأرض فى إسبانيا منذ أواخر القرن الحادى عشر فصاعداً إذ إن انهيار الخلافة الأموية فى إسبانيا ونهب قرطبة على أيدى قوات البربر سنة ١٣٠١م قد أعقبها تجزئة الأندلس إلى عدد من الإمارات يحكمهم ملوك الطوائف. وكان هؤلاء الملوك يفتقرون إلى الموارد اللازمة لمقاومة التقدم المسيحى من الشمال وعادة ما كانوا يفضلون دفع الإتاوة بدلاً من القتال . وفى سنة ١٠٨٥م استولى ألفونسو السادس ملك ليون على طليطلة ، التى كانت آنذاك أكبر مدينة فى إسبانيا. وأصاب ملوك الطوائف الهلع وطلبوا المساعدة من ابن تاشفين فى شمال أفريقيا ، حتى على الرغم من أن بعضهم خافوا من المرابطين قدر خوفهم من المسيحيين. وقد لاحظ المعتمد ، حاكم إشبيلية وأول من تحرك لاتخاذ القرار بقوله إنه يفضل أن يكون راعى جمال (فى شمال أفريقيا) عن أن يكون راعى خنازير (تحت حكم الأوربيين) .

وكان زعيم المرابطين ، ابن تاشفين ، قد جاء إلى السلطة بوصفه زعيمًا لحركة متشددة للإحياء الدينى السنى. ولم يكن المرابطون سلالة أو أسرة ولكنهم كانوا جماعة من الرجال الذين كرسوا أنفسهم للجهاد وذهبوا ليعيشوا فى الأربطة (جمع رباط) وهى أماكن محصنة يسكنها متطوعون متدينون للجهاد. وكانت الدعوة المرابطية تؤكد على أولوية تفسير

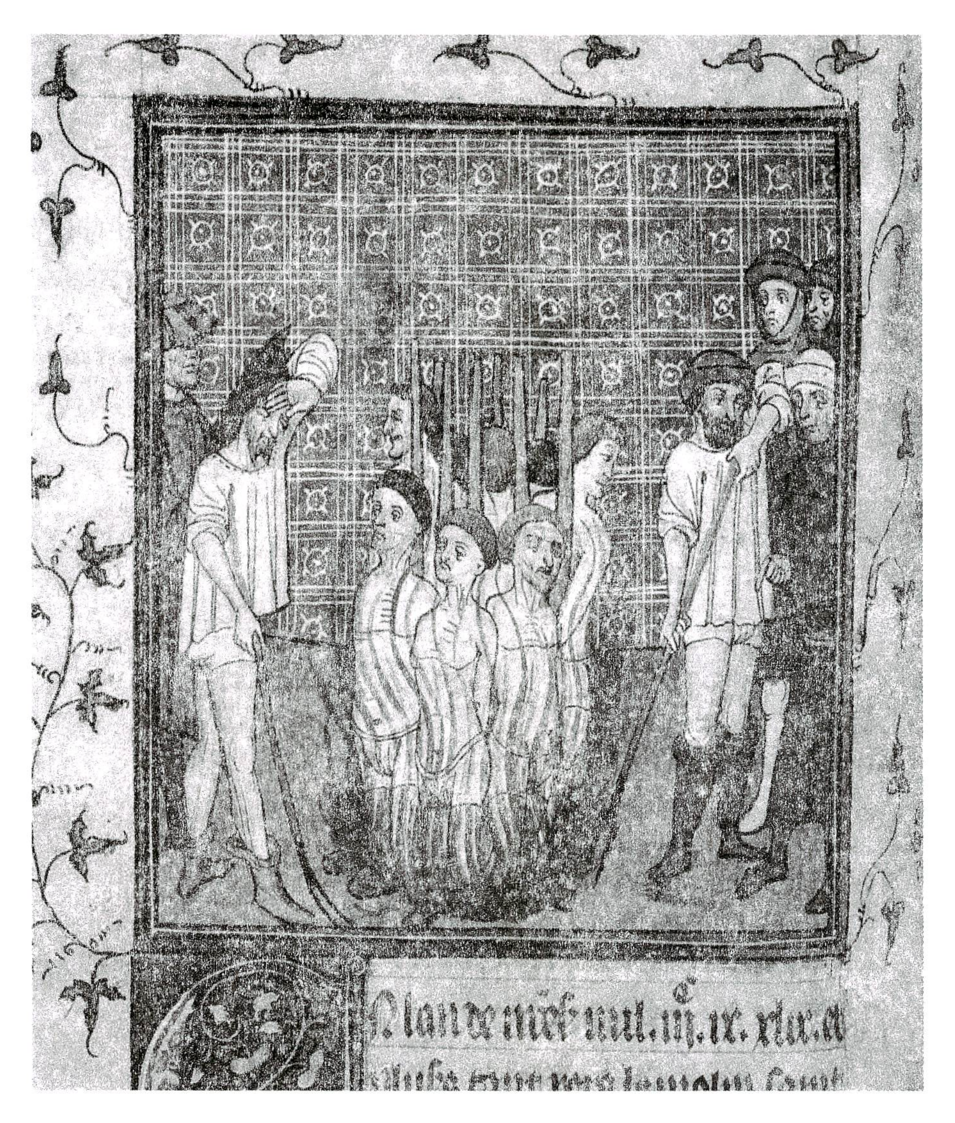


المسيح يقوم بمعجزة تحويل الماء إلى خمر فى هذا الإنجيل العربى المزيف الذى يعود إلى القرن الثالث عشر . وعلى الرغم من أن معظم العرب الذين واجههم الصليبيون كانوا من المسلمين ، كان هناك عدد كبير من العرب المسيحيين فى مصر والشام والعراق، ولكن آمال الصليبيين فى تلقى مساعدات عسكرية مهمة من المسيحيين المحليين فى الشرق لم تتحقق أبدا)

صارم للشريعة . وكان مؤيدوهم غير متسامحين تجاه النصارى واليهود بشكل واضح كما أنهم اضطهدوا الصوفية . وجاء معظم المنضمين الأوائل للحركة من قبيلة صنهاجة البربرية . وعلى الرغم من أن العرب الإسبان كانوا بحاجة ماسة إلى المساعدة العسكرية من هؤلاء القبليين القساة ، فقد كانت هناك فجوة ثقافية كبيرة بين المجموعتين كما أن احتلال المرابطين للأندلس لم يكن يلقى قبولاً عاماً بين المسلمين . وأحرز المرابطون نصراً سريعًا سنة ١٠٨٥م فى الزلاقة ، ولكنهم لم يتمكنوا من استعادة طليطلة وعلى المدى الأطول لم يكن بوسعهم صد المد المسيحى المتقدم فى شبه الجزيرة. وقد نجحوا على أية حال فى ضم أراضى ملوك الطوائف إلى إمبراطوريتهم .



فى هذا الرسم من مقالة عن الشطرنج كتبها ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، مسلم ومسيحى يواجهان أحدهما الآخر، صورة عن التعايش Convivencia بين المسلمين والمسيحيين وهو ما تحقق أحيانا فى إسبانيا العصور الوسطى. وحتى مع هذا، أكدت المقالات العربية عن الشطرنج على قيمة اللعبة بوصفها تدريبًا على الاستراتيجية العسكرية بالنسبة للمحاربين المجاهدين.



حرق فرسان الداوية . تم حرق أربعة وخمسين راهبًا من الداوية خارج باريس فى مايو سنة ١٣١٠م، أثناء محاكمة الداوية، وكان السيد الكبير جيمس الملوايبى وچيوفرى الشارنى قائد نورماندى، قد أحرقوا بنفس الطريقة سنة ١٣١٤م بعد أن سحبوا اعترافاتهم. ولكن معظم الداوية أطلق سراحهم بكفالة بعد المحاكمة.



كان الأمراء الأتراك والأكراد من رتبة معينة يحتفظون عادة بفرقة موسيقى عسكرية في خدمتهم . وغالبًا ما كانت الطبول والأبواق تستخدم لتوجيه مناورات القوات على أرض التدريب وفي ميدان المعركة.

المتدربون المماليك (الذين يمكن تمييزهم بعدم وجود لحى) يقومون بتدريبات بالسيف على أرض الاستعراض . فى هذا الرسم الذى يرجع إلى مقالة مصرية عن الحرب الراكبة من القرن الرابع عشر.

وعلى الرغم من أن المرابطين كانوا قد نجحوا فى احتلال الأندلس كلها بحلول سنة ١١١٠م فمنذ سنة ١١٢٥م فصاعداً كانت عاصمتهم فى شمال أفريقيا عرضة للهجوم من حركة إحياء دينية جديدة، كانت تساندها مجموعة مختلفة من قبائل البربر. وقد أكد الموحدون كثيراً على وحدانية الله حسبما يشير اسمهم . وعلى النقيض من المرابطين فإنهم اضطهدوا أتباع المذهب المالكى الذى ينهج نهجًا حرفيًا فى تفسير الشريعة كما أنهم ناصروا المذاهب الصوفية . وقد وجدت حركة الموحدين مؤيديها فى قبائل مصمودة البربرية . وقد أعلن مؤسسها ، ابن تومرت، نفسه المهدى المعصوم. وكان أتباعه يؤمنون بأنه يأتى المعجزات ، بما فى ذلك التحدث مع الموتى. كان ابن جبير الرحالة المسلم الذى قام برحلة حج من الأندلس مؤيداً متحمسًا له:

«... تلافاها الله عمَّا قريب بتطهير برفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين، أنصار الدين، وحزب الله أولى الحق والصدق، والذابين عن حرم الله عز وجل...» وقد صلى داعيًا لله أن يحتل الموحدون مكة والمدينة يوما ويطهرونها .

وفى أثناء عهد عبد المؤمن الموحدى (١١٣٠-١١٦٣م) احتل الموحدون كل أراضى المرابطين فى شمال أفريقيا وعبروا إلى إسبانيا. وانتهز الملوك المسيحيون هناك فرصة تعثر قوة المرابطين لتحقيق المزيد من المكاسب . وفى الوقت نفسه ، فإن احتلال ما تبقى من الأندلس على يد الموحدين لقى من المسلمين قبولاً أقل من قبولهم احتلالها على أيدى المرابطين. وكان الموحدون قد حققوا نصرا فى معركة الأرك على ألفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ١١٩٥م ولفترة من الزمن كانت متابعتهم الناجحة لحركة الجهاد فى الغرب تستدعى المقارنة مع حركة الجهاد التى يقودها صلاح الدين فى الشرق. ولكن معركة الأرك كانت آخر انتصار كبير يحرزه المسلمون فى إسبانيا ومن بعدها استمرت حركة الاسترداد المسيحية Reconquista دون انقطاع . وفى سنة ١٢١٢م ألحق ألفونسو ملك قشتالة هزيمة ثقيلة بالموحدين فى معركة لاس ناڤاس دى تولوزا وانفتح الطريق لمزيد من المكاسب المسيحية . وسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦م، وڤالنسيا ١٢٣٦م وأشبيلية سنة ١٢٤٨م. وبعد سقوط أشبيلية ، لم يبق تحت الحكم الإسلامى سوى

منطقة غرناطة الجبلية الجنوبية. وانتهج أمراء بنى نصر العرب، الذين كانوا قد استولوا على السلطة هناك ، سياسة حذرة فى الموازنة بين المسيحيين فى الشمال وسلاطين بنى مرين فى المغرب. وكانوا يدفعون إتاوة للمسيحيين فى بعض الأحيان؛ وفى أحيان أخرى كانوا يحثون المرينيين على القدوم لقيادة حركة جهاد جديدة فى الأندلس، وهم عشيرة ترأست قبائل زناتة البربرية . وبحلول سنة ١٢٧٥م كانت بلاد المغرب كلها خاضعة لبنى مرين ومن حين لآخر بعدها أسهم الحكام المرينيون فى حركة جهاد دفاعًا عن غرناطة .

كان ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) أعظم وأكثر المفكرين التاريخيين المسلمين أصالة فى العصور الوسطى. وعلى الرغم من أنه ولد فى تونس فإن أجداده كانوا قد هربوا إلى شمال أفريقيا من أشبيلية قبل غزو النصارى للمدينة. وقد وضع ابن خلدون فلسفة دورية للتاريخ فيها تضمحل الحضارات الراسخة ثم تسقط حتمًا ضحية البدو الهامشيين من أصحاب «العصبية» الذين يلهمهم الدين أيضا فى أغلب الأحوال. ويقيم البدو الظافرون دولتهم، ولكن فى غضون أجيال قليلة على الأكثر تتآكل حماستهم وعصبيتهم بسبب أسلوب الاستقرار الذى اختاروه لأنفسهم. وكان عامل الحسم فى تشكيل هذه الرؤية للتاريخ راجعًا لتأملات ابن خلدون فى المصائر المتوالية ، سلبًا وإيجابًا، للمرابطين والموحدين والمرينيين فى إسبانيا وشمال أفريقيا. وكان ابن خلدون ميالاً إلى أن يرى الانتصارات الباكرة للصليبيين باعتبارها مجرد جانب من جوانب صعود القوى البحرية المسيحية المتنامى فى البحر المتوسط من القرن الحادى عشر فصاعدا . وفيما يتعلق بالزمن الذى عاش فيه صاغ نظرية مؤداها أن مراكز القوة قد تتحرك باتجاه الشمال- ربما باتجاه أراضى الفرنج والعثمانيين . وقد لاحظ أيضًا كيف أن حكام شمال أفريقيا كان عليهم أن يلجأوا إلى استخدام الأوربيين المرتزقة ، لأن الأوربيين فقط هم الذين كانوا يمتلكون من النظام ما يكفى للحفاظ على تشكيلات الصفوف .

كان تعاون المرينيين وبنى نصر ضد القوى المسيحية مناسبًا، لأن بنى نصر كانوا يشكون فى طموحات المرينيين فى إسبانيا ، على حين كان المرينيون من جانبهم يميلون إلى معاملة غرناطة كما لو كانت مجرد خط أمامى للدفاع عن ممتلكاتهم فى شمال أفريقيا . وقد أدى تدهور بنى مرين منذ أربعينيات القرن الرابع عشر فصاعداً إلى ترك غرناطة دونما حلفاء مفيدين. وقد استولى المسيحيون على الجسر Algeciras ، وهى رأس جسر بين إسبانيا وأفريقيا سنة ١٣٤٤م، استعادها بنو نصر فى عهد محمد الخامس سنة ١٣٦٩م ، وهذا النصر التافه نسبيًا تم تخليد ذكراه بشكل كبير فى نقوش مدوية فى جميع أنحاء الجزء الخاص به فى قصر الحمراء، خارج غرناطة . وعلى أية حال ، كان الجسر أحد الانتصارات النادرة جدا للمسلمين على المسيحيين فى القرن الرابع عشر.

وقد حسم توحيد قشتالة وأراجون سنة ١٤٦٩م مصير غرناطة على المدى الطويل. إذ إن حملة عسكرية استمرت عشر سنوات من ١٤٨٢م إلى ١٤٩٢م، استخدمت المدفعية بشكل مكثف، هدمت القلاع المسلمة واحدة بعد الأخرى. وكان الحاكم الأخير محمد الحادى عشر ، المعروف أيضا باسم Boabdil «أبو عبدالله» (١٤٨٢-١٤٨٧-١٤٩٢م) قد سعى عبثا إلى الحصول على مساعدة المماليك أو العثمانيين؛ ولكنه أجبر فى النهاية على التفاوض على تسليم مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٩٢م. وقد وصف المؤرخ المصرى، ابن إياس، سقوطها بأنه إحدى أكبر الكوارث المرعبة التى حلت على الإسلام طوال تاريخه ، ولكن بحلول تسعينيات القرن الخامس عشر بات سلاطين المماليك الذين كانت تشغلهم التهديدات الماثلة من الأتراك العثمانيين على حدودهم الشمالية وكذلك البرتغاليين فى المحيط الهندى، كانوا غير قادرين على مد يد المساعدة إلى غرناطة البعيدة.

إمبراطورية المماليك

فى أثناء القرن الرابع عشر وعلى مدى معظم فترات القرن الخامس عشر كانت سلطنة المماليك أعظم قوة فى شرق المتوسط. وعلى الرغم من أن المغول قاموا بمحاولات متكررة لغزو بلاد الشام تحت حكم المماليك، فقد باءت جميع هذه المحاولات بالفشل. وفى سنة ١٣٢٢م تم الاتفاق على الصلح بين ممثلى السلطان المملوكى، الناصر محمد بن قلاون، وممثلى إيلخان مغول فارس، أبوسعيد. وفى سنة ١٣٣٥م، تمزقت أوصال الإيلخانية التى كانت قد ابتليت بالمنازعات المتتالية بعد وفاة أبى سعيد .

وقد بذل ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨م)، وهو واحد من أهم المفكرين الدينيين فى أواخر العصور الوسطى، جهداً أكثر مما بذله أى أحد آخر لإبقاء الجهاد على رأس الأولويات السياسية لسلطنة المماليك. وقد حث ابن تيمية المسلمين على العودة إلى بساطة المفاهيم والممارسات الإسلامية الأولى وعلى نبذ كل البدع غير المقبولة. وكانت خلاصة تعاليمه أن النصارى والزنادقة لا يجب أن يكونوا هم وحدهم هدف الجهاد لأن على المتدين أيضا واجب مقاومة أولئك الحكام الذين يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، ولكنهم لايطبقون الشريعة الإسلامية بكل صرامة. وبالنسبة للحاكم أو الجندى الذى يتخلى عن الجهاد فإن هذه أكبر خطيئة يمكن أن يقترفها مسلم. وقال إنه إذا كان بعض هؤلاء الذين وضعت فيهم الثقة ، متهورين ومخربين، فإن الدمار الذى يحيق بالمسلمين إذن يكون ضخمًا ، لأنهم يسببون أذى كبيراً لكل من المصالح الدينية والدنيوية للمسلمين بإهمالهم واجبهم فى الحرب من أجلهم.



أطلس القطلان (١٣٧٥م) يقدم لمن يطالعونه خطة نمطية من العصور الوسطى ما بين الحقيقة والخيال عن آسيا وأفريقيا. وفى المناظر المصورة هنا فإن سلطان بابليون (أى القاهرة) يوصف بأنه حاكم المنطقة القوى. ومن ناحية أخرى فإن الحاكم المرسوم إلى الغرب منه يزعم أنه فى حرب ضد رعايا الحاكم المسيحى الخيالى برسترچون ، على حين يوجد إلى الشرق من الحاكم المملوكى فى القاهرة، رسم البحر الأحمر باللون الأحمر فعلاً .

فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، على أية حال ، كان سلاطين المماليك قد انشغلوا فى الغالب بخطط بناء المبانى الفاخرة وكذلك بالاحتفالات الباذخة فى البلاط ، ولم تبذل جيوشهم جهدا كبيراً فى مد دار الإسلام ، وحصروا أنشطتهم العسكرية فى حملات إغارة مربحة ضد النوبة المسيحية ومملكة أرمينيا الصغرى المسيحية(*). ولأن السلطات المملوكية كانت أبعد ما تكون عن الرغبة فى القيام بالجهاد إلى أوربا، فإنها اهتمت تمامًا بالتجارة مع البندقية وجنوا. وفى سنة ١٣٤٧م وصل الوباء الأسود مصر والشام قادمًا من مناطق الاستبس جنوب روسيا . وبعدها أنشبت الطواعين مخالبها فى الأراضى المملوكية على فترات تراوحت ما بين خمس إلى ثمانى سنوات. ولم تمت فقط أعداد كبيرة داخل حدود السلطنة ، ولكن الوباء خرب أيضًا أراضى الاستبس التى كان المماليك القفچاق يأتون منها. وبالتالى صار الأمر أكثر كلفة لشراء المماليك فى أواخر القرن الرابع عشر. ومات كثير من المماليك الذين تم شراؤهم بسبب الوباء قبل أن يتم تدريبهم ، وكان السلاطين التواقون إلى المحافظة على أعداد الجيش، ميالين إلى الإسراع فى تدريب المماليك الجدد. كذلك أدى نقص السكان إلى تخفيض عائدات الزراعة التى كان السلطان وأمراؤه يحصلون عليها . وكانت احتجاجات المماليك على عدم دفع رواتبهم قد صارت أكثر شيوعًا .

كانت حملة الملك بطرس الأول (لوزينيان) ملك قبرص ونهب الإسكندرية سنة ١٣٦٥م ضربة قاسية لهيبة المماليك. وبعد الحملة الصليبية هذه تم القبض على

(*) يبدو انحياز كاتب هذا الفصل واضحًا تمامًا فى هذه الصياغة الغربية من ناحية، وفى مجافاته الحقائق التاريخية من ناحية أخرى. فقد اكتسب المماليك شرعيتهم من دحر الحملة السابعة فى المنصورة ثم دحروا المغول بعد عشر سنوات فى عين جالوت، وإعادة إحياء الخلافة العباسية. أما ما قيل عن الحملات ضد أرمينيا فقد كان سببها تورط الأرمن فى مساعدة الصليبيين ضد المماليك. أما النوبة فلم تكن كلها مسيحية، ولم تكن كيانا مستقلاً عن مصر. وقد تدخل المماليك لفض نزاع داخلى على الحكم انطلاقًا من أن السلطان فى القاهرة كانت له السلطة على النوبة. (المترجم)

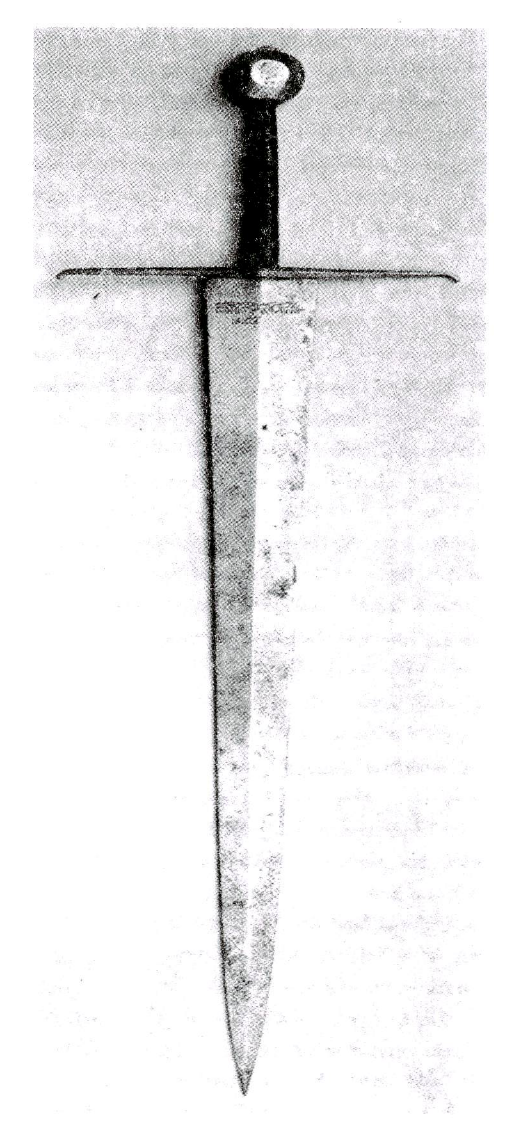
التجار فى أراضى الدولة المملوكية، وتم فرض ضرائب عقابية على الأهالى المسيحيين وتم بناء أسطول للانتقام بناء على أوامر الأمير يلبغا الخاصكى. بيد أن يلبغا الذى كان يدير الأمور فى مصر والشام، مستخدمًا السلطان الطفل الأشرف شعبان لتمرير قراراته ، تم اغتياله فى السنة التالية. وظهرت موجة جديدة من الرسائل عن الفروسية كتبها دعاة الحرب، ولكن فى الحقيقة لم يعد هناك فريق سياسى مهم ينادى بالجهاد وتم عقد معاهدة سلام مع قبرص سنة ١٣٧٠م(*). وكان نهب الإسكندرية هو مجرد المشهد الأهم فى سلسلة طويلة من الغارات على دلتا النيل من القرن الحادى عشر فصاعداً. وقد تعافت الإسكندرية وما تزال واحدة من الموانئ الكبيرة فى البحر المتوسط، ولكن رشيد ودمياط ، وتنيس التى كان رخاؤها يعتمد على الصناعة إلى حد كبير ، كانت أقل حظًا .

ومنذ ستينيات القرن الرابع عشر فصاعداً كان سلاطين المماليك يشترون عدداً أقل من القفچاق وعدداً أكبر من الجراكسة ؛ ولم يكن عدد كبير من القفچاق قد ماتوا من الوباء فى مناطق الاستبس فقط، ولكنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام بأعداد كبيرة ومنذ ذلك الحين ، لم يكن ممكنا استرقاقهم حسب الشريعة الإسلامية . واغتصب برقوق ، وهو مملوك من أصل چركسى ، عرش السلطنة . وكان عهده (١٣٨٢م-١٣٩٩م) بداية فترة من الاضطرابات القاسية والصراع المرير بين طوائف المماليك

(*) يبدو أن هذا الكاتب يخضع التاريخ لمشاعره الخاصة، لأن روايته لحادثة نهب الإسكندرية . ثم نتائجها السياسية والعسكرية ، تشى بصورة غير حقيقية على الإطلاق . لأن حملة بطرس لوزينيان لم تكن حملة صليبية ، وإنما كانت غارة للنهب والسلب وقضى الصليبيون ثلاثة أيام فى الإسكندرية ثم هربوا مع اقتراب الجيش المملوكى، وغادر ملك قبرص المدينة التى «... دخلها لصًا وخرج منها لصًا...» . والحقيقة أن المماليك لم ينسوا لقبرص هذه الجريمة ، ففى سنة ١٤٢٦م هاجم الأسطول المصرى ، الذى أرسله السلطان الأشرف برسباى ، قبرص وأسر ملكها يانوس لوزينيان الذى سار فى موكب مع بقية الأسرى فى شوارع القاهرة . (المترجم)

الجراكسة والقفچاق ، واستمرت تحت حكم ابنه الناصر فرج (١٣٩٩-١٤١٢م) . وحدث فى أثناء سلطنة الناصر فرج المزعزعة أن قام تيمورلنك القائد المغولى- التركى وقاهر العالم فيما بعد، بغزو بلاد الشام ونهب دمشق (١٤٠٠-١٤٠١م) . أما الإحياء، العسكرى المملوكى، الذى يبدو أنه بدأ تحت حكم السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢-١٤٢١م) فقد أتى ثماره الواضحة خلال عهد السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢-١٤٣٧م) .

وأحد أهم الملامح اللافتة للنظر فى الإحياء المملوكى فى القرن الخامس عشر هو خلق أسطول حربى ناجح تحت حكم برسباى وخلفائه . وفى ذلك الحين كانت الأساطيل الحربية المسلمة تظهر أقوى ما تكون فى البحر المتوسط منذ أيام الفاطميين. وكانت الأمور الحربية البحرية بين المسلمين والأوربيين أكبر من مسألة القرصنة والدين. إذ إن قبرص منذ استولى عليها ريتشارد الأول ملك إنجلترا سنة ١١٩١م ، كانت قد صارت قاعدة للصليبيين والقراصنة الأوربيين ولكن امتلاك المماليك للموانئ على الساحل الشامى جعلتهم على مسافة قريبة من الجزيرة ، وبعد أن أغار أسطول مصرى على الجزيرة سنة ١٤٢٥م ، نهب جيش مملوكى الجزيرة وأسر الملك يانوس فى السنة التالية . بعد ذلك صارت قبرص تابعة لسلطنة المماليك والتزم ملوكها بعدم استقبال القراصنة فى موانيهم .



هذا السيف الصليبى، ربما من أصل أوربى ، عليه نقوش عربية على صفحته تشير إلى أنه فى سنة ١٤١٩م كان مخزونًا فى الترسانة المملوكية بالإسكندرية . سقطت أعداد كبيرة من الأسلحة الصليبية فى أيدى المسلمين وفى مناسبات النصر كان يتم عرضها أحيانًا على العامة.

في أربعينيات القرن الخامس عشر حول المماليك قواتهم ضد رودس. إذ كان السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨-١٤٥٣) عازمًا على أن يضع نهاية للقرصنة الأوربية في شرق المتوسط لأنه كان يرغب أيضًا أن يساعد العثمانيين بطريقة غير مباشرة. وكان هناك هجوم مبكر على رودس سنة ١٤٤٠م لم يكن أكثر من غارة عابرة. ثم جاءت غارة أخرى بددت مواردها في الهجوم على الممتلكات الأوربية على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى سنة ١٤٤٣م. وعلى الرغم من أن الحملة الثالثة والأخيرة قد حاولت بالفعل الاستيلاء على قلعة رودس، فإن قواتها أجبرت على التراجع. ووفقًا لرواية مؤرخ عربي معاصر، لم تتحقق مقاصد القوات، ولم يخرجوا بأية نتيجة؛ ولذلك السبب فإن حماستهم السابقة للجهاد في هذا الركن خمدت لفترة طويلة قادمة. «والله وحده غاية كل الأمور». في سنة ١٤٤٦م تفاوض التاجر الفرنسي جاك كور من أجل السلام بين المماليك وفرسان الاسبتارية في رودس.

كان لسلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين اهتمام مشترك ومصلحة مشتركة في ضرب الحملات الصليبية في شرق المتوسط، ولكنهم في الأماكن الأخرى وجدوا أنفسهم في صراع متبادل، لاسيما في جنوب وشرق تركيا حيث كانت توجد الإمارات التركمانية الخاضعة. وعلى الرغم من أن الصراع من أجل السيادة والتفوق في هذا الإقليم كان في معظمه يدور بواسطة الأتباع، فإن المماليك قد تحولوا إلى الحرب المباشرة ضد العثمانيين في سنوات ١٤٨٦-١٤٩١م، وكانت تلك حربًا كسبها المماليك، جزئيًا بسبب نجاحهم في نشر المدفعية، ولكن مثل هذا الصراع الطويل الممتد أجهد الخزانة المملوكية. فقد تفاقمت مشكلات المماليك الاقتصادية بظهور البرتغاليين في المحيط الهندي ومحاولاتهم إغلاق البحر الأحمر وحرمان مصر من عوائد تجارة التوابل. في سنة ١٥١٧م قام السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)، خشية من قيام المماليك بالتحالف مع نظام الحكم الشيعي الصفوي في إيران، بغزو وقائي لسلطنة المماليك. وقد أعلن فقهاء سليم المدجنون أن هذه الحرب جهاد، لأن المماليك كانوا يعيقون حرب سليم ضد النصارى وضد الشيعة. وكان الانتصاران العثمانيان في مرج دابق شمال بلاد الشام سنة ١٥١٦م وفي الريدانية في مصر سنة ١٥١٧م

راجعين بدرجة كبيرة إلى تفوق العثمانيين العددى وخطوط الإمداد ، على الرغم من أن الخيانة والفرار من صفوف المماليك لعبت دورًا أيضًا . وتم شنق آخر سلطان مملوكى، وهو طومان باى ، على باب زويلة فى القاهرة ، وعندما ضم سليم بلاد الشام ومصر إلى ممتلكاته ، مضى قُدمًا وأعلن نفسه حاميًا للحرمين الشريفين فى مكة والمدينة . وفى العقود التالية تمكن العثمانيون من مد أملاكهم لتضم جزءًا كبيرًا من ساحل شمال أفريقيا .

صعود العثمانيين

أول ذكر ورد للعثمانيين كان باعتبارهم يملكون أراضى فى إقليم بورصا عند بداية القرن الرابع عشر . وكانت الإمارة العثمانية واحدة من بين العديد من الإمارات التى تم تأسيسها فى آسيا الصغرى فى أعقاب انهيار سلطنة سلاجقة الروم وانسحاب القوة المغولية من المنطقة. وعلى أية حال، هناك قدر كبير من الأسطورية فى القصة الباكرة للعثمانيين وليس من الواضح ما إذا كان البكوات العثمانيون زعماء لقبيلة طبيعية، أو أن جماهير مؤيديهم كانوا من الغزاة الذين كانوا قد انضموا إلى العثمانيين على حافة الأراضى البيزنطية لكى يشاركوا فى الجهاد ويحصلوا على الغنائم أو الاستشهاد . ومن الواضح مع هذا أن أخلاقيات الغزاة لعبت دورًا حاسمًا فى بعض الإمارات الأخرى ، ولاسيما الإمارات الساحلية فى آيدين ومنطاش، اللتين كان «غزاة البحر» ينطلقون من موانيهما للإغارة على السفن الأوربية . وفى الأناضول ، وفى غيرها من الأماكن، لعبت الصوفية دوراً مهمًا فى الدعوة إلى الجهاد، وهناك مصدر عثمانى لاحق يصف أحد أمراء آيدين وهو يُدشن غازيًا على يد أحد شيوخ المولوية ، وهم طائفة الدراويش ؛ وقد قدم الشيخ للأمير هراوة حربية وضعها هذا على رأسه قبل أن يعلن : «بهذه الهراوة سوف أكبت عواطفى أولاً، ثم أقتل جميع أعداء الدين».

وسقطت بورصا فى يد أورخان ، الأمير العثمانى سنة ١٣٢٦م، ولكن العاصمة كانت على مدى فترة طويلة بعد ذلك حيثما يقيم الأمير (البك) خيمته. وسواء كانوا من رجال القبائل أو من الغزاة ، فإن الرجال الذين حاربوا من أجل الأمراء العثمانيين الأوائل كانوا على ثقة من أن الله راض عن كفاحهم . ووفقا لجريجورى بالاماس Greg-ory Palamas ، الأسقف الأرثوذكسى الذى كان أسيراً لدى الأتراك سنة ١٣٥٤م فإن «هذا الشعب سئ السمعة، المكروه من الرب، والبغيض يتباهى بأنه أخذ أفضل ما فى الروم (البيزنطيين) بفضل حبهم للرب ... وهم يعيشون بالقوس ، وبالسيف ، والانغماس فى الملذات ويجدون المتعة فى اتخاذ العبيد، ويكرسون أنفسهم للقتل، والنهب والسلب ... ولايرتكبون هذه الجرائم فحسب، بل إنهم يزعمون- وياله من ضلال- أن الرب يرضى عنهم».

كان التوسع العثمانى فى شمال غرب الأناضول سريعًا تحت حكم أورخان (حوالى عام ١٣٢٤-١٣٦٠م تقريبا) وكان أورخان أول عثمانى ينصب نفسه سلطانًا . وكانت توسعاته الإقليمية على حساب كل من البيزنطيين والإمارات المنافسة . وكانت إمارة أيدين البحرية تبدو فى نظر الغرب فى البداية مصدر خطر أكبر من خطر العثمانيين، وبالتالى حدث سنة ١٣٤٤م أن اختارت عصبة صليبية بحرية ميناء أيدين سميرنا Smyrna هدفًا لها. وفى الوقت نفسه، كان المغيرون الأتراك ، الذين كان بعضهم فقط فى خدمة الأتراك، كانوا قد عبروا الدردنيل حيث عملوا فى سهل الدردنيل منذ أربعينيات القرن الرابع عشر . وقد أتاح زلزال وقع فى جاليبولى سنة ١٣٥٤م أو ١٣٥٥م للعثمانيين أن يحتلوا الميناء وأعطاهم أول قاعدة لهم فى غرب الدردنيل، وبعد ذلك استولت حملة صليبية على جاليبولى وكانت تحت قيادة أماديوس الساڤويى Amadeus Savoy ولكن الاحتلال العثمانى لأدرنة Adrianople فى سنة ١٣٦٩م أعاد لهم مكانهم فى أوربا وفى أثناء عهد مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م) تم غزو تراقيا ومقدونيا .

وعلى الرغم من أنه كان يسعد الانكشارية أن يصفوا أنفسهم بأنهم «جنود الإسلام الذين اختارهم الله»، فإنه لاينبغى المبالغة فى أهمية الانكشارية فى العصور الوسطى . فى الأصل كانت فرقة الانكشارية (والأصح إينى شرى ، أى القوات الجديدة) تُجند من الشباب المسيحيين الأسرى فى حروب البلقان ، ولكن ، عندما ثبت أن هذا المصدر لايكفى ، كان هناك تحول إلى الدڤشرمة منذ أواخر القرن الرابع عشر فصاعداً . وفى ظل نظام الدڤشرمة كان الصبية فيما بين سن الثمانية والخامسة عشرة من القرى المسيحية داخل الإمبراطورية العثمانية يجندون إجبارياً ويؤخذون لكى يتدربوا باعتبارهم مماليك عسكريين. وكان أفضل الشباب الذين يتم تجنيدهم على هذا النحو يذهبون إلى خدمة القصر، حيث كان يمكن تدريبهم لتولى المناصب العليا. كان الانكشارية بمعنى من المعانى هم المرفوضين فى نظام الدڤشرمة. وطوال القرن الخامس عشر كانوا فى بداية الأمر فرقة من رماة السهام المشاة، وعلى الرغم من أن بعض القوات تم تزويدها بالبنادق فى أربعينيات القرن الخامس عشر ، فلم يحدث حتى أواخر القرن السادس عشر أن زودت معظم قوات الانكشارية بالبنادق . وكانت هناك أيضا فرقة موازية أكبر حجماً، على الرغم من أنها كانت أقل تنظيما ، من المشاة الأحرار الذين عرفوا باسم «اليايا» . وعلى أية حال كانت نخبة الجيش العثمانى هى «السباهية» ، وهم من الفرسان الأحرار الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية فى مقابل تخصيص «التيمار» ؛ وهى ضياع كان لهم الحق فى جمع الضرائب منها. أما الخيالة الخفيفة Akinjis فكانوا من المغيرين الذين يحاربون لقاء نصيب من المغانم، فقد ساعدوا فى زيادة الصفوف العسكرية العثمانية.

وقد أدت حملات مراد الأول فى أوربا وتقدم جيوشه إلى نهر الدانوب إلى تكوين تحالف من الإمارات المسيحية فى البلقان ، ولقيت جيوشهم الموحدة الهزيمة فى معركة كوسوڤو (١٣٨٩م) . وعلى الرغم من أن مراد قتل فى المعركة، فإن ابنه، بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) والمعروف أيضا باسم «يلدريم» أو الصاعقة، تولى القيادة فى سلاسة وجنى ثمار النصر. وكان النصر فى كوسوڤو تأكيداً للغزو التركى لبلغاريا، وحسم مصير صربيا على المدى الطويل. وفى أعقاب ذلك مباشرة ، على أية حال، قدم بايزيد

للصرب شروطًا ميسرة حتى يمكنه التعامل مع تمرد التركمان القرمانلية فى الأناضول . وزعم العثمانيون أن القرمانلية بشنهم الحرب ضدهم، كانوا يعيقون الجهاد، ويساعدون الكفار ، وفى السنوات التالية استفاد بايزيد من الأتباع الأوربيين الموالين له لشن حملات فى آسيا والعكس بالعكس. وتم ضم سبع إمارات فى آسيا الصغرى بشكل لايخلو من المخاطر.

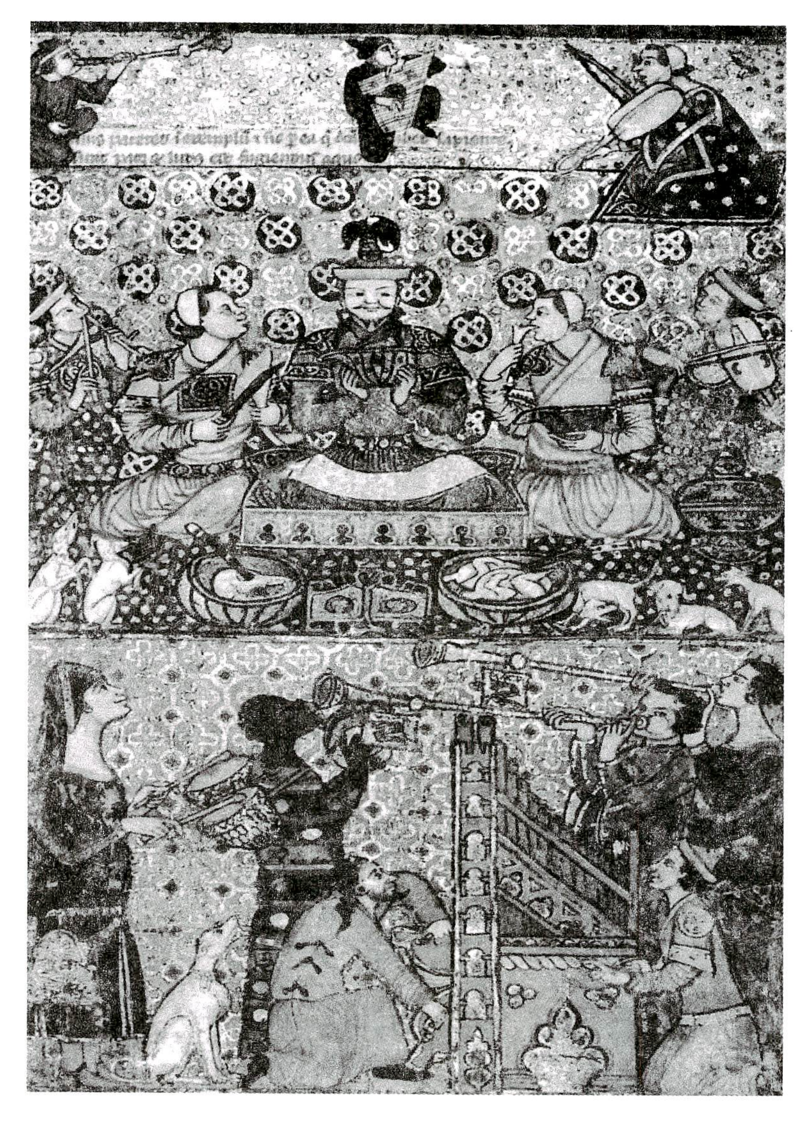


على الرغم من أن هؤلاء الحراس الانكشارية من النخبة فى ملابس الاستعراض فى القرن السادس عشر يظهرون هنا على ظهور الخيل، فإن غالبية قوات الانكشارية كانوا يحاربون باعتبارهم من الجنود المشاة وكانت أسلحتهم الرئيسية القسى أو البنادق .

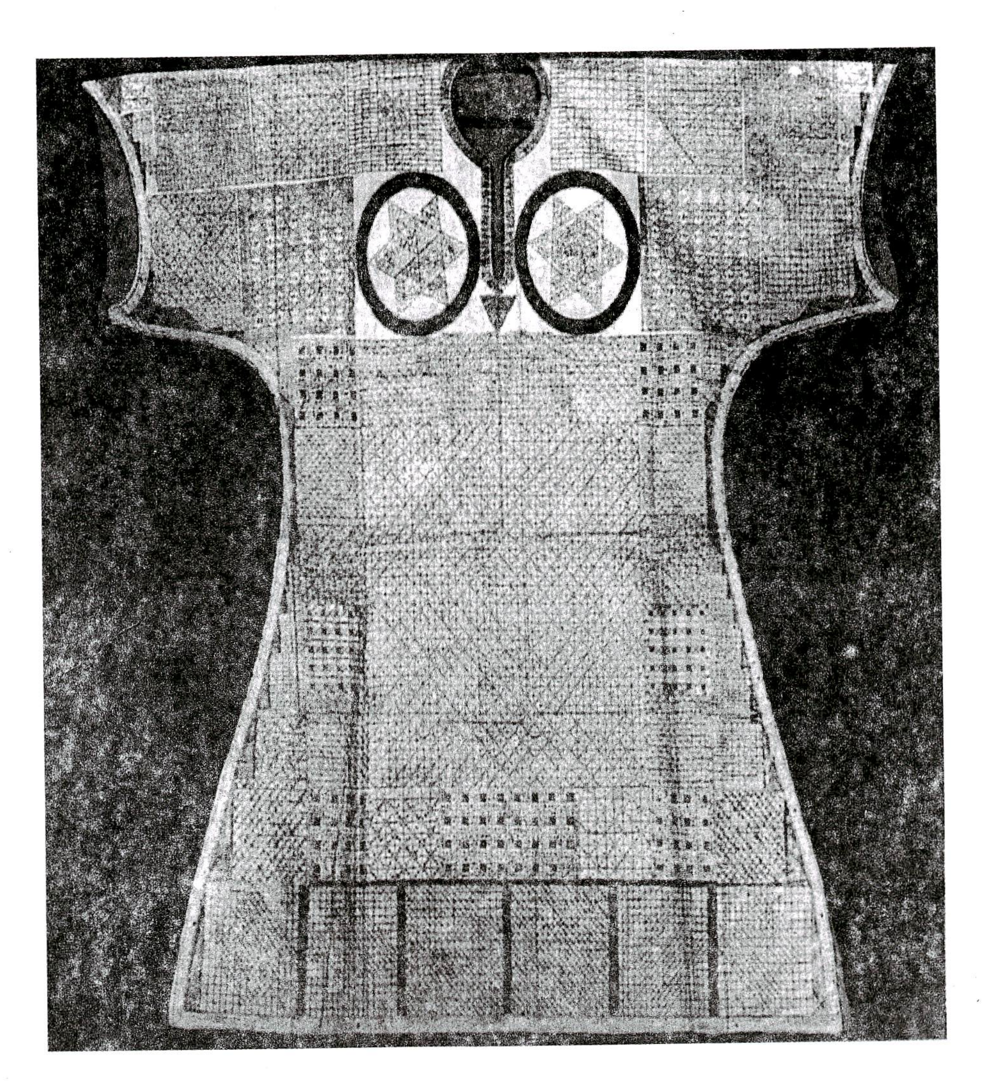
كان لابد للمواصلات بين الجبهة الشرقية والجبهة الغربية للسلطنة أن تكون دائماً عرضة للتهديد طالما استمر المسيحيون يملكون القسطنطينية . وفى سنة ١٣٩٤م أصدر بايزيد أوامره بسد المنافذ على المدينة، وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية الفرنسية المجرية المشتركة سنة ١٣٩٦م كانت تهدف من بين أشياء أخرى إلى التخفيف عن القسطنطينية ، فإنها انتهت بكارثة عليهم فى ميدان المعركة فى نيقوبوليس ، حسبما سنرى ، وجاء خلاص المدينة من مصدر مختلف تماماً. وكانت سياسة بايزيد العدوانية وضم مناطق فى الأناضول قد جلبت عليه مواجهة أتباع تيمورلنك واستفزت سيد الحرب التركى- المغولى للتدخل . وكان جزء كبير من الجيش الذى حشده بايزيد لمواجهة تيمورلنك خارج أنقرة سنة ١٤٠٢م يتألف من أتباع المترددين ولم يضيعوا وقتا فى التحول إلى جانب تيمورلنك . وتم أسر بايزيد فى المعركة وسرعان ما مات فى الأسر. وفى أعقاب المعركة، أعاد تيمورلنك تأسيس الإمارات التركمانية وزاد ضعف الإمبراطورية العثمانية ، لأن أبناء بايزيد ؛ وهم سليمان ، وعيسى، ومحمد وموسى، تحاربوا فيما بينهم من أجل ولاية العرش. وانتهت هذه الحرب بانتصار محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م).

تحت حكم محمد الأول، وابنه مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) مضى التعافى العثمانى شوطاً إلى الأمام. وعلى الرغم من أن محاولة متجددة للاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٢٢م قد فشلت فإن الأتراك قد استعادوا جميع ما كانوا قد فقدوه سنة ١٤٠٢م وزيادة. وفى سنة ١٤٣٢م لاحظ الجاسوس البورجندى برتراندون البروكيورى Bertrandon de la Brocquiére ، أنه إذا «رغب السلطان العثمانى استخدام القوة والموارد التى يملكها ، مع الأخذ فى الاعتبار المقاومة الواهية التى سوف يواجهها من العالم المسيحى، فإنه يمكن أن يقهر جزءا كبيرا منه».

وقد أحرز القائد المجرى چون هونيادى John Hunyadi بعض الانتصارات المذهلة ضد الأتراك سنة ١٤٤١م وسنة ١٤٤٢م، ولكن حملة ڤارنا الصليبية سنة ١٤٤٤م ، وهى محاولة مجرية للقيام بعمليات مشتركة مع أسطول غربى فى البحر الأسود، كانت فاشلة وبرهنت على أنها آخر حملة صليبية هجومية كانت تهدف إلى وقف التقدم العثمانى فى البلقان.



صورة النهم الشره : من مقالة هندية ترجع إلى القرن الرابع عشر عن «الخطايا السبع المهلكات» وهى قائمة بالفعل على أساس منمنمة فارسية تظهر أميرًا تركيا – مغوليًا – ربما يكون تيمور لنك وهو فى وليمة. وهى أقدم نسخة أوربية معروفة فى الرسم الفارسى.



عدد كبير من القمصان ذات التعاويذ كانت تنتج للسلاطين العثمانيين وأقاربهم . وكانت هذه تُنسج من القطن ، أو الكتان ، والحرير بحسب التصميمات التى يختارها المنجمون والعارفون بالأرقام (المعاني السحرية للأرقام) كان المفروض أن الحروف ، والأرقام الغامضة والمربعات السحرية ، والحروف القبلانية واليهودية، على القميص ، تحمى السلطان من الموت فى المعركة ومن الأخطار الأخرى .

في ســـنة ١٤٥١م بدأ محـمـد الثاني، الذى خلف مراد الثانى ، التجـهـيزات لحصار القسـطنطيـنية . ولعبــت المدفعية دورًا حاسـمًا فى ذلك الحصـــار . وربما كان العثـمانيون قد استـخدموا المدافع منذ ثمـانينيات القرن الرابع عشـر . ومنذ عشرينيات القرن الخامس عشر فصاعدا كانت المدافع مستخدمة بشكل منتظم فى الحصار الحربى. كانت المدافع يستولى عليها من الأوربيين فى الحروب الأوربية والمزيد منها كان يسلم بواسطة المسيحيين الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام ودخلوا فى خدمة الأتراك . وكان أوربانوس ، وهو مسيحى اعتنق الإسلام من ترانسيلفانيا وخبير فى بناء المدافع ، أحد المهندسين الرئيسـيين لانتصـار المسلمين فى القسطنطينية سنة ١٤٥٣(*) .

«السلطان محمد فتح القسطنطينية بمساعدة الله. فقد كانت مقامًا للأصنام .. حول كنائسها ذات الزخارف الجميلة إلى مدارس ومساجد إسلامية» . وكان فتح محمد للقسطنطينية قد أكد النبوءات الإسلامية التقليدية عن سقوطها بأيدى المسلمين. بيد أن فتح العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية أتاح لمحمد الفاتح أن يقدم نفسه باعتباره وريثا ليس فقط لأبطال الماضى الإسلامى بل أيضا باعتباره وريثا للإسكندر الأكبر وقيصر . وسجل مراقب هندى معاصر أن محمد الفاتح «يعلن أنه سوف يتقدم من الشرق إلى الغرب مثلما تقدم الغربيون فى الأزمنة الماضــية فى الشـــرق . وهو يقول إنه يجب أن تكون هناك إمبـراطورية واحـدة ودين واحـد وحـــاكم واحـد علـــى العالم» .

(*) المؤلف هنا يتحدث مرة أخرى بمشاعره ، ويضع الأمور فى نطاق دينى (إسلامى- مسيحى) وتكشف حقائق الحصار العثمانى للقسطنطينية، حسبما دونها شهود العيان من الأوربيين، أن الأمر لايمكن اختزاله فى كفاءة أحد المهندسين. انظر حاتم الطحاوى (مترجم) ، الحصار العثمانى للقسطنطينية ، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٣م) . (المترجم)

لقد أعطى فتح القسطنطينية للسلطان ملكية ترسانة صناعة سفن رئيسية . فقد كان سلوك الأسطول العثمانى فى أثناء حصار القسطنطينية حذراً وغير ظاهر. وبعد سنة ١٤٥٣م كانت الأساطيل العثمانية أكثر عدوانية ونجاحاً. وقد تحول البحر الأسود إلى بحيرة تركية وقام جيش محمد الفاتح وأسطوله بعمليات مشتركة فى بحر إيجه وغيره. وبحلول سنة ١٤٦٠م كان الغزو العثمانى لآخر مراكز الإمبراطورية البيزنطية فى شبه جزيرة المورة (البلوبونيز) قد اكتمل . وفى سنة ١٤٨٠م انطلق الأسطول العثمانى ضد رودس . وعلى حد تعبير ليونيل بتلر Lionel Butler فإن محمد الثانى «كان شغوفًا بإضافة رودس إلى مجموعته من المدن اليونانية الشهيرة فى العالم القديم والتى كان قد فتحها: أى القسطنطينية ، وأثينا ، وطيبة، وكورنثة وطرابيزون». ولابد أن فتحها كان سيوفر له أيضًا نقطة استراتيجية رئيسية فى شرق المتوسط، ولكن الهجوم التركى لم ينجح. وقد خطط محمد الثانى لمحاولة ثانية سنة ١٤٨١م ولاشك فى أنه خطط أيضا لتعزيز قوة عسكرية كانت قد نزلت فى أوترانتو Otranto فى جنوب إيطاليا سنة ١٤٨٠م، ولكنه توفى سنة ١٤٨١م. واستسلمت القوات التركية التى توقفت فى إيطاليا فى سبتمبر من تلك السنة.

وانتهج بايزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢م) سياسة أقل عدوانية تجاه الغرب. وكان هذا فى جزء كبير منه راجعاً إلى حقيقة أنه كان عليه أن يدافع عن عرشه ضد أخيه چيم . وبعد أن حاقت الهزيمة بچيم سنة ١٤٨١م ، هرب إلى رودس سنة ١٤٨٢م ، ومن هناك ذهب إلى فرنسا. وتحت الرقابة فى أوربا ، بقى چيم رهينة قوية بأيدى الأوربيين حتى موته سنة ١٤٩٥م. وحقق بايزيد بعض المكاسب فى البلقان، ولكنه واجه أكبر المشكلات على الجبهة الشرقية ، أولا مع سلطنة المماليك، ثم منذ ١٥٠١م فصاعداً ، مع صعود الشاه إسماعيل فى إيران، أول شاه من الصفويين.

ويبدو أن أتباع الشاه إسماعيل الصفوى من الشيعة الاثنا عشرية قد اعتبروه المهدى واعتقدوا أنه كان معصومًا ولايقهر . وأسطورة أن إسماعيل لايُقهر تحطمت فى

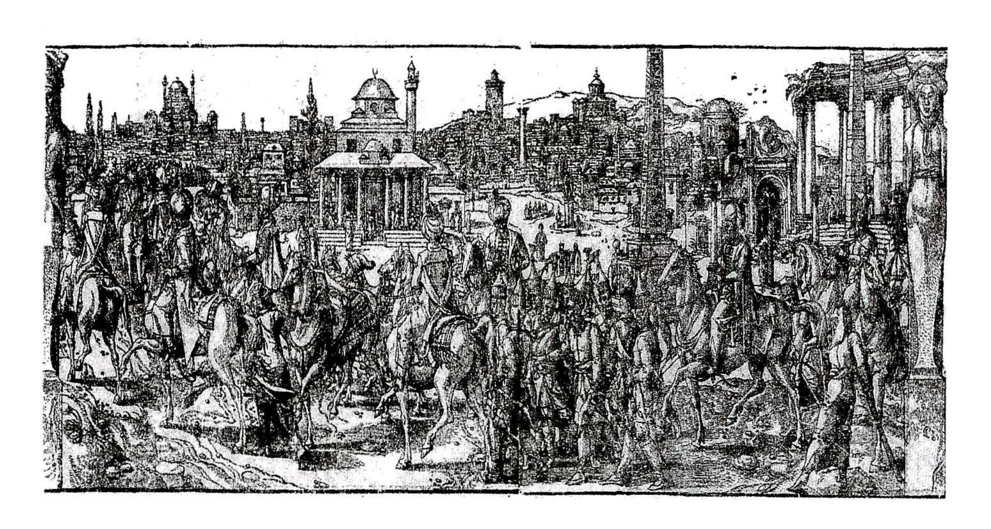
معركة خالديران سنة ١٥١٤م عندما قام جيش تحت قيادة سليم الأول بهزيمة أتباع إسماعيل غير المنظمين من محاربى القبائل التركمانية . وحتى بعد خالديران ، كان ينظر إلى المذهب الشيعى على أنه تهديد للنظام العثمانى السنى، ولكن كان من الخطر على سليم توجيه المزيد من الحملات ضد إسماعيل طالما كانت سلطنة المماليك تهديداً محتملاً على جناحه الجنوبى. وقد وحد الاحتلال العثمانى للأراضى المملوكية فى سنة ١٥١٦-١٥١٧م أراضى شرق المتوسط تحت حكم حاكم مسلم واحد، ومن ثم كانت استنبول تجمع سنوياً كميات طائلة من العوائد من مصر على وجه الخصوص.

وحتى قبل أن يدخل سليم القاهرة فى سنة ١٥١٧م، كانت السيادة على الجزائر قد قدمت إليه من جانب عروج بربروسا ، الذى كان قد استولى على المدينة فى السنة السابقة .، وكانت غنائم الأخوين عروج وخير الدين بروبروسا فاتحة عصر عظيم للقراصنة البربر . ففى سنة ١٥٢٣م عين خير الدين مسئولاً عن تنظيم الأسطول العثمانى وفى سنة ١٥٣٤م استولى على تونس . وعلى الرغم من أن قوة أرسلها الإمبراطور شارل الخامس استولت عليها مرة أخرى فى السنة التالية ، فقد أحرز خير الدين نصراً بحرياً كبيراً فى سنة ١٥٣٨م فى بريفيزا ضد عصبة أوربية بحرية تحت رعاية الإمبراطور والبابا ، وعلى المدى الطويل أخذ المسلمون طرابلس، التى كانت بيد الرسبان منذ سنة ١٥١٠م، واستعادها المسلمون سنة ١٥٥١م ، وتم ضم معظم شمال أفريقيا ، باستثناء مراكش إلى السلطنة العثمانية .

ويمكن أن نرى فى الإمبراطورية العثمانية تحت حكم سليمان الكبير (١٥٢٠-١٥٦٦م) المعادل المسلم للإمبراطورية المسيحية العالمية تحت حكم شارل الخامس. لقد كانت حرب سليمان فى البحر المتوسط والبلقان حرباً إمبراطورية حقيقية تم شنها ضد الهابسبورج ، أكثر منها جهاداً ضد الأوربيين. وكان أرباب الدعاية لسليمان يفضلون التأكيد على ضرورة الجهاد ضد الصفويين الشيعة فى إيران والعراق. وفى البداية

حالف الحظ جيوش سليمان بشكل مستمر ؛ الاستيلاء على بلجراد (١٥٢١م) والاستيلاء على رودس (١٥٢٢م) والنصر على المجريين فى معركة موهاكس Mohacs (١٥٢٦م) ، وما تلى ذلك من تدمير المملكة المجرية . وأخفق سليمان فى الاستيلاء على ڤيينا سنة ١٥٢٩م ، بيد أن هذه النكسة لم تبد مهمة جدا فى ذلك الوقت ، لأن محاولة أخذها لم تكن سوى نتيجة فكرة جاءت متأخرة قرب نهاية موسم الحملات. وحتى مع هذا ، كانت ڤيينا واقعة على الطرف الأقصى للقدرة اللوچستية العثمانية حسبما اكتشف خلفاء سليمان فيما بعد. وفى مجرى القرن السابع عشر تضاءلت التوقعات الإسلامية بالغزو المستمر وسقطت أخلاقيات الغزاة فى جُبِّ التعطيل. وكان فشل الأتراك فى مالطة سنة ١٥٦٥ بمثابة المزيد من كبح الطموحات العثمانية وفى السنة التالية توفى سليمان.

وعلى أية حال، استمر العثمانيون فى القيام بالغزوات ، وفى سنة ١٥٧٠م أدى احتلالهم لمعظم قبرص ، التى كانت تحتلها البندقية، إلى تكوين عصبة بحرية أوربية أخرى . وقد بالغ الأوربيون فى انتصارهم بمعركة ليبانتو بخليج كورنثة سنة ١٥٧١م باعتبارها نصراً عظيماً على الكفار. وعلى الرغم من أن الخسائر التركية فى المعركة كانت ثقيلة وأدت إلى مصرع الآلاف من البحارة المهرة والقواسين ، فإن الموارد العثمانية كانت هائلة ولم تغير المعركة شيئًا. وهناك زعم بأنه حينما سأل السلطان سليم الثانى (١٥٦٦-١٥٧٤م) وزيره كم ستكون تكلفة بناء أسطول جديد، أجاب الوزير «إن عظمة الإمبراطورية كبيرة بحيث إنه اذا كانت هناك رغبة لتجهيز الأسطول كله بمراسٍ من الفضة ، وحبال الصوارى الحريرية، وأشرعة من الساتان ، فإننا نستطيع عمل هذا ». والواقع أن العثمانيين بنوا بسرعة أسطولاً جديداً ، ولم يكن احتلالهم قبرص يواجه تحديا جاداً، وكانوا يشنون الغارات حسب مشيئتهم فى غرب المتوسط ، وفى بعض الأحيان كانوا يستخدمون الموانئ الفرنسية الصديقة للقيام بهذا .



السلطان العثمانى سليمان الكبير يركب منتصراً فى ساحة استنبول . وفى الخلفية ثلاثة تماثيل أقيمت فى أثناء حملة ناجحة حديثة ضد المجريين معروضة على عمود .



الانتصار العثمانى الحاسم فى موهاكس (١٥٢٦) أتاح للعثمانيين ضم المجر. وفى هذه المنمنمة، من كتاب تاريخ يحتفى بالغنائم التى غنمها سليمان، تبدو القوات المجرية فى بعض الفوضى وفى مقدمة الصورة يمكن رؤية الخيالة المجرية الثقيلة تتخبط فى المستنقعات .

وفى دورة متجددة من القتال فى البلقان (١٥٩٣-١٦٦٠م) ، كان أداء القوات العثمانية ضعيفًا . وقد نقلت الجيوش العثمانية التكنولوچيا العسكرية عن الأوربيين، ولكنها لم تنقل تكتيكاتهم . وربما كان المراقبون الأتراك قد أعجبهم النظام فى الجيوش الأوربية ، وكذلك مهاراتهم فى استخدام المدافع والبنادق ، ولكن الجيوش التركية لم تستطع مجاراة الأوربيين فى هذا المجال ، وكان القادة الأتراك لا يزالون يؤمنون بالفرسان السباهية الذين يستخدمون السيوف . كذلك كانت السلطنة قد ضعفت من جراء المشكلات المالية وحالات التمرد فى الأناضول.



بينما حدث فى سنة ١٧٩٨م أن نزل جيش فرنسى على أرض مصر بقيادة نابليون بونابرت قدم بونابرت إعلانا كتب بالعربية يعد بـ «الحرية ، والمساواة، والأخوة» . ولكن معظم المصريين كانوا ميالين إلى رؤية الغزو الجديد على أنه مجرد الحلقة الأخيرة فى سلسلة من الحروب العدوانية فى تراث جودفرى البويونى ولويس التاسع ملك فرنسا، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا قد هزموا فى معركة الأهرام فإنهم استمروا فى تلقى الدعم من جماهير الرعايا العرب .

حلل الموظفون العثمانيون ذوو العقلية الفلسفية المشكلات ولجأ بعضهم إلى نظريات ابن خلدون لكى يفعل هذا . وما يثير الانتباه فى أعمالهم أن واجب السلطان الرئيسى لم يعد ينظر إليه على أنه الجهاد. وبدلاً من ذلك ، كانوا يميلون إلى الجدل بأن واجبات السلطان الرئيسية هى إقامة العدل وضمان رفاهية رعاياه . وفى سنة ١٦٢٥م كتب عمر طالب «الآن تعلم الأوربيون أن يعرفوا العالم كله ؛ إنهم يرسلون سفنهم فى كل مكان ويستولون على الموانئ المهمة وفيما قبل كان من المعتاد أن تأتى بضائع الهند والسند والصين إلى السويس وتوزع عن طريق المسلمين فى جميع أرجاء الدنيا. ولكن الآن تحمل البضائع فى سفن برتغالية، وهولندية، وإنجليزية إلى فرنجستان (أوربا) وتنتشر فى جميع أنحاء العالم من هناك» . وكان هناك آخرون يشاطرون عمر طالب مشاعره فى أن السلطنة كانت مهددة من جراء افتقارها الوصول إلى الموارد الهائلة للأمريكتين.

لم تكن المحاولة العثمانية النهائية للوصول إلى ڤيينا سنة ١٦٨٣م إخفاقًا فحسب، ولكنها استفزت عصبة الحرب المقدسة (١٦٨٤-١٦٩٧م) وأدت إلى خسارة كل من بودا وبلجراد. وبعقد صلح كارلوڤيتز Karlowitz (١٦٩٩) اضطر العثمانيون إلى تسليم المجر وترانسلڤانيا إلى النمسا ، على حين ضمت البندقية وبولندا أملاكًا أخرى. كان من الواضح أن موجة التقدم العثمانية قد أوقفت . وعلاوة على ذلك ، كانت هى القوة المهزومة بشكل واضح ، للمرة الأولى، وسُلمت بالفعل أراض إلى الأوربيين . كان عصر الجهاد قد ولّى وراح، وبدأت العملية الطويلة لتفكيك الإمبراطورية العثمانية. وحتى لو كان چيبون محقًا فى تسمية الصراع بين أوربا والمسلمين فى شرق المتوسط «حوار العالم»؛ فقد كان حوارًا بين الطرشان ولم يحدث حتى منتصف القرن

التاسع عشر حتى صك العرب مصطلح «الحروب الصليبية» للإشارة إلى الحروب الصليبية(*).

(*) استخدم الكاتب عبارة «الصراع بين المسيحية والإسلام» فى النص الأصلى، وهى عبارة غير صحيحة علميًا وتاريخيًا ، لأن الحرب كانت بين الصليبيين (الذين لايمثلون كل المسيحيين بطبيعة الحال) وبين سكان المنطقة العربية (بما فيهم المسيحيين العرب واليهود العرب) . ومن ناحية أخرى، فإن العرب لم يصكوا عبارة «الحروب الصليبية»، وإنما ترجموها عن اللغات الأوربية وكان المؤرخون العرب المعاصرون يسمونها «حروب الفرنج» أو «حركة الأفرنج» (المترجم).

(١١)

الحركة الصليبية ١٢٧٤-١٧٠٠م

نورمان هوسلى

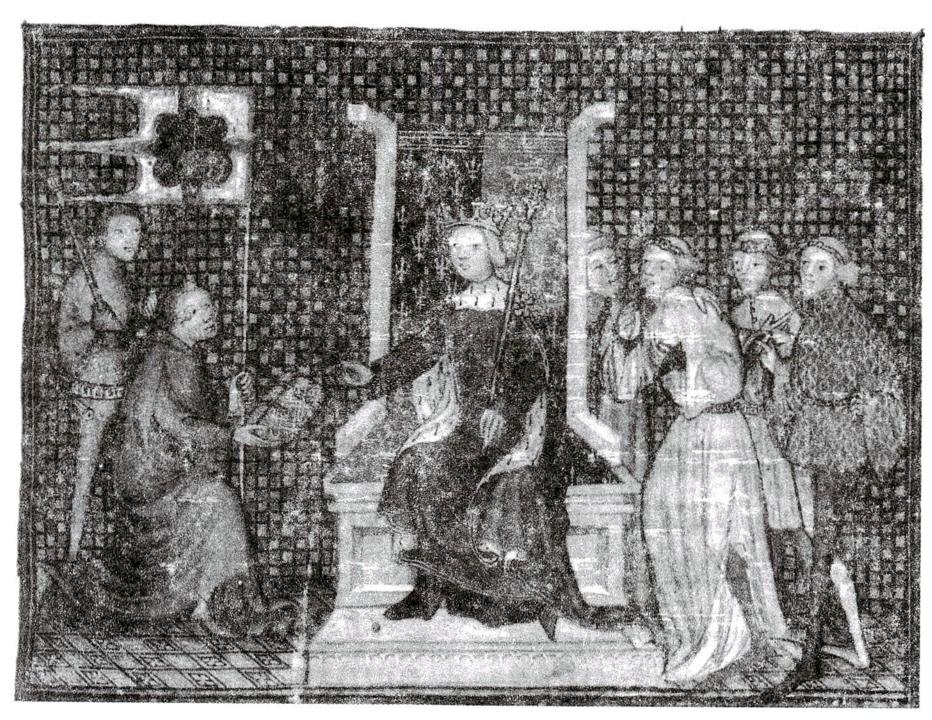
عندما اقتربت الحركة الصليبية من نهاية القرنين الأولين من وجودها ، كانت تعانى أزمة . إذ كانت الانتصارات الجديدة فى إسبانيا ، وبروسيا وإيطاليا تتهاوى ، ولكنها لم تستطع أن تعوض عن حقيقة أن الدفاع عن الأرض المقدسة كان على حافة الكارثة فى مواجهة التقدم المملوكى . وإذا وضعنا فى اعتبارنا طبيعة الحركة الصليبية فإن الأزمة كانت أزمة عقيدة وكانت أيضًا أزمة استراتيجية عسكرية . وحسبما عبرت المراسيم الصليبية لمجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤م Constitution Pro zelo fidei، «بالعقيدة المسيحية ، يهين المماليك المسيحيين ويسخرون منهم بالكثير من الإهانات - «أين هو رب المسيحيين؟» . ولم تنته الأزمة سنة ١٢٩١م لأن قليلاً من المعاصرين تقبلوا فقدان فلسطين بشكل نهائى ؛ والواقع أنه لم يحدث سوى بعد اندلاع حرب المائة عام سنة ١٣٣٧م أن صارت الآمال فى إعادة الاستيلاء على الأرض المقدسة هامشية محصورة فى عدد قليل من المتفائلين . وهناك أسباب قوية تدعونا إلى البدء فى مسح الحملات الصليبية المتأخرة بالتركيز على الخميرة الخصبة للأفكار ، وتدعيم طرق التنظيم والتمويل التى بدأها مجمع ليون الثانى بمبادرة منه، أو وسّع نطاقها ، والتى تغطى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر والعقود الأولى من القرن الرابع عشر. هذه التغيرات لم تكن وحدها المسئولة عن بقاء الفكرة الصليبية على مدى عدة أجيال قادمة ؛ ولكنها أظهرت فى وضوح خصائص الاشتباك ، والمرونة ، والقدرة على التوافق التى ثبتت هذا البقاء.

سنوات الاختبار الصليبى وتراثها

«لكى نحصل على الأرض المقدسة ، هناك ثلاثة أشياء مطلوبة قبل كل شئ: وهى الحكمة، والقوة والإحسان». هكذا وضع رومان لول **Roman Lull** فى مقدمة رسالته عن الحروب الصليبية **De acquistione Terrae Sancte (1309)** «عن الاستيلاء على الأرض المقدسة» أجندة العمل على استعادة الفكرة الصليبية . فالحكمة **(Sapien-tia)** فى شكل نصيحة لم تكن غائبة . إذ كان لول نفسه واحداً من أكثر المسيحيين اللاتين الذين كتبوا مقالات عن الاسترداد فى العقود ما بين مجمع ليون الثانى وبداية الحرب الأنجلو – فرنسية . وقد أُعدت ست وعشرين مقالة بين مجمعى ليون



وليم دوراند William Durand يقدم مقالته عن الحملة الصليبية إلى ملك فرنسا؛ حوالى سنة ١٣٢٠م



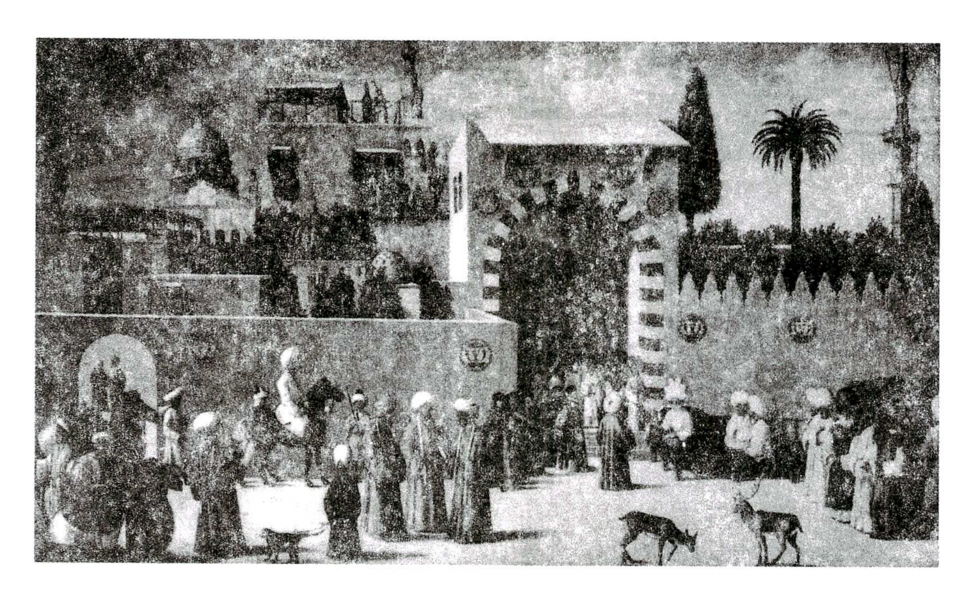
فيليب الميزييرى Philip de Mezieres يُقدم رسالته عن الحملة الصليبية إلى ريتشارد الثانى ملك إنجلترا ١٣٩٥ . طوال العصور الوسطى المتأخرة أحس ملوك فرنسا وإنجلترا بالتزام أخلاقى ، باعتبارهم ورثة لويس التاسع وريتشارد الأول، بقيادة الجهود الصليبية فى أوربا. بيد أن منافساتهم السياسية حالت دون ذلك.

وفيينا (١٢٧٤- ١٣١٤م) ، والانتماء والخبرة شكل المؤلفون قطاعًا يعبر عن المجتمع الأوربى الذكورى (ومن المثير أنه لاتوجد إسهامات معروفة من جانب النساء) . وكان من بينهم ملوك ((هنرى الثانى ملك قبرص وشارل الثانى ملك نابولى) وموظف ملكى فرنسى بارز (وليم النوجاريتى William de Nogaret) وتشكيلة من الأساقفة والرهبان الجوالين، ورؤساء النظم الرهبانية العسكرية الرئيسية وأمير أرمنى منفى ، ورجل أعمال بندقى ، وطبيب جنوى . وكان بعضهم من الإستراتيجيين الوهميين الذين يخططون وهم جالسون فى مقاعدهم الوثيرة ، وكان البعض الآخر من الخبراء، على الرغم من أن هذا لم يكن واضحًا باستمرار فى نصيحتهم؛ وكتبوا جميعًا لجمهور من البابوات والملوك عادة، على أمل وتوقع القيام بفعل ما .

هذا التدفق فى المشورة كان جديدا، ومتمايزًا ومهمًا . وكان من بين أسبابه أن البابوات من البابا جريجورى العاشر فصاعدًا كانوا يعملون حسب سُنة إنوسنت الثالث – الذى هو فى هذا غالبًا ما كان fons et origo المسئول عن تطورات الحركة الصليبية – بواسطة النصيحة الملحة. ومعظم المذكرات والمقالات المبكرة كانت مكتوبة من أجل مجمع ليون الثانى . وأول مقالة كاملة عن الاسترداد ، والتى كتبها فيدينزيو البادوى Fidenzio of Padua ربما كانت أيضًا استجابة لدعوة جريجورى العاشر وطلب مشورة مكتوبة، على الرغم من أنها لم تستكمل حتى وقت قصير قبل سقوط عكا. مثل هذه الطلبات عكست إدراكا واسع المدى للحاجة إلى تفكير جذرى تجديدى حول كل وجه من وجوه التنظيم الصليبى فعلاً، بداية من شكل الحملة إلى تنظيم الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها وحمايتها ، لعدم تكرار أخطاء الماضى. وقد أدت هذه الاستجابة البناءة والبصيرة تجاه أخطاء الماضى إلى ما يشبه الاتفاق على النحو الذى ظهر فى كثير من الجوانب الرئيسية لحملة الاستعادة الصليبية التى طال الشوق إليها، وكان

لابد أن يسبق الحملة فرض الحصار على الأراضى المملوكية لتحقيق هدف مزدوج ، حرمان السلطان من واردات الحرب الأساسية (بما فيها العبيد الذين كان يتم تدريبهم ليكونوا صفوة فرسانه) وإرهاق موارده المالية . وكان يجب أن تتم الحملة على مرحلتين أولاهما الحملة الخاصة Passagium Particulare التى ستقيم رأس جسر تستغله الحملة الثانية (الحملة العامة Passagium generale) ، ولابد من تنظيم الحملة على أسس احترافية، وتكون جيدة التمويل، وخاضعة لقيادة حاسمة، محترمة ، ذات خبرة ، كما يجب استبعاد المدنيين ومن يتبعون العسكريين لخدمتهم .

وسيكون من الخطأ المبالغة فى هذا الاتفاق، أو أن نفترض أن التجربة البازغة كان يمكن الأخذ بها . وبعض المنظرين ، ومن المدهش أن من بينهم آخر رئيس للداوية، وهو جيمس مولاى James Molay ، رفضوا الحملة الخاصة Passagium Particulare وفضَّلوا حملة عامة مفردة يشترك فيها الجميع . ولم يكن هناك اتفاق حول المكان الذى كان يجب أن تنزل فيه الحملة . فقد تشكلت المحاور وتدخلت الأمور السياسية دائمًا . وبالنسبة للمنظرين الفرنسيين بيتر دوبوا Peter Dubois ووليم النوجاريتى William de Nogaret كانت الحملة فى جزء منها أداة لتحقيق طموحات آل كابيه ، على حين كان مفكر بارز غير أنانى مثل رومان لول Roman Lull قد سمح لنفسه بأن يتأثر كثيرا بمصالح أراجون ومصالح الفرنسيين، التى ضمَّنها فى خطط الهجوم التى وضعها . ومن ناحية أخرى ، كانت الكتابة فى فراغ سياسى مضيعة للوقت ؛ وكان من غير الواقعى محاولة تجريد الحملة الصليبية من الأهداف الخاصة بالأسرة الحاكمة والاقتصادية للقوى الكبرى، وأحد أشد الملامح لفتًا للنظر لدى أفضل كتاب الخطط، وهما لول والبندقى مارينو سانودو، أنهما لقيا ترحيبًا بوجودهما فى بلاطات الملوك، وفى الاجتماعات وفى المجامع الكنسية. لقد كانوا من كبار صانعى الشبكات ومن الواضح أن تدفق الأفكار. والتأثير كان يسير فى اتجاهين .



القوى التجارية فى البحر المتوسط، وخاصة المدن البحرية الإيطالية وبرشلونة عادة ما كانت تفضل العلاقات السلمية مع المماليك، كما صورها هنا تابع لجنتيل بلليني. كانت هذه عقبة خطيرة فى سبيل الحملة الصليبية الاسترجاعية ، لأنه كان هناك اعتماد على مثل هذه القوى فى فرض الحصار التجارى الذى اعتبر جوهريا للنجاح.

وسواء كانت أمام الحملة الصليبية المنقحة والمصلحة التى دعا إليها مثل أولئك الرجال فرصة للتحقق على أرض الواقع أم لا فهذا أمر يصعب الحكم عليه ، لأنها توقفت على الخاصيتين الأخريين اللتين اعتبرهما لول ضروريتين ، الإحسان **(Caritas)** والسلطة **(Potestas)** . وأية محاولة لإثارة التعاطف العام حول الحملة الصليبية سواء

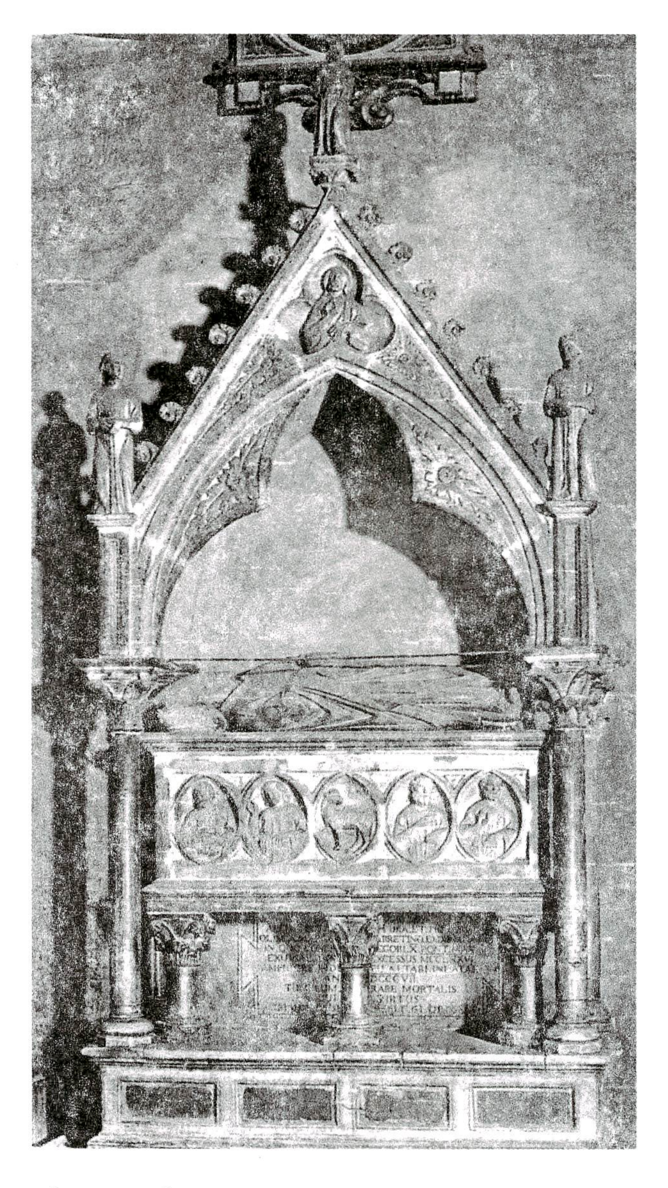
على أساس ردود الفعل تجاه المصائب التى جرت على الصليبيين فى الشرق- وعلى رأسها سقوط عكا- أو على أساس الاستجابة للدعوة الصليبية ، كان محكومًا عليها بالفشل منذ البداية. إذ كانت الأولى محكومة تمامًا بالمصالح الخاصة والبحث العالمى عن كبش فداء، على حين كانت الثانية مشوشة بفعل تحول الدعوة الرسمية تجاه جمع الأموال بدلاً من المشاركة الشخصية . وعلى أية حال، كانت هناك بعض الهبّات ذات المغزى، وإن كان عمرها قصيرًا ، فى الاهتمام الشعبى بعد سقوط عكا بوقت قصير. وقد تم ربط هذه الهبّات عادة بالجانب الأخروى فى الأفكار الصليبية . وكانت على خلاف الصيغة المتقدمة المحترفة للحملة الصليبية التى دعا إليها غالبية المنظرين ولكنها كانت تتميز بفضيلة بيان أن هوس المنظرين باستعادة السيطرة على الأرض المقدسة كان يمس مشاعر الناس كثيرًا عندما تكون الحالة سليمة . وقد حدثت مثل هذه الهبّات على فترات كل عشر سنوات تقريبًا فى سنة ١٣٠٠م عندما وصلت الأنباء إلى الغرب بانتصار الإيلخان غازان على المماليك فى حمص ، وفى سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٢٠م ، حينما أوضحت حملات «الفلاحين» الصليبية فى ألمانيا وفرنسا بجلاء أن الفقراء ما زالوا عرضة للانتفاضات بفعل الحماسة الصليبية.

وفى مرتبة أعلى فى السلم الاجتماعى، نجد أنفسنا على أرض أكثر صلابة . إذ إن الأدلة أكثر ثراء، ومن الواضح أن عقيدة الفروسية ، التى حافظت على كامل قوتها فى وقت سقوط عكا تقريبا ، تضمنت الخروج فى الحملة الصليبية باعتباره أحد الخصائص المميزة لها . ولم تكن مصادفة أن الحكام العلمانيين غالبا ما اختاروا إعلان أو تدشين خططهم الصليبية فى سياقات المباهاة الفروسية؛ والواقع أن هذا ظل حقيقة حتى احتفال فيليب الطيب بعيد التدرج سنة ١٤٥٤م. كما أن تقاليد العائلات الصليبية ، لاسيما فى فرنسا وإنجلترا ، عرّضت العديد من النبلاء للاستجابة بحماسة للمشروعات الصليبية التى كانت تعرض فى البلاط البابوى والبلاط الملكى. وكانت حماستهم تشوبها باطراد شكوك بشأن الدوافع والمقاصد الحقيقية لأولئك الذين

يقدمون المشروعات ، وقد عبَّر هذا عن نفسه فى ذلك القدر المتزايد من الاهتمام بالالتزام الرسمى بأخذ شارة الصليب ، ولكن كان من الممكن ، مرة أخرى ، منذ زمن الخطط الصليبية لملك إنجلترا إدوارد الأول فى ثمانينيات القرن الثالث عشر، حتى خطط فيليب السادس ملك فرنسا الصليبية أوائل ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، تجنيد الرجال المحاربين.

وفى الحقيقة أن المرء يمكن أن يصل إلى استنتاج أن نقص السلطة Potestas ، لانقص الإحسان Caritas ، أدى إلى إخفاق مشروعات الاستعادة الصليبية. ولشرح السبب فى هذا، يجب أولاً تحديد بعض مظاهر التقدم الهائلة التى حدثت فى مجال التنظيم العسكرى والدعم المالى ، وقد شكلت مع الأطروحات التى تتضمن خططا صليبية ، تراثا اعتمد عليه مجمع ليون والتخطيط المحموم لشن حملة صليبية على مدى نصف القرن التالى. وثمة ممارسة كانت تبرز بالتدريج فى الشئون الصليبية، ومع أنها كانت أقل من حيث توجيهها وكفاءتها من تلك الصليبيات التى صورها بعض المنظرين، فإنها كانت أكثر انسجاماً مع اتجاهات الشئون الحربية المعاصرة ، ومن ثم كانت أكثر احتمالاً للنجاح. وثمة حركة تجاه التجنيد التعاقدى ، بكل مميزاته فى ضوء السيطرة والاعتماد يمكن أن نراها بوضوح فى تخطيط صليبيات كلٍ من إدوارد الأول ، وشارل الرابع، وفيليب السادس. لقد كان هناك تقدير متزايد لأهمية الاستخدام الكامل لتفوق الغرب فى البحر، وليس فقط فى ضوء الحصار البحرى المفروض على الأراضى المملوكية. وقد أعطيت الأهمية الواجبة لجمع المعلومات، والتجسس وزراعة الحلفاء بين القوى المحايدة . وتم تقدير الحاجة إلى تعدد الأساليب فى التعامل مع الظروف المتغيرة والأعداء المتغيرين، وكان من المتوقع تقديم الخبراء فى الحصار الحربى. وفوق هذا وذاك ، تمت إمالة التوازن بين الدينى والعسكرى، فى حالة دخول الحملة الصليبية إلى ساحة القتال، لصالح العسكرى بشكل حازم، للدرجة التى لم تحدث حتى فى حملات لويس التاسع .

وعلى أية حال ، فإن أهم طفرة جاءت فى مجال التمويل ، إذ كانت كافة التغيرات التى ورد ذكرها فى الفقرة السابقة مكلفة للغاية، ولكى يتم التعامل مع النفقات المتصاعدة دومًا لشن حملة صليبية اقترح مجمع ليون الثانى فرض ضريبة على العلمانيين فى جميع أنحاء أوربا. وقد تهشم هذا الاقتراح على صخور الشك والخصوصية، بيد أن المجمع حقق نجاحًا دائما فى إجرائه المالى الرئيسى الآخر ، أى فرض ضريبة العشر على مدى ست سنوات على الكنيسة كلها. فقد كان قد تم الاعتراف بالضرائب على الدخل الكنسى منذ عدة عشرات من السنين على اعتبار أنها الوسيلة الوحيدة التى يُعتمد عليها لضمان تدفق التمويل للحملات الصليبية، ولكن إجراءات تحصيل، ، وجمع ، ونقل الأموال كانت قد ظلت عشوائية حتى ذلك التاريخ. وكان أعظم إسهام لجريجورى العاشر فى الحركة الصليبية أنه وضع يده على الطريقة التى فرض بها هذه الضريبة على أسس مؤسسية ثابتة . فقد أنشأ البابا ستًا وعشرين إدارة تحصيل ، وفى مرسومه الذى صدر سنة ١٢٧٤م بعنوان Cum Pro negotio ، أرسى خطوطًا إرشادية مفصلة لتقدير قيمة دخول رجال الكنيسة لأغراض الضريبة . وفى السنوات التى أعقبت وفاة جريجورى سنة ١٢٧٦م تعين على خلفائه القيام بتعديلات على إجراءاته ، ولكن بموت يونيفاس الثامن سنة ١٣٠٣ كانت البابوية تمتلك نظامًا شاملاً للضرائب أمكنها أن تعول عليه فى تمويل المشروعات الصليبية . والواقع أن هذا النظام كانت قد تمت أول تجربة رئيسية له فى ذلك الحين ، على شكل العشور العديدة والإعانات التى فرضها البابوات لكى يمولوا سلسلة الحملات الصليبية التى شنوها ضد الصقليين المتمردين وحلفائهم فيما بين سنة ١٢٨٢م وسنة ١٣٠٢م.



مقبرة البابا جريجورى العاشر فى كاتدرائية أريتزو Arezzo تُعطى انطباعًا بسلطة هذا البابا، الذى حاول، ، وفقا لتراث إنوسنت الثالث، استنهاض العالم المسيحى الغربى لإنقاذ الأرض المقدسة .

كان فرض البابوية الضرائب على الكنيسة إنجازًا غير عادى. ويمكن أن يبدو بسيطًا بصورة خادعة . ففى سنة ١٢٩٢م، مثلاً كانت إيرادات أسقف روشستر قد قدرت باثنين وأربعين جنيها استرلينيًا (L 42 25 . 2d) ، بما فى ذلك الإيجارات، ومصائد الأسماك ، والطواحين، والأسواق والمحاكم : وتبع ذلك أن تعين عليه دفع ما يقرب من أربعة جنيهات ونصف L 4 , 45 , 2.5 سنويًا من أجل ضريبة العشر التى كان البابا نيقولاس الرابع قد منحها لإدوارد الأول لمشروع حملته الصليبية . بيد أن هذا الحساب الصريح الواضح أحاطت به الصعوبات. فهل كانت ضريبة العشر ستقوم على أساس تقدير للدخل يقوم به محقق محايد، وهو ما كان استهلاكا للوقت وسيكون أوانه قد فات بسرعة، أم كان الدفع سيتم بطريقة الاستعادة على أساس ضمير القسيس ومعرفته - التى لم تكن دقيقة دائمًا بطبيعة الحال - بما كان عليه دخله فى سنة بعينها ؟ كيف كان سيمكن إيجاد المحاسبين والجباة ومكافآتهم ، وكيف كان سيتم الإشراف على عملهم ومراقبته ؟ كيف كان يمكن تأمين الحصيلة بأفضل طريقة ونقلها؟ وبالإضافة إلى هذا، كانت هناك مجموعتان هائلتان من المشكلات تتعلق بدافع الضرائب والقادة العلمانيين الذين تلقوا الأموال للأغراض الصليبية. وكانت وسائل المقاومة التى استخدمها القساوسة، من الإجراءات المراوغة والذرائع إلى التحدى الصريح ، عديدة وماكرة . وعند الطرف الآخر من العملية، كان من الضرورى استخدام بعض الوسائل لضمان أن الأموال التى تم تسليمها قد أنفقت بالفعل على حملة صليبية، وأن الحسابات كانت تحفظ ويتم التحقق منها، وأن المبالغ التى لم تنفق قد أعيدت .

وقد أثبتت هذه المشكلات أنها تستعصى على الحل : فالقساوسة المتهربون من الضرائب ، والجباة المزورون ، وقطاع الطرق ، وشركات الصرافة المفلسة ، والحكام الذين اختلسوا الضرائب الصليبية ، كانوا ملامح ثابتة فى الفضاء الاجتماعى - الاقتصادى الأوربى طوال فترة أواخر العصور الوسطى . ومثل معظم النظم الضريبية فى العصور الوسطى، كانت الضريبة التى فرضتها البابوية على الكنيسة عرضة للسقوط، ولكثير من النقد، ومرفوضة، ومكلفة ، ومع هذا لم تكن تتسم بالكفاءة. ولكن



بات هى أمير الفرس الجدد الذى يشن الحرب قرب اللاتيران ... لأن أعداءه كانوا مسيحيين ولم يكن هناك أحد يقهر عكا» البابا بونيفاس الثامن فى تمثال لأرنولفو دى كامبيو ، يكاد ينطق بالحياة . لقد أدى إصرار البابا على جعل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة تأتى بعد إخضاع المتمردين فى صقلية إلى أن هاجمه دانتى ووضعه فى الجحيم بالكوميديا الإلهية.

على الرغم من كافة أخطائها ، فإنها وفرت شطراً كبيراً من الأمـــوال التى كانت الحركة الصليبـــية قد باتت تعتمـــد عليهـــا فى ذلك الحين، ومن ثم جعـــلت من الممكن استمرار الحركة. كما أنها، طبعا، حفـــزت الاستـــمرار . إذ إن فرض ضريبة عشـــور لمدة ســـت ســـنوات من أجل الحمـــلات الصليبيـــة، ليس فقط فى مـجمع ليـون سنة ١٢٧٤م ولكن أيضا فى المجمع العام الذى عقده كليمـــنت الخامس فـــى ڤيينا ســـنة ١٣١٢م ، والذى جلب مبالغ طائلة من الأمـــوال كان من المفـــروض إنفاقهـــا على الرحلة إلى الشـــرق، وساعدت بالتالى على إبقاء هذا الموضوع حيًا فى المجال السياسى. كما أن الاستعداد من جانب البلاط البابوى لمنح حاكم فرد حق فرض ضريبة على رجال الكنيسة فى بلاده، سواء مباشرة من أجل حملة صليبية أو لسبب تم تصويره على أنه تجهيز جوهرى لمثل هذا المشروع ، كان له نفس التأثير تماماً . ربما كان وجود الحملة الصليبية فى أواخر العصور الوسطى أكثر من أى شئ آخر هو وجود جيوش المصرفيين والإداريين الذين شغلوا أنفسهم فى جمع الأموال وتوزيعها والتى بدونها لم يكن ممكنًا عمل شئ.

إلى درجة كبيرة، كانت السلطة Potestas فى رأى لول Lull ، هى المال، ولم يكن هناك ما يكفى منه لشن حملة صليبية؛ أو بقدر أكبر من الدقة، جعلت الظروف السياسية فى أوربا حوالى سنة ١٣٠٠م من المستحيل جمعه ما يكفى من المال. ذلك أن الثقة المتزايدة بالنفس والحاجات المحلية الملحة للحكام العلمانيين فى العالم الغربى كانت تعنى أنه بينما كانوا سيقبلون فرض الضرائب البابوية على الكنيسة فى أراضيهم، ولاسيما إذا ما كان بوسعهم أن يأملوا فى أن يستمتعوا على الأقل بنصيب من الأموال التى تم جمعها، فإنهم لم يكونوا ليسمحوا بتصدير هذه الأموال لكى يستخدمها حاكم آخر يكون من المفترض أنه ينظم حملة إلى الأرض المقدسة. وعلى مستوى الواقع لم يكن بوسع أى قائد معين لحملة استرداد صليبية بالتالى ، أن يعمل على جمع الموارد اللازمة . وقد حاول فيليب السادس، الذى يحتمل أنه كان أقرب ما يكون، فى أوائل ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، من بدء حملة استرداد صليبية Passa-gium أن يتجاوز هذه المشكلة بجمع ضرائب علمانية داخل فرنسا، ومن خلال الضغط

على البلاط البابوى لجلب الأموال من خارج فرنسا والإمارات التابعة لها . ولكن الإجراء الأخير لم يكن ممكنا أن ينجح لأن تأثير البابوية فى المجال السياسى كان قد ضعف إلى حد بعيد . وهنا نجد سخرية مزدوجة . فقد كان عم فيليب السادس، وهو فيليب العادل، هو الذى أوضح بصورة ساطعة هذا الضعف فى سياق صراعه الكبير ضد البابا بونيفاس الثامن؛ وكان السبب وراء ضغط فيليب الساس هو خلق نظام ضريبى بابوى يوضح المدى المؤثر للسلطة التى كانت البابوية لا تزال تحتفظ بها، على النقيض، داخل الكنيسة.

ولاغرابة فى أن عدداً قليلاً من المعاصرين كانت لهم رؤية واضحة عن هذه التحولات الدقيقة الحاسمة فى القوة والنفوذ، وتأثيرها على الحملة الصليبية؛ وتولد لديهم انطباع عن التخبط والمراوغة والرياء من جانب حكامهم . وإذا ما استخدمنا العبارة الصادمة لأنتونى لوتريل Anthony Lutrell ، نقول إنها كانت «حقبة من الأزمات والارتباكات». وكانت تتم مناقشة مشروع وراء الآخر بغرض إعادة الاستيلاء على الأرض المقدسة ومساعدة قبرص وأرمينيا الصغرى، أو الاستيلاء على القسطنطينية مرة أخرى من البيزنطيين . وكانت هذه الأهداف الأخيرة تبدو تجهيزية للأهداف الأولى (أى إعادة الاستيلاء على الأرض المقدسة) . وقد تم التخلى عن كل هذه الأهداف تقريبًا، مما راكم قدرًا كبيرًا من خيبة الأمل. ولحك الملح فى جرح الإحباط الشعبى، حدث بالفعل أن تمت حملات صليبية من نوع أو آخر ؛ ففى سنة ١٣٠٩م، مثلاً لم تكن هناك أقل من ثلاث حملات صليبية ، فى شمال إيطاليا وغرناطة ، والبحر الإيجى . وفوق هذا وذاك أدى سقوط الداوية فى سنة ١٣٠٧- ١٣١٢م إلى إشاعة الذعر والاضطراب . وإذا كان هذا الحادث قد حل ، بالنسبة للبعض، مشكلة أولئك الذين وقع عليهم اللوم بسبب أحداث ١٢٩١م(*)، وانتهت لسبب قاهر المسألة المثارة عن توحيد النظم الرهبانية العسكرية ، فإنها أثارت أيضًا أسئلة مزعجة عن قوة التاج الفرنسى

(*) أى سقوط عكا على أيدى القوات المصرية والشامية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون. (المترجم)

ودوافعه . وإذ واجه بعض الناس التأجيل المتكرر لبرامج الحملة الصليبية ، وتحويل ميزانيات الحملات الصليبية من جانب كل من البابوات والحكام العلمانيين ، والمشكلات الاستراتيجية والمالية الملحة المتعلقة باستعادة السيطرة على الأرض المقدسة، فلا شك فى أنهم قد ركنوا إلى اليأس . وكما نعرف من انضمام هيومبرت الرومان Humbert of Romans إلى ناقدى الحركة الصليبية ، فإنه منذ وقت مبكر مثل سنة ١٢٧٤م وافق بعض الناس – سالمبينى آدم Salimbene Adam على أن «ليست مشيئة الرب استعادة الأرض المقدسة».

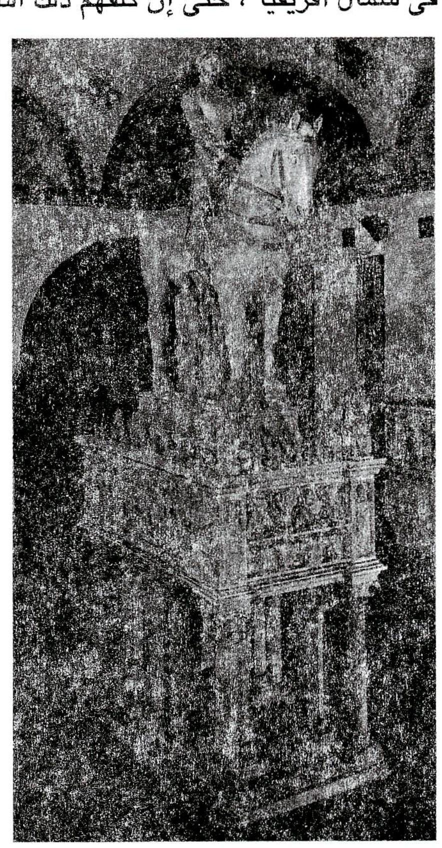
وفى المحاولة الأخيرة ، لم تكن الأزمة التى واجهت الحركة الصليبية قرب نهاية القرن الثالث عشر قد انتهت . وبدلاً من ذلك حدث أمران . أولهما فى أعقاب انهيار مشروع صليبية فيليب السادس فى سنة ١٣٣٦م ، وعندما أجلها البابا تحديدا، خرج مشروع استعادة الأرض المقدسة من جدول الأعمال . وبقى حيًا ، لأسباب تتعلق أساسًا بالمواءمة الكنسية، بحسب المصطلحات المستخدمة لتحديد الغفران والامتيازات المتعلقة بكل حملة صليبية Crucesignatus . وأهم من هذا ، أن المشروع ظل يستحوذ بقوة على عقول بعض المتحمسين مثل فيليب ميزيير Philip Mézieres ؛ وفى بعض الأحيان، لاسيما فى أثناء أوائل ستينيات القرن الرابع عشر، ومنتصف تسعينيات ذلك القرن، ظهر المشروع مجدداً بشكل مختصر على أنه موضوع للمناقشة والتخطيط فى بلاطات ملوك أوربا الكاثوليكية . ولكن على العموم صار المشروع متواريا تحت أهداف أخرى أكثر واقعية . ثانيا ، وكما سنرى فيما يلى، فإن الأفكار والمعالجات والبُنى الجديدة التى كانت قد تمت صياغتها تحت ضغط الهزيمة وعلى أمل التمسك بالأرض المقدسة أو استعادتها ، وكلاهما أعاد النشاط إلى مناطق الحركة الصليبية الموجودة ، وساعد على خلق مناطق جديدة . وهذه ليست نقطة تستوجب أن نمطًها بأكثر مما ينبغى: فقد كانت الظروف المحلية، والسياسة البابوية النشيطة ، والجذور العميقة للحركة الصليبية فى الثقافة الاجتماعية والدينية لأوربا الكاثوليكية ، والتى حملتها إلى ما وراء الثغرة المؤلمة التى حدثت سنة ١٢٩١م . بيد أن هناك الكثير مما يمكن قوله للتأكيد على القدرة على التعديل ، وكذلك المرونة المطلقة للحركة.

التقاليد المستمرة - الاتجاهات الجديدة

كانت العقود الوسطى فى القرن الرابع عشر عقوداً صعبة بشكل خاص بالنسبة للحركة الصليبية . إذ إن الحرب الإنجليزية - الفرنسية - والانهيار الذى جرى فيما بين سنة ١٣٤٣م وسنة ١٣٤٨م فى البيوت المصرفية الإيطالية التى كانت السياسة الضريبية البابوية تعتمد على مواردها وخبرتها فى فرض الضرائب على الكنيسة بشدة، والموت الأسود (١٣٤٨م) وما نتج عنه من خلخلة الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كلها وجهت ضربات قاصمة إلى المبادرات السياسية والمالية التى توقفت عليها حركة صليبية واسعة المدى. فإذا ما نظرنا إلى مدى الحركة الصليبية وحيويتها فى القرن الرابع عشر على ضوء هذه الخلفية القاتمة ، وجدناها لافتة للنظر. فقد حدث هذا النشاط فى داخل إطار التقاليد القائمة كما حدث فى أشكال وسياقات جديدة على السواء. وقد تأثرت حركة المد والجزر فى هذا النشاط بشدة، وإن لم تصل إلى حد التوجيه ، بسرعة الحرب فى فرنسا، ولكنها أظهرت قدراً كبيراً من الحيوية بخضوعها لهذا القيد. وقد انقضت منذ زمن طويل تلك الأيام التى كان يمكن فيها أن نصف هذه الفترة بأنها فترة ما بعد الحرب أو أنها فترة هدوء قصيرة ، فى تاريخ الحركة الصليبية.

وربما يمكن اتخاذ الحروب الصليبية فى أيبيريا وإيطاليا نموذجًا على التقاليد المستمرة التى أعطيت حيوية متجددة بفعل التقدم التنظيمى الذى كان قد حدث . ففى أيبيريا كانت المكاسب الضخمة التى تحققت فى منتصف القرن الثالث عشر قد خلقت مجموعة مركبة من المشكلات التى منعت على مدى عدة أجيال الحصول على مكاسب جديدة ذات أهمية رئيسية . ذلك أن كل الممالك المسيحية واجهت مهمة استيعاب فتوحاتها ؛ ففى قشتالة ، التى كانت أكبر المستفيدين، تم تحقيق هذا على حساب خلق طبقة غاية فى القوة والتماسك تحدت باستمرار التاج . وإذ كانت أراجون والبرتغال تخشى طموحات قشتالة، فإنهما شجعتا هذا التحدى كما عارضتا عادة أى استئناف

لحركة الاسترداد **Reconquista** على أساس أن النتيجة الرئيسية ستكون مزيدًا من المكاسب للقشتاليين. أما المسلمون ، من ناحية أخرى ، فكانوا على وعى تام بموقفهم الحرج فى غرناطة ، ولم يكتفوا ببناء دفاعات قوية هناك وإنما أوضحوا أنه فى حال وقوع هجوم مسيحى كبير، فإنهم سيكونون على استعداد لطلب مساعدة أبناء دينهم فى شمال أفريقيا ، حتى إن كلفهم ذلك استقلالهم.





هذان التمثالان الفروسيان لكل من كنجراند ديللا سكالا Cangrande della Scala (إلى اليسار) وبرنابو ڤيسكونت (إلى اليمين) يعطيان انطباعًا بالقوة التى كان هؤلاء الطغاة الإيطاليون، والذين كانوا من الخصوم الألداء للبابوات ، يرغبون فى إعطائه وقد تم تجريد حملتين صليبيتين ضد كل من الرجلين ومؤيديهما.

قد حملت الدول الثلاث المسيحية الكبيرة السلاح بالفعل بصفة دورية ضد غرناطة وهو ما يجب إرجاعه جزئيا إلى استعداد بابوات أڤينيون إلى منح الضرائب الكنسية الوفيرة للمشروع. وبالفعل كانت المفاوضات المالية بين البلاط القشتالى والبابوات جافة وصعبة مثل تلك المفاوضات التى كانت تخص حملة الاستعادة الصليبية Passagium ولنفس السبب: ليس لأن الموظفين الأيبيريين كانوا غير مخلصين ، ولكن لأنهم لم يروا سببًا لأن يفلسوا أثناء خوضهم حرب المسيح . وفى أثناء حكم ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة (١٣٢٥- ١٣٥٠م) ، عندما تم إخضاع النبلاء بشكل مؤقت وأجبرت القوى المسيحية الأخرى على التعاون بالتهديد بتدخل المغاربة ، وقد جاءت هذه المفاوضات بثمرة غنية : فقد كسب الملك معركة من أكبر المعارك الشرسة فى حركة الاسترداد Re-conquista عند نهر سلادو Salado سنة ١٣٤٠م، واستولى على ميناء الجسر Algeci-ras ١٣٤٤م، وكان يحاصر جبل طارق بسبب الموت الأسود بعد ذلك بست سنوات . وبعد ذلك ، عندما خفت حدة تهديد المغرب ، اندلعت الحرب بين الممالك المسيحية وتم جر شبه الجزيرة إلى الصراع الأنجلو – فرنسى باعتبارها مسرحًا ثانويا للعمليات.

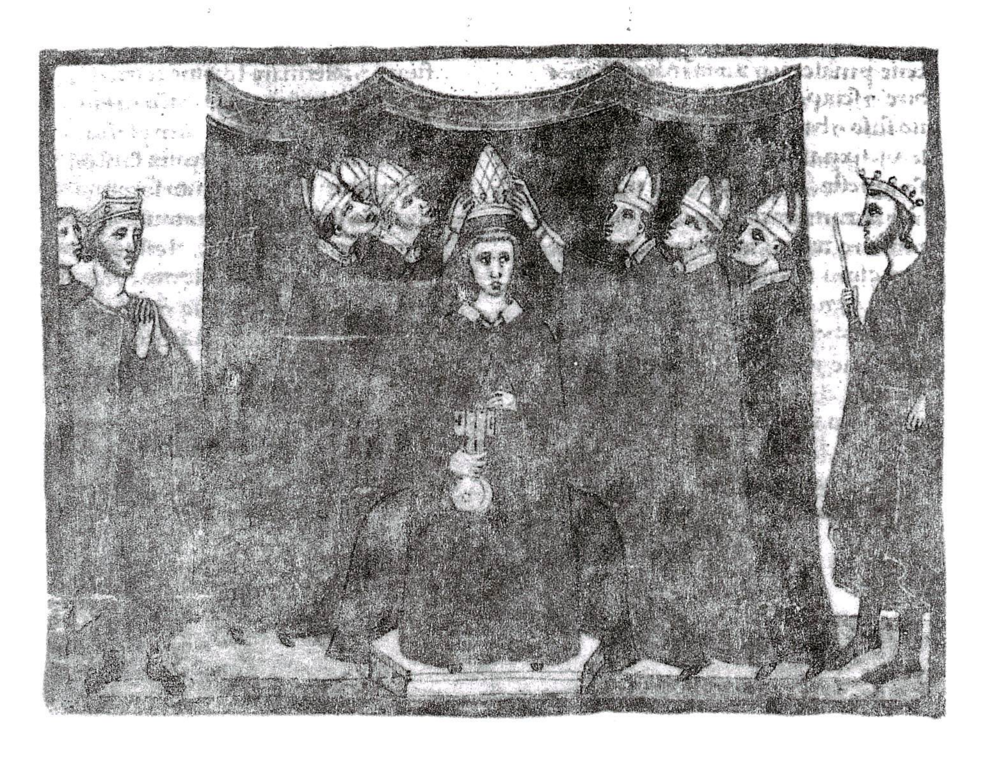
كانت الحملات الصليبية التى شنها البابوات فى إيطاليا القرن الرابع عشر، والتى كانت أكثر وضوحًا من تلك التى جرت فى شبه جزيرة إيبيريا ، يخوضها أساسًا محاربون محترفون تدعمهم مبالغ ضخمة من الضرائب الكنسية، وفى بعض الأحيان، تساندها حملات التبشير الناجحة بمنح الغفران. وفى القرن الثالث عشر كانت النقطة المحورية فى الجهد الصليبى بإيطاليا هى المملكة الجنوبية ، أولاً لانتزاعها من أيدى الهوهنشتاوفن، ثم فيما بعد للاحتفاظ بها فى أيدى أسرة آنجو. وفى فترة حكم الأسرة الآنجوية (١٣٠٥-١٣٧٨م) انتقلت الحركة الصليبية شمالاً باتجاه لمبارديا وتسكانيا ، على النقيض مما جرى من قبل . وكان البابوات قد اضطروا إلى استعادة السيطرة

على الدولة البابوية وكذلك تعين عليهم كبح جماح السياسات التوسعية المزعجة التى مارسها سادة الأسر الحاكمة الذين كانوا يسيطرون على المدن الشمالية بشكل عنيد ، وذلك بقصد خلق الظروف السلمية المطلوبة لعودة البابوات إلى كرسيهم البابوى فى روما . وكانت الآلية التى استخدمها البلاط البابوى لتحقيق هذه الأهداف آلية متميزة . ومرة بعد أخرى، كان مندوبو البابا من الكرادلة الأقوياء ، مثل برتراند البوچيوى Ber-trand du Poujet فى عشرينيات القرن الرابع عشر وچيل البورنوز Gil Albornoz فى خمسينيات القرن ذاته ، يتم تجريدهم على رأس جيوش من المرتزقة ، ومعهم التسهيلات الائتمائية المطلوبة للدفع لهم ومساعدة حلفاء البلاط البابوى ، والضرائب الصليبية ، التى كان يؤمل أن تساعدهم فى الحصول على إمدادات جديدة من الرجال والأموال على السواء.

كانت إيطاليا القرن الرابع عشر تضطرم بالمصالح المتصادمة وسريعة التغير وبالطموحات المتصارعة . بل إن حلفاء البابوية التقليديين مثل نابولى وفلورنسا تحت حكم آل أنچو صاروا لايعتمد عليهم، وبمنتصف القرن، كان الوضع السياسى القائم برمته يتم تخريبه بأيدى الشركات المستقلة التى كانت فيها القوات المحترفة التى يستأجرها كافة الأطراف قد التحمت ببعضها البعض. وبعد صلح برتيجنى Béritgny ١٣٦٠م ، هددت الشركات المماثلة Routiers البابا وبلاطه فى أڤينيون وبدأ البلاط البابوى يصدر صكوك غفران لقتال الشركات فى كل من فرنسا وإيطاليا. وعندما حدث الانشقاق الكبير فى سنة ١٣٧٨م، وقسّم العالم المسيحى إلى قسمين ، ثم إلى ثلاثة أقسام فيما بعد، بدأ البابوات يعلنون الحروب الصليبية ضد كل منهم الآخر. وفى سنة ١٣٨٣م، على سبيل المثال، شن أسقف نورويش Norwich ، هنرى دسبنسر Henry De-spenser ، حملة صليبية فى إنجلترا وقادها شخصيا ضد الفلاندرز . ولم تكن الحملات الصليبية ضد الشركات المستقلة Routiers ولا الحملات الصليبية ضد

الانفصاليين بدعة : إذ إن كلتيهما اعتمدتا على تراث قديم قدم الحركة الصليبية ذاتها. وعلى أية حال، انقلبت الحركة الصليبية على نفسها بطريقة لافتة وغير صحية إلى حد ما ، ليس فقط من حيث السلطة الموجهة لها، أى البابوية ، ولكن أيضًا من حيث أداتها المختارة ، إذ إن المحارب المحترف ، صار بحد ذاته هو هدف الحملات الصليبية.

وإلى حد ما ساعد الأتراك العثمانيون على إنهاء هذه الفوضى بأن قدموا للحركة الصليبية نقطة جوهرية وإجبارية جديدة فى البلقان " فمنذ منتصف ستينيات القرن الرابع عشر، كان يُنظر إلى تجميع الشركات فى حملة صليبية ضد الأتراك باعتباره بديلاً لتدميرها داخل العالم المسيحى ، على حين يتم تصوير خطط الحملات الصليبية ضد الأتراك فى تسعينيات القرن الرابع عشر، تُصور على أنها آلية، وسببًا أيضًا، لإنهاء الانشقاق الكبير . وقبل ذلك ، على أية حال، أدت انتصارات الأتراك فى آسيا الصغرى وقوتهم البحرية التى لاتُبارى فى بحر إيجه إلى ظهور مثال ممتاز على قدرة الحركة على الاستجابة للمطالب المتغيرة . كان هذا المثال هو العُصبة البحرية، وهى رابطة جمعت القوى اللاتينية المهددة من جانب الأتراك وقد تجمعت سويا تحت رعاية البابوية لكى تقدم أساطيل من السفن الحربية دفاعًا عن نفسها . كانت العُصب الشكل الرئيسى للحملات الصليبية فى الشرق بين ١٣٣٤ م عندما تمت هزيمة العثمانيين فى خليج Adramyttion (إدرميت Edremit) ، وسبعينيات القرن الرابع عشر عندما تسبب التقدم العثمانى فى البلقان فى إعادة الحملات البرية إلى ميادين القتال مرة أخرى. وإذ كانت العُصب صغيرة فى حجمها ، ويتم تمويلها من خلال مزيج من ضرائب الكنائس وبيع صكوك الغفران، ويرأسها مندوبو البابوية الذين كانت مشكلتهم الرئيسية فى العادة منع تفكك الحلفاء والتنازع فيما بينهم ، تحولت هذه العصب إلى سيناريوهات استراتيجية جديدة فى الشرق ، وإلى التحارب المزمن والاضطراب الاقتصادى فى الغرب ، وهو ما جعل أى مشروع أكبر حجمًا ضربًا من ضروب الاستحالة.



تتويج بطرس روچر باسم البابا كليمنت السادس سنة ١٣٤٢م. كان انغماسه في الحركة الصليبية شاملاً . وقد أرسله الملك فيليب السادس في سنة ١٣٣٢م لكي يتفاوض حول تمويل حملته العامة التي وُضعت خطتها، وعندما تولى البابوية طور الحملة الصليبية ضد الأتراك في البحر الإيجي بنشاط كما ساند ألفونسو الحادي عشر في استئناف الحرب ضد المسلمين في إسبانيا .

في جوهرها كانت الحملات الصليبية ضد الأتراك «حملات صليبية حدودية»، شنتها أساسًا القوى المحلية - وبصفة رئيسية البندقية وقبرص وفرسان الاسبتارية القديس يوحنا - باعتبارها وسائل لحفظ التوازن الإقليمي بين القوى . وعلى الرغم من أنه كان يتم شنها على مدى أكبر ، فإنها كانت إلى حد ما مثل حملات التدمير المستمرة التي كانت تحدث على حدود غرناطة ، وكانت مثل هذه الحملات تتخللها فترات من التعايش Convinencia والتبادل التجاري الحر. وعلى أية حال ، فإن تورط البابوية بشكل نشط أضفى عليها تعقيدات أوسع، بسبب الإجراءات التي اتخذتها لدعم هذه العصب الصليبية ، ومحاولاتها لجذب القوى الغربية للمشاركة فيها ، وخططها المستمرة لجعل الأهداف المحدودة والنجاحات المحدودة للعُصب الصليبية نقطة الوثب لما هو أكثر من ذلك كثيرًا . وبعد أن حققت عصبته أكبر نجاح باستيلائها على معظم ميناء سميرنا Smyrna التركي في أكتوبر ١٣٤٤م، عبَّر البابا كليمنت السادس عن أمله في أن تقوم حملة أكبر حجمًا باستغلال رأس الجسر هذا ، حملة مخصوصة Passa-gium Particulare . كان هذا مثالاً لافتًا عن كيفية تعديل المفاهيم المتولدة عن المقالات المكتوبة لإعادة الاستيلاء على الأراضي التي حررها المسلمون من الصليبيين ، وكذلك الخطط التي وضعت بهذا الغرض لكي تستخدم في أماكن أخرى؛ وثمة تفكير استراتيجي مماثل إلى حد كبير يكمن وراء رعاية البابوية لحملة كونت أماديوس سافوى الصليبية لمساعدة البيزنطيين في القسطنطينية في سنة ١٣٦٦م.

وأيا كانت المكاسب التي ربحتها العُصب من رعاية البابوية ، فقد كان من الطبيعي أن تُحسم الانتصارات التي حققتها بفضل سيطرة القوى البحرية على البحر المتوسط. فقد ساعدت هذه السيطرة اللاتين على أن يضربوا حيثما شاءوا على السواحل الإسلامية، من وسط المغرب حتى الدردنيل، ونتج عن هذا أكبر الانتصارات الصليبية دراميةً في ذلك القرن، أي هجوم بطرس لوزنيان ملك قبرص على

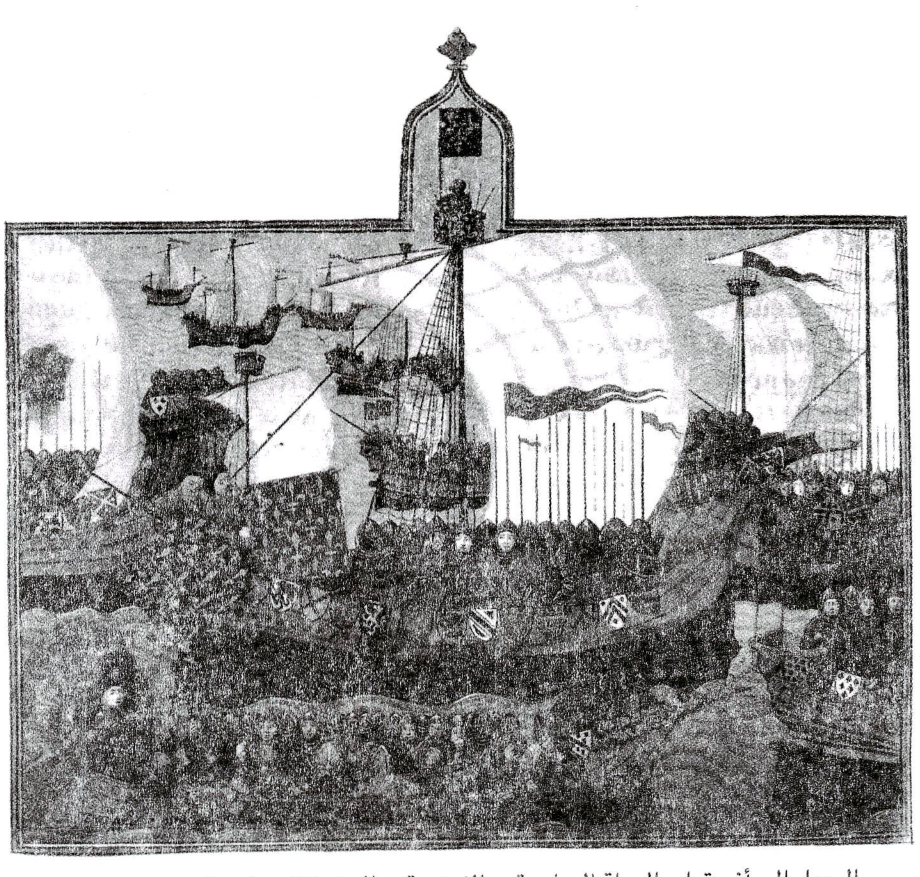
الإسكندرية(*) . سنة ١٣٦٥م. وقد جاءت حملة ملك قبرص عقب جولة زار فيها بلاط حكام أوربا فيما بين سنة ١٣٦٢م وسنة ١٣٦٤م على أمل الحصول على المساعدة والمتطوعين . وكان هدفه المعلن إعادة غزو القدس ، التى كان يحمل لقب ملكها، ولذلك حظى بمساندة كل من البابا أوربان الخامس والملك چون ملك فرنسا . والواقع ، أنه من الأرجح أن الملك كان يهدف من البداية إلى الاستيلاء على المنفذ التجارى الأول لمصر، وأهم الموانئ المنافسة لميناء فاماجوستا فى قبرص التى كان يحكمها ، طامحًا إلى الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها أو تدمير قدراتها . وعلى أية حال، فإن نجاح بطرس وأسطوله القبرصى والاسبتارى فى الاستيلاء على الإسكندرية قد شابته حقيقة أنه مع اقتراب الجيش المملوكى اضطروا إلى التخلى عن المدينة فى مدى أقل من أسبوع .

وتستدعى حملة الإسكندرية إلى الذاكرة الكثير من موضوعات الحملة الصليبية المتكررة فى القرن الرابع عشر سويًا . فهى تكشف عن أن القوة البحرية بحد ذاتها لم تكن تستطيع أن تؤثر فى الالتفاف الحاسم أو المستمر فى الموقف الاستراتيجى. إذ كانت أصول الحملة هى حملة مخصوصة Passagium Particulare ، ولكن الحملة العامة التى تم التخطيط لها، والتى كان مقررًا أن يقودها الملك چون ملك فرنسا، كانت دائمًا غير محتملة التنفيذ ، وتلاشت نهائيًا بموت الملك سنة ١٣٦٤م . وكشفت هذه الحملة الصليبية، أيضا ، الارتباك فى السياسة البابوية التى قادت كلاً من البابا أوربان الخامس ومندوبه الشرقى ، بطرس توماس، إلى قبول اقتراح الملك بطرس

(*) وصف غارة بطرس لوزنيان على الإسكندرية ونهبها ، ثم الفرار منها بسرعة قبل أن يصل الجيش المملوكى، لايمكن وصفه بالانتصار والمبالغة فى حجمه . فقد كان أشبه بعمليات القرصنة ، ومارست السلب والنهب؛ ولكنه لم يستول على المدينة أو يبقى بها وسارع بالهرب ليلقى ببعض حمولته فى البحر حتى يمكنه الفرار. وقد وصفه أحد المؤرخين المعاصرين بأنه «... دخلها لصًا وخرج منها لصًا» . (المترجم)

لوزينيان بأن على الغرب أن يستأنف الصراع ضد المماليك فى وقت كان يتنامى فيه خطر الأتراك على كافة المستويات في الشمال: ومن المحتمل تمامًا أن البابا كان سعيدا بمؤازرة أى مشروع شرقى يطرح آمالاً لتخليص فرنسا وإيطاليا من الشركات المستقلة Routiers . وقد قضى التوتر الأصلى بين التجارة والحملة الصليبية بالفشل على محاولات فرض الحصار التجارى على مصر، ثم تجلى واضحاً فى استجابة القوى التجارية الإيطالية المذعورة لهذه الأحداث . وعن طريق نشر الشائعات عن هدنة بين المماليك وقبرص ، ساعدت البندقية على تدمير أى آمال للقيام بحملة «متابعة» ، وفى سنة ١٣٦٧م كسبت جمهورية البندقية توبيخ البابا لرفضها نقل الصليبيين، والخيول، ومواد الحرب إلى الشرق.

كان أسلوب «اضرب واجر» الذى ميَّز الغارة على الإسكندرية واضحًا مرة أخرى بعد حوالى خمسة وعشرين عامًا فى الحملة الفرنجية الجنوية الصليبية على ميناء المهدية المغربى . وفى هذه المناسبة كان هناك تناغم بين التجارة والحملة الصليبية ، إذ كان الجنوية هم الذين اقترحوا القيام بالحملة على بلاط الملك شارل السادس ، فى شتاء ١٣٨٩-١٣٩٠م، على أمل إرساء سيطرة دائمة على الميناء . وفى أعقاب هدنة السنوات الثلاث التى عُقدت مع إنجلترا فى يونيو ١٣٨٩م، قوبل الاقتراح بمزيد من الاهتمام . واغتنم خال الملك ، لويس الثانى البوربونى Louis of Bourbon الفرصة بشغف ليسير على خطى سلفه لويس التاسع. وأبحر جيش قوامه حوالى خمسة آلاف مقاتل ، منهم ١٥٠٠ من النبلاء gentilshommes الفرنسيين ، من جنوه فى بواكير يوليو سنة ١٣٩٠م. وفرض الصليبيون الحصار على المهدية، ولكن بعد عدة أسابيع وصلت عدة قوات نجدة من المسلمين . وكان واضحًا آنذاك أنه لايمكن الاستيلاء على الميناء ، وتم ترتيب الانسحاب .



الرحيل إلى أفريقيا : الحملة الصليبية – الفرنجية – الجنوية إلى المهدية تبحر فى يونيو سنة ١٣٩٠م . ولم تكن تونس حقل عمليات ناجحاً بالنسبة للحركة الصليبية ، فلا هذه الحملة ولاسابقتها حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٧٠م، حققت هدفها ، وفى سنة ١٥٦٠م عانى جيش صليبى إسبانى من هزيمة كارثية على جزيرة جربة .

وثمة دليل قوى على أن كلاً من بطرس لوزينيان ملك قبرص والجنوية كانوا شغوفين بتصوير حملاتهم فى صورة المشروعات الفروسية ذات القدرة الكاملة التى ستساعد المشاركين على إظهار بسالتهم وقوتهم وجمع ثمار المكافآت والشهرة ، عندما يقلدون أعمال أبطال مثل لويس التاسع ، وجودفرى البويونى، ورولان . وإلى هذا المدى كانت الحملتان الصليبيتان تقليديتين للغاية ، على حين كانتا فى الوقت نفسه قريبتين من العُصب البحرية من حيث استخدامها للقوة البحرية بذكاء باعتبارها وسيلة لتحقيق أهداف عسكرية محدودة وواضحة فى إطار السياق التجارى . واتهام بطرس لوزينيان أو الجنوية بتقويض حماسة معاصريهم لتحقيق أهداف أنانية سوف يكون تبسيطا ورأيا فوضويا عن التفاعل الجدلى بين الأهداف والمواقف على نحو أشد تعقيداً . وينطبق الشئ نفسه على العلاقات بين فرسان التيوتون والفرسان المتطوعين الذين جاءوا إلى بروسيا للمشاركة فى Reisen، أى الحملات التى شنها التيوتون ضد الوثنيين فى ليتوانيا. ولايقدم هذا برهانًا لايرقى إليه الشك على استمرار الحماسة الصليبية بين النخبة الفروسية فى أوربا حتى نهاية القرن فحسب، ولكنه أظهر أيضا ،

أن الحركة الصليبية ورعاتها يعدلونها بقدر من الإبداع لتناسب الظروف الاستراتيجية المستجدة.

كانت هذه الظروف الإستراتيجية المستجدة تتمثل فى الصراع بين نظام الرهبان الفرسان التيوتون الكاثوليكى وقوة وثنية حيوية ومتحركة من أجل السيطرة على ساموجيتيا Samogitia ووادى نيموناس Nemunas (ميميل Memel) . وكان الصراع مناسبًا لإعادة بعث الحركة الصليبية وتجديدها ؛ إذ حظى بمساندة البابوات ؛ كما كان الرأى العام الأوربى عموما يرى فيه تنفيسًا محترمًا لطاقات الفرسان التيوتون ومواردهم فى أعقاب ضياع الأرض المقدسة من حوزتهم . بيد أن طبيعة الحرب لم تحبذ تكوين جيوش صليبية كبيرة يتم تجنيدها بالمراسيم البابوية وتمولها الضرائب



النقش التذكارى على النحاس لروچر دى فيلبريج Roger of Felbrigg فى كنيسة سانت مارجريت ، فيلبريج، نورفولك . يخبرنا النقش أن «روچر مات فى بروسيا ومدفون هناك» "qui mourut en prus e la est corps enterre) وهو دليل على أنه ، مثل ابنه سيمون Simon وكثير غيره من الفرسان الإنجليز فى القرن الرابع وبواكير القرن الخامس عشر . وقد شارك روجر فى سنة ١٣٨٠م تقريبا فى حملة عسكرية reysa ضد الوثنيين الليتوانيين مثل العُصب البحرية.

الكنسية ، كما أن بروسيا لم تكن الساحة المناسبة «للحملة الصليبية متعددة المراحل» التى طور المنظرون فكرتها. إذ كانت الأرض الواقعة بين بروسيا وليتوانيا برية خاوية لاتجد فيها الجيوش الكبيرة غذاءها. وعلاوة على ذلك، فإن المناخ القاسى ، ببرده القارس وغزارة الثلج المتساقط فى الشتاء، وفيضانها العارم فى شهور الربيع وبواكير الصيف، قد حددت وقت القيام بالحملات فى عزِّ الشتاء عندما يكون الجليد صلبًا وثابتًا وتكون المستنقعات قد تجمدت ، وفى أواخر الصيف عندما تكون الحرارة المرتفعة على مدى عدة أسابيع قد جففت الأرض. وحتى فى مثل هذه الأوقات فإن الأرض الشحيحة والمسافات التى كان ينبغى قطعها قد حددت معظم الحملات بحيث جعلتها مجرد غارات، أو حصار ، وربما بناء قلعة هنا أو تقوية قلعة هناك ، لفرض مزاعم بملكية الأرض بشكل أكثر استمرارًا .

ولم يكن بحوزة تنظيم التيوتون أكثر من ألف عضو فى كل من بروسيا وليڤونيا كان يشن بهم هذه الرحلات (Reisen) فى فصلى الشتاء والصيف. ولكى يدافع التنظيم عن أراضيه فى بروسيا الشرقية، ولكى ينفذ هدفه المعلن فى تنصير الليتوانيين قسرًا، أفاد من الميزة التى منحها البابا إنوسنت الرابع Innocent IV سنة ١٢٤٥م لتجنيد الصليبيين بدون دعوة رسمية للقيام بحملة صليبية. وعلى هذا الأساس ، وابتداء من شتاء سنة ١٣٠٤-١٣٠٥م، وعلى مدى ما يزيد عن قرن من الزمان ، عاد آلاف الفرسان من كل دولة كاثوليكية فى غرب أوربا ووسطها تقريبًا، إلى بروسيا برًا وبحرًا على أمل المشاركة فى رحلة Reise صيفية أو شتوية . وكانت الحرب التى خاضوا غمارها قد وُصفت بأنها «حملة صليبية مطولة»، وكانت تفتقر حتى إلى النموذج المنتظم للحرب والهدنة التى ميزت الحدود الإسلامية- الكاثوليكية فى غرناطة وفى بحر إيجه . وكان يتم خوضها بوحشية شديدة على كلا الجانبين . ففى أثناء غزو ليتوانى لليڤونيا Livonia فى سنة ١٣٤٥م، على سبيل المثال، لاحظ المؤرخ ڤيجاند ڤون ماربورج

أنه Wigand von Marburg «... تم تخريب كل شيء، وتم ذبح كثير من الناس، أما النساء والأطفال فقد تم سبيهم وأخذوا بعيداً ...» ، على حين أنه فى سنة ١٣٧٧م قام السيد ڤينريخ ڤون كينبرود Master Winrich von kniprode وضيفه الدوق ألبرت دوق النمسا «... بقضاء يومين فى منطقة Kaltinenai وأضرما النيران فى كل شيء ، وساقا الرجال، والنساء ، والأطفال ، ولم ينج أحد من أيديهما».

وحسبما لاحظ ڤيجاند فى مناسبة أخرى، جاء المتطوعون من تنظيم الفرسان التيوتون باتجاه الشرق «... لكى يمارسوا الفروسية ضد أعداء المسيح»، وحسبما جرت العادة كانت راية سان چورچ ، القديس الراعى للفرسان. هى راية قيادتهم. وقد ظهرت عقيدة الفروسية فى أوضح صورها من خلال تطوير التيوتون للحملات العسكرية ضد ليتوانيا (الرحلات Reisen) ولاسيما فى الاستخدام البارع لمائدة الشرف Ehren-tisch. وعلى الرغم من أن أكمل وصف لمائدة الشرف، الذى قدمه چون كابارت الأورڤيللى John Cabaret of Orville يصورها على أنها نوع من منح الجوائز فى مأدبة تقام بمناسبة نهاية الحملة Reise ، فإن هناك أدلة أخرى أقوى تشير إلى أنها كانت تسبق القيام بالحملة، ربما باعتبارها وسيلة للمصادقة على إخوة السلاح بين المتطوعين . وهكذا حدث فى سنة ١٣٩١م ، عندما جرى اغتيال النبيل الاسكتلندى وليم دوجلاس William Douglas بأيدى بعض الفرسان الإنجليز بحيث جعل من المستحيل إقامة مائدة الشرف فى كونيجسبرج Konigsberg قبل القيام بالحملة، وكان أن أولم السيد وليمة لضيوفه أثناء الحملة فى آلت – كونو Alt- Kowno وبما أن هذه كانت أرض العدو، فقد اضطروا إلى تناول الطعام وهم فى كامل سلاحهم . مثل هذه الحكايات الغريبة ، ولانقول الكوميدية ، لاينبغى أن تقودنا إلى الظن بأن الحملات Reisen كانت مجرد فانتازيا، أو تمثيل مسرحى ، لأنها كانت مهمات خطيرة ومكلفة كذلك. ومن الواضح أن تنظيم التيوتون كان قد نجح فى لمس الوتر الحساس فى عقول نبلاء أوربا،

ولكن يمكن أن يساورنا قدر قليل من الشك فى أن نفس الرجال الذين تدفقوا إلى بروسيا كانوا سيحاربون على جبهات أخرى، لو أن طبيعة الصراعات هناك سمحت بهذا.

والواقع أن الكثيرين ممن حاربوا فى الحملات المعروفة بالرحلات Reisen قد شاركوا أيضًا فى أكبر الحملات الصليبية فى القرن الرابع عشر وأكثرها طموحًا ، وهى حملة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦م . فقد كانت هذه الحملة تمثل رد الغرب على العثمانى فى البلقان ، وردًا بصفة خاصة على الهزيمة الكارثية التى حاقت بالصرب فى كوسوفو سنة ١٣٨٩م والتى جاءت بالأتراك إلى حدود المجر وجعلت البنادقة يخشون على أمن البحر الادرياتى. لقد كان الموقف فى الشرق حرجًا لدرجة أن كلاً من أتبا ع المذهبين المسيحيين الناجمين عن الانشقاق الكبير كانا على استعداد لمساندة حملة صليبية كبرى . ولكن ما جعل مثل هذه الحملة الصليبية أمرًا ممكنًا كانت هى الهدنة التى عُقدت بين إنجلترا وفرنسا ووجود جماعات ضغط تحبذ السلام فى بلاط كل منهما رأت فى أزمة البلقان فرصة لمصالحة دائمة بين البلدين . وفيما بين سنة ١٣٩٢م وسنة ١٣٩٤م كان هناك قدر كبير من النشاط الدبلوماسى الذى تصور قيام حملة صليبية من مرحلتين : حملة خاصة Passagium Particulare تقرر رحيلها فى سنة ١٣٩٥م يقودها كل من جون الجونتى John of Gount ، ولويس الأورليانزى Louis of Orleans وفيليب الجسور أمير بورجاندى Philip the Bold ، ثم تعقبها حملة عامة يتولى قيادتها المشتركة شارل الخامس وريتشارد الثانى. وهكذا حافظت الأفكار الاستراتيجية التى طرحها منظرو مشروعات إعادة الاستيلاء (على الأرض التى حررها المسلمون) على تأثيرها ، مثلما كان الحال فى حملتى المهدية والإسكندرية . ولكن حرج الموقف وأجراس الإنذار التى دوى رنينها فى بودا والبندقية والاهتمام الإثيارى الغيرى النشط فى كل من ويستمنستر وباريس، رفع التوقعات إلى مستوى غير مسبوق منذ ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، بل ربما منذ موت جريجورى العاشر.

لقد تم التعاقد على مجال الخطة فى سنة ١٣٩٥م. ولأسباب متنوعة تخلى الأمراء الملكيون الثلاثة جميعًا عن الحملة الصليبية ، وبحلول شتاء سنة ١٣٩٥-١٣٩٦م كانت الحملة الأولية قد صارت قوة فرنسية- بورجندية فى غالبها تحت قيادة الابن الأكبر لفيليب الجسور، چون النيفيرسى John of Nevers ، وحفنة من كبار الأمراء الفرنسيين، ومن بينهم بطل الحملات الصليبية البارز فى تلك الفترة چون لومينجر John le Maingre (مارشال بوسيكوت Marshal Boucicaut). وقد بقيت القوة التى رحلت من مونتبليارد فى ربيع سنة ١٣٩٦م على عنفوانها، وفى بودا لقيت دعمًا مجريًا من قوة يقودها الملك سيجيسموند Sigismand . وقد انتهت النجاحات الأولية التى تحققت على امتداد وادى الدانوب نهاية مفاجئة فى ٢٥ سبتمبر، عندما خاض الجيش الصليبى معركة مريرة ضد السلطان بايزيد العثمانى جنوب مدينة نيقوبوليس المجرية (نيكوبول Nikopol) . ومن الصعب معرفة ما جرى ، ولكن ربما كان تفاخر الفرسان الفرنسيين بالإضافة إلى عدم معرفة الأساليب التركية - وهو مزيج معتاد جدًا فى تاريخ الحروب الصليبية - قد أدى إلى هزيمة كارثية. وقد تم أسر چون النيفيرسى وكثير غيره من الصليبيين. وبعدها لم يعد فى الإمكان القيام بالحملة الصليبية العامة.

كان الجيش الذى هلك فى نيقوبوليس آخر قوة كبيرة تنطلق من الغرب لقتال الأتراك، وهو ما يجعل المؤرخ يشعر بأن هذه المعركة كانت ذات أهمية بعيدة المدى مثل حطين أو لافوربى La Forbie . بيد أن هذا أمر يسهل افتراضه ولايسهل إثباته. ولاشك فى أن اهتمام كل من النبلاء الفرنسيين والإنجليز بالجهود الصليبية قد تقلص بعد نيقوبوليس ؛ ولكن هذا أمر كان يمكن أن يحدث لأسباب أخرى غير الهزيمة ؛ وهناك من يجادل بأن نكوص الاهتمام الملكى الفرنسى قد عوضه الالتزام المستمر من جانب بلاط دوق بورجندى ، الذى كان يوجهه دافع فعلى للثأر. وعلى أية حال يظهر فعلاً ثمة تغير فى الحال. إذ لم يعد من السهل استثارة حماسة العسكريين بعد نيقوبوليس ، كما

قلت الدلائل فى القرن الخامس عشر على اعتبار الجهود الصليبية من التعبيرات الأساسية عن قيم النبلاء فى أوربا . وفوق هذا وذاك ، فإن هذا يضفى التماسك الداخلى على الكثير من الجهود الصليبية فى القرن الرابع عشر ، ويفسر ما نلحظه فيها من مباهاة وزينة، كما يشرح افتقارها إلى التركيز بشكل يبعث على الضيق أحيانا .



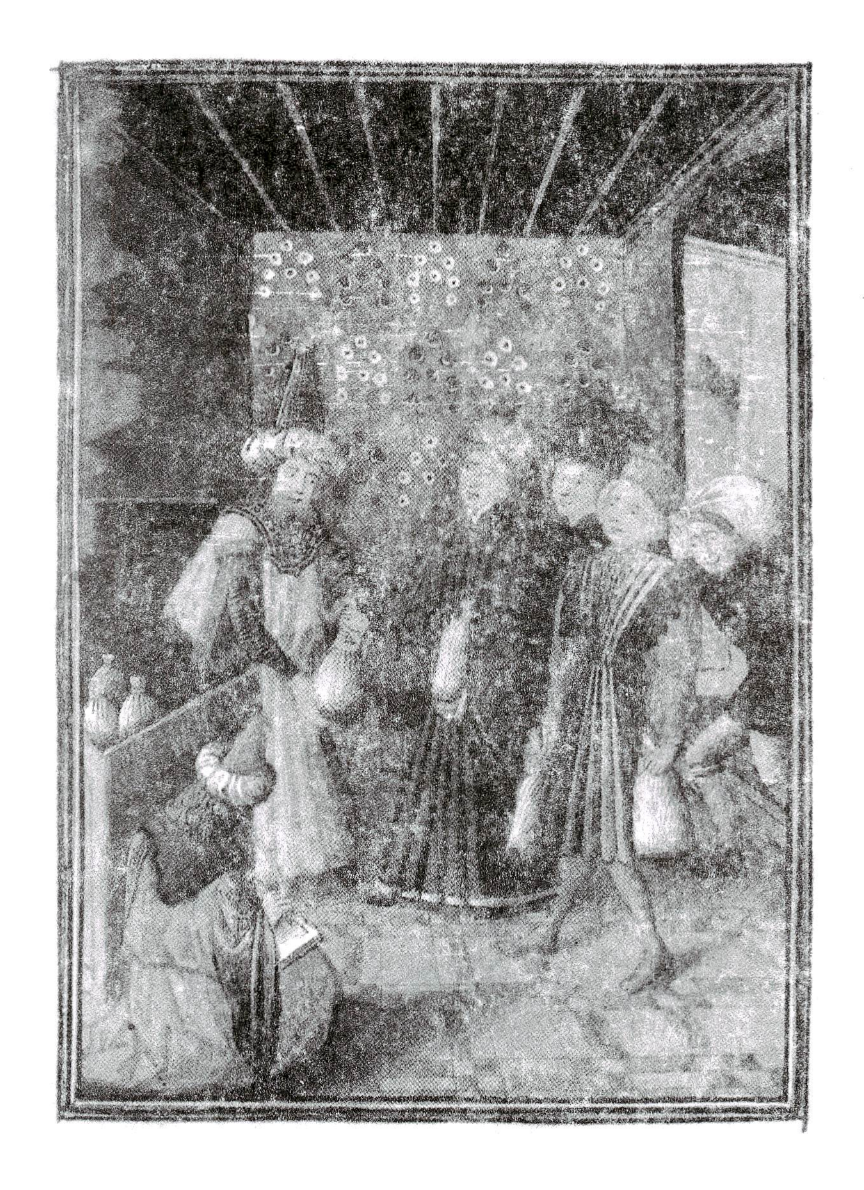
السيطرة العثمانية على البسفور وفرت للسلطان العثمانى الاتصالات الآمنة بين ممتلكاته الآسيوية والأوربية، وكذلك وفرت له السيطرة على الأراضى حول البحر الأسود. والمعالم المألوفة للقسطنطينية يمكن رؤيتها وراء حارس الحريم الذى يظهر فى مقدمة الصورة.



صورة رسمها أندريا بنايوتيس Andrea Bonaiuti's بعنوان الكنيسة المقاتلة. فى كنيسة سانت ماريا نوفيللا، الإسبانية ، بفلورنسا . بتقديمها (من اليمين إلى اليسار) للكونت أماديوس السادس Count Amadeus VI of Savoy أمير سافوى، والملك بطرس الأول ملك قبرص، والإمبراطور شارل الخامس، ثم المندوب البابوبى چيل ألبورنوز، وخوان فرنانديز دى هيريديا، رئيس الاسبتارية فإن لوحة بنايوتس من الفريسكو (الجص الملون) يمكن أن تقترب من كونها صورة تعرض أبرز أصحاب المبادرات والمنفذين للحملات الصليبية فى ستينيات القرن الرابع عشر وسبعينياته .



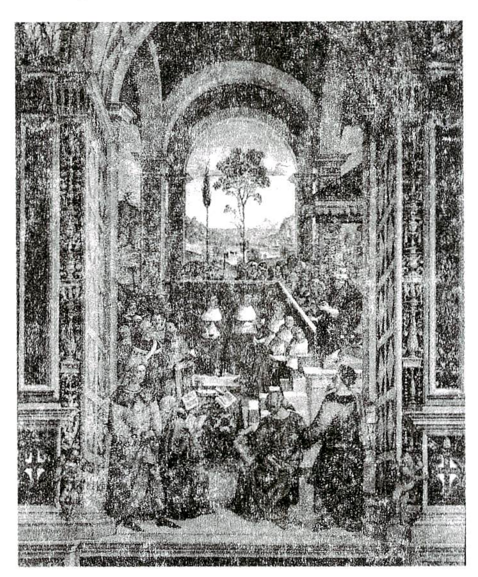
لوحة تيتيان بعنوان إسبانيا تهب لساعدة الديانة، متحف Museo del Prado في مدريد، رُسمت في زمن العُصبة المقدسة، تصوير واضح للدور الذي أحس كثير من الإسبان أن فيليب الثاني كان يلعبه في أوربا أواخر القرن السادس عشر.



دفع فدية الدوق چون النيڤيرسى بعد أسره فى معركة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦م . وعلى الرغم من أنه تم حساب أن الثمن الإجمالى لفك أسـر الدوق قد وصـل إلى نصف مليون فرنك ، فإنه هو ورفاقه حظوا باستقبالهم استقبال الأبطال عند عودتهم لديارهم.

إخفاق فى الشرق - نجاح فى الغرب

أيا ما كان تأثير ما جرى فى نيقوبوليس على مشاعر النبلاء الأوربيين ، تبقى الحقيقة أن التغيرات الكبرى سرعان ما بدأت تعلن عن نفسها داخل الحركة الصليبية . ذلك أن مدى الحركة الصليبية وتنوعها، الذى كان قد صار من أوضح خصائص القرن الرابع عشر، قد تقلصا ؛ وبدأت موضوعات جديدة وأفكار جديدة تدخل فى الدعاية الصليبية؛ وفوق هذا وذاك ، كان معنى التخطيط والتنظيم واسع المدى من قبل بعض السلطات العلمانية فى العالم المسيحى، على الأقل أن الحملات الصليبية ، عامة ، قد انتقلت من كونها حملات حدودية اكتسبت صدى أوسع بفضل مشاركة المتطوعين من الفرسان من أراضى الداخل الكاثوليكية ، إلى



البابا بيوس الثانى Pius II يرأس مجلس مانتوا Mantua فى سنة ١٤٥٠م (لوحة من الجص الملون - الفريسكو فى مكتبة بيكولومينى بكاتدرائية سيينا Siena). ولكن قصد بيوس أن يكون المجلس منصَّة للاتفاق على حملة صليبية كبرى وتنظيمها ؛ ولكن المجلس كان تحت سيطرة المنافسين السياسيين الأوربيين ، ولم يتم الحفاظ على الوعود التى قطعت هناك.

كونها مرة أخرى مسألة تخص القوى الرئيسية فى أوربا. ومع بعض الاستثناءات، مثل حملة ألفونسو الحادى عشر وصليبية نيقوبوليس، كان دور تلك القوى قد اختفى منذ انهيار مشروع الاسترداد الذى قدمه فيليب السادس فى أواخر ثلاثينيات القرن الرابع عشر . وفى القرن الخامس عشر برزت هذه القوى فى مقدمة الصورة مرة أخرى.

وثمة جبهة صليبية بارزة ، جبهة البلطيق ، كانت قد اقتربت من نقطة التلاشى بحلول سنة ١٥٠٠م. إذ إن تعميد الأمير الليتوانى الكبير چوجايلو Jogailo ١٣٨٦م ووعوده بالمساعدة على تنصير رعاياه الوثنيين ، قضت بشكل نهائى على حجة نظام الفرسان التيوتون لشن الحرب على الليتوانيين؛ كما أنها شكلت خطراً هدد سيطرة الفرسان على التنظيم - الدولة البروسى (Ordensstaat) الخاص بهم ، وبقدر ما كان اعتناق چوجايلو مرتبا بزواجه من الملكة چادويجا Jadwiga ملكة بولندا ، التى كانت الخصم الكاثوليكى الرئيسى لتنظيم الفرسان التيوتون ، بقدر ما كان مرتبطا بالاتحاد الشخصى بين الدولتين . وقد استلزم ظهور الصعوبة الكاملة للموقف الاستراتيجى الجديد الذى يواجه تنظيم الفرسان التيوتون بعض الوقت. وقد أعلن التنظيم أن تنصير ليتوانيا كان خدعة ، وأن تدفق المتطوعين من الغرب لم يتأثر بشكل ملحوظ ، على حين استغرق الأمر بضعة عقود لتجميع وتركيز الموارد البولندية والليتوانية ضد التنظيم - الدولة Ordensstaat .

ومنذ سنة ١٤١٠م فصاعدا ، على أية حال، توالت المصائب بكثافة وفى سرعة . وفى يوم ١٥ يوليو سنة ١٤١٠م لقى جيش التنظيم هزيمة مرعبة على أيدى الليتوانيين والبولنديين فى معركة تاننبرج Tannenberg . وقد زاد هذا من اعتماد التنظيم على المتطوعين من الغرب . ولكن بعد عدة سنوات قليلة فشل ممثلو التنظيم فى مجمع كونستانس فى إقناع المجمع بمساعدة التنظيم ضد أعدائه ، وتضاءل تدفق الفرسان المتطوعين إلى بروسيا حتى كاد أن يتلاشى . واستمر بعض الصليبيين الألمان فى التوجه إلى الشمال صوب ليڤونيا، حيث كانت حروب التنظيم ضد الأرثوذكس فى

نوفجورود Novgorod وبسكوف Pskov لا تزال تتمتع بوضع الحملة الصليبية، كما أن البابا نيقولاس الخامس Nicholas V والبابا الكسندر السادس، منحا الغفران الصليبى، وهو ما أدى إلى مساعدة الإخوة الليفونيين على دفع تكاليف حربهم الباهظة. بيد أن الحملة الصليبية الليفونية كانت ملمحًا هامشيًا للغاية فى الحركة الصليبية ، وأولئك المتحمسون من الصليبيين الذين تدبروا تنظيم فرسان التيوتون بعد معركة تاننبرج جاءوا بأفكار متنوعة لإعادة نشر موارده على الجبهة التركية.

كان هذا التطور الأخير بطبيعة الحال من أعراض الحقيقة القائلة إن الأتراك العثمانيين كانوا قد صاروا أعداء تنظيم التيوتون الرئيسيين. وباستثناء السنوات من سنة ١٤٠٢م حتى حوالى سنة ١٤٢٠م حينما كانت السلطنة العثمانية تتعافى من الضربة التى أنزلها بها تيمورلنك فى معركة أنقرة ، أرغم التقدم التركى صوب الغرب منظرى الحروب الصليبية والمتحمسين لها على تركيز اهتمامهم على البلقان طوال القرن الخامس عشر . وفى غضون هذه الفترة الزمنية العريضة كانت هناك عدة فترات من النشاط الدبلوماسى المكثف ، فضلاً عن التخطيط والجهود المركزة . وفيما بين سنة ١٤٤٠م وسنة ١٤٤٤م عمل البابا إيوجينيوس الرابع Eugenius IV باجتهاد لتنسيق المقاومة بين مسيحيى البلقان ، ولاسيما القائد المجرى البارز چون هونيادى John Hu-nyadi ، وموارد البندقية البحرية، وكذلك الإسهامات من جانبه هو نفسه وغيره من الحكام الغربيين ، وذلك للتخفيف عن القسطنطينية ، التى كانت على وشك السقوط فى أيدى الأتراك. وكانت هذه السياسة بمثابة المياه التى تتسرب فى الرمال بلا فائدة عندما لحقت الهزيمة الكارثية بالقوى البلقانية فى ڤارنا Varna فى نوفمبر سنة ١٤٤٤م. وفى سنة ١٤٥٣م، استولى السلطان الجديد محمد الثانى على القسطنطينية ، وفى غضون السنوات الثمانى والعشرين التالية وجه واحدة من أقوى الموجات التوسعية للسلطنة العثمانية. إذ تم إخضاع ولاشيا، وألبانيا، وبلاد اليونان للحكم العثمانى، ورد البابوات بمحاولات مستمرة لتشجيع المقاومة من جانب القوى المحلية، وتعبئة حملة صليبية عامة من الغرب. وفى أعقاب موت «محمد الفاتح» سنة ١٤٨١م ، انتهج ابنه بايزيد الثانى سياسة أقل عدوانية تجاه الغرب ، بيد أنه كانت لا تزال هناك خطط

صليبية ، لاسيما فى الكونجرس البابوى الذى عقد بروما فى سنة ١٤٩٠م، وفى أثناء غزو شارل الثامن إيطاليا بعد ذلك بأربع سنوات.

وعلى الرغم من أنه كان هناك بعض النجاح، مثل حملة هونيادى الميدانية غير العادية فى سنة ١٤٤٣م وفك حصار بلجراد بمعجزة فى سنة ١٤٥٦م ، فإن الحملات الصليبية ضد الأتراك كانت إخفاقًا وفشلاً . أما محاولات نشر القوى البحرية الغربية ، التى كانت لا تزال مسيطرة - على الرغم من أن ذلك لم يستمر طويلاً- بالارتباط مع المجريين، والصرب، والمولداڤيين وغيرهم من القوى البرية البلقانية ، فلم تسفر سوى عن القليل. وقد تدفقت باتجاه الشرق بقدر لايكفى، وفى توقيت غير سليم، أو إلى وجهة غير سليمة - وأهم ما فى الأمر أنه لم تنطلق أية حملة صليبية عامة من الغرب، على الرغم من أن تلك الحملة التى أعدها البابا بيوس الثانى قد قاربت على الانطلاق سنة ١٤٦٤م. هذا الفشل يستدعى المقارنة مع تلك الحملة الصليبية التى سبقتها لاسترجاع ما كان الصليبيون قد احتلوه وحرره المسلمون. وكانت كل مرحلة من مراحل التخطيط مصحوبة بكتابة مقالات إرشادية أعادت النظر فى كثير من المشكلات السياسية ، والمالية، والعسكرية فى المقالات التى تناولت الاسترجاع ، على الرغم من أن السيناريو الاستراتيجى كان يستدعى مقاربة جديدة إلى حد كبير . وكانت موجات متتالية من الحكام المنفيين قد طافوا بأرجاء العالم المسيحى وبلاطات الحكام يستجدون المساعدة ، وكان هناك أفراد، مثل الكاردينال بيساريون Bessarion المهيب، كرسوا أنفسهم لقضية الحروب الصليبية، وكان هناك، أيضًا ، فيض مشابه من المشروعات التزم بها حكام من أمثال الإمبراطور الغربى، وملك أراجون ودوق بورجندى؛ ومن أجل هذه المشروعات تم فرض الضرائب الكنسية وتم التبشير بالغفران، ولكنها لم تتحقق.

وإلى حد كبير ، أيضا، يمكن تفسير الحملة الصليبية ضد الأتراك بالإشارة إلى الاعتبارات نفسها التى جعلت مشروعات الاسترجاع تسفر عن لاشىء . إذ إن العوائق التى كان يجب التغلب عليها فى جمع السلطات فى مشروع رومان لول Ramon Lull's من أجل الحملة الصليبية ضد العثمانيين كانت أقوى من

العوائق التى واجهت الحملات ضد المماليك إذ صار فن الحرب أكثر حرفية وأكثر كلفة فى السنوات التى مرت بين الحملات ضد المماليك . وتلك الصليبيات التى كان المفروض أن تتوجه ضد العثمانيين . فقد كان هناك قدر أكبر من تراكم التحرر من الوهم والمزيد من الشك الذى ينبغى التعامل معه عند محاولة إقناع الناس بالجدوى



فيليب الطيب دوق بورجندى، فى لوحة Van der Weyden فى متحف اللوفر . كان اهتمام فيليب بالحملة الصليبية هو الأقوى من اهتمام أى حاكم آخر فى أوربا القرن الخامس عشر ، إذ استمر أكثر من أربعين سنة . وهو يظهر مرتديا مسوح التنظيم الرهبانى Golden Fleece الذى أسسه سنة ١٤٣٠م وكان هذا التنظيم مرتبطا على الدوام بأهدافه الصليبية: وفى سنة ١٤٤٥م قام برحلة على أثر جاسون Jason والمغامرين المرافقين له فى البحر الأسود.

العملية للمشروعات الصليبية. ذلك أن نظريات الاستقلال السيادى للقوى العلمانية، وأولوية مطالبها على موارد رعاياها، التى كانت لا تزال بدائية حوالى سنة ١٣٠٠م، كانت قد تطورت كثيراً . فقد كان الانشقاق الكبير قد أدى إلى المزيد من التدهور فى السلطة السياسية للبابوية، مما نتج عنه أن بابوات من أمثال بيوس الثانى وإنوسنت الثامن اكتشفوا أن الحكام العلمانيين فى العالم المسيحى لم يعودوا يهتمون بإرسال مبعوثين عنهم إلى الاجتماع الذى دعوا إليه لمناقشة التهديد التركى . وحتى بناء تحالف بين القوى التى كان لها بالفعل التزام واضح بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق، عادة ما كانت، بسبب اهتماماتها الذاتية ، تغرق بين الحين والحين فى خضم تعقيدات الانحيازات السياسية فى أوربا ؛ إذ كانت البندقية تخشى المجر، وكانت قوة البندقية مصدر حذر وترقب من جانب المدن- الدول الأخرى فى إيطاليا ، وكان اشتراك دوقية بورجندى محل معارضة من فرنسا، كما كان الأمراء الألمان يعتقدون أن أية حملة صليبية رئيسية سوف تؤدى إلى إعادة إحياء سلطة إمبراطورية غير مرغوبة فى الرايخ Reich. وقد اعترف كل حاكم فى أوربا القرن الخامس عشر بالحاجة إلى القيام بحملة صليبية، باعتبارها الوسيلة الوحيدة العملية لتجميع الموارد المطلوبة لمحاربة هذه القوة الضخمة والمعادية ؛ ولكن فى الواقع كانوا كلهم تقريباً يحولون دون تنظيمها .

أما بالنسبة للمشاعر الشعبية حول الحملة الصليبية ضد الأتراك ، فإن هذا يثير مشكلات تجعل الملاحظات التعميمية مسألة خطيرة ، فحسبما لاحظنا فيما سبق كان الضعف قد نخر فى العلاقة بين الفرسان والحملة الصليبية ، على الأقل لأن حملات الريزن Reisen قد تدهورت بحيث اختفى وجودها فى التعبير الأكثر انتظاماً عن الحملات الصليبية : ففى سنة ١٤١٣م كتب الرحالة البورجندى چلبرت اللانوى Guillebert de Lannoy عن رحلات الريزن باعتبارها مرحلة تاريخية مضت بالفعل . إذ كان القيام بحملات صليبية حقيقية قد بات أمراً بعيداً عن غالبية عامة الناس منذ

فترة طويلة. فقد كانت الحملة الصليبية تعنى بالنسبة لهم صكوك الغفران أولاً، أما النجاح والفشل الذى كان يتوقف على عوامل كثيرة أخرى- مثل قدرة المبشرين ، وموقف القوى العلمانية المحلية، والمدى الذى كانت قد وصلت إليه صكوك الغفران الأخرى، أو تلك التى تم تطويرها حديثًا - فلايمكن قياسه بالنظر إلى استجابة الناس باعتبارها مقياساً لرد الفعل تجاه القضية الصليبية . ففى سنة ١٤٨٨م، قابل رعايا أبرشية ڤاجنجن Wageningen فى أسقفية أوترخت Utrecht، هجوم قسيسهم على الدعوة إلى الحملة الصليبية بتعاطف بلغ درجة أنهم رفضوا السماح لجامعى الضرائب أن يحملوا معهم الأموال التى تمت جبايتها . ولكن ما قدر ما يحمله هذا الدليل على الخصومة من الجدارة بالمقارنة إلى ما تحمله حكايات المدونات التاريخية عن شعبية الدعوة إلى الحملة الصليبية ونجاحها فى إرفورت Erfurt فى السنة نفسها، دعك من الاستجابة غير العادية للتبشير بالحملة الصليبية للتخفيف عن بلجراد سنة ١٤٥٦؟ والموضوع عبارة عن حقل ألغام تأويلى ؛ بيد أن الدليل المتوفر لدينا لن يدعم بالتأكيد وجهة النظر القائلة إنه كانت هناك خصومة أو عداوة شعبية ، إذا ما واجهناه بالمشكلات السياسية والمالية ، التى حالت دون تحقيق الحملة الصليبية ضد الأتراك.

وباستثناء بعض النشاط البحرى ، وشن الحملات من جانب القوى المحلية فى البلقان، فإن الحملة الصليبية ضد الأتراك فشلت فى مرحلة الإعداد . كما أن هناك حالات فشل أخرى أكثر درامية ، بمعنى أنها تمثلت فى هزائم متكررة ومهينة فى ميدان المعركة ، لقيتها سلسلة من الحملات الصليبية التى تم تجريدها فيما بين سنة ١٤٢٠م وسنة ١٤٣١م ضد الهراطقة الهسيين (أتباع چون هس (Hassites) فى بوهيميا. هذه الحملات الصليبية ، وهى الحملات الصليبية الكبيرة الوحيدة التى تم شنها ضد الهراطقة المذهبيين فى أواخر العصور الوسطى ، كانت تستمد أصولها من

التفاعل المركب للهرطقة الدينية ، والاضطراب والتوجهات الوطنية داخل أراضى التاج. وقد اتسع النقد القاسى الذى وجهه چون هس الأكاديمى والمبشر البراجى، ضد إساءة استغلال الكنيسة المعاصرة بحيث اتخذ صورة إعادة تفسير راديكالية للمعتقدات الكاثولية الأساسية، وهو ما جلب عليه الإدانة وتم حرقه سنة ١٤١٥م. بقرار من مجمع كونستانز الكنسى. وقد أدى ضلوع أسرة لوكسمبرج الحاكمة فى هذا الحادث المأساوى ، والتعاطف الذى أبداه النبلاء التشيك تجاه آراء أتباع چون هس ، إلى اندلاع حركة عصيان فى براج سنة ١٤١٩م. كما أن ارتباط المذهب الهسى بالهوية الوطنية التشيكية ، والقوى القهرية بكل من الكنيسة والدولة ضد الأقلية الألمانية فى بوهيميا ، قد أضفى على الصراع بين الكاثوليك وأتباع چون هس تعقيدات وطنية.

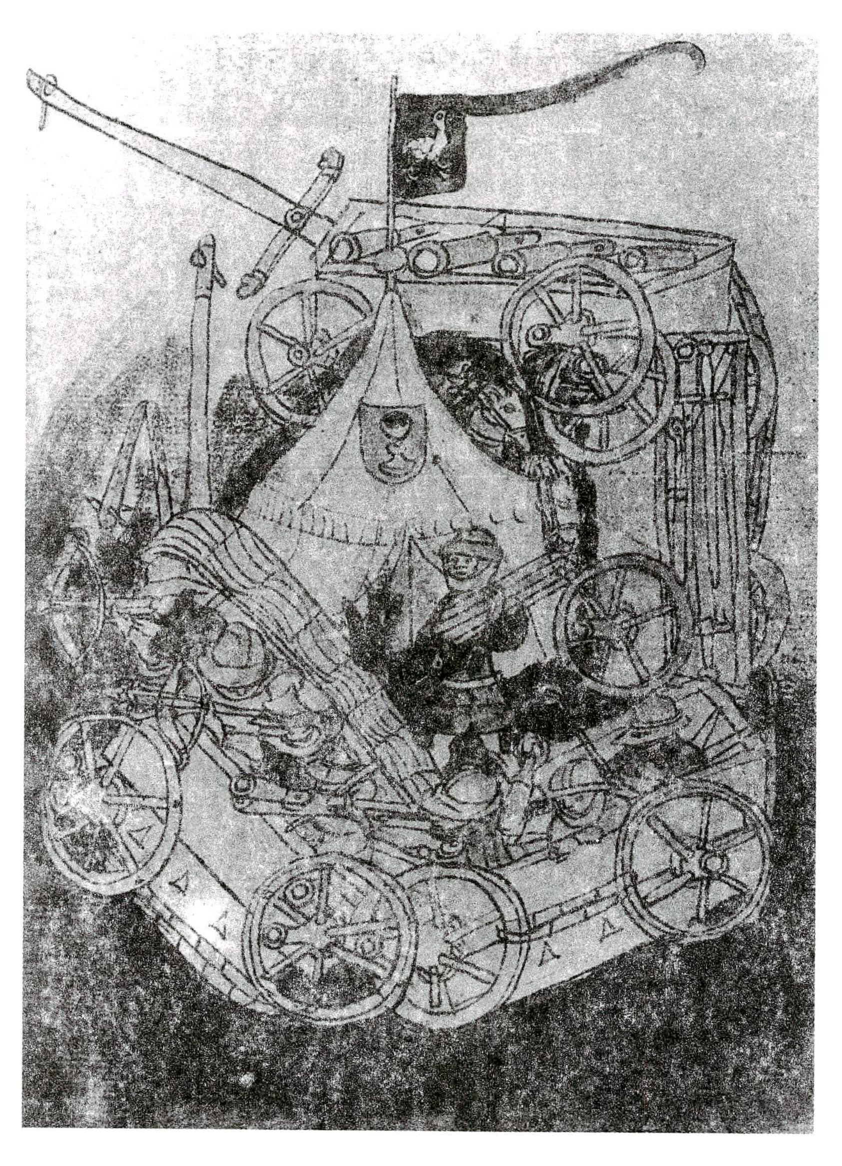
كان الرجل الذى تعين عليه أن يتعامل مع هذا السيناريو المتشابك المعقد هو الملك سيجيسموند اللوكسمبرجى Sigismund of Luxemburg ، ملك المجر. فقد ورث تاج بوهيميا عن أخيه وينسسلاس بعد وفاة الأخير بالصدمة أثناء عصيان ١٤١٩م . وفى حماقة قرر سيجسموند أن يستخدم بلطة فى موقف يمكن أن نرى ، أنه كان يتطلب استخدام مشرط. وبما أنه كان إمبراطوراً منتخبًا ، وبوهيميا وملحقاتها تقع داخل حدود الرايخ ، فقد كان المفروض أن يعول على مساعدة الأمراء الألمان . وكان هو أيضا بحاجة إلى أن يفعل هذا، طالما أنه كان من الخطر أن يجرد المجر من الرجال المحاربين فى اللحظة التى كان الأتراك يواصلون ضغطهم على حدودها الجنوبية . ولكنه كان يعرف من تجاربه أن أمراء ألمانيا ، بسبب مخاوفهم من انتشار مذهب چون هس فى أراضيهم، سواء كانوا من الأمراء العلمانيين أو الكنسيين ، سوف يترددون فى الذهاب إلى ميدان المعركة. وعندما واجهت هذه المعضلة سيجيسموند وافق على اقتراحات البابا مارتين الخامس Martin V وجماعات الضغط المتشددة فى بلاطه على وجوب إبراز القضية الدينية وأن يرفع قضية أسرته الحاكمة فى بوهيميا إلى مستوى الحملة الصليبية. ومن ثم فإنه دخل بوصفه قائداً لجيش صليبى إلى أراضيه فى ربيع سنة ١٤٢٠م.

ولم يكن سيجيسموند قادرًا على الاستيلاء على براج سنة ١٤٢٠م، على الرغم من تتويجه ملكًا فى كاتدرائية سان ڤيتوس St. Vitus ، التى كانت من حسن الحظ تقع فى قلعة هرادكنى Hradcany التى يمتلكها الكاثوليك، خارج أسوار المدينة، فإنه كان محتجزًا خارج مملكته فى مارس ١٤٢١م. بيد أن هذه لم تكن إلا كارثة واحدة فقط فى سلسلة مؤسفة من الكوارث . إذ كانت هناك حملتان صليبيتان فى سنة ١٤٢١-١٤٢٢م منيتا بالهزيمة على غرار تلك الهزيمة التى حاقت بالحملة الصليبية الأولى. وفى سنة ١٤٢٧م تم استئصال حملة صليبية أخرى، كانت هى الأكثر طموحًا ، فى غرب بوهيميا. وفى ذلك الحين كان أتباع چون هس قد صارت لهم اليد العليا لدرجة أنهم شنوا سلسلة من الإغارات ، أطلقوا عليها اسم «الرحلات الجميلة»، فى الأراضى الألمانية المجاورة. وأخيرا، فى صيف سنة ١٤٣١م، تمت إعادة حملة صليبية القهقرى إلى دومازليس Domazlice . لقد فشل الصقور فشلاً ذريعًا ، وسُمح للحمائم بتولى زمام الأمور، وبعد مفاوضات مضنية توصل سيجيسموند إلى حل وسط مع رعاياه المتمردين فى سنة ١٤٣٦م. وبقى مذهب چون هس متمترسًا فى بوهيميا ، على الرغم من المحاولات الأخرى التى جرت لإخماده وقهره عن طريق الحملات الصليبية فيما بين سنة ١٤٦٥م وسنة ١٤٦٧م.

ولم تلق الحملات الصليبية ضد الهسيين الاهتمام المفصل الذى تستحقه وعلى الرغم من أن بعض جوانب فشلها واضحة تمامًا بشكل معقول، فإن بعض الجوانب الأخرى ليست كذلك . وعلى الجانب الهسِّى ، من الواضح أن التحالف الهش بين الراديكاليين والرجعيين قد تعزز بالفظائع التى ارتكبها بحماقة الكاثوليك والتأكيد الشديد على الشعور الوطنى التشيكى فى مواجهة جيوش صليبية مكونة إلى حد كبير من الألمان. وفى ميدان المعركة ، أفاد بدرجة هائلة من القدرة التنظيمية العالية لچون زيزكا John Zizka وتكتيكاته المبتكرة . وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا البدائية النسبية التى

اتسمت بها الشئون الحربية فى القرن الخامس عشر، فربما يكون الهسيون قد استفادوا بدرجة أكبر من خطوط إمدادهم وخطوط مواصلاتهم القصيرة بأكثر مما أفاد الصليبيون من قدرتهم النظرية على مفاجأة العدو والهجمات المنسَّقة من اتجاهات عديدة. أما على الجانب الكاثوليكى، فإن حقيقة أن الجيوش كانت ، مرة بعد أخرى، يتم القضاء عليها لامجرد هزيمتها، تشهد على انهيار حاد فى المعنويات . وكما هو الحال دائما فى الحملات الصليبية ، فإن هذه الهزائم ولدت الشكوك حول عدالة القضية الكاثوليكية ، وهو أمر يشى بالكثير منذ صار من الممكن الوصول إلى حل عن طريق المفاوضات بطريقة لم تكن تحدث فى الحملات الصليبية ضد المسلمين. وقد حاول قادة الحملات الصليبية أن يتعلموا وأن يبتكروا فى آن- إذ إن الذين أعدوا حملة ١٤٣١م قد تبنوا تدابير عسكرية ربما كانت قائمة على تدابير زيزكا- ولكنهم لم ينجحوا سوى بشكل جزئى فى أفضل الأحوال . وفوق هذا وذاك، كان دستور الرايخ اللامركزى متشدداً ضد التوجيه والسيطرة الإجبارية التى كانت مطلوبة.

هذه النقطة الأخيرة تلقى تأييداً غير مباشر من أنجح حملة صليبية فى القرن الخامس عشر، وهى تلك الحملة التى وجهها فرديناند ملك أراجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ضد غرناطة فيما بين سنة ١٤٨٢م وسنة ١٤٩٢م. والواقع ، أن المقارنة بين الحملات الصليبية ضد الأتراك والهسيين من ناحية وحرب غرناطة من ناحية أخرى تكشف عما كان ينقص فى الحملتين الأوليين.



رسم معاصر بالقلم لعربة قلعة لدى أتباع چون هس. هذه الأبنية الدفاعية المحسنة برهنت على أنها مثالية فى الانتشار السريع للأقواس العابرة ومدافع الميدان. لاحظ رسم كأس القربان على الخيمة، وكان الوصول إليه بواسطة الطقوس مطلباً رئيسياً للجماعة.



الحملة الصليبية ضد غرناطة ، حسبما هي مصورة في أحد النقوش الحية لرودريجو أليمان Rodrigo Aleman في أماكن المرتلين بكاتدرائية طليطلة . كانت هذه حرب حصارات عنيفة، تم تصوير معظمها على التوالى .

هذه المرحلة النهائية فى حركة الاسترداد Reconquista توقفت على الزواج بين فرديناند وإيزابيلا سنة ١٤٦٩م، الذى أنهى ، بشكل مؤقت على الأقل، المنافسة القديمة بين المملكتين وعلى نجاح إيزابيلا ، بعد عشر سنوات فى إنهاء الاضطرابات داخل الأسرة الحاكمة فى مملكتها . وعندما تم هذا كان بوسع إيزابيلا أن تلتفت إلى غرناطة . كان مزاجها الخاص منسجماً تماماً مع الجو المتنامى للتشدد غير المتسامح تجاه الديانات الأخرى والذى ساد منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى أواخر ذلك القرن فى قشتالة . وفضلاً عن ذلك ، فقد كان من صالح كل من قشتالة وأراجون طرد المسلمين قبل أن يطوِّر العثمانيون المتقدمون قوتهم البحرية بما يكفى لتقليد المرابطين والموحدين بالاندفاع إلى إسبانيا من خلال باب مفتوح على أيدى رفاقهم المقاتلين المسلمين . هذه الاعتبارات الخلفية تفسر لماذا استولى كونت كاديز Cadiz بشكل انتهازى على Alhama، فى سنة ١٤٨٢م، وتم تطوير الهجوم إلى برنامج للغزو انتهى باستسلام غرناطة بعد ذلك بعشر سنوات .

ولم يحدث منذ حملات الملك لويس التاسع قبل ما يزيد على قرنين من الزمان أن كانت هناك حكومة أوربية كبرى متورطة بهذا الشكل المباشر والمستمر فى تنظيم وشن حملة صليبية كبرى . كان مثل هذا الارتباط أساسياً ، لأن دفاعات كانت قد بُنيت على مدى الفترة الزمنية نفسها تقريباً . وكان غزوها يتطلب استخدام القوة العسكرية الضخمة، التى يتم تجريدها بإصرار سنة بعد أخرى لخفض شكل الإمارات تدريجيا . وكانت تعبئة الرجال والخيول والبغال والمدفعية والبارود والغلال وغيرها من المواد الغذائية ، تتطلب تركيزاً قوياً فى الجهود. وكان حوالى اثنين وخمسين ألفًا من المقاتلين مشتبكين على مدى ستة أشهر فى حصار بازا Baza ١٤٨٩م. وفوق هذا وذاك ، كان يتم جمع الأموال : حوالى ثمانمائة مليون قطعة مارافيديس Maravedis حسب التقديرات . كان تموين القوات وتمويل الصراع تحت إدارة الملكة شخصيًا. وباعتباره

واحداً من المؤرخين البارزين للحرب، يقول فرديناند دل بلجار Ferdinand del Pulgar ، «لم يتوقف ذهن الملكة عن التفكير فى كيفية الحصول على الأموال، سواء للحرب ضد المسلمين أو للمطالب الأخرى التى تطرحها حكومة المملكة باستمرار».

ومعظم النفقات غير المعتادة التى تطلبتها الحرب كان يتم تدبيرها من مصادر تمويل الحملات الصليبية ، ولاسيما من ضرائب الكنائس والتبشير بالغفران. وقد لجأ الملك والملكة بشدة إلى هذه واهتما بنشر كل مرسوم صليبى (bula de la cruzada) بحيث ينتج عنه أقصى تأثير ممكن . والنجاح الذى تحقق فى هذه الحرب ، بالمقارنة مع النتائج المزرية للحملات الصليبية فى الأنحاء الأخرى من أوربا ضد الأتراك ، لافت للنظر. وإلى حد كبير يمكن أن يُعزى هذا النجاح إلى المبالغ الصغيرة المطلوبة فى مقابل الغفران ، والامتيازات السخية التى يتم منحها ، والمساعدة النشطة التى لقيها المبشرون والجباة من الموظفين الرسميين، والدليل المتاح، على شكل منشورات وكتيبات من جبهة القتال ، على أن الأموال كانت تُنفق بالفعل على القتال. ولكن ربما كان هناك المزيد أكثر من هذا . إن القضية التى دفع القشتاليون الأموال من أجلها ، وحارب الجنود من أجلها وماتوا فى سبيلها ، كانت قضية وطنية مثلما كانت قضية مقدسة. وكان بروز الشعور الوطنى والحماسة الدينية، التى كانت واضحة أحيانًا فى أثناء حرب المائة عام، وبين الهراطقة الهسيين بشكل متناقض فى عشرينيات القرن الخامس عشر، أوضح ما يكون فى قشتالة أثناء ثمانينيات القرن الخامس عشر. وبالإضافة إلى سيطرة الدولة على إدارة الحملة الصليبية ذاتها، كان هذا مؤشراً واضحًا على تطور الحركة الصليبية فى المستقبل.

Forma de absolucion

Enel articulo dela muerte diga elconfesor

إيصال مطبوع (buleta) بشراء صك غفران للحملة الصليبية على غرناطة ١٤٩٠م.

وأسماء من تسلموه فقط هى التى كتبت باليد. وبعمل مثل هذه الأوراق ، وإتاحتها فإن اختراع الطباعة قد سهَّل الإدارة المالية لصكوك الغفران، ولكنه مهد الأرض لانتقادات الإصلاحيين التى قالت إنها كانت سيمونية [أى مثل محاولة شراء الإيمان بالمال] وخسيسة.

فناء فى الشمال - بقاء فى الجنوب

عندما دخلت الحملة الصليبية القرن السادس عشر، فى شكلها التقليدى باعتبارها حرباً مقدسة توجهها البابوية ترمز إلى وحدة العالم المسيحى وترعى مصالحه المشتركة، كانت مريضة بشكل واضح. ولم يكن هناك ما يكشف عن هذا بشكل أكثر حيوية من مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٢-١٥١٧م) الذى بذل فيه البلاط البابوى آخر محاولة له قبل حركة الإصلاح الدينى لتحريك الحملة الصليبية ضد الأتراك. وكانت الخلفية الشرقية التى قامت عليها مداولات المجمع خلفية كئيبة . إذ كان الأتراك منذ وقت قريب قد طوروا قوتهم البحرية إلى حد أنهم ألحقوا خسائر جمة بالبنادقة ؛ ففى سنة ١٥١٥- ١٥١٧م فتحوا هضبة الأناضول الشرقية، وفى سنة ١٥١٦-١٥١٧م دمروا سلطنة المماليك وابتلعوا مصر والشام داخل إمبراطوريتهم وبالفعل كان حتمياً أن يستأنفوا تقدمهم باتجاه الغرب فى المستقبل القريب. وقد استمع المجمع إلى خطب عاطفية ، وفرض ضرائب كنسية لتمويل حملة صليبية ، ودعا حكام أوربا إلى العمل. وكان البابا ليو العاشر صادقاً فى حماسته لتجريد حملة صليبية وبذل جهوداً مضنية لتعميق الصراعات الإيطالية ، التى كان سلفه چوليوس الثانى قد أشعلها بشدة ، وللمساعدة على مفاوضات الصلح بين فرنسا وإنجلترا أيضاً - وكانت هناك بعض نسائم التفاؤل فى الجو، ولكن كما كان يحدث كثيراً فى الماضى ، فإن العروض الفخمة والوعود الكاسحة التى قدمها الحكام من أمثال الإمبراطور ماكسميليان الأول وفرنسيس الأول ملك فرنسا، وهنرى الثامن ملك إنجلترا ، لم تسفر عن شىء تقريباً . وكما لو كان الأتراك يؤكدون التناقض مع سُبات خصومهم وغفلتهم، فقد استولوا على بلجراد سنة ١٥٢١م، وهى مفتاح المجر كما كانت العقبة الرئيسية فى تقدمهم المتجدد.

وإذا ما كان هناك أى أمل فى إحياء الحركة الصليبية ، فإن هذا الأمل كان كامناً فى إسبانيا . فقد برهنت الوحدة بين قشتالة وأراجون على أنها باقية ، وإن لم تكن

كاملة ، وانتهجت هذه القوة الجديدة سياسة خارجية توسعية لاتعول فقط على الخبرة العسكرية المكتسبة من حرب غرناطة ، وإنما تستند أيضًا على ظهور حماسة وطنية ودينية كانت قد ميزتها. وقد أسهمت البابوية فى حرب غرناطة فأصدرت باستمرار هبات جديدة من الضرائب الكنسية كما كانت تجدد مرسوم الحملة الصليبية Bula de la Cruzada وكان استيلاء البرتغاليين مبكرا فى سنة ١٤١٥م على سبتة فى المغرب الأقصى قد اعتبر حملة صليبية ، وقد أفاد فيض من الغزوات البرتغالية بعد ذلك فى القرن الخامس عشر على المغرب الأقصى بالطريقة نفسها. وبمجرد أن تم تأمين قشتالة قام القشتاليون بتقليد جيرانهم فى الغرب (البرتغاليين) ، وبدأوا غزوا كبيرًا فى الجزائر وتونس . وبحلول سنة ١٥١٠م كانوا قد وصلوا إلى طرابلس وكانوا يعدون العدة للهجوم على تونس. لقد كانوا فى منتصف الطريق إلى هدفهم الثابت فى بيت المقدس. وقد يبدو هذا وكأنه دعاية أو خداع للذات على أحسن الأحوال، ولكنه كان يحتفظ تمامًا بالتناغم مع النغمة الصوفية والأخروية التى نراها كثيرًا فى خضم حرب غرناطة، والتى شكلت تفكير كريستوفر كولومبوس والمبشرين والفرنسيسكان فى العالم الجديد . وفى الواقع ، على أية حال ، فإن هذا الاتجاه شرقا قد أدى إلى التصادم بين القشتاليين والعثمانيين وأتباعهم الأمراء والمجاهدين فى شمال أفريقيا الذين عرفهم الغرب باسم القراصنة . وهكذا فإن الحملة الصليبية الأيبيرية اندمجت مع الحملة الصليبية ضد الأتراك فى المغرب الأوسط.

فى هذه النقطة بدا أنه من المحتم أن الحملة الصليبية العالمية التى توجهها البابوية سوف تحل محلها الحملة الصليبية الوطنية التى توجهها الدولة والتى تمثلت فى حملات إسبانيا ضد المسلمين. ولكن انتخاب شارل ملك إسبانيا إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا سنة ١٥١٩م جلب ما ظهر على أنه إحياء قصير المدى للتقاليد الأقدم زمنًا . فقد كان على شارل الخامس أن يقوم بعمل توازن مختلف بين توسيع مصالح قشتالة

فى شمال أفريقيا والقيام بمسئولياته الإمبراطورية فى وسط أوربا وشرقها . ومبدئياً ، تضمنت مسئولياته فى شرق أوربا مساعدة المجر، وبعد انهيار المجر فى سنة ١٥٢٦م كان هذا يعنى الدفاع عن الرايخ ذاته ضد العثمانيين . وقد عمل الإمبراطور فى تعاون حاد وثيق مع البابا ، الذى ذكَّره باستمرار بواجباته الكثيرة، وكانت أملاكه شاسعة وتنوعت لدرجة أنه يبدو فى بعض الأوقات كما لو أن حملاته الصليبية ، ولاسيما نجدته فيينا فى سنة ١٥٢٩م وحملته الكبرى على تونس سنة ١٥٣٥م ، كانت تتشابه مع تلك الحملات الصليبية التى تم تجريدها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. فقد كان شارل يرى فى نفسه بربروسا آخر أو شارلمان جديداً ؛ والواقع أن الاحتفال بالنصر فى تونس مثل احتفال روما بالانتصار على قرطاجة يشير إلى تقاليد أكثر قدماً لشئون الحرب الإمبراطورية . بيد أن هذا أمر مضلل ، لأن شارل كان دائماً يدافع عن أراضيه الخاصة أو مصالح أسرته ، مع استخدام قواته وميزانياته ، حتى ولو كانت قواته قد تشجعت بالمعايير الصليبية، كما أن ميزانياته قد تعززت بالمعايير الصليبية أيضاً . أما الوضعية الصليبية لصراعات شارل فلا يمكن إنكارها، ولكن حسبما أوضح فرنسيس الأول وأعداء الإمبراطور الآخرون بسرعة ، كانت تلك الحملات «حملات صليبية لأسرة هابسبورج»، وكانت تحارب فى سبيل تحقيق أهداف خاصة.

وفى الوقت الذى زحف شارل الخامس للتخفيف عن فيينا كان العالم المسيحى منقسماً بسبب انقسامه المذهبى. ففى الولايات اللوثرية ، ثم الكلفينية فيما بعد، فى الشمال كان رفض كل من السلطة البابوية وطقس التوبة الذى كان أساس صكوك الغفران قد أخمد الحركة



حركة صكوك الغفران فى نقش يرجع إلى القرن السادس عشر، فى إنجلترا سنة ١٥٠١م تمَّ تطبيق معدّل تفصيلى للمدفوعات على الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وكانت تتدرج من .L36S. 8d للرجل العلمانى الذين كانت أرضه تُغلُّ دخلاً سنويًا قدره ٢٠٠٠ جنيه استرلينى أو أكثر بالنسبة للناس الذين كان دخلهم من الأرض أقل من ٤٠ جنيه استرلينى ويملكون ممتلكات منقولة وقيمتها ما بين ٢٠ و ٢٠٠ جنيه استرلينى.

الصليبية بالفعل. ويمكن المجادلة بأن هذا كان أكثر قليلاً من الإنهاء الرسمي لممارسة كانت قد عفى عليها الزمن على أية حال. وكان معنى إغلاق الجبهة الليتوانية فى بواكير القرن الخامس عشر وفشل كافة الخطط للقيام بحملة صليبية عامة ضد الأتراك العثمانيين أن العائلات القليلة نسبياً فى إنجلترا ، أو البلاد الواطئة أو ألمانيا كانت قد جرَّبت بشكل مباشر شن



صورة هانز هولبين الحساسة والكاشفة التى رسمها لإراسموس، أكبر منتقدى الحركة الصليبية سخرية عشية حركة الإصلاح الدينى إذ كتب «كل مرة قام البابوات بتمثيل كوميديا الفارس هذه .. جاءت النتيجة سخيفة... ونحن نتعلم من المثل السائد أن من العار أن ترتطم بالحجر نفسه مرتين، ولهذا كيف لنا أن نثق بمثل هذه الوعود، مهما كانت عظيمة ، على حين أننا انخدعنا أكثر من ثلاثين مرة، وتم تضليلنا كثيراً، وبصراحة مكشوفة»

حملات صليبية على مدى عدة أجيال ، ما لم يكن أفرادها قد دخلوا نظام رهبان القديس يوحنا (الاسبتارية)، أو صاروا من مبشرى البابوية وجباة الضرائب ، أو ذهبوا أفرادًا أو جماعات للقتال فى غرناطة، أو المجر ، أو رودس . وكان أمثال هؤلاء أكثر مما قد يتوقع المرء، مثل حوالى ألفين من البورجنديين الذين انطلقوا من سلويس Sluys فى سنة ١٤٦٤م بقصد القتال فى الحملة الصليبية التى دعا إليها البابا بيوس الثانى- وفى الطريق توقفوا عند سبتة وساعدوا البرتغاليين فى صد هجوم إسلامى- أو الألف وخمسمائة رجل من رماة السهام الذين أرسلهم هنرى الثامن إلى ألكاديز Cadiz فى سنة ١٥١١م للمشاركة فى حملة الملك فرديناند المزمعة على تونس . بيد أن هذه الأعداد لم تكن كافية للإبقاء على التقاليد الصليبية فى حال جيدة . ومن الصعب أن نتجنب استنتاج أن الحركة الصليبية قد وصلت إلى درجة لم تشغل فيها سوى ركن صغير فى النسيج الثرى للثقافة الكاثوليكية التى دمرها الإصلاحيون.

وتكتسى حقيقة أن صورة الحملة الصليبية كانت قد صارت سيئة وأن مردودها كان سلبيًا ، أهمية مساوية. ولايتضح هذا فى أى مكان أكثر منه فى إسهام إراسموس Erasmus فى السلسلة الطويلة من المقالات حول الحروب الصليبية ، بمقالته الموسومة «نصيحة لحرب الأعداء الأتراك» Consultatio de bello Turcis inferendo فى سنة ١٥٣٠م. وإذ كان إراسموس يكتب فى وقت انتزاع المجر وفى أعقاب الحصار العثمانى لفيينا مباشرة فإنه كان يؤيد على كره منه شن الحرب ضد الأتراك : **«إننى لا أنصح ضد الحرب، ولكن أفضل ما أستطيع فعله أن أحث على أن يتم شنها وخوضها بشكل ناجح». وكان معنى هذا أنه يجب على السلطات العلمانية فى الغرب المسيحى أن تحارب بطريقة لا أنانية وأن تكون القوات فى حالة تقوية، مثل فرسان الداوية الأوائل حسبما وصفهم سان برنار. وينبغى تمويل الصراع بتخفيض النفقات الزائدة فى البلاط «وأن ينفقوا فى تدين ما يأخذونه من التبذير »**، وبالهبات الطوعية ، لأن «شكوك

الناس سوف تتلاشى عند تحول الخطط إلى فعل». وفوق هذا وذاك ينبغى ألا يكون هناك تبشير بصكوك الغفران التى ارتبطت بالفشل والرياء والاتفاقات الخسيسة اللامشروعة بين البابوات والحكام المحليين، وألا يكون ثمة إسهام من جانب الكنيسة «لأنه لايتفق من حيث المظهر ولايتوافق مع الكتاب المقدس أو قوانين الكنيسة أن يتورط الكرادلة ، أو الأساقفة ، أو مقدمو الأديرة ، أو القساوسة فى هذه الأمور ؛ فلم يسفر تورطهم عن أى نجاح إلى اليوم». لم تعد هذه حركة صليبية ، وإنما صارت شكلاً معدلاً من الحرب المسيحية تبرز مثل العنقاء من بين رماد البناءات القديمة التى لاتستحق الثناء.

لقد انتقد إراسموس مارتن لوثر فى مقالته Consultatio لأنه أدان الحرب ضد الأتراك صراحة على أساس أن الأتراك أرسلهم الرب لمعاقبة المسيحيين جراء خطاياهم. والحقيقة أن لوثر كان قد تخلى عن هذا الموقف الأوغسطينى المتطرف عند هذه النقطة، لنفس الأسباب التى بنى إراسموس عليها موافقته القيمة على شن حرب دفاعية علمانية؛ وأيا كانت آراؤهم اللاهوتية، فإنه لم يكن هناك من الإصلاحيين من يستطيع أن يتحمل فكرة أن يعيش فعلاً تحت الحكم العثمانى. وحتى صلح أوجسبورج فى سنة ١٥٥٥م حارب الأمراء اللوثريون فى ألمانيا جنبًا إلى جنب مع إمبراطورهم ضد الأتراك، وانتزعوا تنازلات قيمة فى المسألة الدينية ثمنًا لمساعدتهم . وحتى بعد أن بات واضحًا أن الانقسام المذهبى كان أكثر من مجرد نزاع مؤقت، كان التعاون العسكرى بين الألمان والبروتستانت والألمان الكاثوليك ضد الأتراك، مثل بقاء نظام الفرسان التيون فى الولايات الشمالية، علامة على أن الأمور لم تكن واضحة قاطعة بأكثر مما بدت عليه. وكان يتم الاحتفال بالانتصارات الكاثوليكية فى البحر المتوسط فى البلاد البروتستانتية كما أن شعورا بالقيم المشتركة ، وبعضها دينية أو مشتقة من الدين، استمر موجوداً. ومن الناحية السياسية والثقافية ، كان الأتراك لا يزالون هم

«الغرباء»؛ وكانت تحالفات البروتستانت معهم ضد القوى الكاثوليكية تبقى طى الكتمان خوفًا من الإساءة إلى الرأى العام. فلم يكن ممكنًا طرح المشاعر والمعتقدات القديمة جانبًا بين عشية وضحاها .

وعلى أية حال ، فقد حدث فى الجنوب أن استمرت أشكال الحركة الصليبية ، كما أن طول فترة بقائها لقى فى السنوات الحديثة ما يستحقه من اعتراف. فقد شهد القرن السادس عشر ذروة ممارسة تكوين العصب البحرية ضد الأتراك ، وهى ممارسة ترجع أصولها المتواضعة إلى ثلاثينيات القرن الرابع عشر . وثمة عصبة تضم شارل الخامس، والبندقية والبابوات تم تكوينها فى سنة ١٥٣٨م ، ولكنها مُنيت بهزيمة خطيرة فى بريڤيزا Prevéza ، قبالة الشاطئ الغربى لبلاد اليونان. هذا الفشل، وما تسبب فيه من اتهامات مضادة ، والخلافات السياسية بين قوى العصبة ، حالت دون تكوين عصبة أخرى حتى وصل الصراع من أجل السيطرة على وسط البحر المتوسط ذروته أواخر ستينيات القرن السادس عشر . وقد ساعد استيلاء الأتراك على تونس سنة ١٥٦٩م ونيقوسيا سنة ١٥٧٠م البابا بيوس الخامس على أن يقنع كلاً من إسبانيا والبندقية على الدخول فى عصبة أخرى. وفى ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م كسبت سفنها أكبر معركة بحرية فى القرن عند ليبانتو Lepanto ، فى خليج كورينثه Corinth كان الأسطول الكاثوليكى فى ليبانتو ممولاً إلى درجة كبيرة بالضرائب الكنسية وبيع صكوك الغفران. وأولئك الذين حاربوا كانوا على وعى بمغزى المعركة وأهميتها، وفى التقارير التى تم نشرها بسرعة عقب المعركة، تم تصويرهم وهم يعدون أنفسهم للعمل فى روح من التدين والتوبة ، والغفران التى لابد وأنها حازت موافقة إراسموس ولم تكن لتبدو غير مألوفة بالنسبة للملك لويس التاسع . والواقع أن كاثوليكية الإصلاح الدينى المضاد قد توافقت بشكل مريح مع الكثير من الممارسات الدينية فى الحركة الصليبية وكذلك فى جعل مؤسساتها مقبولة عندما تم تعديلها . وفى سنة ١٥٦٢م أسس الدوق

كوسيمو الأول أمير فلورنسا Cosimo I نظامًا رهبانيًا عسكريًا جديدًا، هو تنظيم فرسان سانتو ستيفانو Knights of Santo Stefano ، الذى يرد الحديث عنه فى الفصل الثالث عشر.

وحسبما كان متوقعًا ، كان انتعاش الحملة الصليبية قد حدث فى إسبانيا تحت حكم الهابسبورج بأكبر قدر أثناء حركة الإصلاح الدينى المضادة . وهنا كانت درجة الاستمرار المؤسسى ملحوظة ، مع قدر من الإصلاح أقل من أى مكان آخر . وكانت أوضح ما تكون فى الدور البارز الذى استمرت تقوم به النظم الرهبانية العسكرية الإسبانية فى المجتمع ، على الرغم من الإساءات التى مارسها التاج الذى استغل سيطرته على النظم الرهبانية العسكرية لكى يستنزف وظائفها ومواردها إلى آخر المدى. ثم كانت هناك الدعوة المنتظمة إلى إصدار مراسيم الحملة الصليبية bula de la cruzada للحرب ضد الأتراك ، وجمع البدل Subsidio، وهى ضريبة كنسية من الواضح أن أصلها يرجع إلى العشور الكنسية، على الرغم من أنها كانت قد وُضعت لكى تفرض نسبة أكبر كثيراً. كان وجود مثل هذا الميراث من ماضى الحركة الصليبية فى إسبانيا قد تم استيعابه فى حاضرها . لأنه مهما كانت دواعى قلق البابوات بخصوص التوسع الإسبانى، لم يكن ممكنا أن يوجد شك فى أن الحروب التى كان فيليب الثانى يخوضها فى البحر المتوسط، والمغرب، والبلاد الواطئة قد أثرت فى الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية. وهكذا فإن البابا بيوس الخامس Pius V ، عندما منح الملك شكلا جديداً تماماً لحق فرض الضرائب على الدخل الكنسى عرف باسم excusa-do فى سنة ١٥٦٧م ، برر هذا بالإشارة إلى نفقات فيليب « ... من أجل الحفاظ على الدفاع عن الديانة المسيحية فى إقليم الفلاندرز (البلاد الواطئة) وعالم البحر المتوسط . كما أن تجديد «مرسوم الحروب الصليبية bula de la Cruzada من جانب البابا ، على الرغم من تعارضه مع المراسيم الإصلاحية لمجمع ترنت Trent الكنسى، قد جاء حوالى سنة ١٥٧١م ثمنا حدده فيليب الثانى لانضمامه إلى العصبة المقدسة Holy League .



معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م. آخر انتصار صليبى كبير، ولم تحول معركة ليبانتو، حسبما ساد الظن، مد الحرب فى البحر المتوسط ضد الأتراك العثمانيين ؛ ولكنها بالفعل رفعت الروح المعنوية بين القوى الكاثوليكية.

إن بقاء الممارسات الصليبية فى إسبانيا بهذا الوضوح يمكن تفسيره فى ضوء النزعة المحافظة لكل من الكنيسة والمجتمع، وفوق هذا وذاك يمكن أن يُفسَّر بالرابطة الواصلة بين ماليات الدولة وعوائد الحملة الصليبية التى كان تاريخها يرجع إلى حرب غرناطة على الأقل . إذ إن الأرباح التى تم الحصول عليها من النظم الرهبانية العسكرية، والحملة الصليبية Cruzada ، وضريبة البدل Subsidio كانت تكون حوالى ثلثى مبلغ المليونين من الدوكات التى قدّر أحد العارفين بالأمور فى روما سنة ١٥٦٦، أنها غنيمة فيليب الثانى السنوية من الكنيسة الإسبانية. وربما يجعلنا هذا نشك فى تأكيدات الملك المستمرة بأنه كان مرتبطا بمتابعة قضية الرب. وعلى أية حال، يميل من كتبوا سيرته إلى الاقتناع بإخلاصه . وعلاوة على ذلك ، كان الكثير من التعليقات العديدة التى قيلت فى القرن السادس عشر وصلت إلى حد القول بأن حروب إسبانيا هى حروب الرب ولاترجع فى أصلها إلى المستوى الحكومى ولكنها وردت فى مصادر لايمكن أن تكون بنيتها دعائية القصد . أما الروايات عن أسلاب الغزوات Conquistores، ومذكرات الجنود الإسبان، والخطابات المعاصرة وكتب التاريخ المعاصرة عن القتال فى البحر المتوسط والبلاد الواطئة ، وكذلك الأرمادا سنة ١٥٨٨م، فقد فسّرت الموضوعات المشتركة. لقد كان الإسبان هم شعب الله المختار الجديد ؛ لأنهم كانوا ينشرون العقيدة عن طريق التنصير فى العالم الجديد، والدفاع عنها بقوة السلاح فى العالم القديم، لقد كانت انتصاراتهم تتحقق بفضل العناية الإلهية . وكان نتيجة ذلك أن جنودهم الذين قتلوا ضمنوا مكانهم فى الفردوس . وقبل معركة ستينبرجن Steenbergen فى سنة ١٥٨٣م، مثلاً، شجع ألكسندر فارنيس Alexander Farnese قواته حسبما تقول الروايات بأن أكد لهم أنهم سوف يربحون «نصرًا جميلاً على أعداء الديانة الكاثوليكية، ديانة مليككم وديانتى؛ إن هذا هو اليوم الذى سيجعلكم يسوع المسيح فيه جميعًا خالدين وسوف يضعكم فى عداد المختارين».

هذه الرابطة التى جمعت بين الحركة الصليبية والسياسة الخارجية للهابسبورج ، مع النظرة المثالية للذات لدى الطبقة العسكرية الإسبانية ، والشعور الوطنى الإسبانى العام ، كانت أهم تعبير عن بقاء الحملة الصليبية ،

على الرغم من أنها اتخذت شكلاً مغايرًا تمامًا، فى الجنوب الكاثوليكى .
وفى الفصل الثالث عشر سوف يتم توضيح أن الاسبتارية حملوا تاريخ النظم الرهبانية العسكرية إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر بمشاركتهم فى الصراع المستمر ضد الأتراك فى البحر المتوسط. كما أن بقاء صكوك الغفران الصليبية فى الفترة ذاتها مع الضرائب الكنسية أقل توثيقًا ولكن لاشك أنه حدث ، مثلا فى أثناء الصراع بين البندقية والعثمانيين من أجل السيطرة على كريت (١٦٤٦- ١٦٦٩م) والحصار الثانى لڤيينا (١٦٨٣م) والعُصبة المقدسة سنة ١٦٨٤-١٦٩٧م.



حجاب ودلاّية (عليها صليب نظام القنطرة الرهبانى العسكرى عثر عليها فى حطام سفينة الجيرونا Girona ، فى الأسطول الإسبانى الأرمادا (١٥٨٨م) . لقد كان أسطول الأرمادا أوضح حملة صليبية أعلنت ضد قوة بروتستانتية ، كما كانت نتاجًا للتوافق الراسخ بصورة غير عادية بين السياسية الإسبانية والسياسة البابوية .

وهناك بالنسبة لمؤرخى الحروب الصليبية ولع بتعقب الأمثلة للدعوة الصليبية حتى بعد ذلك الوقت، وأمثلة عن الأفراد الذين يأخذون شارة الصليب، ومنح الغفران من أجل القتال، وبشكل أكثر عمومية فى تتبع أثر التعبير عن الأفكار الصليبية والمشاعر الصليبية فى العصور الحديثة. ويمكن فهم هذا الولع بسهولة كما أنه يشكل مجالاً مشروعًا للبحث ، طالما نقبل أن الحركة الصليبية ، بدلالاتها ومضامينها التى لاتتحقق بمجرد قبولها وإنما بشعبيتها العريضة ودعمها الواسع، كانت قد انتهت منذ زمن طويل.

(١٢)

الشرق اللاتينى
١٢٩١- ١٦٦٩م

بيتر إدبيورى

كان فتح المماليك عكا وغيرها من المدن والقلاع التى كانت بحوزة الفرنج سنة ١٢٩١م علامة على نهاية الوجود الغربى فى بلاد الشام، وفلسطين والتى ترجع جذورها إلى الحملة الصليبية الأولى . ولكن فى مكان آخر فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط استمر الحكم اللاتينى. إذ إن مملكة قبرص ، التى تم تأسيسها فى تسعينيات القرن الثانى عشر فى أعقاب الحملة الصليبية الثالثة ، قد عمّرت باعتبارها الأكثر شرقية من بين هذه الممتلكات الغربية حتى الغزو التركى فى سنة ١٥٧١م. وفى بلاد اليونان ومنطقة بحر إيجه ، فى المنطقة التى كان المعاصرون يشيرون إليها غالبًا باسم «رومانيا» استمرت عدة نظم حكم من تلك التى كانت قد خرجت إلى الوجود فى السنوات الباكرة من القرن الثالث عشر بعد غزو القسطنطينية على أيدى جيش الحملة الصليبية الرابعة ، وظلت قائمة. وكان الأمراء الفرنج فى آخايا ودوقات أثينا من بينهم قد حكموا الكثير من جزر بحر إيجه ، على حين حكمت جمهورية البندقية كريت وموانئ بلاد اليونان الجنوبية فى كورون Coron ومودون Modon . وعلى الرغم من أن اللاتين كانوا قد فقدوا القسطنطينية نفسها سنة ١٢٦١م ، كان الأوربيون الغربيون فى القرن الرابع عشر قادرين على أن يضيفوا المزيد إلى الممتلكات التى كانت تحت سيطرتهم فى بحر إيجه ، وأبرزها رودس وخيوس Chios .

وفى أثناء القرن الثالث عشر كان أكبر مصدر تهديد للحكم اللاتينى المستمر فى رومانيا قد تمثل فى اليونانيين من سكان نيقية أو إبيروس Epiros. ولكن بعد سنة ١٣٠٠م عندما خبت القوة البيزنطية ، كما رأينا أيضا، احتل التهديد من جانب الأتراك مكان الصدارة . وقد شهدت نهاية القرن الثالث عشر ظهور أمير الحرب التركى الذى يسمى عثمان فى شمال غرب آسيا الصغرى. وحسبما تم وصفه من قبل. فإن أحفاده، من السلاطين العثمانيين كانوا فى سبيلهم إلى اجتياح كل هذه الممتلكات اللاتينية فضلاً عن الإمبراطورية البيزنطية، والبلقان، والإمارات التركية الأخرى فى آسيا الصغرى، وسلطنة المماليك، وما هو أكثر من ذلك . وفى القرن السابع عشر، مع الاستيلاء على كريت من البنادقة، أنهى العثمانيون تاريخ الحكم الغربى فى الأراضى التى كان قد كسبها فى أثناء الحملات الصليبية التى تم تجريدها إلى الشرق، أو بعدها. وقد استسلمت هرقلية Iraklion ، المدينة الرئيسية فى كريت، للأتراك فى سنة ١٦٦٩م ، وعلى الرغم من حقيقة أن الحاميات البندقية قد تمكنت من البقاء فى أماكن أخرى قليلة بالجزيرة حتى سنة ١٧١٥م وأن القوات التى يقودها البنادقة كانت قد أحرزت نجاحًا باهرًا على الرغم من قصر مداه الزمنى فى اليونان فى ثمانينيات القرن السابع عشر ، فإن سقوط هرقلية (إيراكليون) يمكن اعتباره نهاية حقبة من الزمان .

والحرب ضد الأتراك ، على أية حال، ليست سوى موضوع من بين عدة موضوعات تتقاطع مع تاريخ الأراضى التى كان يحكمها الغربيون فى حوض المتوسط الغربى فى أثناء تلك القرون . كما تبدو الصراعات فيما بين اللاتين أنفسهم ، وفيما بين اللاتين وغيرهم من الحكام المسيحيين، والأباطرة البيزنطيين وملوك أرمينيا الصغرى ، واضحة أيضًا . وبشكل أكثر خصوصية ، فإن الأشكال التى ربما اتخذتها الحكومة والمجتمع فى الغرب، وعلاقة المناطق التى كان يحكمها اللاتين بالتجارة بين الشرق والغرب، والسؤال المربك عن المدى الذى يمكن به وصف أنظمة الحكم اللاتينية بأنها «استعمارية» والتى يمكن أن نرى فيها بوادر للتجارب الاستعمارية الأوربية فى أماكن أخرى منذ القرن السادس عشر فصاعداً ، كلها موضوعات تستحق الاهتمام . ففى جميع أرجاء الشرق اللاتينى حكم أناس من أصول غربية جمهرة من السكان المختلطين غالبهم يتحدثون اليونانية ويدينون بالمذهب الأرثوذكسى للكنيسة

اليونانية.كما أن الكيفية التى صارت إليها الطبقة المحكومة على أيدى الأقلية السائدة تشكل موضوعًا آخر يستحق الاهتمام الشديد. ولكن قبل إلقاء الضوء على قليل من هذه الموضوعات ، ينبغى رسم صورة سريعة للتاريخ السياسى لهذه المناطق المتباعدة ، ولو لمجرد تقديم إطار تتابعى تاريخى يمكن أن نتأملها داخله.

- مملكة قبرص

فى وقت سقوط عكا كان ملوك أسرة لوزينيان يحكمون قبرص منذ قرن من الزمان. وكان الكثير من المستوطنين الفرنج الأصليين ، مثل أعضاء البيت الملكى ذاته، أناسًا قد جردهم صلاح الدين الأيوبى من ممتلكاتهم بعد فتوحاته سنة ١١٨٧-١١٨٨م، كما كان وصول المزيد من اللاجئين من المناطق اللاتينية ببلاد الشام فى أثناء القرن الثالث عشر قد أثر فى تعزيز وضع السكان اللاتين بالجزيرة . ومنذ سنة ١٢٦٩م، كان ملوك قبرص قد حملوا أيضًا لقب ملك بيت المقدس، حتى على الرغم من أن حقهم فى حمله قد واجه اعتراضات من ملوك آل أنجو فى صقلية. وعلى أية حال، فى سنة ١٢٩١م كان ملك قبرص آنذاك هنرى الثانى (١٢٨٦-١٣٢٤م) الذى كان يحكم عكا والذى كان قد بذل جهدًا قليلاً مما فى وسعه للصمود أمام الهجوم المملوكى.

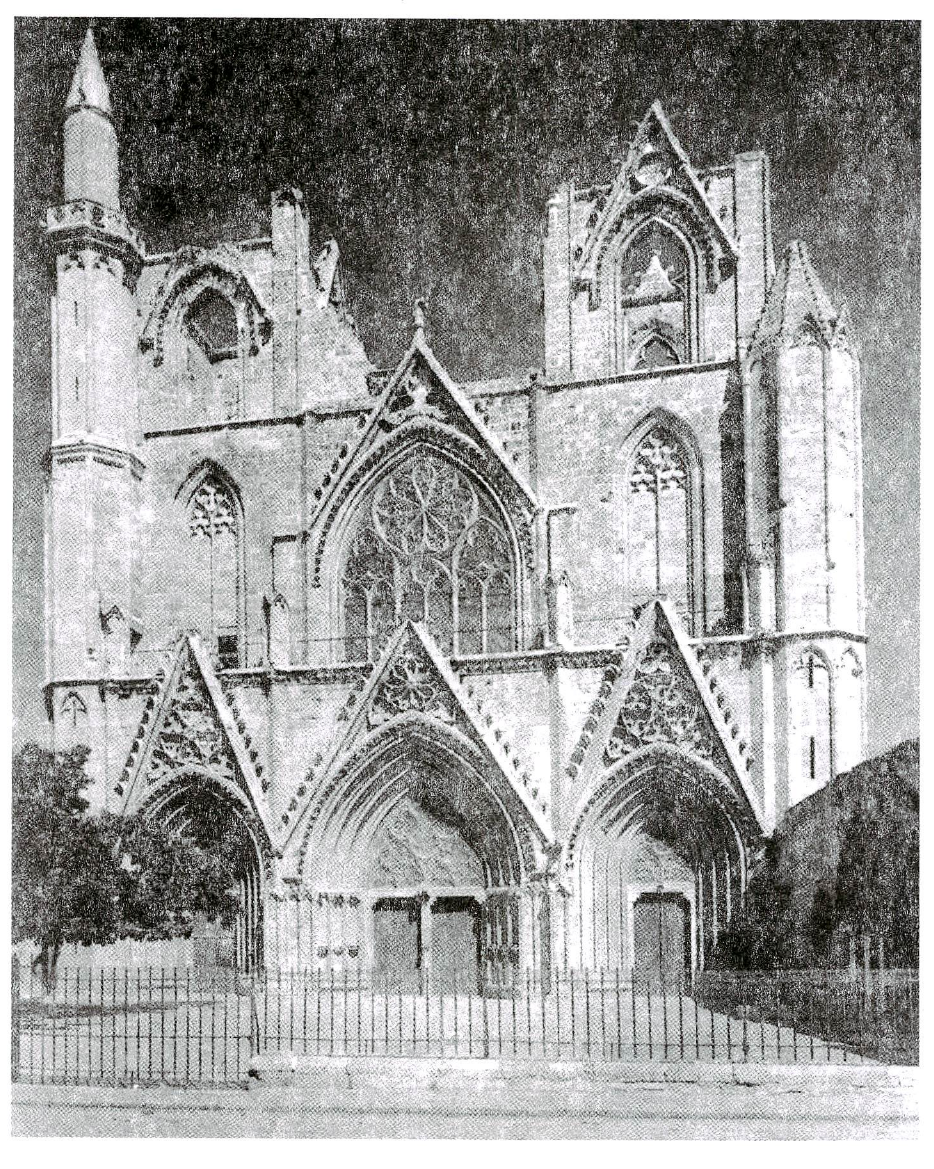
ولم تغب عن ناظرى هنرى قط فكرة أنه ربما يستعيد مملكة بيت المقدس يومًا ما . وقام ببعض المحاولات الجادة ، وإن لم تكن فعالة ، لكى يتعاون مع غازان، إيلخان المغول فى فارس، أثناء قيام الأخير بغزواته على بلاد الشام سنة ١٢٩٩-١٣٠١م؛ كما حاول دونما تأثير مرة أخرى ، أن يعزز الحصار المفروض على السفن الغربية التى تتاجر فى الموانئ المملوكية على أمل إضعاف سلطنة المماليك اقتصاديًا مما يجعل إعادة الغزو المسيحى أمرًا ممكنًا ، وفى مناسبتين على الأقل أرسل مذكرة إلى البابا حول الكيفية التى يجب بها توجيه حملة صليبية لاستعادة الأرض المقدسة . بيد أنه لم تكن هناك حملة صليبية لإعادة الحكم المسيحى إلى بيت المقدس، وحتى لو كانت هناك حملة صليبية ، فإن هنرى نفسه لم يكن فى موقف يسمح له بالإفادة منها . وأية حملة كبرى إلى الشرق فى بداية القرن الرابع عشر كان لابد أن تكون تحت قيادة

الفرنسيين، فإذا ما كانت ناجحة ، لكان من المؤكد تقريبًا أن تؤسس حكمًا فرنسيًا أو آنچويًا فى الأرض المقدسة . وكان هنرى فى السنوات العشر الأخيرة من حياته يبنى روابط بين أسرته الحاكمة والبيت الملكى فى آراجون ، المنافس الرئيسى للآنچويين فى البحر المتوسط ، ولكن دونما طائل . وعلى أية حال فإنه كان قد أظهر عدم كفاءته حاكمًا . وثمة انقلاب بارونى، قاده أماليك سيد صور ، فى سنة ١٣٠٦م نتج عنه منعه من ممارسة السلطة ، وفى سنة ١٣١٠م تم إرساله منفيًا إلى أرمينيا القليقية وعند موت أماليك فى وقت لاحق من تلك السنة، عاد هنرى إلى ممارسة الحكم ، ولكن التراث الذى خلفته الحقبة كان يجدد العداوة ضد الجنوية والعلاقات المتجمدة مع الأرمن . وبعبارة أخرى صار الملك مكبلاً بالمنازعات مع أقوى الجمهوريات التجارية الإيطالية فى الشرق، ومع المملكة المسيحية الوحيدة فى جوار مملكته.



جهز ياكومو فرانكو Iacomo Franco خريطته قبرص فى أثناء السنوات الأخيرة من الحكم البندقى ونشرها فى سنة ١٥٧٠م. وفيما بعد أنتج الكثير من رسامى الخرائط نسخهم الخاصة المأخوذة عنها، وبقيت أكثر خريطة تفصيلية للجزيرة حتى القرن التاسع عشر.

وكان حكم ابن أخى هنرى وخليفته، هيو الرابع Hugh IV (١٣٢٤-١٣٥٩م) قد شهد تغيراً رئيسيًا فى التوجه السياسى. فبدلاً من أن يشغل هيو نفسه بسلطنة المماليك واستعادة الأرض المقدسة حوَّل اهتمامه نحو المشكلات التى فرضها الوجود التركى المتنامى فى البحر بين قبرص والغرب. ومنذ بواكير ثلاثينيات القرن الرابع عشر حتى نهاية حكمه كان مرتبطًا بفرسان الاسبتارية أى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، والبنادقة والبابوية فى محاولة لتقليص القرصنة التركية فى بحر إيجه، كما أنه استطاع أن يجعل الحكام الأتراك الذين يحكمون كثيراً من مناطق الساحل الجنوبى للأناضول يدفعون له الجزية. وفى الوقت ذاته يبدو أنه كان قد توقف عن محاولة تعزيز الحظر على التجارة مع المماليك وأنه سعى لبناء علاقات أفضل مع الجنوية. لقد كانت سياسته حساسة بشكل واضح. ومنذ نهاية القرن الثالث عشر كانت قبرص تنعم بازدهار تجارى كبير، وكان ذلك راجعًا إلى حد كبير إلى موقعها عبر أحد أهم الطرق التجارية الرئيسية بين الشرق والغرب. وهكذا كان تأمين خطوط الملاحة إلى أوربا مصلحة ذاتية ماسة. وإذا كان القراصنة الأتراك العاملون من قواعد على الشاطئ الغربى أو الجنوبى لآسيا الصغرى يستطيعون التدخل بحرية فى التجارة العالمية ، فإن الثروة التى جلبتها هذه التجارة على قبرص وحكامها سوف تتلاشى وستكون الجزيرة أقل قدرة على دفع أى غزو إسلامى فى المستقبل.



كاتدرائية سانت نيكولاس بفاماجوستا Famagusta يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، قمة ازدهار المدينة. منذ الغزو العثمانى سنة ١٥٧١ كانت تستخدم مسجداً .

من المعتاد النظر إلى حكم هنرى الثانى وهيو الرابع باعتبارهما قمة ازدهار مملكة لوزينيان. وقد علق زوار الجزيرة على الثروة والازدهار اللذين وجدوهما . وقد وصف وكيل الأعمال الفلورنسى، فرانشيسكو بالدوشى بيجالوتى Francesco Balducci Pegalotti الذى كانت قاعدته فى قبرص فى السنوات الباكرة لحكم هيو الرابع، التنويعة الضخمة للتجارة التى كان يتم تداولها هناك. وتشهد العملة الجيدة على وفرة تدفق الفضة إلى الجزيرة. كما أن الآثار الباقية، ولاسيما دير البريمومونسترات فى بيلابيس Bellapais والكنائس العديدة التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر فى فاماجوستا والتى تتمتع كتدرائية سانت نيكولاس اللاتينية السابقة بأكبر قدر من الشهرة بينها ، تمثل دليلاً إضافيًا على الاقتصاد المزدهر. وفى الوقت الذى سلم فيه هيو الرابع المسن السلطة إلى أكبر أبنائه المسمى، بطرس الأول ، كان هذا الازدهار فى طريقه إلى التدهور بالفعل . وكان الوباء الأسود(*) Black Death الذى حدث سنة ١٣٤٧-١٣٤٨م قد ضرب الجزيرة بشدة . ونتيجة للخسارة فى السكان كان لابد من هبوط الإنتاج الزراعى والصناعى ، ولأن الطلب العالمى على التجارة قد تقلص- فقد قلَّ عدد المنتجين وعدد المستهلكين- كان لابد للثروة التى حازتها المدينة من خلال التجارة أن تنخفض بالتالى. ولكن بينما أثر هذا الانكماش الاقتصادى على أرجاء عالم البحر المتوسط كافة ، كان موقف قبرص قد تفاقم بسبب حقيقة أن تغير طرق التجارة كان يعنى أن نسبة أصغر من التجارة بين آسيا وأوربا الغربية تمرُّ عبر الجزيرة.

مرة أخرى يجب النظر إلى الحوادث الدرامية التى جرت فى عهد بطرس الأول (١٣٥٩-١٣٦٩م) فى ضوء هذه الخلفية. فقد بدأ بطرس بالاستيلاء على ميناء كوريكوس Korykos من سكانه الأرمن، ثم فى سنة ١٣٦١م ، استولى على المركز التجارى المهم فى أنطالية من الأتراك. وكما اتضح فى الفصل الحادى عشر ، سافر

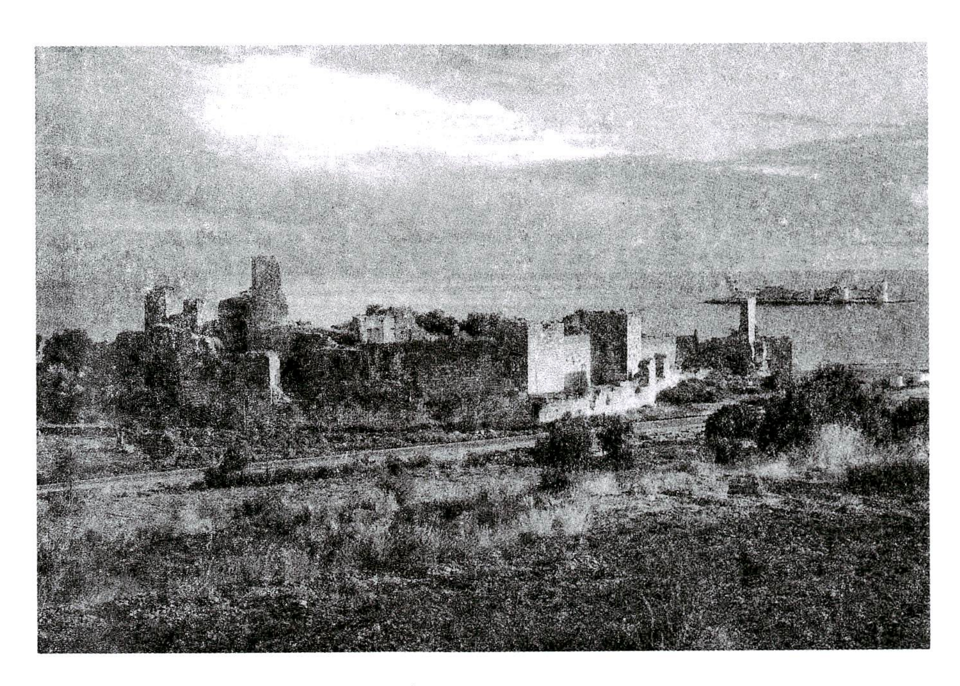
(*) طاعون وبائى انتشر على امتداد طرق التجارة وقوافلها من الشرق الأقصى مرورًا بالمنطقة العربية ، حتى وصل أوربا، وقد ضرب مصر فى هذين العامين (٧٤٧- ٧٤٨هـ) فى أثناء حكم السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاون. (المترجم)

فى سنة ١٣٦٢م إلى الغرب حيث قام بجولة فى أوربا، ليجند الرجال من أجل الحملة الصليبية. وغادر هو وجيشه البندقية فى سنة ١٣٦٥م ، وإذ تواعد مع القوات القبرصية فى رودس ، نزل على مدينة الإسكندرية المصرية. وأخذت الحامية على غرة، وتم الاستيلاء على المدينة ونهبها، ثم انسحب الجيش الصليبى عندما علم باقتراب جيش مملوكى رئيسى من القاهرة . وقد أعقب هذا الهجوم فى السنوات القليلة التالية سلسلة من الغارات الأقل شأنا على ساحل بلاد الشام . وقد انغمس المؤرخون فى الجدل حول ما كان بطرس يقوم به . وكان لابد أن تشير الكتابات الصليبية آنذاك إلى أنه كان يؤمن بأنه يستطيع استعادة بيت المقدس والأماكن المقدسة إلى العالم المسيحى ؛ وما نعرفه عن مفاوضات الصلح يشى بأنه كان يتطلع إلى الحصول على امتيازات لصالح التجار القبارصة . لقد كان القصد الأصلى من الحملة الصليبية أن يكون قائدها ملك فرنسا الذى كان بوصفه وريثًا للملك لويس التاسع ، هو الذى يتوقع الناس منه أن يمدَّ بصره إلى بيت المقدس . ولكن المجرى الفعلى للأحداث - تدمير ميناء منافس لفاماجوستا ثم طلب الامتيازات التجارية لرعاياه فى سلطنة المماليك - يشى بأن بطرس ربما كان أكثر اهتمامًا بإحياء التجارة المزدهرة التى كانت تتمتع بها مملكته .





العملة الفضية للملك بطرس الأول لوزينيان ملك قبرص (١٣٥٩-١٣٦٩م) تظهر الملك يمسك سيفًا مسلولاً ورمز السلطة «كرة يعلوها صليب» . وعلى الظهر صليب بيت المقدس. كانت العملة قد طرحت فى السنوات الختامية من القرن الثالث عشر واستمر سكها حتى زمن كاترينا كورنارو Catrtina Cornaro .



القلاع فى كوريكوس كانت على مدى زمن طويل جزءًا من مملكة أرمينيا القليقية . وفى سنة ١٣٦٠م تم تسليمها إلى القبارصة الذين احتفظوا بالسيطرة عليها حتى سنة ١٤٤٨م عندما استولى عليها الأتراك القرمانلية Karamania .



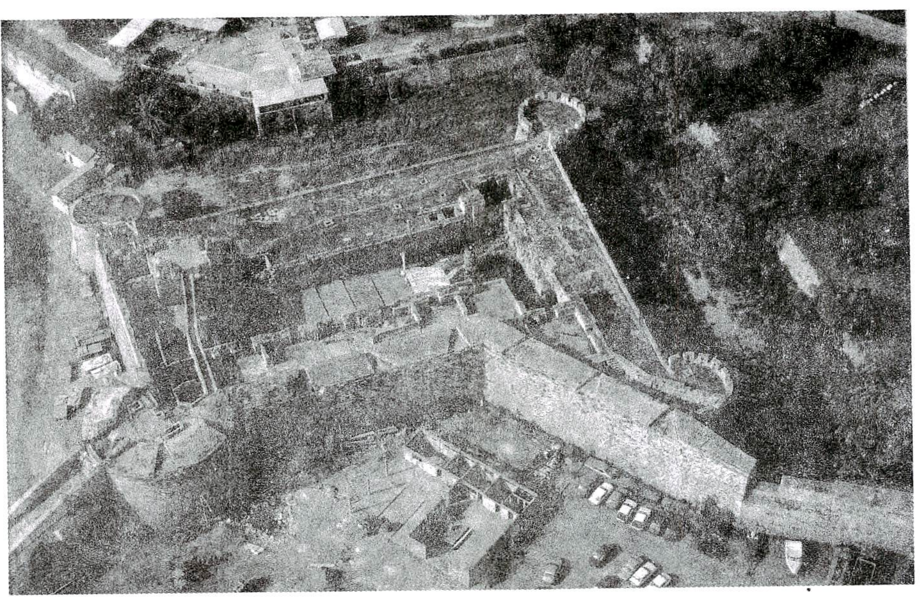
استيلاء الملك بطرس الأول ملك قبرص على أنطاكيا على الشاطئ الجنوبى فى تركيا الحالية فى ٢٣ أغسطس ١٣٦١م مسجل فى هذا النقش المحفوظ بالمتحف المحلى.

وأيًا كانت الحقيقة ، فمن الواضح أن قبرص لم تجن أية فائدة من مشروع بطرس . فقد تم عقد الصلح مع المماليك سنة ١٣٧٠م، ولكن عند ذلك الحين كان الملك قد مات ، عندما اغتالته مجموعة من أتباعه الإقطاعيين . فقد كان قد انتهك المصالح التجارية الإيطالية بهجومه على مصر . وفى سنة ١٣٧٢م ، وفى أعقاب شغب نشب أثناء تتويج الملك الجديد ، بطرس الثانى (١٣٦٩-١٣٨٢م) اشتبكت قبرص وجنوه فى حرب. وفى السنة التالية ، ١٣٧٣م ، استولى الجنوية على فاماجوستا ، وكان غزوهم المدمر كاسحًا ولم يوقفه سوى دفاع بطولى من قلعة كيرينيا Kyrenia. هذه الحرب كانت علامة نهاية ازدهار قبرص التجارى. وقد تفاقم تدهور فاماجوستا بتدمير رأس المال العامل للتجار المحليين، وبحلول تسعينيات القرن الرابع عشر كان الميناء قد تحول إلى مدينة أشباح . وظل تحت السيطرة الجنوية حتى سنة ١٤٦٤م . أما بالنسبة لأسرة لوزينيان ، فقد وجدوا أنفسهم آنذاك يراوحون بين سياسة تحاول استعادة فاماجوستا بالقوة ودفع الإتاوة التى كان الجنوية قد فرضوها . وإذ تزايد فقر آل لوزينيان وعزلتهم بشكل مطرد ، فإنهم لم يعد بوسعهم أن يشاركوا فى الأنشطة ضد الأتراك فى بحر إيجه أو اتخاذ إجراءات أخرى إيجابية لتعزيز مركزهم . وبدلاً من ذلك فإنهم سمحوا باستخدام قبرص قاعدة للقراصنة ، الذين كان كثير منهم من كتالونيا. ونتيجة لهذا قام سلطان المماليك(*) بالرد، وشن سلسلة من الهجمات على الجزيرة خلال منتصف عشرينيات القرن الخامس عشر . وفى سنة ١٤٢٦م تم سحق القوات القبرصية بخيروكيتيا Khirokitia وتم أسر الملك جانوس (١٣٩٨-١٤٣٢م) ، كما رأينا . ومنذ ذلك الحين كان على قبرص أن تدفع الإتاوة لمصر ، وعندما سقطت مصر بأيدى العثمانيين سنة ١٥١٧م تعين دفع الإتاوة إلى القسطنطينية بدلاً من مصر.

قبل سبعينيات القرن الخامس عشر لم تكن حكومة البندقية قد أبدت أى اهتمام خاص بقبرص . ولكن بعد أن استولى الأتراك على نجروبونت سنة ١٤٧٠م

(*) هو السلطان الأشرف برسباى الذى كان من أبرز السلاطين الجراكسة (المترجم)

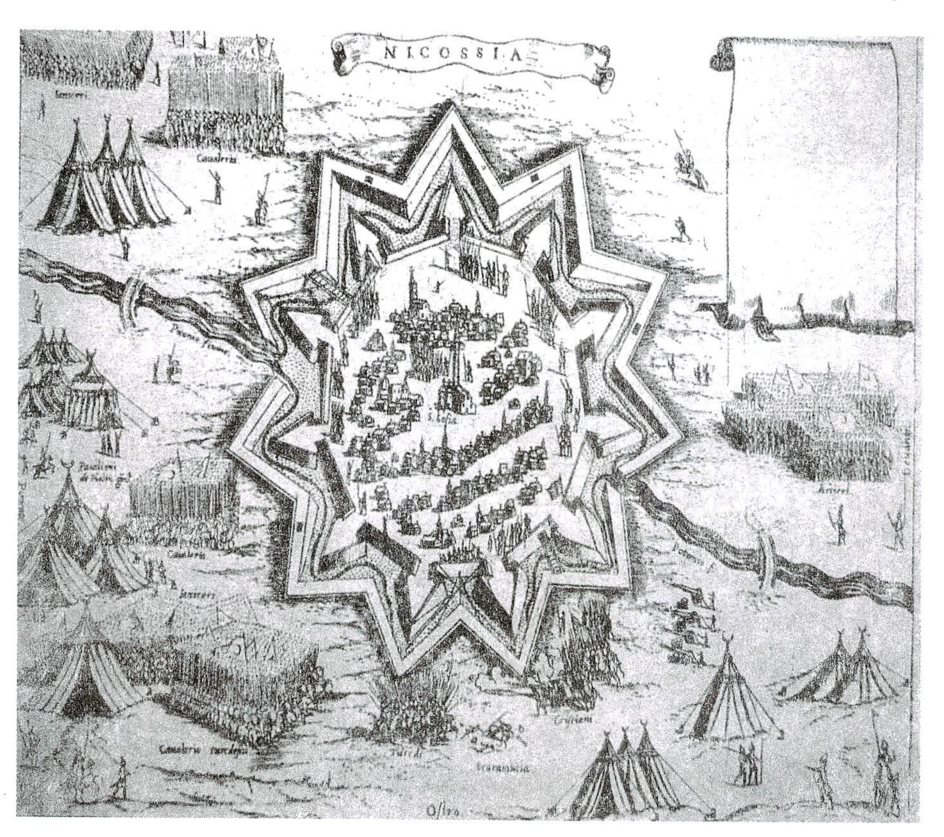
وفــى غمـــار محاولاتهــم للتعـاون مــع القــائد التركمـــانى أوزون حســن فى نضالهــم ضــد العثمانيين، توصل البنادقة إلى تقدير قيـمة جزيرة قـبرص الاقتصــادية والاستراتيجية المحتملة . وقد اسـتمر حكمهــم منذ سنــة ١٤٧٤م حتــى الغــزو العثمانى ســنة ١٥٧٠- ١٥٧١م. وزاد عدد الســكان بمعـدل ثـابت



قلعة فاماجوستا تُسيطر على مدخل الميناء. وقد بُنى قلب القلعة فى بواكير القرن الرابع عشر، ولكن الجزء الخارجى أعيد تصميمه على نطاق واسع على أيدى البنادقة فى القرن السادس عشر ليساعد القلعة على الصمود أمام القصف بالمدافع .

صك غفران طبعته جوتنبرج سنة ١٤٥٥م لصالح المشاركين فى إعادة تحصين نيقوسيا، وكان هذا الصك إحدى أولى الوثائق التى تمت طباعتها بنموذج متحرك.

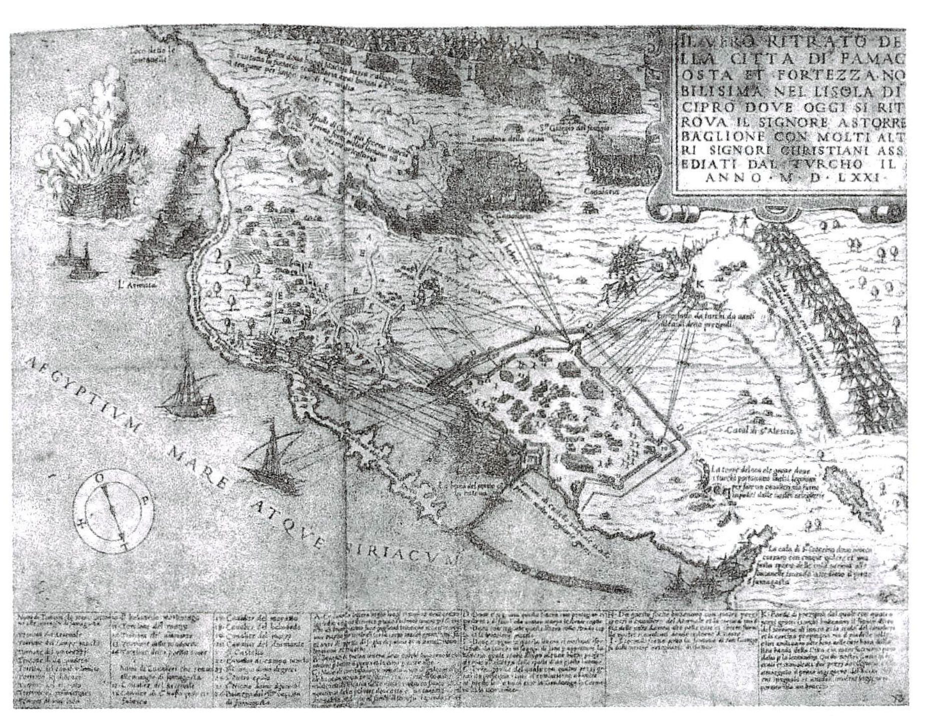
ويبدو أن الاقتصاد قد تم إحياؤه . وقد أعقب غزو العثمانيين بلاد الشام وفلسطين ومصر سنة ١٥١٦-١٥١٧م الاستيلاء على رودس سنة ١٥٢٢م مما ترك قبرص فى وضع مكشوف تمامًا . وأعاد البنادقة تحصين القلعة فى كيرينا وأعادوا بناء أسوار فاماجوستا بحيث تصمد أمام قذائف المدفعية . وفى نيقوسيا، العاصمة ، قرروا أنه يجب اتخاذ المزيد من التدابير الصارمة



حصار نيقوسيا فى سنة ١٥٧٠م من حفر معاصر على يد چيوڤانى فرنشيسكو كاموشيو Giovanni Francesco Camocio يُظهر التحصينات التى قام بها البنادقة فى القرن السادس عشر- سور يكاد يكون دائريًا بإحدى عشرة شرفة فى زوايا تفصل بين كل منها والأخرى مسافات منتظمة.

ذلك أن الأسوار التى كانت قد بنيت هناك منذ العصور الوسطى لم تكن لتقدر أبدًا على توفير الحماية الكافية. وكان البابا فى خمسينيات القرن الخامس عشر قد حجز الأموال المتحصلة من بيع صكوك الغفران جانبًا لإعادة تحصين المدينة، كما أن نسخًا من صكوك الغفران التى طبعت فى جوتنبرج فى ذلك الحين تُعتبر من بين الأمثلة الأولى على استخدام الطباعة بالنظام المتحرك . وبحلول ستينيات القرن السادس عشر، على أية حال، ساد الظن بأنه من الضرورى هدم الدائرة كلها وإعادة تخطيط التحصينات من البداية ، مع استخدام أكثر التصميمات العسكرية حداثة . ولتحقيق هذا البرنامج كان من الضرورى هدم عدد كبير من المبانى بما فى ذلك كنيسة الدومينيكان التى كان مدفونًا بها عدد كبيرمن ملوك آل لوزينيان.

وفى مجرى الأحداث لم يكتمل البناء تمامًا عندما شن العثمانيون هجومهم وقاموا بغزوهم. وسقطت نيقوسيا فى سبتمبر ١٥٧٠م بعد ستة أسابيع من القتال . واستسلمت كيرينيا دونما مقاومة ولكن فى فاماجوستا تحملت الحامية البندقية حصارًا استمر من سبتمبر ١٥٧٠م حتى أغسطس فى السنة التالية ولم تستسلم سوى عندما نفدت إمدادات الطعام والبارود.



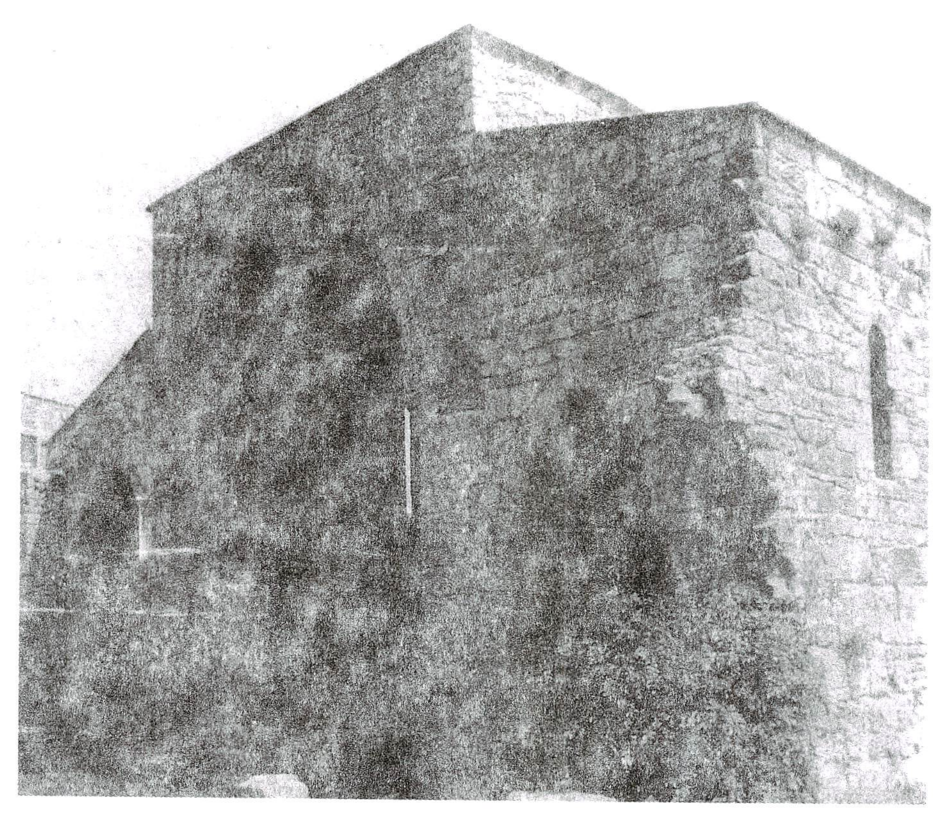
حصار فاماجوستا سنة ١٥٧٠-١٥٧١م استمر على مدى عشرة أشهر ونصف شهر وكان هو القصة الرئيسية فى الغزو العثمانى لقبرص على مدى عشرة أشهر ونصف شهر . والنقش المعاصر يعطى انطباعًا دقيقًا بشكل عام عن طبوغرافية التحصينات فى ذلك الوقت.

رودس وفرسان القديس يوحنا الاسبتارية:

أجبر ضياع بلاد الشام من أيدى المحتلين اللاتين تنظيم الاسبتارية على أن يبحثوا لأنفسهم عن دور جديد. وفى البداية وطنوا أنفسهم فى قبرص، ولكن ما إن بات واضحًا أنه لا عودة إلى الأرض المقدسة حولوا انتباههم إلى مكان آخر وفى سنة ١٣٠٦م عملوا على غزو جزيرة رودس التى كانت تحت الحكم البيزنطى. ويبدو أن الأمر استغرق الفترة حتى سنة ١٣٠٩م قبل أن تقع الجزيرة تماما فى أيديهم، ولكن منذ ذلك الحين حتى سنة ١٥٢٢م استخدموها مقرًا لقيادة الأركان لديهم (انظر الفصل الثالث عشر) وقاعدة حاولوا منها وقف التوغل والتوسع الإسلامى كما أنهم احتلوا عددًا من الجزر الصغيرة المجاورة ، وعلى الرغم من أنهم انشغلوا فى حراسة المسارات الملاحية، فإنهم تلقوا نقدًا دائمًا لأنهم لم يستفيدوا بالقدر الكافى من دخل ضياعهم الشاسعة فى الغرب. وكما سنرى ، فإنهم شاركوا فى سنة ١٣٤٤م فى هجوم ناجح على سميرنا Smyrna . وكان عليهم آنذاك أن يحملوا معظم أعباء الدفاع عنها حتى استولى عليها تيمورلنك ودمرها سنة ١٤٠٢م. وقرب نهاية القرن الرابع عشر كان الاسبتارية متورطين أيضًا فى جهود الدفاع عن جنوب بلاد اليونان التى كانت آنذاك واقعة تحت الهجوم التركى ، بيد أنهم كانوا يفتقرون إلى الموارد اللازمة للتدخل بشكل فعّال فى الموقف الفوضوى المتفاقم هناك. وقد ترك انتصار تيمورلنك على العثمانيين فى أنقرة سنة ١٤٠٢م أثره من حيث تخفيف الضغط العثمانى على اليونان ، وفى غضون عدة سنوات قليلة انتهز الاسبتارية، الذين كانوا على خلاف مع الحكام المسيحيين الآخرين فى الإقليم، الفرصة للانسحاب. وإذ تجنب الاسبتارية الحاجة إلى إنفاق مواردهم على سميرنا واليونان ، فإنهم ركزوا جهودهم فى ذلك الحين لحماية رودس ذاتها ، وقلعة بودروم Bodrum القريبة فى الداخل والجزر المحيطة.

وفى القرن الخامس عشر صارت رودس مشهورة بأنها قاعدة للقراصنة ، وفى سنة ١٤٤٠م، ومرة أخرى فى سنة ١٤٤٤م رد السلطان المملوكى بإرسال أسطوله

لمهاجمة ممتلكات الاسبتارية. وعلى أية حال ، فعلى عكس القبارصة الذين كانوا قد عانوا بشدة فى ظروف مماثلة فى عشرينيات القرن الخامس عشر ، كان فرسان القديس يوحنا مستعدين تمامًا ولم يجدوا صعوبة فى التصدى لتلك الهجمات . وثمة خطر أشد وأقرب تمثل فى العثمانيين . وفى ١٤٥٣م كان الأتراك قد فتحوا القسطنطينية ؛ وبحلول سنة ١٤٦٠م كانوا قد اجتاحوا كل جنوب اليونان تقريبا؛ وفى سنة ١٤٦٢م احتلوا لسبوس **Lesbos** ثم احتلوا نجروبونت فى



كنيسة الدومينيكان فى أندرافيدا Andravidha ، فى شمال غرب المورة (البلوبونيز)، كان مقراً مفضلاً لإقامة أمراء آخايا Achaea الذين كان بلاطهم فى القرن الثالث عشر مشهوراً بفخامته وفروسيته.

سنة ١٤٧٠م. وأغلقت رودس بالفعل الطريق أمام أي توسع بحرى باتجاه الجنوب أو الشرق. وفى سبعينيات القرن الخامس عشر كانت هناك هجمات تركية متكررة على ممتلكات الاسبتارية . وفى سنة ١٤٨٠م شن العثمانيون هجومًا كبيرًا فى محاولة لغزو الجزيرة وطرد الاسبتارية منها إلى الأبد . واستمر حصار مدينة رودس ما يقرب من ثلاثة أشهر وفى النهاية كان لابد من رفع الحصار. وعلى الرغم من أن المدافعين نجحوا فى التصدى للغزو فإن ذلك أضعفهم كثيرا ، وكانت نجاتهم بفضل فترة لالتقاط الأنفاس وفرها موت السلطان محمد الثانى فى السنة التالية وما أعقب ذلك من منازعات على العرش . وفى أثناء هذه الفترة تمكنت القوى الغربية من استغلال التهديد بإطلاق سراح أسير من المطالبين بالعرش لمنع السلطان الجديد ، بايزيد الثانى، من مهاجمة الأراضى الأوربية. ولم يحدث حتى سنة ١٥٢٢م أن قام العثمانيون مرة أخرى بغزو شامل . وفى هذه المناسبة كان السلطان سليمان الكبير يقود قواته بنفسه . وكما حدث سنة ١٤٨٠م ضيق العثمانيون الخناق على مدينة رودس ، بيد أنها استسلمت هذه المرة بعد حصار دام ستة أشهر.

إمارة أخايا

بنهاية القرن الثالث عشر كانت إمارة أخايا الفرنجية قد انقضى ربيعها. إذ كانت الهزيمة على أيدى البيزنطيين فى بلاجونيا Pelagonia سنة ١٢٥٩م قد أدت مباشرة إلى الاحتلال البيزنطى للجزء الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة المورة وإلى توقع المزيد من الخسائر . وكان الأمير وليم الثانى فى غمرة احتياجه إلى من يحميه قد تحول إلى ملك صقلية من الآنجوى ، الملك شارل الأول، وقبل سيادته عليه فى سنة ١٢٦٧م. أما شارل الذى كانت تراوده الآمال فى أن يحل محل البيزنطيين وإعادة تأسيس الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية، فكان حليفًا طبيعيًا . ولكن بعد تمرد

سنة ١٢٨٢م الذى عرف باسم صلوات المساء الصقلية(*)، لم يعد بوسع خلفائه تقديم المساعدة العسكرية والمالية التى كانت ضرورية . وعلى أية حال، فإنهم كانوا قادرين على استغلال وضعهم باعتبارهم السادة الكبار للتدخل فى الشئون الداخلية للإمارة ، كما أن انتهاء خط الذكور فى أسرة ڤيلهاردوان Villehardouin الحاكمة سنة ١٢٧٨م منحهم فرصة سانحة لمزيد من التدخل. وفيما بين سنة ١٢٨٩م وسنة ١٢٩٧م كانت الإمارة تحت حكم ابنة وليم الثانى، إيزابيلا ، وزوجها فلورنت الهينولتى Florent of Hainault ، ولكن بعد موت فلورنت سعى ملوك آل أنجو فى نابولى بحثًا عن الطرق التى يضعون بواسطتها محل إيزابيلا وابنتها ماهو Mahaut واحداً من أسرتهم . هذا القصد لم يتحقق سوى لوقت قصير عندما قادتهم طموحات أخرى سنة ١٣١٣م إلى ترتيب الزواج بين ماهو ولويس الأخ الأصغر لدوق بورجندى . وعند هذا حدث أن تعرضت السيادة الأنجوية للتحدى من أحد المطالبين بالعرش من أراجون ، وهو فيراند Ferrand ، الابن الأصغر للملك چيمس الأول ملك ماللوركا Mallorca . ومع وجود الشركة الأراجونية القطلانية التى كانت تحكم بالفعل دوقية أثينا المجاورة كان الاحتمال قائما بأن يسيطر الأراجونيون على كافة مناطق اليونان التى احتلها اللاتين . بيد أن هذا لم يكن يحدث ، إذ إن حربًا بين الأحزاب المتعارضة انتهت فى يوليو سنة ١٣١٦م بمعركة مريرة فى مانولادا Manolada قتل فيها فيراند. ثم مات لويس دوق نورماندى بعد ذلك بوقت قصير . وفى سلسلة من الأفعال الاستبدادية قام الملك روبرت ملك نابولى آنذاك بطرد الأرملة ماهو وفى سنة ١٣٢٢م، تم تنصيب أخيه يوحنا الجراڤينى John of Gravina أميرًا وماتت ماهو سجينة فى نابولى عام ١٣٣١م.

(*) صلوات المساء الصقلية Sicilian Vespers ثورة مضادة لآل أنجو الفرنسيين فى صقلية ؛ وقد عرفت بهذا الاسم لأنها اندلعت فى يوم عيد الفصح (الاثنين) سنة ١٢٨٢م فبمجرد أن دقت أجراس الكنائس تعلن عن بدء صلوات المساء اندفعت الجماهير الغاضبة فى صقلية لقتل الفرنج ، وبشروق شمس اليوم التالى كان من لم يهرب منهم قد لقى حتفه؛ ثم انتشرت حركة التمرد فى سائر أنحاء الجزيرة . وقد انتهى التمرد بسقوط حكم آل أنجو الفرنسيين فى جزيرة صقلية ، وتم إعلان بطرس الثانى ملك أراجون ملكًا على صقلية شريطة أن يحكمها وفق قوانينها الخاصة ، وأن تكون مملكة مستقلة غير تابعة لأراجون . (المترجم)

وعلى أية حال ، فإن حكم آل آنجو المباشر فشل فى علاج المشكلات التى كانت تواجه الإمارة وحوالى سنة ١٣٢٠م كان البيزنطيون قد حققوا مكاسب أساسية فى وسط المورة مما نتج عنه أن الإمارة منذ ذلك الحين فصاعداً كانت محصورة إلى حد كبير داخل المنطقة الساحلية فى الشمال والغرب. وفى سنة ١٣٢٥-١٣٢٦م قاد يوحنا الجراڤينى حملة كبيرة ولكنها فشلت فى استعادة الأرضية المفقودة . وحينئذ عاد إلى إيطاليا ، حيث لم يرجع منها أبداً . وبدلاً من العودة مارس مهام الحكم عن طريق سلسلة من المساعدين ، وهذا النموذج من الحكم الغائب استمر بعد سنة ١٣٣٢م عندما سلم حقوقه فى آخايا إلى ابن أخيه الشاب روبرت التارانتوى Robert of Taranto ، فى سياق عملية دمج عائلى . ومنذ سنة ١٢٩٧م لم يكن هناك أمير مقيم كانت له سيطرة فعالة ، ومن ثم فليس هناك مبرر للدهشة فى أن الإقطاعيين الباقين كانوا ميالين إلى اتباع سياساتهم الخاصة دونما اعتبار لمطالب سيدهم حاكم الإمارة. وفى سنة ١٣٣٨م أحضرت كاترين ڤالوا Catherine of Valois ، التى كانت أم روبرت كما كانت حاملة لقب إمبراطورة القسطنطينية ، قوة ضخمة من الرجال المسلَّحين من إيطاليا فى محاولة لإعادة تأكيد السلطة الأميرية. وانسحبت سنة ١٣٤١م تاركة البارونات على حالهم من العناد وعدم الامتثال كما كانوا دائمًا . ولما كان البارونات ساخطين من تغير سياسة «دعهم يعملون» "Faissez- faire" ومن سياسة التدخل التى انتهجتها أسرة أنجو تجاههم ، فإنهم قد تحولوا بدورهم فى أربعينيات القرن الرابع عشر إلى سمسار القوة البيزنطية يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus وملك ماللوركا Mallorca باعتبارهما البديلين لسيادة حكام نابولى. وكان ما يريدونه هو شخصًا يدافع عن ممتلكاتهم ويضمنها ولايتدخل فى شئونهم . وكان ذلك أكثر مما ينبغى طلبه، وعلى أية حال فإن كلاً من الحاكمين لم يكن فى حال تسمح له بالقيام بالدور الذى تصوروه.

وتحت حماية كاترين ڤالوا فى ثلاثينيات القرن الرابع عشر بدأ مستشارها الفلورنسى وممولها ، نيكولو أكشيايولى Niccolo Acciaiuoli ، يحوز الضياع ويبرز فى الصدارة فى الإمارة. وفى سنة ١٣٣٨م منحه الحاكم الغائب المجرد من الفعالية، الأمير

روبرت التارنتوى السيادة على كورنثة بما تحمله من قيمة ومكانة استراتيجية . وفى ذلك الحين كانت الإغارات التركية قد باتت مشكلة كبرى، وكان من الواضح أن آل أنچو عاجزون عن فعل أى شئ فى مواجهتهم. والواقع أنه بعد موت روبرت سنة ١٣٦٤م ، اشتبكت الأسرة فى سلسلة من المنازعات حول من يستحق الإمارة على حين كانوا فى الوقت نفسه يتخلون عن أخايا بحيث تركوها لقدرها . وفى سنة ١٣٧٧م قامت الملكة چوانا ملكة نابولى Joanna بترك الإمارة لفرسان القديس يوحنا الاسبتارية. وكانوا هم الذين استقدموا قوة جاسكون والمرتزقة الناڤاريين إلى أخايا والمعروفين باسم الشركة الناڤارية Navarrese Company . وفى أواخر سبعينيات القرن الرابع عشر كان ابن أخى نيكولو أكشيايولى ، نيريو Nerio، قد صار سيد كورنثة وكان قد حاز ڤوستيتا على خليج كورنثة وميجارا من الحكم الكتلانى المتداعى فى أثينا وبذلك قُيِّض له أن يسود الإقليم بأسره . وفى سنة ١٣٧٩م وفى ظل تستر نيريو غزا جزء من الشركة الناڤارية دوقية أثينا واستولوا على طيبة Thebes ، المدينة الرئيسية ، تاركين الكتلان صامدين فى أثينا ذاتها . وظل بقية الشركة فى أخايا حيث فرض قادتهم السيطرة على المدن والقلاع فى الأملاك الأميرية. واستمروا فى ممارسة السلطة على أساس الأمر الواقع de facto حتى سنة ١٣٨١م عندما سلم الاسبتارية بشكل رسمى الإمارة مرة أخرى إلى الملكة چوانا Joanna . وفى أوائل ثمانينيات القرن الرابع عشر انتهت سلسلة الأزمات السياسية فى جنوب إيطاليا والتى أدت إلى الإطاحة بچوانا والقضاء على سيادة آل أنچو قضاءً مبرمًا . وفى سنة ١٣٩٦م منح الملك لاديسلاس Ladislas ملك نابولى لقب أمير آخايا إلى قائد الناڤاريين بطرس السان سوبرانى Peter of San Superan.

وقد أجبر التهديد العثمانى المتصاعد القوى المسيحية المختلفة فى شبه جزيرة المورة على اتخاذ تدابير للتوافق سويًا. فقد تحول الناڤاريون إلى البنادقة الذين كان أسطولهم وسيطرتهم على كورون ومودون ، وكريت ، وتجروبونت ، تكشف عن أنهم

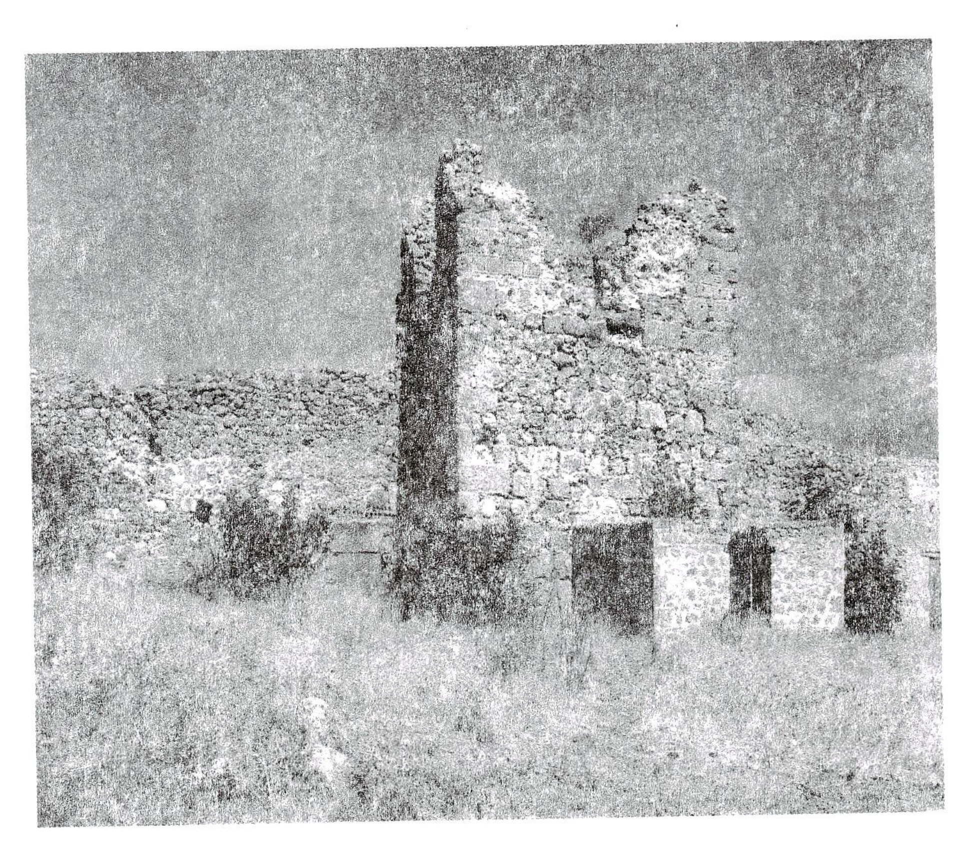
كانوا أكبر قوة عسكرية وبحرية في المنطقة . كما اتجه نيريو أكشيايولي إلى ثيودور باليولوجوس Theodore Palaeologus الطاغية البيزنطي الحاكم في موريا Morea ، الذي أعطاه سنة ١٣٨٨م ابنته زوجة له. وفي السنة نفسها نجح في إحراز السيطرة على أثينا. وعلى أية حال ، فقد ثبت عدم إمكانية بناء جبهة مشتركة ضد الأتراك. وقد أدى الاحتلال البيزنطي لأرجوس، وهي مدينة كان البنادقة قد اشتروها لتوهم من أرملة سيدهم الراحل، إلى نزاع مطوّل تفاقم عندما قام النافاريون بالقبض على نيريو أكشيايولي غدراً في أثناء المفاوضات لفض هذا النزاع . ومات نريو في سنة ١٣٩٤م واستولى ثيودور على كورنثة . وفي ذلك الحين كانت القوة العثمانية قد وصلت إلى الشواطئ الشمالية لخليج كورنثة ، وحدثت اختراقات كبرى في المورة في سنوات ١٣٨٧، ١٣٩٤- ١٣٩٥م وفي سنة ١٣٩٧م، أدت إلى نتائج سلبية . وفي سنة ١٣٩٧م رتّب ثيودور للاسبتارية أن يتولوا مسئولية كورنثة ، وبحلول سنة ١٤٠٠م كان مستعداً حتى للتفكير في بيع الحكم كليًا لهم. وقد خففت هزيمة العثمانيين على يدى تيمورلنك من حدة الضغط . ومات بطرس السان سوبراني سنة ١٤٠٢م، وفي سنة ١٤٠٤م قام السنتوريوني زكريا Centurione Zaccaria ، ابن أخي أرملته وأحد أبناء عائلة بارونية عريقة وراسخة ، بإزاحة ورثة بطرس جانبًا وجعل ملك نابولي يعينه أميراً على أخايا . وكان سنتوريوني في غضون ربع القرن التالي هو الذي ترأس ميراث الإمارة . وقد استسلمت لا للأتراك وإنما لرغبة الامتلاك العدوانية من جانب طغاة المورة، وكان آخر فعل يتم القيام به في سنة ١٤٣٠م . وعاشت الإمارة البيزنطية حتى الغزو العثماني سنة ١٤٦٠م.

دوقية أثينا

في أثناء القرن الثالث عشر كانت دوقية أثينا قد ازدهرت تحت حكم أسرة لاروش La Roche البرجندية. فقد كان الدوقات قد تمرسوا في الحفاظ على دوقيتهم على الرغم من تقلبات الأحوال عند جيرانهم في الشمال والجنوب، كما كانت الدوقية قد نعمت

بثمار الرفاهية والازدهار واستقرار الأسرة الحاكمة والنجاح العسكرى . وفى سنة ١٣٠٨م مات الدوق جاى الثانى Guy II دون أن يخلف ذرية ، وانتقل حكم الدوقية إلى أحد أبناء عمومته ، وهو والتر البرييني Walter of Brienne . وفى غضون فترة قصيرة من الزمان بعد اعتلائه العرش ، جوبه والتر بوصول جيش من المرتزقة المعروفين بالشركة الكتلانية على حدوده الشمالية. وكان هذا الجيش باعتباره قوة مقاتلة قد نشأ أصلا فى جنوب إيطاليا فى أثناء الحروب بين آل أنجو وحكام أراجون والتى كانت قد بدأت فى أعقاب حركة التمرد المعروفة باسم صلوات المساء الصقلية Sicilian Vespers فى سنة ١٢٨٢م . وفى سنة ١٣٠٢م كان الكتلان قد أجَّروا خدماتهم للإمبراطور البيزنطى الذى كان قد استخدمهم ضد الأتراك فى آسيا الصغرى؛ ثم تحولوا ضده وألحقوا قدرًا هائلاً من الدمار بالأراضى البيزنطية فى تراقيا قبل أن يتحركوا إلى داخل تساليا . وظن والتر أن بوسعه أن يستخدم الكتلان لتحقيق طموحاته الخاصة فى السيطرة على ذلك الإقليم؛ وشن حملة فى سنة ١٣١٠م كُللت بنجاح كبير؛ بيد أن والتر لم يكن مستعداً لمكافأتهم حسب توقعاتهم . وتقدموا داخل دوقيته وفى مارس سنة ١٣١١م سحقوا قواته فى معركة جرت قرب نهر كيفيسوس Kephissos . وكان الفرسان الآثينيون الذين عززتهم فيالق من جميع بلاد اليونان التى يحكمها الفرنج ، أن يقوموا بمسيرة ، مثلما فعل الإنجليز بعد ثلاث سنوات فى بانوكبورن Bannockburn . وكانت المذبحة هائلة. وتم قتل والتر نفسه واستطاع الكتلان احتلال دوقيته بأسرها .

كان الحكم الجديد يفتقر إلى الاعتراف الدولى. وبطبيعة الحال تحول الكتلان إلى البيت الملكى الأراجونى طلبًا للمساندة والدعم وقبلوا السيادة الاسمية لسلسلة متتالية من الفرع الصقلى للأسرة الحاكمة الأراجونية باعتبارهم دوقات. بيد أن العداوة من جانب نابولى الأنجوية والفرنسيين والبابوية تجاه الأراجونيين أبقاهم فى حال من العزلة . ولم يكن ممكنا أن يكون هناك تعاون بين أثينا الكتلانية وآخايا الأنجوية ، وهكذا لم يعد قائمًا الدعم المتبادل



بودونيتسا Bodonitsa بالقرب من ثيرمو بايلاى القديمة Thermopylae ، كانت قلعة رئيسية فى اليونان تحت حكم الفرنج لصد حالات التوغل من الشمال. كانت تمثل الممتلكات الرئيسية لماركيز مستقل .

الذى كان ملمحًا طبيعيًا من ملامح العلاقات بين الإمارتين الفرنجيتين الرئيسيتين فى جنوب بلاد اليونان فى القرن السابق . أما آل بريين، الذين كانت تربطهم علاقة جيدة بكل من فرنسا ونابولى ، فكان بوسعهم أن يعتمدوا على المساندة البابوية ، وعندما حدث أن قام ابن والتر البرييني، وسميه، والتر الثانى، بقيادة جيش قوى فى محاولة لاستعادة دوقيته كانت للحملة الوضعية القانونية التى للحملة الصليبية. وحتى مع هذا ، فإنه لم يستطع أن يحرز أى تقدم ضد الكتلان ، على الرغم من أنه هو وورثته استمروا فى التدخل ضدهم . وفى معظم الوقت حتى بواكير السبعينيات من القرن الرابع عشر أبقت البابوية القيادة الكتلانية تحت طائلة الحرمان الكنسى ، ولم يلِّن موقف البابوية سوى الخطر المتزايد من جانب الأتراك منذ أربعينيات القرن الرابع عشر فصاعداً .

وفى العقود الأولى من القرن الرابع عشر كانت الشركة الكتلانية قد صارت قوة ذات بأس، ولكن مع مرور الزمن تلاشت قوتها . وفى سنة ١٣٧٩م غزت الشركة الناقارية الدوقية واستولت على طيبة، ولم تترك للكتلان سوى أثينا وأماكن قليلة أخرى. وكان المستفيد هو سيد كورنثة الفلورنسى ، نيريو اكشيايولى، الذى كان بحلول منتصف ثمانينيات القرن الرابع عشر قد احتل كل أملاك الكتلان السابقة تقريبًا وأكمل غزوه باحتلال الأكروبول فى أثينا سنة ١٣٨٨م . وقد تحول نيريو إلى الملك لاديسلاس ملك نابولى لإضفاء الشرعية على حيازته ، ولكن عند موته فى سنة ١٤٠٢م، حينما حقق الابن غير الشرعى لنيريو، والمسمى أنطونيو ، السيطرة على طيبة، وانتزع المدينة منهم. وفى البندقية اعتبر نجاح أنطونيو بمثابة إهانة كبرى، ولكن ما إن اتضح أنه لن يتبع ذلك بالهجوم على نجروبونت حتى اختار البنادقة أن يذعنوا لما حدث . وقُيض لأنطونيو أن يحكم حتى وفاته سنة ١٤٣٥م. وكان التهديد العثمانى ، الذى تفاقم فى تسعينيات القرن الرابع عشر قد تراجع ، وتمتعت أثينا مرة أخرى بقدر من الرخاء.

وبعد سنة ١٤٣٥م ، انتقل حكم الدوقية إلى أبناء عم أنطونيو . واحتفظت العائلة بأثينا ذاتها حتى تم اغتيال الدوق الأخير من حكامها على أيدى العثمانيين.

الجنوية فى بحر إيجه وفى البحر الأسود :

كانت الحملة الصليبية الرابعة قد جعلت من البندقية القوة البحرية الغربية المسيطرة فى رومانيا ، وكانت مصالح جنوه ، منافستها الرئيسية، قد عانت لفترة من الزمان من جراء هذا. وعلى أية حال، فمع القضاء على الحكم اللاتينى فى القسطنطينية سنة ١٢٦١م، تولى الجنوية دورهم. وحدث فى ذلك الحين أنهم استولوا على بيرا Pera ، الضاحية الواقعة فى الجانب المواجه من القرن الذهبى للعاصمة البيزنطية، وحولوها إلى مركز رئيسى للتجارة. بيد أن نشاطهم التجارى انتشر فى مساحة أوسع . وبحلول سنة ١٢٨٠م كان الجنوية قد استولوا على كافا Kaffa فى القرم، وحتى أواخر القرن الخامس عشر كان تجارهم يتواجدون فى كافة المراكز التجارية الأخرى حول شواطئ البحر الأسود. وقد يسّرت لهم موانئ البحر الأسود الوصول إلى روسيا، والأهم من هذا ، الوصول إلى آسيا . وقبل نهاية القرن الثالث عشر كانت هناك سفن مملوكة للجنوية فى بحر قزوين ، وجماعة تجارية جنوية معتبرة فى تبريز. وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر نجدهم يتاجرون فى الهند والصين. وكان الوصول إلى آسيا من أجل هذه المغامرات الأكثر بعداً إما عن طريق بيرا والبحر الأسود أو عبر ميناء أياس Ayas فى أرمينيا القليقية . وكان انقطاع الطرق التجارية فى داخل آسيا وفقدان الثقة فى أعقاب الوباء الأسود يعنى أنه بعد سنة ١٣٥٠م تقريباً توقفت مثل هذه المغامرات إلى حد كبير ، بيد أنه كان لا يزال هناك ربح كبير يمكن كسبه فى البحر الأسود، وبحر إيجه ، وشرق البحر المتوسط.



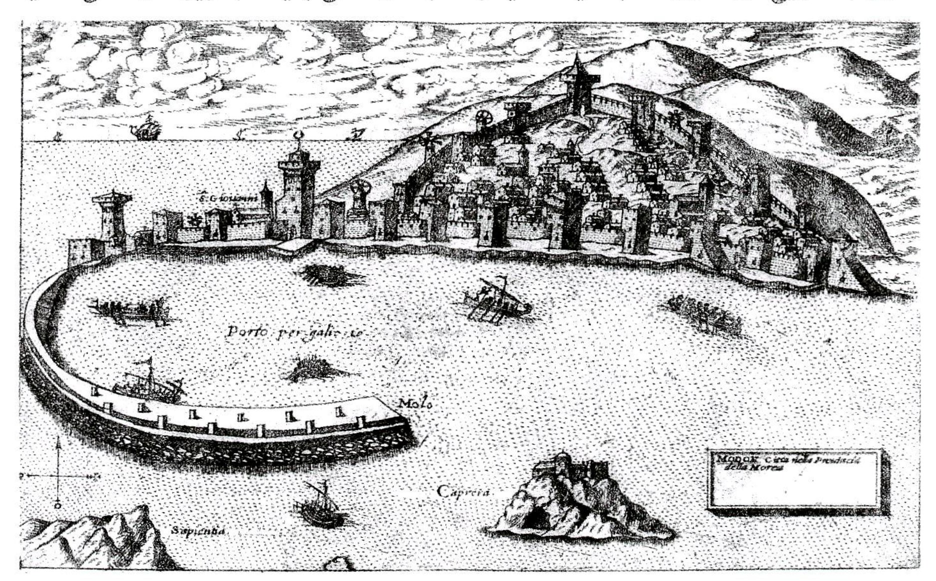
المخطط الذى رسمه كريستوفورو بوند لمونتى Christoforo Buondelmonti للقسطنطينية يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٢٠م، وسانت صوفيا فى المبنى الكبير تجاه اليمين، على حين يوجد فى أعلى الصورة، على الجانب الآخر من القرن الذهبى، ضاحية بيرا المزدهرة، التى سيطر عليها الجنوية منذ سنة ١٢٦١م

ولم يكن الجنوية مهتمين على نحو خاص بالحصول على الأرض من أجل الأرض ذاتها. وقد كانت الأماكن التى يمكن لتجارهم أن يتاجروا فيها بأمان هى ما يريدونه. وقد بقيت كافا بأيديهم حتى سنة ١٤٧٥م ؛ وبيرا حتى سنة ١٤٥٣م؛ وفاماجوستا فى قبرص، التى استولوا عليها سنة ١٣٧٣م حتى سنة ١٤٦٤م . كانت المنافسة مع البنادقة حامية. ومنذ بواكير القرن الثالث عشر كانت البندقية قد تحكمت فى المياه الجنوبية والغربية فى البحر الإيجى؛ وعلى النقيض من هذا سعت جنوه إلى تأكيد نفوذها على الأجزاء الشرقية والشمالية . ولكن ترك للأفراد الجنوية حرية حيازة الأراضى. وفى ستينيات القرن الثالث عشر كان الإمبراطور ميخائيل الثامن قد منح عائلة زكريا Zaccaria فوكايا Phocaea على الساحل الغربى لآسيا الصغرى وحق استغلال مستودعات الشبّ بها . ومضى أبناء عائلة زكريا لتأسيس فوكايا الجديدة ، وفى ١٣٠٤م احتل بنديتو زكريا Benedetto Zaccaria جزيرة خيوس chios البيزنطية القريبة . وقد استمر حكم أقاربه فى خيوس حتى سنة ١٣٢٩م عندما استطاع اليونانيون استردادها . وعلى أية حال، كانت خيوس وفركايا منذ سنة ١٣٤٦م فى أيدى الجنوية مرة أخرى، وكانتا آنذاك تحت حكم كونسورتيوم من رجال الأعمال عرف باسم ماهونا Mahona خيوس. كانت الجزيرة مرموقة بسبب إنتاجها من المصطكى (المستكة) ، ولكن الجنوية طوروا ميناءها باعتبارها مركزًا للتجارة فى بضائع أخرى، ولاسيما الشبّ الوارد من فوكايا والعبيد . وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر بدأ الجنوية ينظرون بعيون طامعة إلى جزيرة ليسبوس Lesbos فى الشمال ، ولكن لم يحدث حتى سنة ١٣٥٤م عندما قام مغامر جنوى اسمه فرنشيسكو جاتيلوسيو Francesco Gattilusion ، كان قد ظهر فى الصدارة بسبب دوره فى الانقلاب الذى أطاح بالإمبراطور حنا السادس كانتاكوزينوس John VI Cantacuzenus ، بالاستيلاء على هذه الجزيرة . وفرض العثمانيون سيطرتهم على فوكايا وفوكايا الجديدة فى سنة ١٤٥٥م، ثم استولوا على ليسبوس سنة ١٤٦٢م. وعلى أية حال، بقيت خيوس بأيدى الجنوية حتى سنة ١٥٦٦م.

رومانيا تحت حكم البندقية

في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة أحرزت البندقية السيادة المباشرة على كريت والميناءين التوءم كورون ومودون في جنوب البلوبونيز ، وفي الوقت ذاته شجعت الأفراد من أبناء العائلات النبيلة البندقية على السيطرة على الكثير من جزر بحر إيجه الصغيرة لأنفسهم. وكان من أهم أولئك المستفيدين من هذه السياسة أبناء عائلة سانودي Sanudi الذين حكموا منذ بواكير القرن الثالث عشر جزر الكيكلاديس Cy-clades وسبوراديس Sporades بلقب «دوق ناكسوس duke of Naxos» أو « دوق الأرخبيل duke of Archipelago». وفي سنة ١٣٨٣م انتقلت دوقيتهم إلى عائلة كريسبي Crispi. وهناك بنادقة آخرون استحوذوا على جزر لأنفسهم وحكموها بوصفهم أفصالاً إقطاعيين لدوقات ناكسوس . ومن الناحية القانونية كانت عائلة سانودي أفصالاً لأمراء أخايا وبذلك لم يكونوا تابعين للبندقية بأي شكل رسمي ، ولكن في الواقع كان البنادقة حريصين على ضمان أن تكون هذه الجزر بأيدي قومهم باعتبار ذلك جزءاً من سياستهم في الحفاظ على المناطق القريبة من القسطنطينية في أيد صديقة. كان آل سانودي حكاماً غيورين ، ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا منع تعرض الجزر من النهب على أيدي القراصنة ، وخاصة في بعض الجزر الصغيرة . التي قام تجار الرقيق الأتراك بتجريدها من سكانها. وكثيرا ما اضطر الحكام إلى استقدام المستوطنين من كل مكان آخر للمجئ وإصلاح الخسائر . وباتت الجزر مشهورة باعتبارها أوكاراً للقراصنة ، وبشكل عام كان الموقف السياسي والعسكري المضطرب يتفاقم بسبب بعض الحروب الإقطاعية طويلة المدى فيما بين السادة المحليين . ومع بداية عشرينيات القرن الخامس عشر كان دوقات ناكسوس يدفعون الجزية إلى العثمانيين ، بيد أنه كان لا يزال هناك تاريخ طويل ينتظر دوقيتهم. إذ لم يتم خلع آخر دوق حتى سنة ١٥٦٦م، واستمرت بقايا السيادة المسيحية في هذه الجزر الصغيرة ببحر إيجه حتى سنة ١٦١٧م حينما وقعت مجموعة من الجزر الصغيرة، كانت سيفينوس Siphinos أهمها، تحت الحكم العثماني المباشر في نهاية المطاف . وقد احتفظت البندقية نفسها بكل من تينوس Tenos وكيثيرا Kythera حتى القرن الثامن عشر.

فى بواكير القرن الثالث عشر كان البنادقــة قد أفادوا من الموقــف فى الأراضى البيزنطية السابقة لكى يحصلوا على مواقــع مهمة على امتــداد الـطريق الرئيســى إلى القسطنطينية والبحـر الأسود . وكانت كورون ومودون «عينى الجمـهورية» على الطرف الجنوبى الغربى لبلاد اليونان، ميناءين مهمين يتم اللجوء إليهما فى الطريق إلى بحر إيجـه وإلى شرق المتوسط على السـواء . وكانت جزيرة نجروبونت (أو أوبويا Eu-boea) الأقرب إلى القسطنطينية ، قد صارت جزءًا من الأراضى المخصصة للبندقية فى زمن الحملة الصليبية الرابعة، ولكنها فى خضم الأحداث خضعت لسيطرة ثلاث من العـائلات اللمبـاردية التى حـازت أراضـيها باعـتبـارهـا إقطاعـات من البنادقـة . وثمـة مُحضر bailo بندقى كان مسئولاً عن الميناء الرئيسى، مدينة نجروبونت، ولكن لم يحدث سوى بالتدريج أن أحرزت البندقية السيطرة المباشرة على بقية الجـزيرة، وهــى عملية



مودون، مُبيَّنة هنا فى حفـر على الخشــب عمـلـه چيوفرانكو كاموشـيـو Gio Franco Camocio (١٥٧١م) استولى عليها البنادقة فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة وبقيت ميناء عبور مهمًا للسفن البندقية الذاهبة إلى القسطنطينية وشرق المتوسط حتى سقوطها فى أيدى الأتراك عند بداية القرن السادس عشر.

تمت بشكل ما فى ثمانينيات القرن الرابع عشر. وبقيت نجروبونت أهم قطعة فى أملاك البندقية فيما بين كريت والقسطنطينية حتى سقطت فى أيدى الأتراك سنة ١٤٧٠م. وكان هناك انقطاعان كبيران فى سلسلة الموانئ التى يسيطر عليها البنادقة على امتداد الطريق إلى القسطنطينية . أحدهما يقع فى الطرف الجنوبى للبحر الإدرياتى. وبعد سنة ١٢٠٤م كان البنادقة يأملون فى السيطرة على كورفو Corfu ، ولكنهم حرموا منه . وعلى أية حال، فإنهم حصلوا على هذه الجزيرة فى نهاية الأمر سنة ١٣٨٦م، واحتفظوا بها حتى انهيار الجمهورية فى سنة ١٧٩٧م . وكان الانقطاع الثانى فى السلسلة يقع على مقربة من القسطنطينية ذاتها. وهناك أراد البنادقة أن يأخذوا جزيرة تينيدوس Tenedos التى تحتل مكانا استراتيجيًا فى مواجهة مدخل مضيق الدردنيل، ولكن منافسيهم الجنوية كانت لهم أيضًا مخططات بشأنها ، وسرعان ما أدت الطموحات المتصارعة للمدينتين إلى نشوب الحرب. واستمرت الأعمال العدائية من سنة ١٣٧٦م إلى سنة ١٣٨١م . وعلى الرغم من المشهد الدرامى لإغلاق الجنوية المنافذ أمام البندقية ، فقد انتهى الأمر بإعلان تينيدوس أرضًا بلا صاحب وكان لابد من طرد سكانها اليونانيين .

وبعد حرب تينيديوس فإن نمو القوة العثمانية ، الذى تزاوج مع ضعف الإمارات اللاتينية فى جنوب بلاد اليونان ، والنهاية الفعلية لأية ادعاءات لحكام نابولى بالسيادة العليا هناك ، أتاح للبندقية الفرصة والذريعة للحصول على المزيد من الأراضى . فبالإضافة إلى كورفو، حصلت البندقية على مواطئ أخرى لأقدامها عند المدخل الجنوبى للبحر الأدرياتى فى المنطقة المشتركة فيما يسمى الآن ألبانيا. وبعيدًا فى الجنوب استولت على ليبانتو(Naupaktos) Lepanto على خليج كورنثة فى سنة ١٤٠٧م وناڤارينو Navarino على الشاطئ الغربى لشبه الجزيرة البلوبونيز فى سنة ١٤١٧م. وعلى شاطئ بحر إيجه كان البنادقة قد اشتروا أرجوس Argos ونوبليا Nauplia فى سنة ١٣٨٨م ، وفى النهاية مونمڤازيا لحكمهم فى سنة ١٤٦٢م. وعلى مدى سنوات

قليلة، حسبما رأينا، كانت راية سان مارك (علم البندقية) تخفق حتى فوق أثينا وتسالونيكا (١٤٢٣-١٤٣٠م) . ومع مرور الزمن كان على هذه كلها أن تخضع للضغط العثماني. فقد كان سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م يعني أن هذه الجزر ، والموانئ ، والقلاع قد فقدت نقطتها المحورية . وكانت هذه الجزر لا تزال لها قيمتها بحد ذاتها، بيد أن مصالح البندقية السياسية والتجارية كانت تتحول بشكل متزايد بعيداً عن رومانيا باتجاه ممتلكاتها البرية في شمال إيطاليا والتي كانت في القرن الخامس عشر تتوسع بشكل درامي . أما ما لم يكن بوسع البندقية أن تفعله فهو وقف التقدم العثماني. ولكي تحافظ على تجارتها حاولت أن تنهج سياسات التهدئة. وعندما فشلت هذه السياسات نشبت الحرب . وفي حرب - ١٤٦٣-١٤٧٩م خسرت نجروبونت؛ وفي حرب ١٤٩٩-١٥٠٣م خسرت مودون، وكورون وناڤارينو، وفي حرب ١٥٣٧-١٥٤٠م خسرت مونمڤازيا ، ونوبليا وبعض الجزر بما فيها أيجينا Aegina . وفي حرب سنة ١٥٧٠-١٥٧٣م خسرت قبرص .

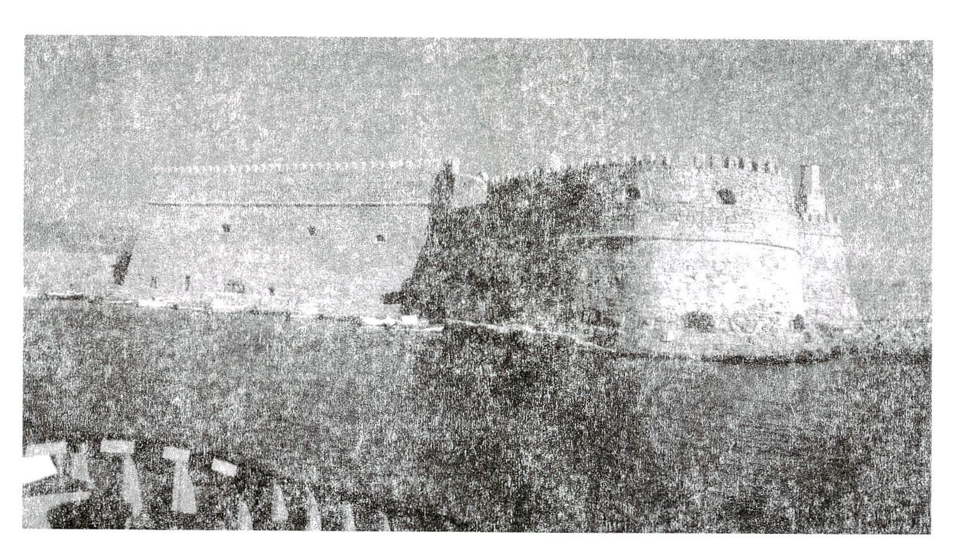
كانت قبرص وكريت أقوى ممتلكات البندقية في حوض البحر المتوسط الشرقي. إذ كانت قبرص في أيدي البنادقة على مدى أقل من قرن من الزمان وفي أثناء ذلك الوقت نعمت بفترة من السلام والرخاء النسبي. وعلى أية حال ، فإن كريت، التي تم الاستيلاء عليها في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة ، بقيت بحوزة البنادقة ما يقرب من خمسة قرون. وما إن تغلب البنادقة على المشكلات الأولية الناجمة عن تولي الأمور، حتى وجدوا أنفسهم في مواجهة سلسلة من حوادث التمرد التي قادها مُلاَّك الأراضي الكريتيون. وقد نشبت أخطر هذه الحوادث في ثمانينيات القرن الثالث عشر بقيادة أليكسيس كاليرجيس Alexis Kallergis واستمرت على مدى ستة عشر عامًا . وفي نهاية الأمر اضطر البنادقة إلى السماح للكريتيين بالاحتفاظ بممتلكاتهم والحفاظ على عاداتهم ؛ بل كان عليهم تقديم التنازلات بخصوص تراتبية الكنيسة الأرثوذكسية. وفي سنة ١٣٦٣م، جاء دور المستوطنين البنادقة في كريت للتمرد على حكومتهم الوطنية.

وقد أشعلت شرارة العصيان تلك المطالب الباهظة التى فرضها عليهم رجال الإدارة البنادقة فى جزيرة كريت . واستمر العصيان حتى سنة ١٣٦٧م حين تم إخماده بوحشية لا ترعوى من جانب السلطات . وبعد ذلك ظل السكان عامة فى حال من الطاعة والانقياد . وقد سار التبادل الثقافى بين اليونانيين واللاتين فى مساره ونعمت الجزيرة بالازدهار. ولم يكن يعكر هذا الازدهار سوى غارات الأتراك ، لاسيما فى سنوات ١٥٣٨، ١٥٦٢ ، ١٥٦٧ . وقد أنفق البنادقة الكثير فى تحصين المدن الرئيسية ، مثل قلعة هيراكليون Iraklion وأسوارها ، والتى عُرفت فيما بعد باسم كانديا Candia، وقلعة ريتمنون Rethymnon الضخمة التى تشهد على هذا . بيد أن الاستراتيجيين العسكريين أدركوا أن الدفاع عن كريت ، إذا ما قرر الأتراك شن هجوم قوى عليها، سيتوقف بالضرورة على قدرة البندقية فى استخدام القوة البحرية للتصدى للجيش الغازى. ولم تجئ الضربة القاصمة حتى سنة ١٦٤٥م . إذ استطاع الأتراك انتهاز فرصة تردد الأوربيين ليمسكوا بزمام المبادرة . وبحلول سنة ١٦٤٨م، كانوا قد اجتاحوا كريت بأسرها فيما عدا إيراكليون . واستمر حصار إيراكليون إحدى وعشرين سنة أخرى، وصارت «حرب كانديا» فى نظر الأوربيين كافة بمثابة ملحمة نضالية . وفى تلك الأثناء انتصر البنادقة فى عدة اشتباكات بحرية كبرى ، وعندما سلموا إيراكليون سنة ١٦٦٩م عملوا على إنقاذ البحرية عند سودا Suda وسبينالونجا Spinalonga وجرابوسا Grabusa التى احتفظوا بها حتى سنة ١٧١٥م إلى جانب جزر تينوس Tenos وكيثيرا Kythera وبعض المناطق فى كرواتيا التى كانوا قد استولوا عليها من العثمانيين.

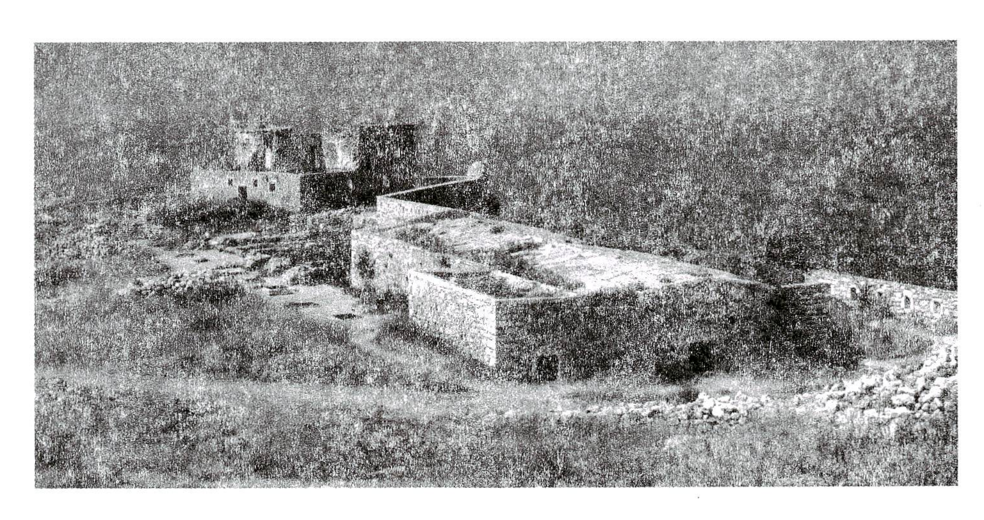
لم يكن استسلام إيراكليون نهاية تورط البنادقة فى رومانيا . ففى سنة ١٦٨٤م، برزت إلى الوجود العصبة المقدسة The Holy League ، تحت رعاية البابا إنوسنت الحادى عشر، لتضم البندقية ، والنمسا ، وبولندا ، بهدف شن الحرب ضد العثمانيين . وقاد البنادقة عملية اجتياح جنوب اليونان فى حملة علقت بالذاكرة أساسًا بسبب تدمير

البارثنون فى أثناء حصار أثينا سنة ١٦٨٧م. وفى صلح كارلوڤيتز Karlowitz سنة ١٦٩٩م ، ثم تثبيت ممتلكات البندقية في البلوبونيز ، ولكن فى سنة ١٧١٥م أعاد العثمانيون غزوها دون مقاومة كبيرة. وعندما تسبب صلح باساروڤيتز Passarowitz فى إنهاء العداوات ، كانت البندقية لا تزال تحتفظ بالجزر فى منطقة أيونيا والمعاقل المجاورة على الأراضى الرئيسية فى بوترنيتو Butrinto وبارجا Parga ، وبريڤيزا Pre-véza وڤونتيزا Vonitza .

وفى أثناء العصور الوسطى المتأخرة كان الشقاق والتشرذم أبرز سمات الشرق اللاتينى. فللوهلة الأولى نرى مواقع عسكرية متجانسة للغرب تحف بصورة خطرة بهوامش العالم الإسلامى وفيها كان ملاك الأراضى من الفرنسيين والإيطاليين يتسيدون الفلاحين اليونانيين على حين كان التجار البنادقة والجنوية ومن يشتغلون بالبحر في المناطق المحيطة يتشاجرون حول التجارة. أما الفحص الأكثر دقة ، فإنه يكشف عن بنية أشد تعقيداً فى العلاقات. فقد كانت الحملات الصليبية الموجهة نحو الشرق تهدف أساساً إلى الوصول للعالم الإسلامى، ولكن الأراضى التى كانت آنذاك تحت الحكم اللاتينى كانت قد انتزعت كلها من اليونانيين المسيحيين ، وفى القرن الثالث حقق البيزنطيون بعض النجاح فى استرداد الأراضى التى خسروها ، ولكن باستثناء البلبونيز حيث قضى حكام المورة على إمارة أخايا سنة ١٤٣٠م ،



صورة قلعة إيراكليون على جزيرة كريت فى مدخل الميناء وقد بنى البنادقة الشطر الأكبر منها فى الربع الثانى من القرن السادس عشر.



صورة قلعة البنادقة في ريثيمنون بجزيرة كريت قلعة ضخمة بنى أكثرها أواخر القرن السادس عشر بعد سقوط قبرص بأيدي الأتراك. وكان من بين أجزائها الكاتدرائية الكاثوليكية المحلية والمكاتب الإدارية البندقية.

كان التهديد البيزنطي للمتلكات اللاتينية قد تبخر حوالى سنة ١٣٠٠م. وفى القرن الرابع عشر كان اللاتين مرة أخرى هم الذين يكسبون على حساب اليونانيين عندما انتقلت رودس ، وخيوس، وليسبوس من أيدى البيزنطيين إلى أيدى أبناء الغرب الأوربي. وقد ربحت البندقية وجنوة من الصراع داخل الأسرة الحاكمة وأذكت نيران هذا الصراع الذى أضعف الإمبراطورية منذ ثلاثينيات القرن الرابع عشر فصاعداً. وعلى سبيل المثال ، فى خمسينيات القرن الرابع عشر ، كانت البندقية تساند بقوة الإمبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس John VI Cantacuzenus، على حين كانت جنوة تدعم منافسه يوحنا الخامس باليولوجوس ، وفيما بعد، فى سبعينيات القرن الرابع عشر تطلعت البندقية إلى باليولوجوس لكى يكافئهم بجزيرة تدينوس، فى الوقت نفسه الذى كانت جنوة تساعد ابنه المتمرد أندرونيكوس ، على أمل أن يسبقوا منافسيهم ويحوزوا الجزيرة لأنفسهم. وفى القرن الرابع عشر وبواكير القرن الخامس عشر تمكن الإيطاليون من السيطرة بصورة أكبر على الحياة التجارية فى القسطنطينية، وكونوا لأنفسهم الثروات على حساب البيزنطيين . وقد ازدهرت المستعمرة الجنوية فى بيرا Pera على حين كانت القسطنطينية نفسها تعانى التدهور. ومنذ عام ١٣٤٣م كانت جواهر التاج البيزنطى مرهونة فى البندقية ، ولم يتم استرجاعها قط.

على الرغم من أن الأباطرة كانوا أحيانًا يستفيدون من المشروعات الصليبية الغربية ، فإن اللاتين الذين استقروا فى منطقة بحر إيجه لم يتمكنوا من تقديم أية مساعدة فعالة لهم فى مواجهة التقدم العثمانى . ولم يكن الاسبتارية فى رودس فى وضع يجعل لهم أى تأثير فعال على أحوال الإمبراطورية. وعلى أية حال ، فإن مواقف كل من اليونانيين واللاتين تجاه الأتراك كان يمكن فى بعض الأحوال أن تكون متناقضة بشكل واضح . ففى أثناء الحرب الأهلية البيزنطية فى أربعينيات القرن الرابع عشر، تحالف يوحنا كانتاكوزينوس مع القائد العثمانى أورخان الذى زوجه ابنته سنة

١٣٤٦م . ثم حدث فى سنة ١٣٥٢م أن دخل الجنوية الذين كانوا معادين لهذا الإمبراطور فى تحالف رسمى مع أورخان أيضا. وقد حدث فى خضم الظروف السياسية المرتبكة فى هذه السنوات أن تمكن العثمانيون للمرة الأولى من توطيد أنفسهم على الأرض الأوربية . ففى سنة ١٣٨٧م كان حاكم المورة كورنثة ، نيريو أكشيايولى Nerio Acciaiuoli ، بسبب مساعدته الأتراك فى مهاجمة ممتلكاتهم ؛ وفى سنة ١٣٩٤م - ١٣٩٥م كان الأتراك ، بالاشتراك مع بطرس السانسويرانى Peter of san Superan حاكم أخايا ، يهاجمون حاكم المورة. وفى خضم التحول التبادلى للتحالفات فى هذه الفترة أظهر اليونانيون واللاتين على السواء استعداداً للانضمام إلى الأتراك ضد رفاقهم النصارى. وكانوا يفعلون ذلك فى بعض الأحيان بدافع الخوف مما قد يحدث لهم إذا ما رفضوا المطالب التركية بالمساعدة؛ وفى مناسبات أخرى كانوا ينطلقون عمداً لاستغلال العثمانيين فى التغلب على رفاقهم فى الدين. وهكذا حدث فى سنة ١٣٩٩م أن كان أنطونيو أكشيايولى والأتراك يهددون بالاستيلاء على أثينا التى كانت من قبل ملكا لوالد أنطونيو، والتى استولى عليها البنادقة منه. ومن بين الحكام المسيحيين فى رومانيا كان البنادقة والاسبتارية هم فقط الذين يتجنبون باستمرار التحالفات مع الأتراك، على حين كان الجنوية مرتبطين بتحالف مربح معهم على مدى المائة سنة التى تمتد من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر . والواقع ، أن الجنوية تورطوا حتى فى الصراعات داخل الأسرة الحاكمة التى كانت من آن لآخر تزلزل السلطنة العثمانية ؛ مثلما حدث سنة ١٤٢١م عندما كانوا يمدون مراد الثانى بالسفن والقوات فى صراعه ضد أخيه مصطفى. وقد انتهى التحالف العثمانى- الجنوى فى سنة ١٤٥٠م عندما شن الأتراك هجوما بدون مبرر واضح على ليسبوس . وباستثناء خيوس ، خسر الجنوية كل ممتلكاتهم فى منطقة بحر إيجه والبحر الأسود أمام الأتراك فى غضون سنوات قليلة بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

أما في قبرص فقد كان الموقف السياسي أقل ارتباكًا . ذلك أن العلاقات بين الملوك القبارصة وحكام أرمينيا الصغرى، التي كانت المملكة المسيحية الوحيدة المجاورة، كانت ضعيفة في معظم الأحيان . وترجع جذور المشكلات إلى العقد الأول من القرن الرابع عشر. إذ إن أماليك الصوري ، الذي كان قد اغتصب السلطة في قبرص سنة ١٣٠٦م ، كان قد تزوج أخت ملك أرمينيا وظل نسلهم ، والذي ابتعد عن الفرع الحاكم من أسرة لوزينيان في قبرص، يتمتعون بمكانة مرموقة في مملكة أرمينيا . وفيما بين سنة ١٣٤٢م وسنة ١٣٤٤م ، ومرة أخرى عند نهاية وجود المملكة في سبعينيات القرن الرابع عشر ، احتل نسل أماليك العرش الأرمني . وربما كانت المشاعر السيئة المتبادلة بين ملوك قبرص وأبناء عمومتهم الأرمن قد تصاعدت بسبب المنافسة التجارية بين مينائي فاماجوستا في قبرص وأياس في أرمينيا . وربما نتج عن ذلك أن قل مقدار المساعدة العسكرية التي ترسل إلى أرمينيا عما ينبغي أن تكون عليه . ومن ناحية أخرى، فإن حكام قبرص لم يجدوا قط أنهم بحاجة إلى التحالف مع قوة إسلامية ضد المسيحيين الآخرين ، على الرغم من أن السلطان المملوكي في مصر ، الذي كانت له السيادة عليهم ، لم يكن يصرُّ في أربعينيات القرن الخامس عشر على أن يسمح القبارصة لأساطيله بأن تتزود بالمؤن وهي في طريقها لشن هجمات على رودس. وفي مرحلة واحدة ، على أية حال، فكرت قوة مسيحية جديًا في التحالف مع المسلمين ضد قبرص . إذ كان الجنوية في سنة ١٣٨٣م مشغولين بفرض مرشحهم ، جيمس الأول، للجلوس على عرش قبرص ، وعندما واجهت خططهم بعض العقبات والعراقيل برز اقتراح بأنه يجب عليهم إحضار قوات تركية من الإمارة القرمانية القريبة لكي تساعدهم على فرض إرادتهم . ولكن الأحداث برهنت على أن ذلك لم يكن ضروريًا ، وقد كانت هذه وجهة نظر القبارصة أيضا .

ومن ثم سيكون من الخطأ أن نفترض أن الناس فى الشرق اللاتينى أواخر العصور الوسطى كانوا تلقائيا يعلون قيمة التضامن المسيحى فوق كل ما عداه وأنهم رفضوا الدخول فى علاقات ودية مع جيرانهم المسلمين. فعلى المدى الطويل حكم الصراع ضد الأتراك تاريخ المنطقة بأسرها ، بيد أن المنافسات مع القوى المسيحية المتنافسة كان يمكن أن تؤدى إلى تعاون عسكرى مع الأتراك، وهو ما حدث بالفعل ، حتى لو كان مثل هذا التعاون يحفز ويسهل المزيد من التوسع التركى على حساب النصارى. كما أن اعتبار أن الصراع فيما بين القوى كان يمكن أن يجعل الغزوات الإسلامية أكثر سهولة أمر فيه مبالغة كبيرة . إذ كانت الحروب الداخلية فيما بين المسيحيين أمرًا شائع الحدوث . وقد تراوحت ما بين الحروب الإقطاعية بين السادة الإقطاعيين فى جزر بحر إيجه الصغرى أو أعمال القراصنة والصراعات التى شملت بعض أعظم القوى فى أوربا المسيحية. وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر ألقى الصراع بين الفرنسيين والأراجونيين بظلاله على الشرق اللاتينى. فمنذ ثمانينيات القرن الثالث عشر فصاعداً كان محور هذا الصراع متمركزا فى الصراع المرير بين أراجون وآل آنجو - الذين كانوا هم أنفسهم فرعًا من البيت الملكى الفرنسى- من أجل السيطرة على جنوب إيطاليا . فقد كانت أخايا خاضعة لحكم آل آنجو ، وكانت أثينا تحت حكم الشركة القطلانية تتطلع إلى حماية البيت الملكى الأراجونى. ولم يكن ممكنا أن يكون هناك توافق أو تعاون بين الاثنين، ولاغرابة فى أن والتر البرييني Walter of Brienne الذى ادعى لنفسه الحق فى عرش أثينا فى ثلاثينيات القرن الرابع عشر، كان قادراً على أن يتوجه إلى آل آنجو طالبًا مساعدتهم فى محاولاته أن يحل محل النظام القطلانى. فمنذ سبعينيات القرن الثالث عشر كان الآنجويون وآل لوزينيان فى قبرص قد دخلوا فى نزاع حول لقب مملكة بيت المقدس. وفى بواكير القرن الرابع عشر تزعم ملوك فرنسا المساعى لتنظيم حملة صليبية لإعادة غزو الأراضى المقدسة، ولكن على نحو ما رأينا ، لم تكن فكرة حملة صليبية تحت قيادة فرنسية تروق كثيرا لحكام

قبرص؛ فقد كان آل لوزينيان يعرفون أنهم لن يكونوا ملوكًا على بيت المقدس، وأنه في حال فشلت الحملة الصليبية فمن المرجح أن تتحمل قبرص مغبة أي رد من جانب المسلمين. وفي العقد الثاني من القرن الرابع عشر ، كان ملك قبرص هنري الثاني الذي لم يخلف وريثًا مستعدًا لأن تنتقل مملكته إلى البيت الملكي الأراجوني . وعلى المستوى الفعلي لم تكن هناك حملة صليبية تحت قيادة فرنسية ولم يكن هناك استحواذ أراجوني على مملكة هنري ، ولكن الأمور جرت على نحو مختلف تمامًا . فقد كانت لآل أنچو مآرب أخرى ، مثل الإطاحة بالحكم اليوناني في القسطنطينية وإعادة بناء الإمبراطورية اللاتينية هناك، ولايمكن أن يكون هناك شك في أنه في الربع الأول من القرن الرابع عشر كان هذا البرنامج المتباطئ غير الواقعي حائلاً دون محاولات البابوية لمساعدة البيزنطيين . وعلى أية حال، فإنه مع منتصف القرن الرابع عشر كانت قوة آل أنچو في إيطاليا آخذة في الأفول وانشغلت فرنسا تمامًا بالحرب مع إنجلترا . وفي الوقت نفسه ، كان الأراجونيون يكتشفون أنهم لن يكونوا قادرين على التدخل بشكل فعال في الشرق اللاتيني. إذ كانت هيمنة الچنوية والبنادقة قوية لدرجة أن تجار الأراجونيين لن يتمكنوا قط من أن يفعلوا ما هو أكثر من اقتفاء آثارهم عن بعد في المركز الثالث، ومع الإطاحة بحكم شركة القطلان في أثينا ازداد تدهور نفوذ أراجون.

وفي بحر إيجه ومياه البحر المتوسط المجاورة ، حيث كانت الاتصالات عن طريق البحر أهم من الاتصالات عن طريق البر في غالب الأحيان، كانت القوة البحرية ذات أهمية فائقة . إذ كان الحكام من أمثال سادة الاسبتارية أو ملوك قبرص يمتلكون السفن التي يمكنهم استخدامها لحماية البحار من القرصنة ، بيد أن التركيز الأعظم للقوة البحرية كان في أيدي الچنوية والبنادقة بين أوربا والنصف الشرقي من البحر المتوسط تعني أنهم يسيطرون على القوة العظمى.

فقد كانوا قادرين على استخدام أســاطيلهم لحماية تجارتهم ، وببناء تجارة بحرية كان يمكنهم تعزيز أساطيلهم. وفى حالة البندقية ، حيث نظمت الحكــومة الملاحة لدرجة مقبولة ، كانت هناك سياسة مقصودة لبناء موانئ تســيطر عليــها البندقية على طــول الطــريق إلى القسطنطينية والشرق . وفى جنوة لم تكــن هنــاك مثل هذه السيطرة المركزية، بيد أن الجنوية لم يكونوا أقل عدوانية فى البحث عن مراكز تجارية يمكنهم امتلاكها لأنفسهم . وقد تنافست كلتا القوتين البحريتين من أجل الأسواق والامتيازات التجارية وكانت كلتاهما على استعداد للتلويح بالقــوة لضمان أن يستمر تجارها فى تعظيم مكاسبهم والاتجار مع أقل قدر ممكن من العوائق والعراقيل.

وتقدم لنا علاقات الجنوية بقبرص مثالاً جيداً على كيفيــة عمــل هذا التــأكيد فى الممارسة الفعلية . فقد كان الجنوية يتمتعون بامتيــازات تجارية فى الجـــزيرة منذ أوائل القرن الثالث عشر. وبحلول سنة ١٣٠٠م ، كانت علاقــاتهم بالسلطات علاقات ضعيفة. وقد حدث هذا من ناحية لأنهم رأوا أن القبارصة أظهــروا تعاطفًا أكثــر ممــا ينبغــى تجــاه منافسيــهم البنادقة ، ومن ناحية أخرى لأن القبارصة كانوا يحاولون تحديد مدى امتيــازاتهم وفرض الحظر البابوى على التجــارة مع الموانئ المملوكية ، ولم يأخذ الجنــوية موقفًا ودياً تجاه ما اعتبــروه محــاولات لتقييد قدرتهم على المتاجرة حيثما يريدون وحينما يشاءون وبأقل قدر ممكن من النفقــات . وفى العقد الثانى من القرن الرابع عشر تدهور الموقف إلى حد أنهـــم تورطوا فى غارات عقــابية على ســاحل قبــرص. ومن الطبيــعــى تمامًا أن السلطات القبرصية أرادت أن تضمن بقدر الإمكان أن تجد الثروة التى حققتها التجارة طريقها إلى خزائنهم ولم يكونوا مستــعدين لمزيد من التضحيــة بسـيادتهم لكى يجتذبوا التجار من وراء البحار للعمل على أرضهم . ومن ناحية أخرى ،

كانت قبرص بحاجة إلى التجار الجنوية إذا ما أرادت للازدهار التجارى فى الجزيرة أن يتعزز، وأن تستمر التجارة الخارجية ، على الرغم من وجود خلفية من المنازعات التى لاتنتهى ، ومعظمها منازعات تافهة فى حد ذاتها . وفى سنة ١٣٦٤م وقعت حادثة أكثر خطورة فى فاماجوستا عندما قتل عدد من الجنوية. وبهذه المناسبة سلّم الملك بطرس الأول بجميع مطالب الجنوية فى التعويضات لأنه كان قلقًا من أن يعوق شئ الحملة الصليبية التى كان على وشك القيام بها(*). وعلى أية حال ، فإن الحكومة فى قبرص رفضت سنة ١٣٧٢م مطالب جنوة بالتعويضات بعد حادثة مماثلة، وكما رأينا، كانت الحرب نتيجة لذلك الرفض. وفى ١٣٧٣م أرسل الجنوية أسطولاً حربيًا استولى على فاماجوستا وألحق بالجزيرة قدرًا كبيرًا من الدمار. واحتفظوا بفاماجوستا باعتبارها قاعدة آمنة يتاجرون منها وحاولوا، بقدر متفاوت من النجاح، أن يفرضوا إتاوة على آل لوزينيان . وربما يجادل البعض بأن القبارصة قد جلبوا هذه الكارثة على أنفسهم إلى حد كبير ، ولكن تبقى الحقيقة أن الجنوية استخدموا قوتهم البحرية للدفاع عن مصالح تجارهم وتوسيعها وفى سبيل ذلك كانوا قد أضعفوا موقعًا أماميًا مهمًا ورئيسيًا للدفاع عن العالم المسيحى بدرجة كبيرة.

كانت هناك كمية هائلة من الأرباح التى تدرها التجارة ، وكثيرا ما اشتبكت جنوة والبندقية فى صدام بسبب صراعهما من أجل الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من هذه الأرباح . وفيما بين خمسينيات القرن الثالث عشر وسنة ١٣٨١م نشبت أربع حروب كبرى بينهما. ومن بينها كانت حرب سان ساباس St. Sabas ، التى بدأت سنة ١٢٥١م ، قد نشأت أصلاً عن صراع حول الملكية فى عكا ، ولكن الحروب الثلاث الأخرى، أى تلك التى وقعت سنة ١٢٩٤-١٢٩٩م سنة ١٣٥٠-١٣٥٥م ، وسنة ١٣٧٦-١٣٨١م، نشأت أساسًا نتيجة تنافسهما فى رومانيا. وعلى الرغم من أن معظم الأعمال

(*) هى الحملة التى قام بها على ميناء الإسكندرية فى تلك السنة، وكانت أقرب إلى غارة بقصد السلب والنهب، ثم هرب بعد عدة أيام ومعه ما نهبه من حمولات ثقيلة اضطر إلى التخلص من بعضها فى مياه المتوسط، قبل وصول قوات الجيش المصرى لنجدة المدينة. (المترجم)

العسكرية حدثت فى الغرب ، فقد كانت تجارة القسطنطينية والبحر الأسود هى التى قدمت «سبب الحرب Casus belli» في كل من هذه الحروب. ومن المتناقضات ، أن النجاح العسكرى لم يكن يؤدى بالضرورة إلى الهيمنة التجارية ولم يحدث فى أية حرب أن انتصر أى من الجانبين بشكل حاسم ينهى تجارة الجانب الآخر. بيد أن إخفاق جنوة في الحرب فى تنيدوس Tenedos، التى وقعت بسرعة كبيرة بعد النفقات التى أنفقتها فى غزو قبرص كان نذيرًا بفترة من الاضطراب السياسى، وبعدها تلاشت مصالح الجنوية فى شرق المتوسط تدريجيًا . وفى القرن الخامس عشر احتفظت البندقية بنصيب الأسد فى التجارة مع مصر وبلاد الشام وتحملت وطأة النشاط البحرى العثمانى فى البحر الإيجى وحوله، على حين توقفت جنوة عن التطلع إلى تفوق منافستها . كانت كريت ، وقبرص منذ سبعينيات القرن الخامس عشر، كانت من الممتلكات الثمينة لدى البندقية، ولم يكن ممكنًا مقارنة خيوس الجنوية بهما .

ولم يكن الأوربيون الغربيون يشكلون غالبية السكان فى أى من الممتلكات اللاتينية فى الشرق. وفى المناطق الريفية بصفة خاصة كانت جمهرة السكان من اليونانيين . أما الموانئ فكانت مدنًا عالمية. فقد كانت فى فاماجوستا مثلاً جماعة كبيرة من الشوام الناطقين بالعربية عاشوا جنبًا إلى جنب مع اليونانيين والفرنج والإيطاليين واليهود والأرمن. وكان كثير من الناس، حتى الفقراء منهم، يمتلكون عبيد المنازل، وتشى الوثائق التى نجت من عوادى الزمن بأن أولئك العبيد كانوا من أصول صقلبية ، أو آسيوية، أو من الأفارقة السود. ولابد أنه كان هناك باستمرار سكان عابرون يمكثون فترة قصيرة من التجار ورجال البحر، ولكن من بين أولئك الذين كانوا يقيمون فترة طويلة كان هناك كثير ممن يتمتعون بالمكانة مثل البنادقة والجنوية على الرغم من أنهم لم يكونوا يعيشون فى مسقط رأسهم . وثمة أدلة بقيت من أوائل القرن الخامس عشر توحى بأنه كانت هناك لغة شائعة تحتوى على خليط مختار من الكلمات والتعبيرات المأخوذة عن جميع اللغات المحلية تستخدم فى الحديث اليومى . وربما كان معظم الناس ذوى الأصول الأوربية فى الشرق يتحدثون شكلا ما من اللغة الإيطالية. وفى قبرص ، وأخايا ، وأثينا كان ملاك الأراضى الإقطاعيون الأصليون من الفرنسيين ،

ولكن بمرور الوقت حل الإيطاليون أو القطلان محلهم . وفى حالة أثينا جاء التغيير عنيفًا مع قدوم شركة القطلان سنة ١٣١١م . أما فى أخايا فكان أن حلت الأسماء الإيطالية محل الأسماء الفرنسية فى أثناء القرن الرابع عشر. وفى قبرص كانت العملية أكثر بطئًا، وعلى الرغم من أنه عند نهاية القرن الرابع عشر لاحظ زائر أوربى غربى للجزيرة بدهشة واضحة أن الملك «يتحدث الفرنسية بطلاقة». ولم يحدث سوى مع اعتلاء جيمس الثانى العرش والحرب الأهلية التى نشبت فيما بين سنة ١٤٦٠ وسنة ١٤٦٤م أن برزت الأسماء الإيطالية أو الإسبانية لتسود بين النبلاء .

وفى المراحل الباكرة من الحكم اللاتينى كان الغزاة الغربيون عامة ينأون بأنفسهم بعيدًا عن جماهير السكان. ولكن حدث بالتدريج أن تسببت الزيجات المختلطة والتقارب العام فى كسر الحواجز وأتاحت للتفاعل الثقافى بين العناصر المختلفة فى السكان أن يمضى قدمًا . وكان الولاء الدينى عاملاً حاسمًا. إذ كانت نظم الحكم الغربية جميعا تقدم الأساقفة ورجال الكنيسة الكاثوليكية وتسعى بكل الطرق إلى وضع رجال الكنيسة الشرقية فى منزلة أدنى. ومن الطبيعى أن هذا كان يؤدى إلى نقل الأوقاف إلى الكاثوليك واستئصال الأسقفيات اليونانية أو تخفيضها ، وكان الأكليروس اليونانى مضطرين إلى الاعتراف بسلطة رؤسائهم اللاتين ، أى سلطة البابا فى التحليل الأخير . ولا غرابة فى أن كثيرا منهم اعترضوا ، ولكن عددًا كبيرًا لم يعترضوا بل إنهم كانوا نماذج من رجال الكنيسة اليونانيين الذين يأخذون قضاياهم إلى روما. وعرف الحكام اللاتين أن عليهم أن يخطوا بحذر . فلو أنهم سمحوا للكنسيين اليونانيين بقدر من الاستقلال أكبر مما ينبغى لكان من الممكن أن يصبحوا بؤرًا للسخط ؛ وإذا ما كانت وطأتهم قاسية أكثر من اللازم فى تعاملهم مع هؤلاء الكنسيين لكان من المحتمل أن يندلع التمرد الشعبى ضدهم. وفى قبرص بحلول سنة ١٣٠٠م كان مع كل أسقف لاتينى أسقف يونانى بمثابة أسقف مساعد مسئولاً عن قساوسة الطقوس اليونانية والكنائس فى أسقفيته . وحدث مرتين على الأقل فى القرن الرابع عشر أن تدخلت سلطات الجزيرة لمنع رجال الكنيسة الواصلين حديثا من غرب أوربا من محاولة فرض انصياع القساوسة اليونانيين للطقوس اللاتينية مما قد يشعل شرارة الشغب. وعلى

مستوى الممارسة الفعلية تطور التعايش بين رجال الكنيسة اليونانيين والكنسيين اللاتين. ولم يكن على مستوى تطلعات اللاهوتيين أو رجال الدعاية على أى من الجانبين، ولكن يبدو أنه بصفة عامة كان مرضيًا لغالبية السكان . وفى القرن الرابع عشر شاعت مسألة غياب كبار رجال الكنيسة اللاتين عن مناصبهم بشكل مطرد، وربما يكون هذا قد أدى أيضا إلى الحد من التوتر. وقد أسهم كل من الأزمات السياسية ، والموت الأسود ، والانشقاق البابوى الذى حدث سنة ١٣٧٨م، كلٌ على طريقته فى إضعاف مؤسسة الكنيسة اللاتينية فى الشرق، وقد استمر هذا الاضمحلال طوال القرن الخامس عشر.

وانطلاقا من هذه الخلفية التى بدأت فى القرن الرابع عشر نبدأ فى اكتشاف شكاوى من أن اللاتين كانوا يحضرون الخدمات الكنسية اليونانية . وربما كانت المسألة ببساطة أنه فى حالات كثيرة جاء هذا السلوك عقب غياب القساوسة اللاتين، ولكن غالبًا ما كان الناس يفعلون ذلك على سبيل التفضيل : ولابد أن الزيجات المختلطة واللغة المزدوجة كان لها بعض التأثير على المواقف الاجتماعية والدينية. ومن حين لآخر أيضاً نجد أمثلة على اليونانيين وغيرهم من المسيحيين الشرقيين الذين غيروا مذهبهم إلى الكاثوليكية . ففى القرن الخامس عشر تقدم لنا عائلة أوديث Audeth القبرصية الدليل على تآكل الولاءات الدينية . فقد كانت هذه العائلة من الشوام اليعاقبة ، ولكن حدث فى خمسينيات القرن الخامس عشر أن كان واحد منهم هو المشرِّع فى كاتدرائية نيقوسيا وصار فيما بعد حامل لقب الأسقف اللاتينى فى طرطوس ؛ وفى الوقت نفسه تقريبًا كان واحد آخر من أفراد العائلة يقيم صلوات القدس بإرادته فى الكنائس اليعقوبية ، والقبطية ، والمارونية ، والروم، والكنيسة الأرمنية وكذلك فى الكاتدرائية الكاثوليكية فى نيقوسيا . ومن الصعب أن نعرف مدى شيوع مثل هذا التحول فى الولاء أو أن نحلل بدرجة مرضية العناصر التى كانت تحركه . وقد انعكس تفشى الانقسامات المذهبية فى الفن والعمارة المعاصرة . فعلى سبيل المثال، حفظ لنا الزمان أيقونات من الواضح أنها من عمل فنانين يونانيين ولكنها تحمل نقوشًا لاتينية أو تحمل نقوشًا يونانية ولكنها صنعت على نفقة مانحين لاتين؛ فقد ألف أحد ملوك

قبرص قداساً لكى يستخدم فى مهرجان قديس يونانى هو سانت هيلاريون Hilarion ؛ وفى فاماجوستا ، أعيد بناء الكاتدرائية اليونانية فى القرن الرابع عشر على طراز غربى خالص وهو الطراز القوطى الإيطالى ؛ ويوجد فى أماكن أخرى تهجين للأشكال المعمارية لأفكار فنية رئيسية (موتيفات) أخذت عن التراث الغربى والتراث الأرثوذكسى على السواء . وتشى بعض مبانى الكنائس بعلامات على التغيير الذى سمح بوجود مذابح كنسية منفصلة يستخدمها كل من اليونانيين واللاتين على حدة . وفى كريت ترك التلاقح الثقافى المتبادل للتراث الفنى أعظم تأثيراته مع تطور مدرسة الرسم التى كان الجريكو El Greco أشهر أعضائها . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كان أهل كريت يكتبون الأدب الشعبى باللغة اليونانية على غرار الأساليب اللاتينية النمطية . وفى بعض الأحيان كان الرحالة الغربيون ينظرون شزراً إلى أولئك المستوطنين اللاتين فى الشرق الذين كانوا يحاكون فى كلامهم وملابسهم جيرانهم من اليونانيين ، ولكن حقيقة أن هذه التغييرات قد حدثت توحى بأن المجتمع قد انصهر واندمج إلى حد كبير، وكان أبعد ما يكون عن الاستقطاب ، إذ كان المجتمع قد انصهر سوياً إلى درجة كبيرة.

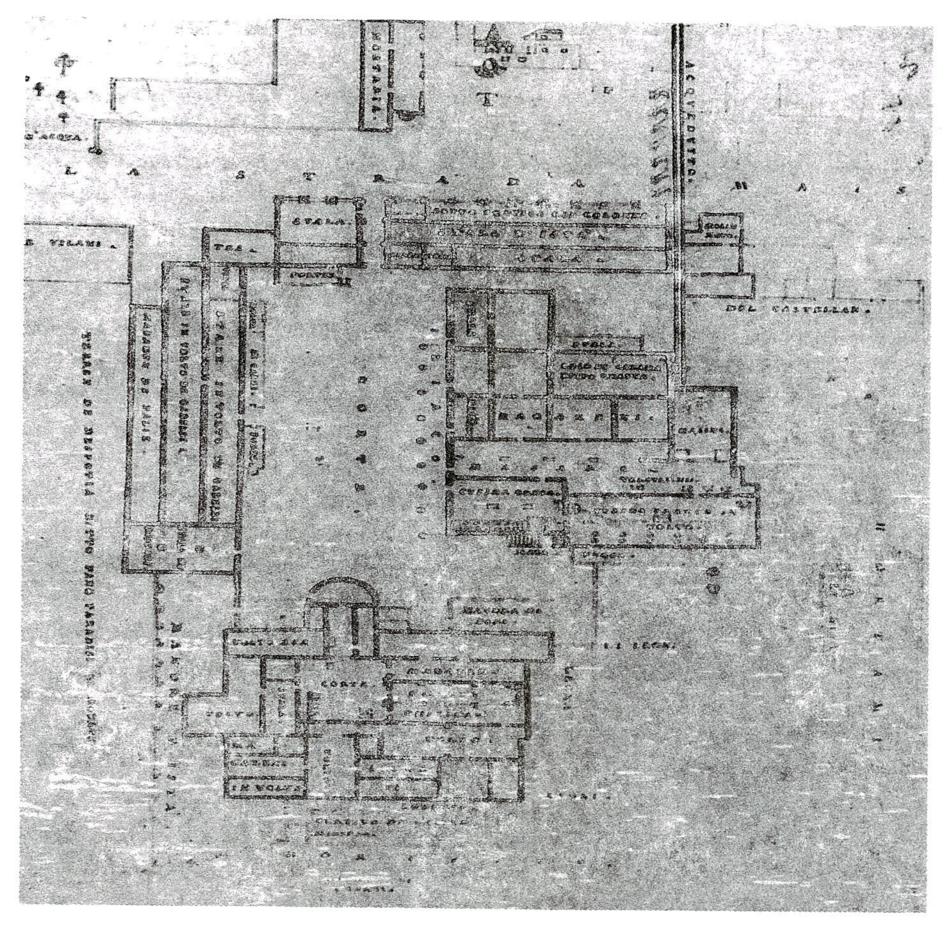
وفى قبرص كانت العادة أن يستخدم الملوك الصليبيون اليونانيين الأرثوذكس فى وظائف إدارتهم المالية المركزية (السكرتارية Secréte) ومع ستينيات القرن الخامس عشر كانوا يحررون خطاباتهم بالفرنسية ، أو الإيطالية ، أو اليونانية حسبما كانت تقتضى الضرورة . وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان يبدو أن شبكة مجموعة عائلات «الموظفين المدنيين» الأرثوذكس هى السائدة فى صفوف الموظفين . وكان المؤرخ القبرصى ليونتيوس ماخيراس Leontios Makhairas الذى عاش أوائل القرن الخامس عشر ، ينتمى إلى واحدة من هذه العائلات ، كما أن مؤرخته قد تأثرت باللغة اليونانية الدارجة التى كانت مستخدمة آنذاك، وقدم لنا نظرة متبصرة قيمة على المدى الذى استوعب به المثقفون المحليون الكلمات الغربية التى استعاروها من اللاتينية. كما أنها تعكس مواقف أحد أبناء تلك الطبقة : فقد كان فخوراً ومدافعاً عن أرثوذكسيته ربما بدافع من الشوق إلى مجد غابر من أيام الإمبراطورية البيزنطية ؛

وكان يسخر مغتاظا من الذين تحولوا من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية ، ولكنه كان أيضا مواليًا للحكام من آل لوزينيان ويكنُّ لهم الاحترام .

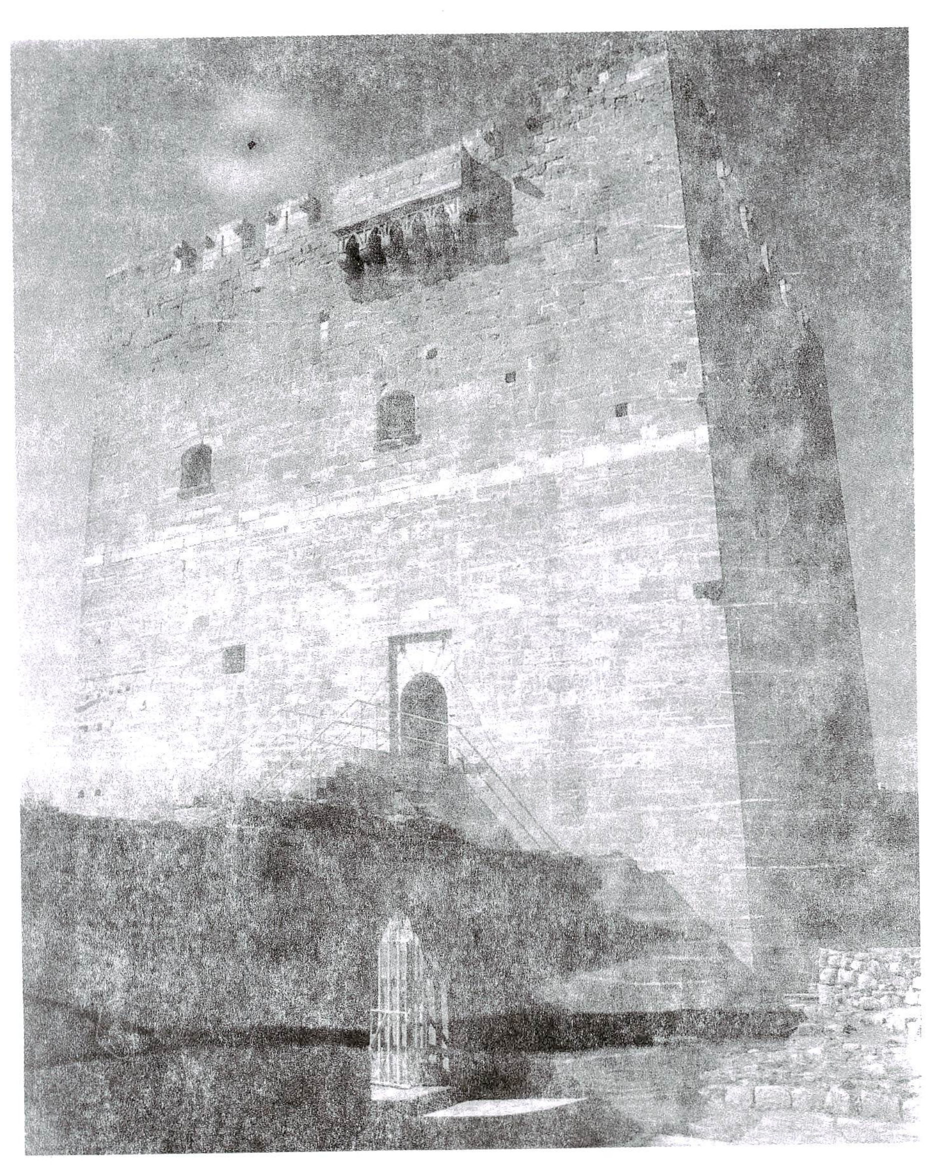
وإلى حد كبير كان الحكام فى الشرق اللاتينى راضين بأن يسمحوا لرعاياهم بأن يعيشوا حياتهم حسبما كانوا يعيشونها دومًا . وفى كريت وجنوب بلاد اليونان بقيت طبقة من ملاك الأراضى نجت من عملية الاستيلاء على الأراضى ، وبحلول سنة ١٣٠٠م كانوا قد أقنعوا السلطات بقبولهم باعتبارهم جزءا عضويًا من التراتبية الاجتماعية . وقد استعادت الجماعات الريفية بالتدريج تنظيمها الذى كان موجودًا قبل الغزو ، وكان الاختلاف الرئيسى متمثلاً فى أن الحاكم أو مالك الأرض الذى كانت الضرائب تؤدى إليه قد صار آنذاك من اللاتين بدلاً من اليونانيين . وليس هناك سبب يدعونا إلى افتراض أن أنظمة الحكم اللاتينية كانت أشد وطأة على الفلاحين مما كان أسلافهم من الحكام اليونانيين ، وبالفعل فإنه ربما ظل كل شىء ، بما فى ذلك الأقنان غير الأحرار الذين عرفوا باسم الباروبكوى Paroikoi ، الذين بقوا على حالهم، كما هو . وإلى جانب ثروتهم الزراعية ، كان معظم الحكام يتوقعون أن يحصلوا على نصيب ما من أرباح التجارة. وكانت أراضى البنادقة تدار على أيدى موظفين يتم إرسالهم من البندقية وظلت الحاجة إليهم لتسهيل مشروعات التجار البنادقة تحتل الأولوية . والواقع أن توسيع مصالح التجارة البندقية كان بمثابة سبب الوجود الأساسى لكثير من ممتلكات البنادقة فيما وراء البحار. بيد أن جميع الحكام كانوا قادرين على الإفادة من الرسوم على التجارة ومن الازدهار العام الذى كان يمكن للأنشطة التجارية أن يجلبها .

وفى بعض الحالات كان الحكام أو ملاك الأراضى يستثمرون فى عمليات زراعية أو صناعية ، وثمة مثال جيد يتمثل فى صناعة السكر التى كانت قد قامت فى كل من كريت وقبرص. ذلك أن نمو قصب السكر يتطلب كميات كبيرة من المياه ، وبذلك يكاد يكون من المؤكد أن الصناعة جلبت تغييرات فى استغلال الأرض من الأنماط الاعتيادية للفلاحة وزراعة المحاصيل المختلطة إلى

إنتاج محصول نقدى واحد. أما معامل السكر مثل تلك التى كشفت الحفائر عن آثارها فى كوكليا Kauklia وإبيسكوبى Episkopi فى قبرص فلا بد أنها كانت تتكلف الكثير فى بنائها كما كانت تتطلب قوة عمل كبيرة. ومن ثم فلابد أن الملاك كانوا بحاجة إلى رأس مال كبير، وربما يكونون قد استخدموا العبيد فى تشغيل المعامل. وليس



المخطط البندقى لمعمل السكر فى إبيسكوبى- كاستيلو دى بيسكوبى (Castello de Piscopia يرجع تاريخه إلى ١٥٥١م، وكانت الضيعة التى تقع جنوب قبرص ملكًا لعائلة كورنارو البندقية منذ منتصف القرن الرابع عشر.



قلعة كولوس بالقرب من ليماسول كانت ملكا لفرسان القديس يوحنا، وكانت مركزًا لإدارة . ضياعهم الشاسعة فى قبرص. وقد تم بناء المبنى الحالى فى منتصف القرن الخامس عشر.

هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن أغنى الأفراد والمؤسسات فقط هم الذين كان يمكنهم الاشتغال بتكرير السكر : فقد كان للملك معامل فى كوكليا ؛ وكانت للاسبتارية معامل فى كولوسى Kolossi ؛ أما عائلة كورنارو Cornaro البندقية فكانت معاملها فى إبيسكوبى. ولابد أنه كان يتم تصدير الإنتاج كله تقريبا إلى غرب أوربا. ولابد أن أرباح الاسبتارية وعائلة كورنادو كان يتم تصديرها كذلك : إلى رودس باعتبارها جزءا من الاستجابات القبرصية أو إلى البندقية لكى تزيد من حجم ثروة إحدى العائلات النبيلة الكبرى. هذا النموذج لمشروع زراعى- تجارى- صناعى، يؤدى بطبيعة الحال إلى التفكير فى حقيقة أن الحكومات الصليبية شرق المتوسط كانت بمثابة السابقة للمشروعات الاستعمارية التى ظهرت فيما بعد . ففى جوانب بعينها من زراعات وصناعة السكر القبرصية نجد بشائر بما صارت عليه زراعات قصب السكر فى منطقة البحر الكاريبى ، بيد أن التشابه هنا لم يكن كاملاً بأية حال من الأحوال .

فى كل مكان بالشرق اللاتينى كانت النخبة الحاكمة من الأجانب ، الذين أقحموا على مجتمعات كانت اللغة، والتنظيم الاجتماعى، والدين فيها تختلف عن لغتهم وتنظيمهم الاجتماعى وديانتهم. وكان هذا بحد ذاته أمراً عادياً : فقد كانت النخبة الحاكمة فى الإمبراطورية العثمانية من الدخلاء ، فى القطاع الأوربى على الأقل؛ كما كانت النخبة المملوكية فى مصر متمايزة عرقياً عن السكان الأصليين وحافظت على البقاء بمعزل عنهم. ولكن أنظمة الحكم اللاتينية كانت مختلفة إلى درجة كبيرة . ففى الممتلكات البندقية كان الحكام المحليون يعينون من جانب الجمهورية فى البندقية لوقت محدد لكى يديروا الأراضى وفقاً لمتطلبات الجمهورية. وعلى الطرف الآخر من المشهد لم يكن ملوك قبرص مسئولين أمام أحد ويحكمون مملكتهم حسب هواهم ولصالحهم . ومن ثم فإنه بالمعنى السياسى يمكن اعتبار الموانئ والجزر التى كانت بحوزة البندقية مستعمرات، على حين لايمكن أن نعتبر قبرص تحت حكم آل لوزنيان كذلك . أما الأملاك الجنوية ، التى تمتعت بقدر من الحكم الذاتى أكبر مما تمتعت به أملاك البندقية وآخايا وأثينا تحت حكم آل آنجو أو حكم أراجون ، فكانت السيادة تقع فى منزلة ما بين الطرفين.

ولكن هل يمكن القول إن الشرق اللاتينى كان مستعمراً بالمعنى الاقتصادى؟ لقد كانت كل من البندقية وجنوة تتطلعان إلى ممتلكاتهما فيما وراء البحار لكى تمدهما بالمواد الغذائية والمواد الخام: مثل النبيذ وزيت الزيتون ، والغلال، والفواكه المجففة ، وحجر الشب من فوكايا Phocaea والسكر ثم القطن فيما بعد من كريت وقبرص. وقد حاول البنادقة على وجه خاص أن يضمنوا أن تجارهم وأصحاب السفن يتاجرون بين البندقية نفسها وأسواقهم الشرقية ، ولكن الجنوية كانوا أقل تنظيمًا ، كما أن السفن الجنوية التى تحمل منتجات الممتلكات الجنوية كانت أقل التزامًا بتفريغ حمولاتها فى موانئ الوطن. ولذلك فإنه على الرغم من أن الشرق اللاتينى كان يرسل بالفعل المنتجات الأولية إلى أوربا، فإنه لايمكن اعتبار هذه العلاقة علامة استعمارية تمامًا سوى فى حالة البندقية . أما غير ذلك من المنتجات فكانت تباع فى أجزاء أخرى من عالم البحر المتوسط . أما البضائع الأغلى ثمنًا ، مثل الحرير من طيبة والمصطكى من خيوس، والسكر، فكانت تتطلب مستويات أعلى من الاستثمار ، ولكنها لم تتصور أبدًا إلى المدى نفسه الذى تطورت إليه الثقافات الأحادية التى طبعت بطابعها اقتصاديات جزر الكنارى، وجزر الكاريبى، أو جنوب الولايات المتحدة فى أوقات لاحقة . ونتيجة لهذا لم يكن هناك مكان فى الشرق وجد نفسه معتمداً إلى هذه الدرجة على محصول واحد فقط وبذلك يخاطر بحدوث كارثة فى حالة انهيار السوق . وفكرة أن الاقتصاد المحلى كان موجهًا صوب خدمة مصالح القوة الحاكمة البعيدة لم تكن مطبقة . فبالنسبة للجمهوريات البحرية الإيطالية كان جزء كبير من الثروة يأتى عن طريق التجارة الدولية فى بضائع الرفاهية . وفيما يخص الشرق اللاتينى، كان هذا يجلب معه نصيبًا من الأرباح التى كانت تتحقق من التجارة التى كانت تجارة عبور فى أساسها . فقد ازدهرت القسطنطينية وفاماجوستا وأياس فى أرمينيا الصغرى وموانئ البحر الأسود كلها ، لفترة من الوقت على الأقل، باعتبارها مستودعات لتجارة التوابل الشرقية كما أن ازدهارها اعتمد بشدة على وجود التجار الغربيين . فقد كان هؤلاء التجار ككل يشكلون قوة اقتصادية كبيرة، بيد أن ذلك لم يساعدهم بالضرورة فى السيطرة على المؤسسة السياسية المحلية .

ففى المناطق الريفية استغل ملاك الأراضى حقوقهم على الأرض والفلاحين واستأثروا بالأرباح لأنفسهم . وكان كثير من ملاك الأراضى، حتى فى كريت المملوكة للبندقية، يعيشون عيشة محلية . وهناك آخرون لم يعيشوا كذلك، وكان معنى ذلك أن الأرباح المجنية من الأرض كان يمكن جنيها كذلك من الاقتصاد المحلى برمته . وهكذا، فإنه على سبيل المثال، كان جزء على الأقل من الثروة يتولد عن مزارع قصب السكر ومعامل تكريره فى إبيسكوبى فى قبرص المملوكة لعائلة كورنارو يخرج من الجزيرة لكى يُزيد من ثراء العائلة فى البندقية . ومن الواضح أن استثمارات عائلة كورنارو كانت سابقة للمشروعات الاستعمارية اللاحقة ، ولكن من ناحية أخرى يمكن المجادلة بأنهم كانوا لايتصرفون بشكل يختلف عن ملاك الأراضى فى العصر البيزنطى السابق والذين كانوا يأخذون الأرباح من ولايات الإمبراطورية لإعالة أنفسهم فى القسطنطينية.

وفى فصل سابق من فصول هذا الكتاب ورد اقتراح أن فلسطين وبلاد الشام فى العصور الوسطى المركزية كانت قد خضعت لاستعمار دينى . وكانت هذه المستعمرات قد ضاعت آنذاك، ووصف المجتمع الغربى فى الشرق اللاتينى فى فترة العصور الوسطى المتأخرة بأنه مجتمع استعمارى فيه قدر كبير من المغالاة. فقد كان الحكام والمستوطنون والتجار مهتمين بتكوين ما يكفى من الثروات لضمان معيشتهم. ومن بعض الوجوه فإنهم كانوا سابقة لتصرفات المزارعين والإدارة الاستعمارية فى الأزمنة الحديثة . ولكن تركيز الانتباه فقط على مثل هذه الملامح كان لابد أن يشوش الحقيقة. ولم يكن الحكم الغربى مختلفا إلى هذا الحد عمَّا كان يجرى من قبل. ولم ينطلق اللاتين لكى يغيروا المجتمع وربما لم يكن السكان الأصليون فى حال أسوأ مما كانوا فيه قبل ذلك. وربما لم يكن هناك من الأدلة ما يكفى للبرهنة على مثالية الصليبيين فى القرن الثانى عشر، ولكن علاوة على التحريض على تكوين المال والحفاظ على ممتلكاتهم فإن فكرة أنهم كانوا يكبحون قوات الإسلام ويدافعون عن العالم المسيحى لم تسقط نهائيًا .

وذلك أن حكام قبرص ، والاسبتارية في رودس، والبنادقة فى صراعهم الذى استمر قرونًا ضد الأتراك، كانوا جميعًا يعرفون أن عليهم واجبًا دينيًا للحفاظ على أنفسهم فى مواجهة الهجمات الإسلامية ، وإذا كان شعورهم بالدوافع الدينية مختلطا بالمتطلبات الأكثر دنيوية للدفاع عن أنفسهم والحفاظ على معيشتهم ، فإنهم لم يكونوا أول من وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف ولا آخرهم.

(١٣)

النظم الرهبانية العسكرية
١٣١٢ م - ١٧٩٨م

أنتونى لوتريل

العصور الوسطى المتأخرة : دول النظم الرهبانية العسكرية ، والنظم الرهبانية الوطنية.

عند مطلع القرن الرابع عشر كان الوضع الرسمى لأعضاء النظم الرهبانية العسكرية فى الكنيسة اللاتينية قد تغير قليلاً منذ النشأة الأولى لهذه المنظمات فى القرن الثانى عشر ، على الرغم من تقدم عمليات جمع القانون الكنسى وتمرير قوانين وتشريعات جديدة داخل كل منظمة على حدة . وقد تضاءل احتمال أن الرهبان كانوا مدفوعين بالحماسة الروحية أو بمنظور الفعل الموجه مباشرة لاسترداد القدس، ولكن معظم العسكريين الدينيين كانوا لا يزالون يقسمون قسم الفقر والطهارة والطاعة، على حين كان من المفروض أن يعيشوا جميعًا وفقًا لدستور النظام الذى ينضمون إليه . فقد كان لكل من هذه النظم الرهبانية العسكرية دستور وافقت عليه البابوية ، التى تجلت قدرتها على التدخل فى شئون التنظيم ، بل وحله ، عندما حلّ البابا كليمنت الخامس Clement V تنظيم الداوية سنة ١٣١٢م . وباستثناء بروسيا وليفونيا Livonia ، كان الرهبان أقل تعرضا لمواجهة عدو كافر وأكثر ميلاً إلى السعى لتحقيق وضع آمن نسبيًا وإن كان غير مميز غالبًا فى المجتمع المحلى؛ كذلك كان من غير المحتمل أن يجربوا الحياة الطقوسية الجماعية داخل جماعة دينية كبيرة . وقد اختلفت النظم الرهبانية العسكرية العديدة عن بعضها البعض اختلافًا بيِّنًا ، ولكنها بصفة عامة كانت تستقبل

الفرسان، والمشاة ، والقساوسة والراهبات ، الذين كانوا جميعا مكرسين للقيام بنضال مسلح ضد الكفار . ولم يكن مسموحًا لأعضاء هذه النظم بأن يقسموا قسم الحروب الصليبية رسميًا، على الرغم من أنهم بطبيعة الحال كانوا يسهمون في الحملات الصليبية التي تم شنها ضد الكفار (أي أعداء البابوية) . وبحلول سنة ١٣١٢م كان هناك تمييز متزايد بين الحرب المقدسة الدائمة التي تشنها النظم الرهبانية العسكرية والتي كان يفترض ألا يقوم أعضاؤها بمحاربة المسيحيين- سوى في مواقف معينة محددة- وبين الحملة الصليبية التي يعلنها البابا، وهي حدث عارض كان يوجه غالبًا ضد اللاتين وغيرهم من المسيحيين أكثر من توجيهه ضد الكفار.

ولابد أن الأثر النفسي لقضية فرسان الداوية كان عميقًا وشاملاً، بيد أنه لم تكن هناك سوى مؤشرات قليلة مباشرة على حدوث أي تراجع في تجنيد الأعضاء في النظم الرهبانية الأخرى . فقد كانت الوظيفة الحقة لهذه النظم قد صارت موضوعًا لنقد واسع المدى وجدل عارم، مع طرح اقتراحات بتوحيدها في تنظيم واحد بل حتى بمصادرة أراضيها . وعلاوة على ذلك ، حثت البابوية في سنة ١٣١٠م على القيام بتحقيق وبحث الشكاوى الصارخة ضد نشاط الفرسان التيوتون في ليفونيا . إذ كان ذلك التنظيم قد نقل في سنة ١٣٠٩م مقره، أو هيئة أركانه ، من البندقية إلى مارينبورج Marienburg في بروسيا ، على حين كان الاسبتارية في سنة ١٣٠٦م قد بدأوا غزوهم لجزيرة رودس . هذا الغزو الذي يشبه القرصنة، والذي يحتمل أنه لم يكتمل حتى سنة ١٣٠٩م ، سبق الهجوم على الداوية سنة ١٣٠٧م وذهب إلى مدى جعل الاسبتارية بمأمن من أي هجوم مماثل. وعلى الرغم من أن هجوم الاسبتارية كان موجهًا إلى حد كبير ضد المسيحيين اليونانيين المنشقين (الهراطقة) ، فإنه أعطى الاسبتارية مهام يمكن تبريرها ضد الكفار كما وفر لهم استقلالاً لم يكونوا يتمتعون به أثناء وجودهم في قبرص . وقد استغل قائد الاسبتارية المكانة التي نتجت عن هذا بطريقة ماكرة ، وهو فولك الفيلاريتي Foulques of Villaret ، الذي زار الغرب وجرد حملة صليبية بابوية- اسبتارية أبحرت من إيطاليا في سنة ١٣١٠م تحت قيادة رئيس الاسبتارية وقامت بغزوات ضد الأتراك على أرض الأناضول . وبعد سنة ١٣١٢م كان الاسبتارية في جميع أنحاء الغرب

مشغولين فى عملية ممتدة لتأمين واستيعاب ميراث الداوية الهائل من الأراضى التى نقلها البابا إليهم. كذلك واجه الاسبتارية أزمة مالية كبرى أشعلتها حملتهم المكلفة على رودس وتهور فولك الفيلاريتي الذى أدى إلى خلعه سنة ١٣١٧م وإلى المنازعات الداخلية المدمرة التى نشبت . وكان ملوك شبه جزيرة أيبيريا يمانعون فى قبول حل الداوية وقبول ثروة الاسبتارية وقوتهم ، ويجادلون باستمرار بأن الداوية كانوا يتلقون الدعم للمساعدة فى إعادة استرداد شبه الجزيرة من المسلمين وليس للاستيلاء على مناطق البحر المتوسط؛ وفى قشتالة استولى النبلاء على الكثير من أملاك الداوية على حين أنشئت نظم رهبانية عسكرية جديدة وطنية فى ڤالنسيا والبرتغال.



RHODES: the thin curtain walls and high towers of the Hospitallers' pre-gunpowder fortifications, dating before 1480, along the sea front; the master's palace, destroyed in 1856, is shown on the hill in the background in an engraving of 1853.

رودس : الأسوار الرفيعة الساترة والأبراج العالية فى تحصينات الاسبتارية قبل استخدام البارود ، ترجع إلى ما قبل سنة ١٤٨٠م على امتداد جبهة البحر؛ وقصر القائد الذى تم تدميره سنة ١٨٥٦م يبدو واضحا على التل فى الخلفية فى نحت تاريخه ١٨٥٣م

لقد فشل البابا كليمنت الخامس فى إنقاذ الداوية ، لكنه لم يحفظ الكثير من أملاكهم بمنأى عن أيدى العلمانيين على حين كان يدافع عن المبدأ القائل بأنه لاينبغى للقوى العلمانية أن تحكم أو أن تتدخل فى شئون النظم الرهبانية العسكرية . وكثيرا ما كانت مصالح النظم الرهبانية العسكرية المنفردة تخرج من دائرة اهتمامات البابا، ولكن منذ سنة ١٣١٢م حتى سنة ١٣٧٨م شجع بابوات أڤينيون هذه النظم ، ووبخوها ، بل هددوها أحيانًا ، وكانوا يتصرفون باعتبارهم محكمة استئناف للرهبان، يفضون المنازعات الداخلية ويتدخلون باستمرار فى جميع أنحاء العالم المسيحى الكاثوليكى لحماية مصالحهم وامتيازاتهم . وهناك عدد من المنظمات الصغيرة مثل تنظيم سانت توماس الإنجليزى الذى كانت له مؤسسة صغيرة فى قبرص، تخلت عن أية مهام عسكرية فى أثناء القرن الرابع عشر. وفى شمال شرق أوربا سعى البابوات إلى موازنة أنشطة تنظيم التيوتون ، التى كان من الصعب التحكم فيها من مسافة بعيدة على هذا النحو ، فى مواجهة مصالح تنظيمات أخرى كانت تسعى أيضا إلى تحويل الوثنيين فى ليتوانيا وليڤونيا إلى المسيحية: وغالبًا ما كان الرهبان قادرين على أن يتملصوا من أوامر البابوية وهم يتنازعون مع الرهبان الفرنسيسكان، وكبير أساقفة ريجا Riga ، وملك بولندا ، وغيرهم من الحكام العلمانيين. وفى سنة ١٣١٩م حل البابا يوحنا الثانى والعشرون النزاع الدستورى داخل الاسبتارية من خلال اختيار هيليو الڤيلا نيڤى Hélion of Villeneuve القدير زعيمًا جديدًا للتنظيم . ومن أڤينيون ضغط البابوات على التوالى من أجل الفعل والإصلاح على حين تطورت رودس لتصير حصنًا بارزًا ضد الأتراك . وقد زاد بابوات أفينيون بصورة هائلة من تدخلات بلاطهم فى كافة الأمور الكنسية وكانوا يسعون من حين لآخر إلى



عضو غير معروف من النظام الڤالنسى نظام رهبان مونتيسا Montesa ، الذى يُفترض عادة أنه نظام رهبان فرسان، حسبما نسبته مانحة أواخر القرن الخامس عشر «عذراء فارس مونتيسا» إلى باولو من سان ليوكاديو .

التأثير على التعيينات داخل النظم العسكرية، لاسيما فى إيطاليا حيث استخدموا عددًا من الاسبتارية فى مناصب كهنوتية لحكم الولايات البابوية. إلا أن البابوات كانوا مقيدين بشكل حذر فيما يتعلق بالاسبتارية والرهبان التيوتون ، ولم يحدث سوى فى سنة ١٣٧٧م أن قام البابا جريجورى الحادى عشر ، الذى كان قد شكل فى وقت سابق هيئة للتحقيق فى موارد الاسبتارية فى الغرب، وقدم شخصًا بقى تحت حماية البابوية زمنًا طويلاً هو خوان فرنانديز دى هريديا Juan Fernandez de Heredia ، ليكون سيدًا على الاسبتارية فى رودس. وقد ازداد الموقف سوءًا من بعد ذلك بالنسبة لجميع النظم الرهبانية باستثناء الفرسان التيوتون ، لأن تدخل البابوات زاد بشكل مطرد فى انتخابات رئيس التنظيم أو غيرها من الانتخابات وكانوا ينتزعون أراضى التنظيمات بشكل مؤقت بل ودائم من خلال الشروط البابوية أو بطريق منحها إلى المقربين، والأقارب وغيرهم .

وفى إسبانيا كانت الحدود الإسلامية بحلول سنة ١٣١٢م قد تقلصت إلى أعمق منطقة فى الجنوب وصار النشاط ضد المسلمين عمليات متفرقة متقطعة . وقد استمرت النظم الرهبانية العسكرية فى الاستقرار واستغلال ممتلكاتها الشاسعة ، بيد أن الملوك الإسبان كانوا يتوقون إلى التحكم فى الأراضى، والصلاحيات والامتيازات التى كانوا قد منحوها من قبل إلى التنظيمات بل ومحاولة استردادها . وقد أمّن التاج الأراجونى أراضى كل من الداوية والاسبتارية فى ڤالينسيا لكى يؤسس تنظيم مونتيسا الجديد للدفاع عن الحدود مع المسلمين فى مُرسيه ، وفى سنة ١٣١٧م كان من المتفق عليه أن قادة الاسبتارية فى أراجون يجب أن يدينوا بالولاء للملك شخصيًا قبل أن يمارسوا مهامهم الإدارية . ذلك أن الملك كان قادرًا بالفعل على منع الأموال والرجال من مغادرة بلاده إلى رودس ، وبذلك كان قادرًا على التحكم فى التعيينات بحيث يمكن أن ينشر جزءًا من دخل الاسبتارية وقوتهم البشرية لأغراضه الخاصة؛ وقد اتضحت أهمية هذا بشكل مذهل فى أثناء حركات التمرد الكبرى من سنة ١٣٤٧ م إلى سنة ١٣٤٨م عندما

وقفت جميع النظم الرهبانية العسكرية إلى جانب الملك، ومرة أخرى بعد سنة ١٣٥٦م في الحروب ضد قشتالة . ولم تحقق المحاولات الملكية لتطوير تنظيم سان چورچ دى ألفاما San Jorge de Alfama الصغير ، الذى كان قد تم تأسيسه على الساحل القطلانى، سوى قدر قليل من النجاح ؛ وفى سنة ١٣٧٨م، أسر قراصنة شمال أفريقيا رئيس التنظيم وأخته من ألفاما، وفى سنة ١٤٠٠م تم دمج التنظيم فى تنظيم مونتيسا . وبعد ذلك بسنتين اقترح الملك مارتى Marti أن تتحول جميع النظم الرهبانية العسكرية الأراجونية ، بما فيها الاسبتارية ، إلى «سيادات Maestrats» تحت السيطرة الملكية وتخدم فى البحر ضد الكفار فى شمال أفريقيا (أى المسلمين) ؛ وفى سنة ١٤٥١م درس ألفونسو الخامس ملك أراجون فكرة تأسيس تنظيم مونتيا، الذى لم يكن له أية وظيفة عسكرية حقيقية ، فوق جزيرة مالطا .

أما النظم الرهبانية القشتالية ، سانتياجو، والقنطرة وكالاترافا ، فقد حافظت على نشاطها الأصلى فى الاستيطان والدفاع عن ضياعهم الشاسعة فى الأندلس ضد المسلمين، على الرغم من أن الحدود كانت قد تحركت باتجاه الجنوب بعيداً عن الكثير من أراضيهم. وفى غضون القرن الخامس عشر كانوا لا يزالون يعيدون توطين الناس فى القرى الحدودية التى كان المزارعون المسلمون قد هجروها؛ والواقع أن مثل هذه المؤسسات الجديدة استمرت فى كل مكان ، مثل لانجدوك الاسبتارية فى القرن الرابع عشر. وكانت للنظم الرهبانية العسكرية القشتالية وظائف أخرى؛ فنظام القنطرة مثلاً، كان يتولى حراسة الحدود البرتغالية فى منطقة اكستريمادورا Extremadura . وفى سنة ١٣٣١م رفض البابا طلبًا لاحقًا من ألفونسو الحادى عشر بإنشاء نظام رهبانى عسكرى جديد فى أراضى الداوية فى قشتالة ، وكان هذا الرفض يبدو مبرراً عندما شاركت كل النظم الإسبانية فى الانتصار المسيحى عند نهر سالادو سنة ١٣٤٠م الذى أدى إلى الاستيلاء على الجسر سنة ١٣٤٤م . وبعد ذلك بوقت قصير ، عندما دخلت قشتالة فترة مطولة من الحروب الأهلية أدت إلى المزيد من توريط جميع المنظمات

الرهبانية العسكرية فى مكائد الأسرة الحاكمة وفى صراعات وانقسامات سياسية مريرة. وكما حدث مع تنظيم المونتيسا ، لم تستخدم المنظمات الرهبانية العسكرية فى قشتالة مواردها ضد الكفار سوى فى بعض الأحيان . ففى سنة ١٣٦١م حارب السادة القشتاليون الثلاثة ومقدم الاسبتارية فى جيش ملكى أحرز نصرًا ضد المسلمين ثم لم تلبث أن حلت به الهزيمة خارج جوادكس Guadix ، حيث تم أسر قائد تنظيم كالاتراڤا .

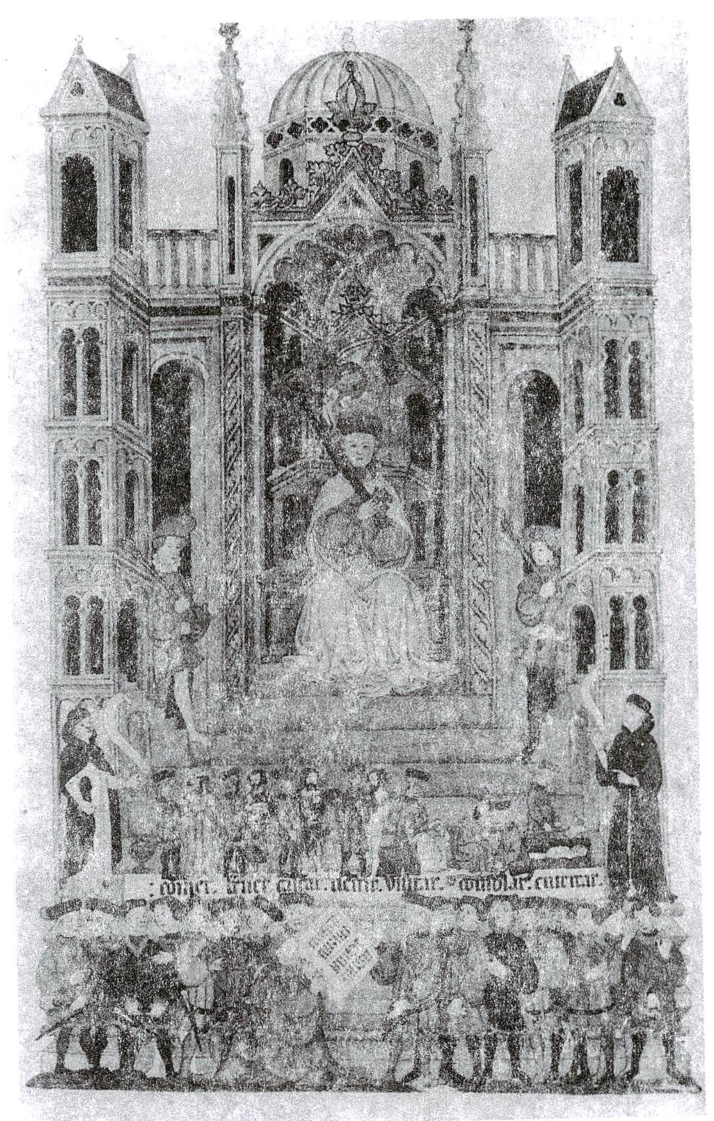
وفى قشتالة واجهت النظم الرهبانية العسكرية موقفًا يكاد يكون ساكنًا على الحدود؛ فعلى مدى مائة سنة وعشر سنوات انقضت من ١٣٥٠ إلى ١٤٦٠م ، كانت كلها باستثناء خمس وعشرين سنة هدنة رسمية ، لم تتخللها سوى مناوشات صغيرة . وحوالى سنة ١٣٨٩م قاد زعماء كالاتراڤا والقنطرة عملية عسكرية إلى أبواب غرناطة ، ونهبوا الضواحى ، وشكلوا تحديًا للملك المسلم. وعندما حدث سنة ١٣٩٤م ، أن خرق زعيم فرسان القنطرة مارتين يانيز دى لاباربودا Martin Yanez de la Barbuda الهدنة ولقى مصرعه فى عملية اقتحام متهورة تولدت عن شعور متعاظم بالإخلاص للحرب المقدسة ، كان الملك قد حاول أن يوقفه ، واعتذر فعلاً للمسلمين . وتم إحياء الاسترداد Reconquista فى قشتالة على يدى فرناندو الوصى على العرش الذى استولى على أنتيكويرا Antequera فى سنة ١٤١٠م بمساعدة النظم الرهبانية العسكرية . وقد استمرت هذه النظم فى تكوين حاميات القلاع وشن الحملات على الحدود حيث حدث كثيرا أن كان زعماؤها يتولون قيادة الجيوش الملكية، بيد أنهم غالبًا ما كانوا يفعلون ذلك بفضل كفاءتهم الشخصية باعتبارهم قادة ملكيين وكانوا يستخدمون قوات لاتضم أعضاء أى تنظيم رهبانى عسكرى . وعلى أية حال فإن تنظيم كالاتراڤا ، على سبيل المثال ، أسهم فى ست غارات تم شنها على الحدود فيما بين سنة ١٤٥٥م وسنة ١٤٥٧م كما أن قائده استولى على أركيدونا Archidona فى سنة ١٤٦٢م. وقد حارب الرهبان من جميع النظم الرهبانية العسكرية فى الحملات الخطيرة المريرة التى انتهت بفتح غرناطة

سنة ١٤٩٢م؛ وقد لقى كل من زعيم تنظيم سانتياجو وكالا تراڤا مصرعه فى لوخا Loja سنة ١٤٨٢م ، كما قتل قائد تنظيم مونتيسا فى بيزا Beza سنة ١٤٨٨م ، على سبيل المثال . لقد كانت النظم الرهبانية العسكرية تقدم الأموال، والغلال والقوات. فمن بين حوالى عشرة آلاف حصان تم جمعها فى غرناطة سنة ١٤٩١م، قدم تنظيم سانتياجو ٩٦٢ حصانًا ، مع ١٩١٥ فردًا من المشاة ، أما تنظيم القنطرة فقدم ٢٦٦ حصانًا ، وقدم الاسبتارية اثنين وستين حصانًا ؛ أما فرقة كالاتراڤا فلم يرد بشأنها شىء، لكنها كانت قد وصلت فى سنة ١٤٨٩م إلى أربعمائة فرد.

لقد شكلت النظم الرهبانية العسكرية القشتالية هيئات وطنية يقودها قادة كبار كانوا يقومون بحملاتهم العسكرية فى سبيل التاج ضمن الحملات الصليبية ضد المسلمين وكذلك فى الحروب الوطنية والأهلية ولكن كان معظمهم يفعل هذا دون اهتمام كبير بالجانب الدينى، وغالبًا ما كانت قواتهم ومواردهم تدمج فى الجيوش الوطنية وتخدم بمبادرة ملكية . وعبر قشتالة كانت النظم الثلاثة الرئيسية ، والاسبتارية بدرجة أقل، يحصلون على دخل هائل من قطعان الماشية الكبيرة ومن الطرق التى يهيمنون عليها . ومثلما صار الاسبتارية أكبر مالك للأرض فى أراجون ، كان نظام القنطرة يحوز تقريبا نصف أراضى أكستريمادورا ويمتلك نظام سانتياجو معظم أراضى قشتالة الجديدة Castilla la Nueva . وقد ساعدت هذه الثروة على دعم الأعضاء الذين جاءوا من النبلاء من المحاربين الأكفاء المتحمسين . لقد كانت فرصة أمامهم لخلق دولة تنظيم تنعم بالاستقلال الذاتى مثل تلك التى كانت على أرض رودس أو فى بروسيا؛ وبدلاً من ذلك فإن ثروتهم ونفوذهم جعلت السيطرة عليهم أمرًا حيويًا بالنسبة للتاج . وكان بوسع الملوك أن يتدخلوا فى الانتخابات وأن يقنعوا البابوات أن يقدموا للمناصب القادة الذين كانوا تحت السن القانونى أو ممن كانوا أبناء غير شرعيين أو أن يمنحوا الإعفاءات لمن ينتخبونهم ؛ وفى بعض المناسبات رفض الملوك قبول الولاء من جانب القادة الذين تم انتخابهم، وأجبروا آخرين على التنازل ، بل اغتالوا بعضهم. وعلى الرغم من المقاومة المتكررة والكثير من الخصومة ، فإن الملوك وكبار النبلاء قد أمنوا

السيادات للمقربين منهم وخاصة أبناءهم ، سواء كانوا أبناء شرعيين أم غير ذلك؛ وهكذا قام فرناندو دى أنتيكويرا لضمان السيادة على نظام القنطرة وسانتياجو لأبنائه فى سنة ١٤٠٩م ووعد باستخدام مواردهما فى الحرب ضد غرناطة. وكان هناك رهبان مثاليون وكانت هناك محاولات جادة ولكنها غير كافية للإصلاح . وقد لقى هؤلاء قليلاً من التشجيع من البابوية ، التى كانت تسهل بصورة متكررة التملص من القواعد. ولم يكن بمقدور الحكام المتزوجين أن يتولوا مناصب السيادة ولكن كان يمكن منحهم إدارة أحد النظم الرهبانية ، كما حدث سنة ١٤٥٦م عندما عين البابا كاليكستوس الثالث Calixtus III إنريك الرابع Enrique IV مديراً وحاكماً على كل من نظام سانتياجو وكالاتراڤا . وقد مضى تورط قادة النظم الرهبانية العسكرية شوطًا بعيداً بحيث أفسد الوظيفة الحقيقية لهذه النظم، مما ورط الرهبان فى الدسائس والانقسام والعنف الذى تمثل غالبًا فى اقتتالهم ضد بعضهم البعض . وقد تجنب الاسبتارية والتيوتون مثل هذه المتاعب باستبعاد النبلاء المحليين داخل دولتيهما من الدخول بوصفهم رهبانا - فرسانا .

لم تعد للبرتغال حدود مع المسلمين . وانتخب الفرع البرتغالى من سانتياجو قائده وكان قد صار مستقلا إلى درجة كبيرة، على حين كان نظام آڤيس Avis نظاماً رهبانياً وطنيًا مثل نظام المسيح، الذى كان قد تم تأسيسه بأملاك الداوية سنة ١٣١٩م. وقد حاربت النظم البرتغالية بما فيها الاسبتارية المسلمين عند نهر سلادو Salado سنة ١٣٤٠م ولكن على مدى عشرات السنين كانوا غارقين بشكل أساسى فى الشئون السياسية الوطنية وخاضعين بدرجة كبيرة للتاج الذى عمل، مثلما حدث فى قشتالة ، على فرض الأمراء الملكيين وغيرهم ليكونوا قادة عليهم. أما بالنسبة للاسبتارية البرتغاليين، فإنهم لم يكونوا قد دفعوا فى سنة ١٣٧٥م أية أموال لرودس على مدى تسع سنين . وفى سنة ١٣٨٥م قام الوصى ، وهو الابن غير الشرعى للملك بدرو الأول الذى كان قد جاء به رئيس فرسان المسيح والذى كان قد صار رئيس



منمنمة ترجع إلى سنة ١٤٣٠ تقريبًا تبين الربى موسى آراجيل يقدم ترجمته للكتاب المقدس من العبرية إلى اللغة القشتالية إلى لويس دى جوزمان قائد فرسان كالاترافا الجالس على العرش ومعه سيفه الاحتفالى؛ والرهبان - الفرسان من كالاترافا بصليبهم الأحمر، يحيطون المترجم على حين يقوم رهبان آخرون بغير سيوف بعمل بعض أعمال الإحسان ، فيوزعون الطعام والكساء ، يواسون المصابين ويدفنون الموتى.

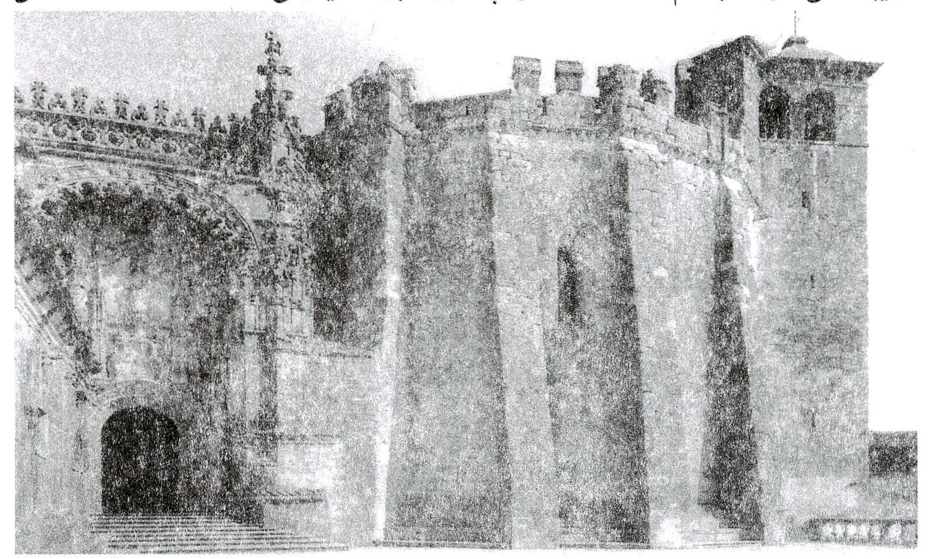
فرسان أفيس ، وتزعم المعارضة الوطنية للغزو القشتالى وصار ملكا باسم خواو الأول Joao I وعادت النظم الرهبانية باختصار إلى شئون الحرب المقدسة عندما كانت حرب الاسترداد البرتغالية قد امتدت إلى ما وراء البحار، إذ إن قائد تنظيم المسيح ومقدم الاسبتارية كانا يقاتلان فى عملية الاستيلاء على سبتة فى المغرب سنة ١٤١٥م . وقد عين البابا مارتين الخامس الأمير هنريك حاكمًا على تنظيم فرسان المسيح سنة ١٤١٨م تقريبًا ، واستطاع أن يستخدم الرهبان الفرسان فى هذا التنظيم وثروته لتمويل رحلاته الاستكشافية الشهيرة . وفى سنة ١٤٤٣م أعطى البابا لتنظيم فرسان المسيح حق الحصول على أية أراض يمكنهم الاستيلاء عليها مستقبلاً فى المغرب، وفى جزر الأطلنطى وأى مكان آخر فيما وراء البحار . وكان التنظيم قد تلقى امتيازات مادية وروحية هائلة فى جزر المحيط الأطلنطى، وعلى امتداد الساحل الأفريقى، ثم فى آسيا أخيرا ، وأنه فى سنة ١٤٥٧م منح هنريك التنظيم نسبة واحد على عشرين من العوائد المتحصلة من غينيا؛ وتجلى فى حقيقة أن ثروة التنظيم العظيمة فيما وراء البحار قد ظهرت فى وقت لاحق فى دير راهباته الفاخر بأروقته العديدة فى تومار. وقد استمر التدخل الملكى فى الأنظمة البرتغالية، وتورط هذه الأنظمة فى الشئون السياسية العلمانية ، ومنازعاتها الداخلية، وكثرة تعيين الأمراء الملكيين للسيطرة على مواردها ، ولكن إسهامهم فى الحملات الصليبية التى دعت إليها البابوية ضد المسلمين فى المغرب لم يحدث سوى من حين لآخر . وقد حاربت الفيالق العسكرية للنظم الرهبانية البرتغالية الثلاثة فى الهجوم الفاشل على طنجة سنة ١٤٣٧م، وعلى الاسبتارية البرتغاليين فى أرزيلا Arzila سنة ١٤٧١م. وقد رفضت النظم الرهبانية البرتغالية الثلاثة والاسبتارية البرتغالية كلها الاقتراحات التى قدمها البابا سنة ١٤٥٦م لهم بتأسيس مواقع عسكرية وبحرية وأن يحتفظوا بثلث الرهبان فى سويتا، وفى سنة ١٤٧٦م وافق البلاط البابوى حتى على أن النظم الرهبانية البرتغالية ليست ملزمة بالاشتراك فى أية حرب هجومية مما أثار الاحتجاج فى البرتغال .

وفى أقاليم البلطيق فى بروسيا وليفونيا، التى كان يفصلها شريط من الأرض كان موضع نزاع لاينتهى، كان الألمان قد نجحوا فى اتباع طريقة مواجهة مختلفة تماما،

وداخل القارة أساساً . وكانت هذه المواجهة قد صارت أقل مرارة مما كانت عليه في القرن الثالث عشر ، خاصة في الأجزاء الغربية من بروسيا التي كانت أكثر سلمية ، بيد أنها كانت لا تزال مواجهة مستمرة ، وغالباً ما كانت مرعبة ودموية . وقد احتفظ تنظيم فرسان التيوتون ببعض ممتلكاتهم في إقليم البحر المتوسط ، لاسيما في صقلية وأبوليا ، بالإضافة إلى مقاطعاته الشاسعة وأراضي التجنيد في فرانكونيا ثورينجيا على طول نهر الراين، في الأراضي الألمانية الأخرى . وعلى الرغم من أن هذا التنظيم كان يعتمد على ممتلكاته الألمانية في الحصول على القوة البشرية ، فإنه لم يكن مقيداً داخل حدود أية مملكة مثلما كانت النظم الأيبيرية. فقد كانت بروسيا وليفونيا تقعان خارج الإمبراطورية ، وكانتا مملوكتين أو محميتين بطرق غامضة وتثير الجدل، لكل من الإمبراطور والبابا ، وكان هناك نزاع مرير على الغرض الصحيح للتنظيم : فقد كان الرهبان الفرسان في البلطيق يلجأون إلى رئاستهم لكي يتحركوا شمالاً لإنهاء العبء المزدوج في بروسيا والشرق بالتركيز على وظيفة التنظيم الجديدة في محاربة الليتوانيين، على حين كان آخرون يريدون الاستمرار في متابعة هدف الاستيلاء على القدس. وأخيرا في سنة ١٣٠٩م نقل القائد سيجفريد ڤون فيختفانجن Siegfried von Feuchtwangen مقر الأركان من البندقية إلى بروسيا بدون موافقة زملائه الرهبان الفرسان. وقد تم نفي خليفته كارل ڤون تريير Karl von Trier إلى ألمانيا سنة ١٣١٧م وهي السنة نفسها التي شهدت خلع الاسبتارية لقائدهم . أما القائد التالي ڤيرنر ڤون أورسلن Werner von Orseln فقد انتخب في بروسيا سنة ١٣٢٤م ، ومن بعدها كان القادة يحكمون بلاطاً فخيماً من القصر المهيب على ضفاف النهر في مارينبرج ، بمساكنه المبنية بالطوب الأحمر ، ومبنى اجتماع الرهبان ، والمصلى.

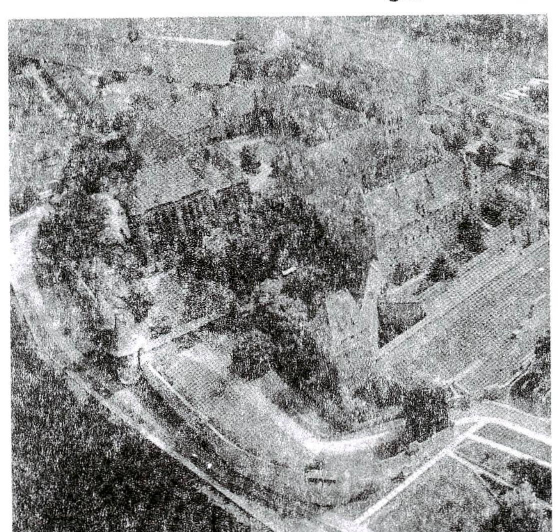
في سنة ١٣١٠م واجه تنظيم الفرسان التيوتون اتهامات خطيرة للغاية بذبح المسيحيين في ليڤونيا، وبأنهم نهبوا الكنيسة في وحشية ، وهاجموا كبير أساقفة ريجا Riga، وتاجروا مع الوثنيين ، وتخلوا عن مهمة التنصير، وساقوا العديد من المتنصرين إلى الارتداد . وكان التنظيم في خطر محدق معرضاً للحل، وصار متورطاً في دبلوماسية مرتبكة مع الليتوانيين الذين كان تظاهرهم الماكر باعتناق المسيحية محرجاً

له ويجـــرده من جـــدارته، بيد أنه واصل عـــمله بحيث حقـــق تقـــدما حقيـــقيًا ، على الرغم من المعارضة المسلحة من جانب البـــولنديين . وتم الاستـــيلاء على كثير من الأراضى . فقد تم الاستـيلاء على دانزج **Danzig** وشرق بوميـــريليا **Pamerelia** فى سنة ١٣٠٨م، وتم شـــراء اســـتونيا **Estonia** ، إلى الشـــمال من ليڤـــونيا ، من الدانمركـيـين سنة ١٣٤٦م، ولكن المعـارضـــة العنـــيـدة والفـعـالة من جـانب الليتوانيين الوثنيين وحاجة التنظيم إلى كل من الأسـلاب والمتنصـــرين كانت تتطلب القيام بكثير من الحملات . وتحت قيادة ڤينريخ ڤون كينبرود **Winrich von kinprode** ، القـائد من سنـــة ١٣٥٢م حتى سنة ١٣٨٢م، تمـــت هزيمـــة الليـتوانيين هزيمـة فـادحة بمسـاعدة النبـــلاء الغربيين الذين اجتذبتهم حملات فـرسان التـــيوتون المهيبة التى عرفت باسم **Reisen** . كان چـــون البوســـيكوتى **John of Boucicaut** فى

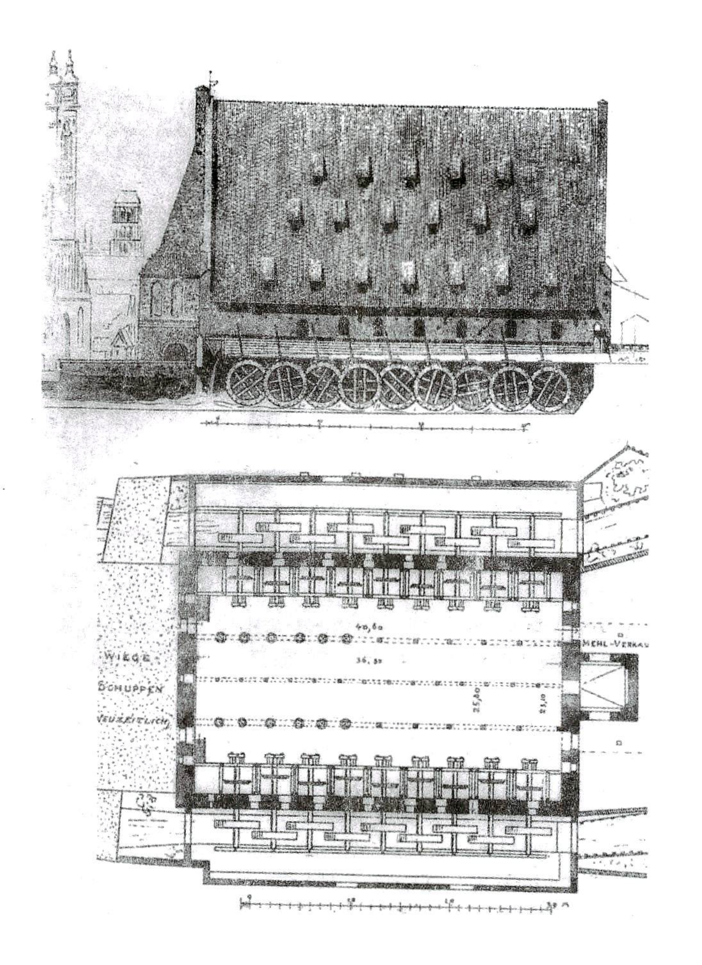


مدخل كنيسة المقر الكبير لتنظيم فرسان المسيح البرتغالى فى تومار Tomar، وقد بنى على الطراز المانويلى Manueline الثرى الذى يرجع إلى بواكير القرن السادس عشر إلى جانب الخارج الذى يرجع إلى فترة أسبق ويضم مصلى يشبه الحصن كان ملكا للداوية بدعاماته الصلدة .

شبابه ،قد خدم ثلاث مرات فى بروسيا، قبل أن يصبح مارشال فرنسا فى وقت لاحق ، كما خدم الأمير الإنجليزى، الذى صار فيما بعد الملك هنرى الرابع، مرتين فى بروسيا، وغالبًا ما كانت هناك حملتان بروسيتان سنويا وحملة واحدة على ليڤونيا . وقد تسببت هذه الحملات فى الكثير من القتل والخراب، على حين عانى الرهبان الفرسان من الخسائر فى الشئون الحربية التى كانت تجرى بأسلوب وعلى نطاق غير معروف فى رودس أو فى إسبانيا . ومن المتناقضات أن انتصارات الألمان قد أسهمت فى سقوطهم : ففى سنة ١٣٨٦م تحالف الليتوانيون الأقوياء مع البولنديين كما أن تنصرهم الرسمى قوض المبرر الأساسى للحرب المقدسة التى يخوضها فرسان التيوتون . وقد أكد تنظيم الفرسان التيوتون بمواصلة الحرب أن أهدافه كانت سياسية وألمانية بقدر ما كانت دينية ومسيحية . ونتيجة لهذا سرعان ما تضامن أعداؤه فى عزمهم على استرداد أراضيهم ، وفى سنة ١٤١٠م كان البولنديون وتنويعة من حلفائهم يفوقون جيش التيوتون عددًا ودمروه عند تانبرج **Tannenberg** .



الطرف الديرى من مقر أركان فرسان التيوتون فى مارينبورج ببروسيا الذى تحيط به أسوار من الطوب الأحمر ، مع الفناء الرئيسى ، وقصر قائد التنظيم، ومساكن الرهبان، والبرج الذى يضم دورة المياه، والمكاتب الأخرى (كما وردت فى الرسم التخطيطى الذى سيرد فى الصفحات التالية .



مسطح ومخطط الطاحونة المائية الكبيرة للفرسان التيوتون التى بنوها فى القرن الرابع عشر فى دانزج : مثال على التنظيم الفنى والتجارى الكفء الذى استند عليه اقتصاد التنظيم

لقد جلب تنظيم فرسان التيوتون المستوطنين الألمان كما نجح فى تنصير العديد من السكان الأصليين الوثنيين فى عملية استعمارية كبرى كانت أوسع كثيرا من تلك التى قامت بها النظم الرهبانية العسكرية القشتالية فى الأندلس. **فقد خلقت نموذجًا** للكفاءة الإدارية والبيروقراطية الموحدة هى التى عرفت باسم الدولة التنظيم **-Ordens**

staat بامتياز . وبينما كانت بروسيا، التى ربما كان عدد سكانها ثلاثمائة وخمسين ألفا، لاتطلب المال من قياداتها فى ألمانيا ، كان تجنيدها للأفراد يعتمد على تدفق الرهبان الفرسان القادمين من ألمانيا . وكانت القيادات البروسية لاتدفع أية رسوم منتظمة بالمقارنة مع ما كان الاسبتارية يدفعونه وكانت البيوت الألمانية لاترسل أية أموال تقريبًا ، ولكن فى بروسيا نفسها كان تنظيم الفرسان التيوتون يحصل على الإيرادات من التجارة ، ومن إيجار الأرض، ومن الغنائم والأسلاب ، ومن الضرائب التى تفرض على تغيير مناصب الرهبان الفرسان التى كانت تحدث كثيرا ؛ وفى القرن الخامس عشر كان التنظيم قد فرض الضرائب أيضا على السكان. وكانت الموارد من مختلف المصادر يتم توزيعها فى حصص لميزانيات معينة، مثلما كان الحال مع تنظيم مونتيسا والنظم القشتالية. كان بعض الرهبان - الفرسان يدفعون رسوم دخولهم التنظيم، وكان يتم استقبالهم فى منزل بألمانيا ، ويظلون هناك ببساطة : أما البعض الآخر فكانوا يقابلون بالرفض فى ألمانيا ويسافرون إلى بروسيا أو ليڤونيا ومعهم أسلحتهم ، وثلاثة خيول، ومبلغ ستين فلورين. وكان أولئك الذين يذهبون إلى بروسيا ، وكثير منهم من فرانكونيا، نادرا ما يعودون. أما القساوسة ورهبان الخدمة فكان يتم تجنيدهم إلى حد كبير من بين المستوطنين الألمان فى بروسيا.

وربما كان هناك مائة من الرهبان الفرسان فى مركز القيادة بمارينبرج، ومئات غيرهم فى القيادات الفرعية ؛ وكانت بعض بيوت الرهبان تضم أقل من عشرة من الرهبان الفرسان ولكن بيوتا أخرى كانت تضم ثمانين رجلاً أو أكثر. ومع مرور الوقت قلت الفروع العامة ولم يكن هناك ما يعادل الخاتم الديرى لدى الاسبتارية ، ولكن كبار الموظفين كانوا يتمتعون بخبرة إدارية واسعة وكان بوسعهم، مثل كبار الاسبتارية، أن يكبحوا جماح قائدهم. فقد كان مُجبرًا على أن يستشير كبار موظفيه وقادته؛ ويمكن أن يقع تحت تهديد الخلع ، بل تم اغتيال أحد القادة . وقد أقام بعض صغار الموظفين فى مارينبرج حيث سيطروا، مثلاً، على الخزانة ، ولكن آخرين غيرهم كانت لهم مقارهم الإقليمية الخاصة ، مثل مقر مارشال كونيجسبرج ، وكانوا يقيمون بها. أما الطبقة الأكثر عدداً بين الرهبان الفرسان، أى الفرسان، فقد شكلوا فئة أرستقراطية إلى حد كبير، بيد أن ذلك ساعد على إبعاد رعاياهم من المستوطنين الألمان ، الذين كان

بوسعهم عادة أن يدخلوا التنظيم بوصفهم قساوسة ، أو رهبان خدمة وممن كانوا يفتقرون إلى التمثيل فى حكومة بلادهم. ولم يكن لدى تنظيم فرسان التيوتون أسطول حقيقى ولكن جيشه كان مسلحًا تسليحًا ممتازًا ، وبعد سنة ١٣٨٠م كانت لديه مدافع ، كما كانت قلاعه مشيدة بشكل جيد . وبعد سنة ١٤١٠م، أدت الحاجة لاستئجار المرتزقة بمبالغ طائلة إلى فرض قيود مالية صارمة بشكل متزايد .

وهناك فى الشمال شن فرسان التيوتون حربًا مقدسة متمايزة تمامًا فى ليڤونيا ، حيث كان نظامهم قد طور نظام حكم شبه مستقل كانت له بعض خصائص الدولة - التنظيم Ordensstaat المستقلة وله تنظيمه الخاص وسياساته الخاصة. وكان هناك قائد ليڤونى منفصل يصادق على تعيينه القائد الأعلى أو الهوخميستير Hochmeister فى بروسيا من بين اثنين من المرشحين يتم اختيارهم فى ليڤونيا؛ وبعد سنة ١٤٣٨ م كان الرهبان الفرسان فى ليڤونيا يختارون قائدهم بالفعل. وكان الرهبان- الفرسان فى ليڤونيا يأتون بصفة خاصة من شمال ألمانيا وحوض الراين، ومعهم بعض القساوسة ورهبان الخدمة من ليڤونيا. وكانت شروط الخدمة أكثر قسوة مما كانت عليه فى بروسيا، كما أن الزحف شرقًا تضمن غارات لا نهاية لها على الغابات ، وحالات نهب، وهدنات ، وتحولات فى التحالفات . وكان عنصر الاستغلال أكثر وضوحًا فى ليڤونيا حيث كان الزواج المختلط قليلاً بين الأقلية الألمانية من المستوطنين والسكان الأصليين. وقد احتفظ الرهبان الفرسان فى ليڤونيا ، والذين لم تمسهم الكارثة التى جرت فى تاننبرج سنة ١٤١٠م والتى لم يلعبوا فيها أى دور ، بدور أشد وضوحًا وعدوانية ضد الوثنية، كما أنهم حاربوا الهراطقة الروس مرات ومرات. وعلى أية حال ، فكما كان الوضع فى بروسيا كانت هناك منازعات داخلية خطيرة تتمركز بصورة خاصة حول السيطرة المنفردة على الثروة. وفى سنة ١٤٧١م خلع الرهبان الفرسان فى ليڤونيا قائدهم يوهان وولثوس Johann Wolthuss ، الذى اتهم بالعديد من المفاسد ، وبالإعداد لحرب ضد الروس على عكس جميع النصائح ، وبأنه استولى شخصيًا على عدد من مراكز القيادة وثرواتها . واستمرت الحروب الروسية ؛ وفى سنة ١٥٠١م، مثلاً، نهب الروس شرق ليڤونيا ولكن الهزيمة نالتهم فى السنة التالية على يد القائد وولتر ڤون بلبيتنبرج Wolter von Plettenberg الذى عمل الكثير فى سبيل استقرار الموقف الليڤونى.



خرائب قلعة فرسان التيوتون والبرج المثمن فى فيسينشتين Weissenstein فى إيستونيا فى الجزء الشمالى من ليفونيا التى كانت دولة للتنظيم : وقد استمر الفرسان الرهبان فى الدفاع عن هذه المنطقة النائية حتى سنة ١٥٦١م.



اجتماع عام للاسبتارية يفترض أنه فى رودس، وثمة كاتب يسجل أعمال الاجتماع؛ هذا الحفر على الخشب نشر سنة ١٤٩٣م يبين الهيئة التشريعية للتنظيم التى كانت تمرر القوانين الأساسية ، وتحل المنازعات وتسمح لممثلى الاسبتارية فى الغرب ببعض السيطرة على القائد.

وبعيداً فى رودس دبَّر الاسبتارية لأنفسهم وظيفة مزدوجة فى تحديد مسار السفن اللاتينية وحمايتها وفى مواجهة الأمراء الأتراك فى أراضى الأناضول الساحلية ، قبالة رودس أولا ثم مجابهة قوة النظام العثمانى الذى توسع بسرعة فى الشمال بعد ذلك . لقد كانت نظم الرهبان الفرسان التيوتون فى شبه جزيرة أيبيريا فى أساسها نظمًا وطنية ، ولكن الاسبتارية كانوا حقًا منظمة عالمية، قادرة على النجاة من الهجمات التى تشن عليها داخل الممالك كل على حدة . وكان نضال الاسبتارية أقل تركيزًا من نضال الفرسان التيوتون ، كما كان عملهم العسكرى أقل استمرارية وكثافة، بيد أنهم لم يكونوا بالضرورة كيانًا أضعف . ذلك أن المعادلة السعيدة لدولة– تنظيم رهبانى عسكرى (مثل دولة الاسبتارية فى رودس) تقوم فوق جزيرة ، أتاح لها البقاء على مدى عدة قرون ، على حين كان دستورها يقيد القائد الذى كان يتمتع بسلطات واسعة على رودس ولكن سلطته داخل منظمته كانت محدودة تمامًا بالفعل ومتوازنة بفعل الأوليجاركية متعددة الجنسيات من كبار الضباط، وبفعل قيود قانونية مثل تلك التى تحكم استخدام أختامه. وثمة ترتيبات أخرى، مثل مؤسسة الألسن (اللغات) Langues، أو التجمعات الوطنية، وبيوت السكن auberges للتجمعات الوطنية، قد خدمت فعلاً فى توزيع المناصب وفى تخفيف التوتر بين الرهبان الفرسان ذوى الأصول المختلفة، على الرغم من أنها شكلت مصدراً لاينتهى للاحتكاك على أحد المستويات .

كانت جزيرة رودس صغيرة نسبيًا ومواردها محدودة ، ولكن كان يمكن تحصينها بالحجارة والدفاع عنها بأقل قوة بشرية ممكنة : ولم يكن الصراع المسلح دائم الحدوث على حين كان يتم استئجار السفن والقراصنة عند الضرورة . وربما يكون عدد الفرسان الرهبان الاسبتارية قد اختلف بدرجة كبيرة فيما بين مائتين وخمسين وأربعمائة وخمسين فرداً ؛ وكانت رودس، بخلاف بروسيا لاتحتاج إلى الرجال، الذين كان وصولهم أحيانا لايلقى التشجيع بالفعل، لكنها كانت تحتاج المال، ولاسيما لدفع أثمان واردات الطعام . وكانت بعض الميزانيات يتم تدبيرها من خلال تطوير الميناء واقتصاد الجزيرة ؛ أما معظم الباقى فكان يأتى من الأديرة الغربية التى كان لابد من تبرير الاحتفاظ بها بقدر من التظاهر بالحرب المقدسة. وكانت دولة الاسبتارية فى

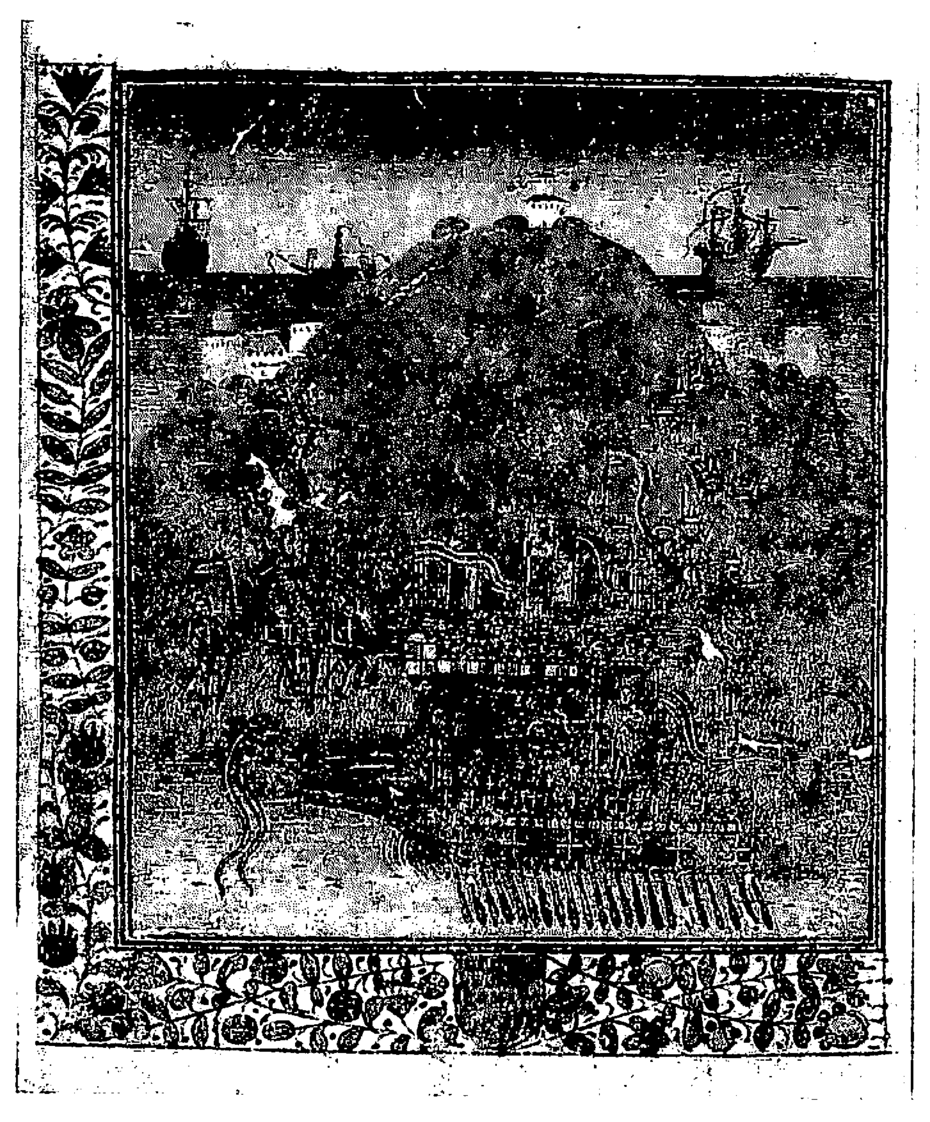
رودس تتطلب تأسيس تقاليد بحرية وترتيب الاقتصاد المحلى والحكومة المحلية بطرق تخدم التدابير الدفاعية. وكان الميناء يجلب السفن، والحجاج، والقراصنة، والتجارة، والضرائب ؛ كما أن الجزيرة كان بها من السكان من ينتجون المواد الغذائية ويوفرون القوات المساعدة ؛ وكانت غاباتها توفر الأخشاب اللازمة لبناء السفن؛ وبنى السكان الأبراج والقلاع وحشدوا بها الرجال أو خدموا مجذفين فى السفن . وكانت رودس تم الاستيلاء عليها نتيجة الاستسلام بشروط متفق عليها كما أن اليونانيين الذين ربما كان عددهم عشرين ألفًا بحلول سنة ١٥٢٢م كانوا يحظون بالطعام والحماية والتمثيل فى الحكم بدرجة معقولة، على حين كانت رودس تعترف بالبابا الرومانى وتحتفظ بالطقوس اليونانية؛ وعلى العموم كان السكان يشعرون بأنهم يلقون معاملة معقولة ، وكانوا مستعدين للتعاون .

لقد أدار الاسبتارية عندما انتقلوا من قبرص إلى رودس ظهورهم لنموذج الحملة الصليبية القديم الموجه إلى القدس، على الرغم من أنهم ظلوا يقدمون المساعدة من حين لآخر للمسيحيين فى أرمينيا الصغرى، كما أنهم احتفظوا بقاعدتهم الغنية بصناعة السكر فى قبرص . وبعد سنة ١٣٠٦م تمثل إنجازهم فى التقليل من الاعتداءات البحرية للأتراك فى منطيش Menteshe ودفع مركز التوسع التركى شمالاً صوب آيدين Aydin، كما جعل القاعدة البحرية للتوسع فى سميرنا Smyrna . كما أسهم الاسبتارية فى العصب البحرية اللاتينية التى قامت ضد أومور Umur العظيم حاكم أيدينا ، خاصة سنة ١٣٤٤م . وفى ذلك الحين تمت إعادة مالية تنظيم الاسبتارية ، إلا أن الاقتراحات بالقيام بحملات صليبية سنة ١٣٣٥م وسنة ١٣٣٦م لقيت الرفض من البابا بندكت الثانى عشر ، وربما لكى يمنع الاسبتارية من نقل ائتماناتهم الكبيرة من المصارف الفلورنسية المملوكة للبابا ؛ ونتيجة لهذا، خسر الاسبتارية فيما بين سنة ١٣٤٣م وسنة ١٣٤٥م مبلغًا ضخمًا يزيد على ثلاثمائة وستين ألف فلورين عندما أعلن الصيارفة باردى Bardi وأكشيولى Acciaiuoli ، وبيروتزى Peruzzi إفلاسهم. ومن بعدها تسببت الحرب الأنجلو - فرنسية وغيرها من الحروب، والوباء الكبير الذى جاء

سنة ١٣٤٧م، ثم التدهور الاقتصادى والسكانى العام فى الغرب فى تقليص الموارد، وانكماش التجنيد وتناقص النشاط العسكرى بدرجة كبيرة . كانت فعالية الاسبتارية تعتمد على كفاءتهم وخبرتهم بقدر ما كانت تعتمد على مواردهم . كانت السفينة أو السفينتان اللتان تحرسان رودس مع خمسين رجلاً أو مائة رجل مع قواتهم المساعدة قادرة على أن تلعب دوراً مهمًا . وقد تعاون الاسبتارية فى الحملة الصليبية التى استولت على سميرنا فى سنة ١٣٤٤م وفى الدفاع عنها بعد ذلك؛ ومن سنة ١٣٧٤م حتى خسارتها سنة ١٤٠٢م كان الاسبتارية يتحملون وحدهم مسئولية سميرنا . وقد حارب خمسون من الاسبتارية ضد العثمانيين فى لامبساكوس Lampsakos فى الدردنيل سنة ١٣٥٩ م، كما خدمت قوات الاسبتارية ضد الأتراك على السواحل الأناضولية المواجهة لقبرص فيما بين سنة ١٣٦١م وسنة ١٣٦٧م. كذلك شارك حوالى مائة من الرهبان الفرسان ومعهم أربع سفن حربية تحت قيادة الأدميرال فيرلينو دى إيراسكا Ferlino d'Airasca فى حملة صليبية كبرى نهبت الإسكندرية سنة ١٣٦٥م(*). وبحلول سنة ١٣٧٣م كان الاسبتارية القوة العسكرية الوحيدة المتاحة أمام البابوية للدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية. بيد أن اقتراحًا بيزنطيًا سنة ١٣٧٤م قدم إلى الاسبتارية للدفاع عن تسالونيكا ومدينة بيزنطية أخرى ، ربما كانت جالليبولى، لم يلق أية استجابة . أما الحملة الصليبية التى دعا إليها البابا جريجورى الحادى عشر والتى أبحرت إلى ڤونيتزا Vonitza فى إبيروس سنة ١٣٧٨م فكانت صغيرة بشكل يثير الرثاء: وقد سحقها الألبان العثمانيون فى آرتا Arta وأسروا القائد خوان فرديناندیز دى هيريديا، وسجنوه طلبًا للفدية.

أما القائد التالى، فيليبرت النيلاكى Philibert of Naillac ، وعدد قليل من الاسبتارية الآخرين فقد حاربوا فى حملة نيقوبوليس الصليبية سنة ١٣٩٦م وكانوا مسئولين عن إنقاذ

(*) هى حملة بطرس لوزينيان التى سبقت الإشارة إليها (المترجم)



السفن الحربية الرودسية التى كانت تحت إمرة أحد الفرسان الاسبتارية وهو جورج دى بوسريدون ، تهزم الأتراك سنة ١٤٦٠م تقريبًا ؛ رسم توضيحى من كتاب عن الساعات عمل سنة ١٤٧٥م لبطرس دى بوسريدون، مقدم الاسبتارية فى شمبانى وبالكتاب أيضا قائمة بأسماء ٦٠ من الاسبتارية الذين أسهموا فى العملية.



رسم بورتريه لمجهول، رُسم أصلاً فى جراز Graz لكونراد ڤون شتاوڤيتز Konrad von Stauchwitz ، كونت النمسا الذى يظهر فى سلاح مرصع بالجواهر بسلاح الفرسان التيوتون وراية فى حديقة حيث يركع أمام العذراء والقديسين كريستوفر وآن ، كما تظهر أسماء وأسلحة أجداده الأربعة لتأكيد أصله النبيل.

الملك سيجيسموند ملك المجر بعد الهزيمة . ومن الواضح أنه كان هناك فريق فى أڤينيون وفى رودس كان يسعى بدأب منذ سنة ١٣٥٦م فصاعداً لإيجاد قاعدة اقتصادية أوسع وفرص أكثر مهابة لمعارضة الزحف العثمانى بنقل الاسبتارية إلى جنوب بلاد اليونان ، مما كاد أن يكون معادلاً اسبتاريًا لليڤونيا التيوتونية . وأخذ تنظيم الاسبتارية عقدًا بتأجير أخايا اللاتينية لمدة خمس سنوات فى سنة ١٣٧٧م تقريبًا ولكنه اضطر إلى التخلى عنها فى أعقاب الانهيار الذى حدث بالقرب من فونيتزا، إلا أنه حدث فيما بين سنة ١٣٨٣م وسنة ١٣٨٩ م تقريبًا أن تجددت المحاولات لتثبيت الاسبتارية فى البلوبونيز ، وبعد كارثة نيقوبوليس استأجر الاسبتارية الإمارة البيزنطية فى شرق البلوبونيز على مدى عدة سنين، ودافعوا عن برزخ كورنثة ضد غزوات العثمانيين للجزيرة . وعلى الرغم من أن الاسبتارية كانوا مقيدين بشكل قاسٍ بسبب الفشل الغربى العام فى مقاومة الأتراك، فإنهم كانوا عنصرا فعّالاً فى الدفاع عن أوربا المسيحية ، سواء كانوا يعملون وحدهم أو باعتبارهم جزءًا من حملة صليبية عامة.

وقد أدى الانشقاق البابوى الذى حدث سنة ١٣٧٨م إلى انقسام الاسبتارية إلى نظامين وبذلك زاد من فرص عدم النظام وعدم دفع الرسوم المستحقة إلى دولة الاسبتارية فى رودس، حيث كان الاسبتارية الذين يسودهم الفرنسيون منحازين بقوة إلى بابوية أڤينيون . وقد ساند التاج الإنجليزى بابا روما ولكنه سمح للرجال والأموال الإنجليزية أن تنتقل إلى رودس، التى كانت فى سنة ١٣٩٨م فيما يزعمون لاتحظى سوى بتأييد تسعة من بين واحد وعشرين ديرًا للاسبتارية فى الغرب. وفى سنة ١٤١٠م أظهر اجتماع عام لقادة الاسبتارية عُقد فى اكس أن بروڤانس Aix - en - Provence تضامنًا ملحوظًا داخل التنظيم بإنهاء انشقاقاته الداخلية قبل نهاية الانشقاق البابوى بحوالى سبع سنوات . ومن سوء الحظ ، أن الضغوط المالية على البابوات المتنافسين أجبرتهم على المزيد من استغلال الشروط المربحة للرتب الكنسية،

وقد أدى هذا إلى حرمان الرهبان الفرسان من فُرَص الترقى التى كان من المفروض أن تكون مكافأة على التفوق الذى حققوه من خلال الخدمة فى رودس . وقد انتهى الانشقاق البابوى فى سنة ١٤١٧م بمجمع عقد فى كونستانس Constance حيث تصرف قائد الاسبتارية بوصفه أمين الاجتماع . وقد شهد هذا المجمع الجدل المرير الذى زعم فيه تنظيم الفرسان التيوتون أن الليتوانيين ليسوا مسيحيين وأن البولنديين متحالفون معهم، على حين أكد البولنديون أن الرهبان الفرسان فشلوا حتى فى تنصير البروسيين .

وقد استمرت مشاركات الاسبتارية بين الحين والآخر فى الحملات بعيداً عن رودس ولكن الجزيرة نفسها لم تلبث أن تعرضت للهجوم المباشر. فقد استولى تيمورلنك على سميرنا سنة ١٤٠٢م وتم إخلاء المورة عقب ذلك مباشرة . وكانت هناك ضرورة سياسية تقضى بإقامة رأس جسر يوفر المواجهة المباشرة مع الأتراك، وفى سنة ١٤٠٧م أو سنة ١٤٠٨ م حلت محل سميرنا قلعة فى بودروم Bodrum مقابل كوس Cos ؛ وقد جلب هذا المكانة ، والغفران، والإعفاء من الضرائب الذى ربما جعل القلعة المبنية حديثًا استثمارًا مربحًا أكثر من كونها ميزة استراتيجية. وبدأ المستشفى الكبير الجديد فى رودس سنة ١٤٤٠م ، والذى انبهر به الحجاج المسيحيون كثيراً، وكان مبادرة دعائية ناجحة أخرى. وكانت هناك مجموعة من الهدن التى كانت تتعرض بين الحين والآخر للانتهاكات والأعمال العدائية . وكانت الغزوات التى قامت بها مصر تحت حكم سلاطين المماليك قد لقيت مقاومة ناجحة فيما بين سنة ١٤٤٠م وسنة ١٤٤٤م ، ولكن لم يحدث حتى سنة ١٤٨٠م أن تم شن هجوم عثمانى شامل؛ وقاد القائد بيير دى أوبسون Pierre d'Aubusson، الذى صار كاردنيال فيما بعد، دفاعًا ملحميًا عن المدينة بمهارة وعزم وبعد ذلك تم بناء تحصينات مدفعية ضخمة لمجابهة المدافع التركية الثقيلة، وتم كبح جماح العثمانيين بمهارة بفضل امتلاك أخى السلطان العثمانى للمستشفى

بعد سنة ١٤٨٢م. وعلى الرغم من أن رودس كانت معزولة بشكل متزايد حين كان العثمانيون يتوغلون في البلقان، ازدهرت هذه الجزيرة باعتبارها حصنًا آمنًا للتجارة اللاتينية والقرصنة اللاتينية في إقليم شرق المتوسط. وكانت القرصنة الاسبتارية "Corso" المربحة ذات أهمية خاصة. وفي الجوهر أدت صيغة مربحة من الدعاية إلى السماح بنوع من القرصنة الخاصة، وكانت هذه القرصنة Corso تجد التبرير باعتبارها نمطًا من الحرب المقدسة التي كانت تسبب الضيق والإزعاج للمماليك والعثمانيين والبنادقة كذلك. ولأن الاسبتارية كانوا يعتمدون على التجارة مع الأراضي التركية الرئيسية ولأنهم كانوا يملكون قوة بحرية محدودة للغاية ، فإنهم كانوا مقيدين في حدود عمليات عسكرية على نطاق صغير، ولكنهم بالفعل ألحقوا هزيمة كبرى بالأسطول المملوكي سنة ١٥١٠م. وبعد الغزو العثماني لمصر، أدى موقع رودس المتقاطع مع طرق المواصلات التركية مع مصر إلى حصار بطولي أخر ولم يرسل البنادقة في كريت وغيرهم من القوى اللاتينية سوى قدر قليل من المساعدة في أثنائه . وحين فشل الاسبتارية في تعبئة تحالف ضد العثمانيين ، استسلموا في النهاية ورحلوا من جزيرة رودس في يناير ١٥٢٣م.

بنية النظم الرهبانية العسكرية

كانت جميع النظم الرهبانية العسكرية تتطلب موارد للدخل. وكانوا يحصلون على هذه أساسًا من الفلاحة وتربية الماشية في ضياعهم إما بالزراعة والرعي المباشر أو من خلال التأجير ؛ وكانت السيادة ، والعدالة، والحقوق الإقطاعية ، والإيجارات الحضرية، وبيع المأوى وغيرها من الأنشطة إضافة لهذه الموارد. وكان الفرسان التيوتون خارج ألمانيا يعيشون خارج دولتهم في بروسيا وليفونيا، ولكن على العموم كانت بيوت النظم

الرهبانية العسكرية تختلف عن بيوت التنظيمات الرهبانية الأخرى من حيث أن الإخوة فيها لم يكن عليهم أن يعولوا أنفسهم فقط وإنما كان عليهم أيضًا أن ينتجوا فائضا نقديًا للحفاظ على ديرهم المركزى وإخوتهم العاملين فى الخدمة . وعادة ما كانت النظم الرهبانية العسكرية تنظم أملاكها فى مقاطعات أو أقاليم يتكون كل منها من عدة قيادات، وكانت تعرف أيضا بأسماء الإدارات domus , encomiendas ، وهكذا . وكان القادة يديرون بيوتهم (أديرتهم) أو يؤجرونها للغير، ويدفعون رسومًا أو تعويضات لرئيسهم أو لرئيس الإقليم، وفى بعض الأحيان إلى أمين الصندوق ، وكان هؤلاء الموظفون ينقلون مبلغًا إجماليًا إلى خزانة التنظيم ؛ وغالبًا ما كانت أديرة بعينها تحفظ للمقدمين والقادة . وبعد سنة ١٣١٩ استخدم تنظيم مونتيسا نظامًا قائمًا على أساس توزيع الدخول فى حصص على كل من بيوت التنظيم على حدة، وليس على أساس الجماعات المقيمة التى تدفع مخصصات ، وكانت تتألف فى معظمها من العشور ومن ضرائب الدخل ، وتوزع الحصص على تنويعة من الموظفين لأغراض متنوعة : وهكذا فإن أموالاً معينة كانت تذهب إلى قائد التنظيم على حين تذهب أموال أخرى للدفاع عن الحدود مع المسلمين. وبالمثل كانت النظم الرهبانية القشتالية الثلاثة ونظام فرسان التيوتون توزع الموارد من منطقة أو قيادة معينة فى حصص توجه مباشرة إلى خزانتها الخاصة mensa . وكان قائد الاسبتارية يتلقى الكثير من الموارد من جزيرة رودس، أو بعد سنة ١٥٣٠م من جزيرة مالطة.

وعلى الرغم من وجود نظم جيدة للحساب المحلى والزيارات التفتيشية ، فإن الهيئات الحاكمة فى التنظيم الرهبانى العسكرى لم يكن لديها سوى مفاهيم غير دقيقة وغير مكتملة عن مواردها المحلية وعن القوة البشرية وعن أى جزء من هذه الموارد يمكن تعبئته عن طريق القيادة المركزية . إذ

كانت إحصائياتهم تقريبية حتمًا وغير مكتملة . وفى بعض الحالات كان هناك عدد قليل جدا من الفرسان ، وكان بعضهم مسنين بحيث لايمكنهم القتال؛ وفى أماكن أخرى كان يوجد عدد قليل من ضباط الصف أو لم يكن هناك منهم أحد على



القيادة الريفية الرئيسية، التى حصل عليها الاسبتارية من الداوية بعد سنة ١٣١٢م فى كورڤال Courval فى كالڤادوس بمنطقة فرنسا، وفيها مخازن الغلال والمصلى المرتفع : وفى سنة ١٣٧٣م تم إحراق مركز القيادة فى المقاطعة التى كانت عادة تدر «دخلاً كبيراً» ونالها الخراب بحيث صارت مهجورة بسبب العمليات الحربية والوباء».

الإطلاق(*). وفى بعض الأحيان كانت هناك وفرة من القساوسة . وفى سنة ١٣٧٤ / ١٣٧٥م كانت مقاطعات الاسبتارية فى الغرب تدرُّ حوالى ستة وأربعين ألف فلورين يتسلمها أمين الصندوق فى رودس؛ وفى سنة ١٤٧٨ م تقريبًا كان مقر تنظيم الاسبتارية فى رودس يتلقى ثمانين ألف وخمسمائة فلورين من الغرب وأحد عشر ألفا وخمسمائة وخمسين فلورين من الشرق بإجمالى اثنين وتسعين ألف فلورين ؛ وكانت معظم هذه الأموال تذهب لدعم ما يقرب من أربعمائة وخمسين من الرهبان الفرسان وعدداً من القوات المأجورة فى رودس وبودروم ، إلى جانب سبعة آلاف فلورين كانت توزع حصصاً على المستشفى . وفى سنة ١٥١٩ م قيل إن المستشفى كان يعتمد على عمليات القرصنة Corso لكى توفر له مبلغ سبعة وأربعين ألف دوكات سنوياً . وحسبما ذكرنا بالفعل، كان عدد الاسبتارية فى الشرق خلال القرن الخامس عشر يتراوح بين مائتى وخمسين وأربعمائة وخمسين فرداً ، معظمهم من الفرسان، على حين كان عددهم فى بروسيا وحدها سبعمائة من التيوتون سنة ١٣٧٩م، وأربعمائة سنة ١٤٥٠م، ومائة وستين سنة ١٥١٣م، وخمسة وخمسين فرداً سنة ١٥٢٥م، وهو تدهور حاد يرجع جزئيًا إلى فقدان مساحات كبيرة من الأراضى لاسيما بعد سنة ١٤٦٦م . وقد استمرت موارد التيوتون فى بروسيا فى الزيادة حتى سنة ١٤٠١م ؛ ثم تدهورت ولكنها بقيت مستقرة من سنة ١٤٣٥م حتى سنة ١٤٥٠م تقريباً . وكان هناك حوالى ٤٥٠ من الاسبتارية فرساناً وسرجندية يدافعون عن مالطا منذ ١٥٦٥م ، وفى سنة ١٦٣١م كان

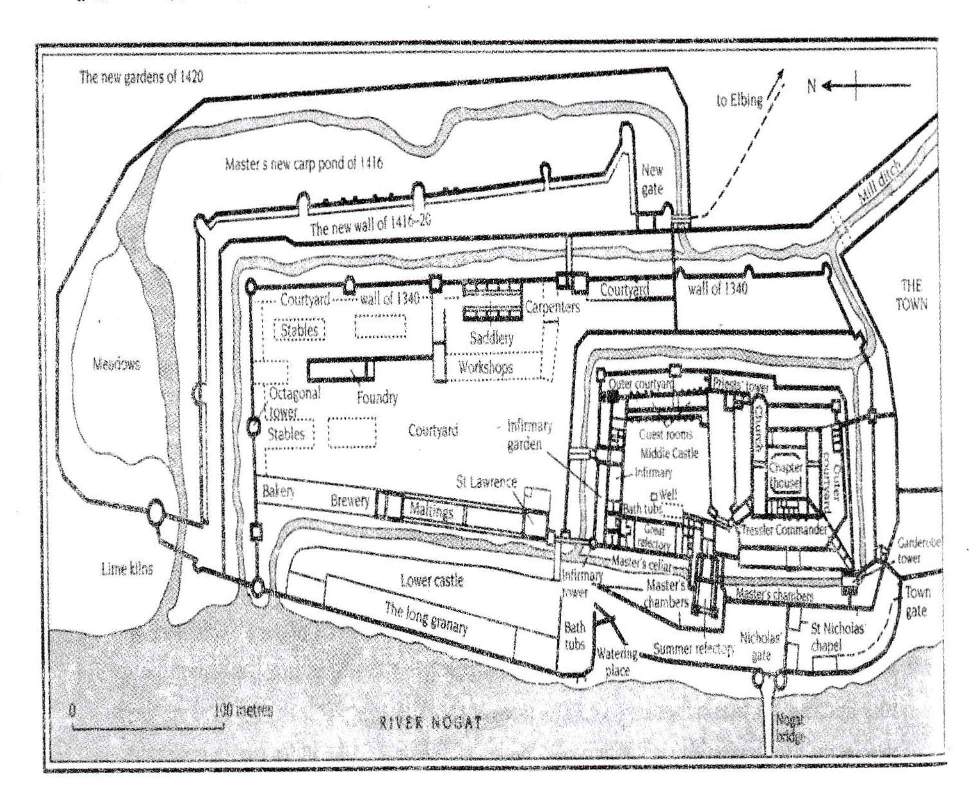
(*) استخدمنا تعبير ضباط الصف هنا للدلالة على كلمة Sergeants . والواقع أن التعبير العربى الذى استخدمناه غير دقيق ، ولايوجد له بديل، فى التعبير عن الجنود الصليبيين من هذه الرتبة فقد كان الفارس Knight عادة من طبقة النبلاء، وكان له تدريب خاص وتسليح خاص ووظيفة قتالية خاصة. أما«السرجندية» Sergeants فكانت تعنى الجنود الذين يمكن أن يقوموا بمهام المشاة، ويمكن أن يحاربوا من فوق ظهور الخيل، ولكنهم لم يكونوا ينتمون إلى طبقة النبلاء. (المترجم)

التنظيم بأسره يضم ألفا وسبعمائة وخمسة وخمسين فارسًا. ومائة وثمانية وأربعين قسيسًا ، ومائة وخمسة وخمسين من السرجندية، بإجمالي ألفين وثمانية وخمسين فردًا ، كانت المقاطعات الفرنسية تقدم منهم تسعمائة وخمسة وخمسين أي ما يكاد يقترب من نصف العدد ؛ وفي ذلك الحين كان هناك مائتان وستة وعشرون فارسًا في مالطة. وكانت النظم الرهبانية العسكرية الإسبانية تتمتع بعضوية عدد كبير من الأفراد وتنعم بموارد كبيرة ؛ فقد كان نظام كالاترافا وحده يتمتع بدخل بلغ واحدًا وستين ألف دوكات حوالي سنة ١٥٠٠م ، أي حوالي واحد على اثنى عشر من الدخل السنوي المعتاد للتاج القشتالي ، وكان ما يزيد على نصف الدخل الكلي للنظام يذهب إلى القائد. وعلى أية حال، فإن القليل من مثل هذه الثروة كان يستخدم في الأغراض العسكرية . وفي الأزمنة الحديثة، فاق اقتصاد الاسبتارية بكثير اقتصاديات النظم الرهبانية الأخرى. فبحلول سنة ١٧٧٦م كان محصول القطن في مالطة يجلب من النقود إلى الجزيرة أكثر مما يجلبه نظام فرسان الاسبتارية ؛ وكان أكبر رقم للتصدير ٢,٨١٦,٦١٠ سكودي(*) في سنة ١٧٨٧ / ١٧٨٨م . وكان القائد يتلقى حوالي مائتي ألف سكودي في السنة من الجزيرة ، على حين كان دخل خزانة النظام يبلغ مليونًا وثلاثمائة وخمسة عشر ألف سكودي، كان معظمها من الخارج، وكان التقدير أن الرهبان الفرسان الأفراد يستوردون ما يقرب من مليون سكودي في السنة لنفقاتهم الشخصية . وكانت عاصمة الاسبتارية في ڤاليتا Valletta تعتمد في ميزانيتها على مستعمراتها ، أي المقاطعات الغربية .

كانت المناطق العسكرية تنتج ما هو أكثر من الرجال والأموال. فقد كانت مهمة باعتبارها مراكز تجنيد وتدريب ، ومنازل للتقاعد، وبيوت إقامة لقساوسة النظام

(*) السكودو Scudo (وجمعها Scudi) عملة إيطالية قديمة من الذهب أو الفضة (المترجم)

الكثيرين، وباعتبارها نقاطًا للاتصال الجماهيرى. لقد كان الفرسان الرهبان جميعا مكرسين تمامًا من الناحية الدينية، وكانت الصلاة واحدة من مهامهم، وكانت قيمتها الروحية مهمة حتى ولو لم يمكــن قياســـها ، كما أنها جلبت بالتأكيــد الثروة من خلال الأوقاف والهبات كما جلبت المبالغ المخصصة لصلوات القــداس التذكارية. كان كثير من الإخوة من القساوسة وربما كانوا يشكلون أغلبية واضحة فى مناطق وبيوت بعينها بين الأعضاء وكان بوسعهم أيضا أن يحكموا مناطق القيادة ويديرونها . وحتى حيثما كان هناك تنظيم رهبانى عسكرى ليســت له الســيـــادة محليًا ، فربما كان يمتلك

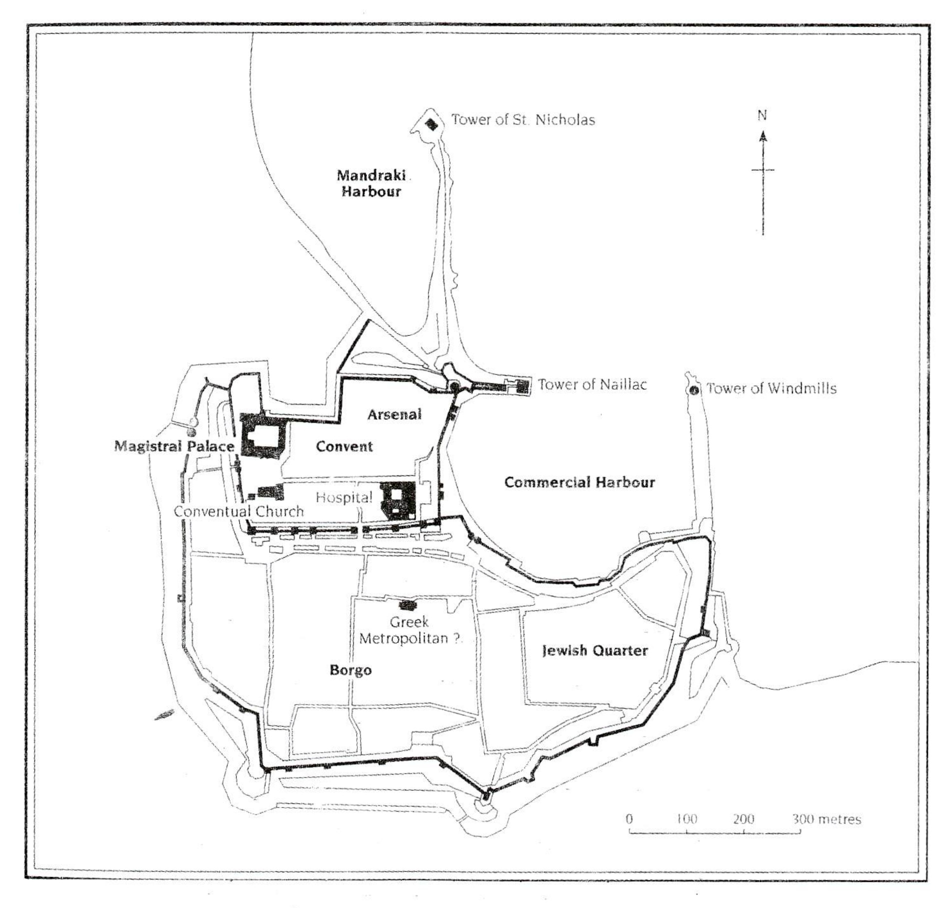


دير فرسان التيوتون المحصن فى مارينبرج (على نطاق أكبر من تخطيط رودس) فى سنة ١٤٢٠م تقريبا ، يبين مساكن القائد والرهبان الفرسان داخل السياج الداخلى.

النُزُل للمسافرين ، والمستشفيات ، والمقابر ، والكنائس الأبرشية والمدارس، والكثير من الكنائس التابعة. وكانت النظم الرهبانية العسكرية تبنى الكنائس وغيرها من المبانى التى تتجه مع مرّ القرون إلى أن تكون كبيرة وفخمة باطراد. وكانت لديها طقوسها الخاصة، ولها قديسوها الذين يحمونها، وتصاويرها وذخائرها المقدسة التى كانت تساعدها فى الحفاظ على روح الجماعة esprit de corps وفى الحصول على دعم الجماهير . وقد وظف الفرسان التيوتون قراء مخصوصين للقراءة بصوت عال باللغة الدارجة من أجل الرهبان الفرسان ، الذين كان بعضهم أميين أثناء تناول وجبات الطعام. وكان لبعض النظم قديسوها الخصوصيون ، وفى القرن السادس عشر كان الاسبتارية على الأقل يروجون لسلسلة من الرهبان الفرسان زعموا أن لهم قدسية ، بل إنهم اخترعوا هذا فى بعض الحالات . وكان من الطبيعى أن النظم الرهبانية العسكرية احتفظت بأرشيفات إدارية سهلت أيضا كتابة تواريخ هذه النظم ، كما كانت بحد ذاتها نشاطًا دعائيًا مفيداً .

وفى معظم الحالات كانت النظم الرهبانية العسكرية تحتوى دائما على مكوِّن عسكرى، وكان هناك بعض الرهبان المقاتلين من السرجندية الذين ينتسبون إلى أصل اجتماعى متواضع نسبيًا عن أصل الفرسان. وعلى الرغم من أنه كان هناك اختلاف إقليمى كبير، فإن كثيراً من الفرسان فى القرن الرابع عشر كانوا فى الحقيقة من البورجوازية ، أو من النبلاء حتى لو كان هناك دائمًا استثناءات من الأرستقراطية العالية . وكما أن الأزمة الاقتصادية الشاملة التى حدثت فى القرن الرابع عشر خفضت القيمة الحقيقية لدخول النظم الرهبانية العسكرية فإن المنافسة على ثرواتها قد زادت . وفى الاسبتارية على الأقل صار من الشائع بالنسبة للقادة أن يتولوا ديرين أو أكثر فى الوقت نفسه وكان طبيعيا بالنسبة للصفوة أن يحددوا شروط الدخول إلى التنظيم بالشكل الذى يستبعد المنافسة ، وهى عملية كانت تسير على نهج اتجاه عام فى المجتمع الغربى على أية حال. أما القواعد الخاصة بالدخول إلى النظم الرهبانية العسكرية فكانت تطبق بمزيد من الصرامة وكان من المطلوب تقديم الدليل على نبالة المحتد بالنسبة للفرسان؛ وبحلول سنة ١٤٢٧م كان الاسبتارية القطلانيون يطلبون

تحقيقًا مع شـــهود يقسمـــون اليمين وشهادات مكتـــوبة. وفـــى تنظـــيم التيـــوتون وغيره من التنظيمات الرهبانيـــة العســـكرية كانت البراهين الرســـمية على نبالة الأصل قد بدأت قبل سنة ١٥٠٠م حين صارت أموراً قياســـية وفى كل مكان كان الاهتمام الأرستقراطى يتعزز فى موقف ضد البورجوازية والطبـــقة العليا



الاسبتارية فى رودس يبين الأسوار الطويلة الرفيعة المزودة بالأبراج والتحصينات ضد المدفعية المنخفضة التى تم بناؤها فى بواكير العصر الحديث، والمعاقل البارزة خارجه ؛ ودير الاسبتارية وقصر القيادة إلى الشمال منفصلان عن البلدة borgo بواسطة سور قوى .

غير الأرستقراطية : وفى قشتالة كانت البراهين تستخدم لتجنب الدماء اليهودية «المفسدة» . وباستثناء نظام الفرسان التيوتون الذى كان يتجنب إلى حد كبير الأختام الشخصية والنصب الجنائزية قبل أواخر القرن الخامس عشر ، كانت نذور الفقر والترتيبات التى تحد من الملكية الفردية تنتهك بفعل الممارسات المتزايدة للمؤسسات الخاصة ، والمقابر الشخصية ، والأختام بالأسلحة المفردة ، وغيرها من تجليات الاهتمام بالعائلة والأصل الاجتماعى.

وقد أدى الهجوم على فرسان الداوية إلى تكثيف الجدل حول النظم الرهبانية العسكرية ، والتى نالها النقد الذى تجسد فى العديد من المقالات صليبية الطابع بعد سنة ١٢٩١م. وكان بعض الكتاب يحبذون وجود نظام رهبانى عسكرى موحد ووحيد ، كما نادى الكثيرون بحلول وطنية، واقترحوا أن القدس يجب أن تكون تحت حكم نظام رهبانى عسكرى جديد باعتبارها دولة نظام رهبانى. وقد احتج الضحايا المسيحيون لنظام الفرسان التيوتون مراراً وتكراراً ضد ممارسات هذا النظام، بيد أنه فيما عدا ذلك لم يكن هناك سوى قليل من المناقشات حول النظم الرهبانية العسكرية بحد ذاتها . وكان فيليب الميزييرى Philip of Meziéres المستشار السابق لقبرص، والمُنظِّر الصليبى المتعصب الذى كان يتيه زهواً بالرهبان الفرسان التيوتون ، قد كتب قبل سنة ١٣٨٩م ينتقد الاسبتارية على تدهورهم ، ولكن ملاحظته عن أنهم يخدمون فى رودس فقط لكى يضمنوا دخلاً جيداً من الغرب تجاهلت آلية نظام الترقى عندهم . وكان المشروع الذى قدمه فيليب الميزييرى لإنشاء نظام رهبانى جديد ، والذى عدَّله بشكل نهائى سنة ١٣٩٦م ، لايزال رهنا لمصطلحات الإخوة النبيلة التى تهدف إلى استعادة بيت المقدس والدفاع عنها بدولة ملكية عسكرية يملكها نظام رهبانى عسكرى يكون على جميع أعضائه أن يبقوا فى الشرق، على حين يقوم الإداريون العلمانيون الذين يمكن الاعتماد عليهم بإدارة ممتلكاتهم ومواردهم فى الغرب. واقترح أن الفرسان ينبغى السماح لهم بالزواج ، مثلما كان الحال فى تنظيم سانتياجو وأن يتم إجبارهم على العفة والطهارة،

ومن الأمور المثيرة أن الأرامل اللاتى مات أزواجهن من الرهبان الفرسان واللاتى كان يتم استقبالهن فى سانتياجو كان عليهن أن يبدين رغبتهن إذا ما كن يردن الزواج مرة أخرى.

كانت هناك اقتراحات كثيرة، داخلية وخارجية ،.من أجل الإصلاح التدريجى للتجاوزات داخل كل نظام من النظم الرهبانية العسكرية والتشريعات المتكررة حول أمور مثل الممارسات الطقوسية، ودفع الرسوم ، وعدم السكن فى مواقع القيادة ، وعدم الخدمة فى الدير، ولكن القليل من الرجال ذوى القدرة الروحية أو الفكرية كانوا ينجذبون إلى النظم الرهبانية العسكرية أواخر العصور الوسطى ، التى لم يمر أى منها بعملية إصلاح أساسية قوية مثل تلك الحركات التى مرَّ بها الفرنسيسكان أو الأوغسطينيون . ومنذ القرن الرابع عشر كانت صرامة أيمان الرهبان تتآكل بشكل مستمر، على الرغم من أن ذلك كان أقل تفشيًا فى تنظيمى الاسبتارية والفرسان التيوتون ، كما أن القيم والنظام أخذت فى التدهور مثل التملص من الخدمة العسكرية، والحجرات الخاصة، والتوسع فى الملكية الشخصية ، وفرص الحصول على ميزات مالية، وغير ذلك من الإعفاءات من النظام الصارم، كل هذا قلل من المحتوى الأخلاقى لحياة الرهبان الفرسان ؛ كذلك فإن تأجير مناطق القيادة وبيع النُزُل إلى العلمانيين كان انعكاسًا لتزايد الاهتمام بالمسائل المادية وبالأموال ، كما أن رسوم دخول التنظيم، مثلما كان الحال فى نظام الفرسان التيوتون على سبيل المثال ، وعقود الإيجار مدى الحياة التى تمتع بها الأفراد من الفرسان الرهبان، كانت هى الأخرى انعكاسًا للاهتمام المتزايد بالنواحى المادية والمالية . وباطراد كان القبول فى أحد النظم الرهبانية العسكرية يمكن أن يؤدى إلى الوصول لوظيفة ذات راتب عال دون واجبات داخل هيئة أرستقراطية تنعم بالامتيازات وتوفر دخلاً مريحًا مدى الحياة . وفى سنة ١٤٤٩م احتج النبلاء المحليون لقائد الفرسان التيوتون فى آلتبيسن Altenbiesen «لماذا يحتاج المرء إلى التنظيم بعد ذلك إذا لم يكن هو المأوى والملاذ للنبلاء ؟».

النظم الرهبانية العسكرية في بواكير العصر الحديث : في اتجاه السيطرة الوطنية :

فيما بين سنة ١٤٨٧م وسنة ١٤٩٩م كانت النظم الرهبانية العسكرية القشتالية فى الواقع قد تأممت على يدى التاج ؛ وفى سنة ١٥٢٣م كان الاسبتارية قد طردوا من رودس؛ وفى سنة ١٥٢٥م كان الفرع البروسى من التيوتون قد صار علمانيًا . إذْ إن الممتلكات الإقليمية الشاسعة والموارد الهائلة، بالإضافة إلى تنظيمهم الشهير واتصالاتهم ، جعلتهم أكثر كفاءة من الاسبتارية بشكل حاسم ، إلا أن تنصير الليتوانيين ، وتدهور حملات الرايزن Reisen بعد سنة ١٤١٠م ، والائتلافات الدبلوماسية التى كانت تعارض التيوتون ، وتكلفة الجنود المرتزقة كلها ، كانت عوائق تحول دون ازدهار التنظيم ، وقد كانت كفاءة الدولة- التنظيم نفسها هى التى تسببت فى تقويض دعائم التنظيم بعدة طرق. ذلك أن العناصر الأكثر ثراء فى المجتمع البروسى ، والذين كانوا مستبعدين إلى درجة كبيرة من العضوية ومن الحكومة ، كانوا يقاومون النظام بشكل متزايد ، لأنه لم يعد بحاجة إلى خدمتهم العسكرية وحاول، استبدالهم بالفلاحين الذين كان يمكن الحصول منهم على الإيجارات والضرائب لكى ينفقوا على الجيوش . وفى سنة ١٤١٠م ، جهز التنظيم جيشًا كبيرًا للقيام بحملة تاننبرج ، وحتى بعد أن خسر حوالى ثلاثمائة من الرهبان الفرسان كان التيوتون قادرين على الصمود فى مارينبورج تحت القيادة الفردية لهنريخ فون بلاون Heinrich von Plauen ، الذى كان قد تم انتخابه آنذاك ولكنه خُلع من منصبه فى سنة ١٤١٣م . وبعد ذلك أدت الحروب المستمرة إلى تقليل سكان القرى وتخريبها ؛ وكان هناك قدر من الانتعاش بين سنة ١٤٣٧م وسنة ١٤٥٤م، ولكن عدد الرهبان الفرسان فى بروسيا ظل منخفضًا عن عمد. وكان بعض الرهبان الفرسان التيوتون قد حاربوا بالفعل ضد الأتراك، كما حدث فيما بين سنة ١٤٢٩م وسنة ١٤٣٤م ، بيد أن شيئًا ذا أهمية باقية لم ينتج عن الاقتراحات المتكررة التى قدمها الإمبراطور سيجيسموند وغيره بأن تنظيم التيوتون ينبغى أن يتبنى دورًا جديدًا بمواجهة الأعداء فى البلقان العثمانية ، وهو الأمر

الذى كان فى الواقع بمثابة مجاملة موجهة إلى الاسبتارية ؛ وفى سنة ١٤١٨م كان هناك مشروع لنقل تنظيم التيوتون إلى رودس أو قبرص . وفى بروسيا قامت عصبة من النبلاء، تكونت فى سنة ١٤٤٠م، لتجلب الحرب الأهلية والتدخل البولندى ؛ وبحلول سنة ١٤٥٤م كان الرهبان الفرسان التيوتون يحاربون رعاياهم . وعندما استطاع البولنديون شراء مارينبورج من المرتزقة العاملين فى خدمة التنظيم سنة ١٤٥٧م انتقل الدير إلى كونجسبرج ، وبصلح سنة ١٤٦٦م خسر التيوتون المزيد من الأراضى ومن المفترض أنهم ألزموا أنفسهم بتقديم الخدمة العسكرية للتاج البولندى . ولم يجد التنظيم أبداً الحل الذى يرتضيه لمشكلته البولندية . إذ كان من الواضح تماماً أنه يضطهد المسيحيين ولم يكن بوسعه أن يزعم أنه يقوم بالدفاع عن أوربا .

كانت مهمة الاستيطان والتنصير فى إقليم البلطيق لاتعد بمستقبل جيد. وفى داخل تنظيم الفرسان التيوتون كانت هناك منازعات متكررة بين القادة البروسيين والألمان والليفونيين وبين العشائر غير الرسمية التى ترجع أصولها إلى فرانكونيا، وأراضى الراين، وغيرها ؛ وفى ليفونيا حوالى سنة ١٤٥٠م كان جميع الرهبان الفرسان قد جاءوا إمّا من وستفاليا Westphalia بنسبة تصل إلى ستين بالمائة ، أو من أراضى الراين بنسبة حوالى ثلاثين بالمائة . وكان هناك كلام غامض عن اللغات Zun-gen (أى الجماعات العرقية واللغوية) وكان هناك قدر من الاتفاق على المشاركة فى المناصب ، ولكن اللغات كانت أكثر قليلاً من مناطق التجنيد ولم يكن لها أى دور ، كما كان حال اللغات langues فى رودس فى إرساء السيادة أو فى حل الصراعات حول توزيع المناصب والإيرادات. وصار الرهبان الفرسان أنفسهم من الأرستقراطية وحدها كما صاروا أكثر فساداً بشكل لافت للنظر، وفى بروسيا كانوا يشكلون أوليجاركية قوية استطاعت بعد سنة ١٤٦٦م تحديد سياسات قائد التنظيم . وقد برهن تطورهم إلى شريحة خاصة بهم على أنه أمر خطير، لأنه سهل عملية علمنتهم وتحولهم إلى دولة تنظيم فى نهاية المطاف. وكانت دولة الاسبتارية أصغر جداً من دولة تنظيم التيوتون ولكنها كان يمكن الدفاع عنها بقدر من التكاليف أقل كثيراً؛ كما أن تنظيم الاسبتارية كان أكثر مرونة وكانت خياراته الأوسع تتيح له أن يحتفظ بدور عسكرى بعد أن كان

تنظيم التيوتون قد تخلى تقريبا عن أية حرب مقدسة بوقت طويل. وفى سنة ١٥٢٣م نشر مارتن لوثر كراسة بعنوان An die Herrn Deutschs Ordens ، وفى سنة ١٥٢٥م تحول أخر قائد بروسى للتيوتون ، وهو ألبرخت من براندنبرج - آنسباخ. Albrecht of Brandenburg - Ansbach إلى المذهب اللوثرى ببساطة وأعلن ولاءه للملك البولندى وتولى حكم بروسيا باعتبارها دوقية علمانية وراثية . ومن بين خمسة وخمسين من الرهبان الفرسان الذين بقوا فى بروسيا كان عدد الذين بقوا على الكاثوليكية قليلاً للغاية. وكانت دولة التنظيم Ordensstaat فى بروسيا قد صارت دولة سياسية أكثر منها دولة دينية، وكانت مكرسة فقط للحفاظ على بقاء نخبتها الأجنبية مستمرة بذاتها، وكانت تفتقر إلى أية قاعدة أخلاقية راسخة كما كانت عاجزة عن التنافس مع الدول العلمانية المجاورة . وقد فقد تنظيم الفرسان التيوتون قائده وقلب أراضيه المركزية ، ولكن الفرع الألمانى بقى هو والفرع الليفونى حتى سنة ١٥٦١م. كما أن حركة الإصلاح الدينى ضربت الاسبتارية الذين كانت أديرتهم قد تم حلها أو علمنتها على أيدى الحكام البروتستانت ؛ فى السويد سنة ١٥٢٧م، والنرويج سنة ١٥٣٢م، والدانمرك سنة ١٥٣٦م، وإنجلترا سنة ١٥٤٠م.

وقد بدأ التأميم المطرد للنظم الرهبانية العسكرية الإيبيرية قبل انتهاء حركة الاسترداد Reconquista بوقت كاف . وبعد غزو غرناطة كان التاج القشتالى فى موقف قوى وكان يتوق إلى إنهاء الصراعات الفوضوية على القيادة . وفيما بين سنة ١٤٨٩م وسنة ١٤٩٤م تقبل الملك فرناندو إدارة النظم القشتالية الثلاثة. ولم يبد الرهبان الفرسان مقاومة تذكر عندما تم تشكيل مجلس ملكى للسيطرة عليهم، ولكن الاجتماعات، والانتخابات وأحد عناصر الحياة العسكرية بقيت مستمرة ؛ فقد احتفظت نظم كالاتراڤا ، ومونتيسا وآڤيس بانتسابهم إلى رهبان السسترشيان . وفى سنة ١٥٢٣م ضم البابا أدريان السادس رسميًا النظم القشتالية الثلاثة إلى أجل غير مسمى مع افتراض أن الملك يجسد قيادتهم ، وأن مواردهم الضخمة ، التى تم تقديرها بحوالى مائة وعشرة آلاف دوكات فى السنة ، أو ما يقرب من نصف الدخل الكلى للنظم الرهبانية العسكرية ؛ وكان نصيب التاج قد خصص للصيارفة فى فوجر Fugger سنة

١٥٢٥م. أما تنظيم مونتيسا بدوره فقد تم دمجه في أملاك التاج الأراجوني سنة ١٥٨٧م. وقد مرت عملية السيطرة على النظم الرهبانية البرتغالية ، التي رفضت كلها أن تعمل فيما وراء البحار، إلى التاج الذي استخدم بعض قواعدها في مكافأة الأشخاص الذين خدموا في محاربة الأعداء في أفريقيا وآسيا. وقد تخلت التنظيمات الثلاثة عن السمة العسكرية ولكن بعض أعضائها شاركوا في حملات عسكرية بصفتهم الفردية ؛ وهكذا كان هناك على الأقل ثمانية وعشرون قتلوا أو أسروا في القصر أثناء الحملة الصليبية على المغرب سنة ١٥٧٨م.

وعبر السنين صدرت مراسيم بابوية أخرى حررت الرهبان الفرسان في إسبانيا والبرتغال من القيود المتعلقة بالزواج ، والملكية ، والصيام ، والإقامة ، والصلوات بشكل متزايد. وبينما قام التاج بنزع قواعدهم وممتلكاتهم ، صار عدد كبير من الرهبان الفرسان من أصحاب الدخل الذين يقيمون عضويتهم في النظم الرهبانية العسكرية بدوافع الشرف، والنبالة ، والسيرة العملية. وقد أدت عملية خلق جيش ملكي ثابت إلى حرمان النظم الرهبانية العسكرية من قيمتها الخاصة باعتبارها قوات عسكرية جاهزة وصارت إلى حد كبير من مصادر الحماية الملكية ، حيث كان يتم تعيين الرهبان الفرسان في هذه النظم حتى في طفولتهم . وفي سنة ١٥٣٦م بدأ شارل الخامس في انتزاع أملاك النظم الرهبانية العسكرية لتمويل دفاعه عن المسيحية وباع أربع عشرة منطقة قيادة من إجمالي إحدى وخمسين منطقة تابعة لتنظيم كالاترافا ، وثلاث عشرة من إجمالي ثمان وتسعين منطقة تابعة لتنظيم سانتياجو، وثلاثًا من ثمان وثلاثين منطقة يملكها تنظيم القنطرة لكي يجمع مبلغًا وصل إلى مليون وسبعمائة ألف دوكات تقريبا. وكان بإمكان التاج أن يبيع أردية الرهبان الفرسان ، إذ كانت العضوية في هذه النظم الرهبانية العسكرية تضفي المهابة ولاتحقق الثروة، بيد أن أية قاعدة ، وإيراد إيجاراتها كانت تجلب الدخل . وكانت إدارة الضياع الكبيرة التي تملكها النظم الرهبانية العسكرية على أيدي قادة هذه المناطق القيادية الذين كانوا غالبا غائبين عن أماكنهم كما أنهم لم يكونوا يقومون بأية استثمارات في مناطقهم قد برهنت على أنها إدارة فاشلة من الناحية الاقتصادية ، بل كانت إدارة طفيلية في حقيقة الأمر.

كان طبيعيًا أن يبرر التاج استيلاءه على النظم الرهبانية العسكرية القشتالية بالحجج القديمة القائلة بأن مواردها كانت لابد أن تستمر بهذه الطريقة فى المشاركة فى أعمال التنصير والحرب المقدسة، كما أن شمال أفريقيا ، كانت مثل غرناطة ، على الطريق إلى القدس . وفى سنة ١٥٠٦م عقد الملك فرناندو مجلسًا فى تنظيم سانتياجو وافق على إقامة دير فى أوران **Oran**، ثم أعقبت ذلك مشروعات لأخذ تنظيم كلاتراڤا وتنظيم القنطرة إلى بوچى **Bougie** وطرابلس . وعلى الرغم من أن هذه المشروعات الأفريقية كانت لا تزال تروج فى القرن السابع عشر، فإنها مثل خطط فرسان التيوتون للقتال فى البلقان ، لم تتحقق أبدًا على أرض الواقع؛ ذلك أن نقل شارل الخامس الاسبتارية إلى طرابلس ومالطا فى سنة ١٥٣٠م سار على منطق



رسم معاصر على الجص (فريسكو) رسمه ماتيو بيريز Matteo Pérez من اليشيو D'Aleccio فى قصر قائد الاسبتارية فى ڤاليتا برودس لكى يسجل الحصار التركى الكبير على مالطة : ويرفرف علم سانتياجو إلى جانب راية الاسبتارية أثناء وصول القوات الأولى من الإمدادات من صقلية تحت قيادة ميلشيور دى روبل Melchior de Robles ، وهو فارس من تنظيم سانتياجو سنة ١٥٦٥ .

مشابه ولكن بمزيد من الفعالية . وكثيرا ما كان الرهبان الفرسان القشتاليون بصفتهم الفردية يتولون المناصب العسكرية، ولكن النظم الرهبانية العسكرية نفسها كانت غير نشطة إلى حد كبير . وفيما بين سنة ١٥١٨م وسنة ١٥٩٨م، لم يكن هناك أكثر من خمسين أو ستين فارساً من بين ألف ومائتين وواحد وتسعين من الرهبان الفرسان فى تنظيم سانتياجو قاموا بخدمات مهمة ضد الأعداء(*) . وقد شارك ثمانية على الأقل من فرسان سانتياجو فى الحملة على تونس سنة ١٥٣٥م . وفى سنة ١٥٦٥م ساعد آخرون من التنظيم فى الدفاع عن مالطة حيث خدم أحدهم وهو ميلشواردى رويل بطريقة ممتازة ومات هناك. ومنذ سنة ١٥٥٢م أنفق تنظيم سانتياجو حوالى أربعة عشر ألف دوكات سنوياً على ثلاث أو أربع سفن حربية كانت تنشط فى البحر المتوسط بعد سنة ١٣٦١م باعتبارها جزءاً من الأسطول الملكى ؛ وكانت قوانين تنظيم سانتياجو تقضى بالخدمة فى البحر ستة أشهر شرطاً لدخول التنظيم ، ولكن هذا الشرط لم يكن فعّالا . وكانت قيمة هذه السفن العسكرية قيمة رمزية جزئيًا ، إلا أنه تحت قيادة لويس دى ركيسين Luis de Requesens القائد العام Commendador mayor فى قشتالة، لعبت دوراً مفيداً فى ليبانتو سنة ١٥٧١م . ولم تكن الأساليب الفاسدة تؤدى دوماً إلى عدم النشاط: فعلى سبيل المثال ، كان لويس دى ركيسين قد دخل تنظيم سانتياجو عندما بلغ إحدى عشرة سنة من عمره، على حين كان ألفارو بازان Alvaro Bazan ، الذى ضمت سيرة حياته الباهرة مالطا وليبانتو، قد قُبل فى التنظيم وهو فى الثانية من عمره فقط سنة ١٥٢٨م . وبعد سنة ١٥٧١م تركزت الجهود الإسبانية بشكل أكبر على شمال أوربا مما أدى إلى تقليل مجال الحرب المقدسة أمام النظم الرهبانية العسكرية . وفى كثير من الأحوال ، كان العدد الأكبر من الفرسان يجهلون واجباتهم ، وقد واجه الشاعر لويس دى جونجورا Luis de Gongora نقداً عنيفًا لأنه رفض إطاعة الأوامر الملكية بالخدمة فى أفريقيا سنة ١٦١٤م .

(*) استخدم الكاتب باستمرار كلمة infidel «أى الكفار» للدلالة على أعداء أوربا الكاثوليكية آنذاك ، وقد رأيت أن من الأنسب استخدام كلمة «الأعداء» (المترجم)

بينما جرت على النظم الرهبانية العسكرية الإيبرية، ونظام الفرسان التيوتون، تغيرات أساسية وتضاءل إحساسها بوظيفتها ، استمر الاسبتارية فى القتال. إذ لم يكن بوسع أحد سوى قليل من الحكام القضاء عليهم، كما أن البابا والإمبراطور استمرا فى تشجيعهم ؛ بل إن البابا كليمنت السابع، الذى تم انتخابه سنة ١٥٢٣م، كان هو نفسه من الاسبتارية . وعلى مدى ثمانية سنوات مليئة بالإحباط بعد سنة ١٥٢٣م قام فيليب ڤيللير دى ليل آدم Philippe Villiers de l'isle Adam ، ثم ڤيتربو Viterbo ، وڤيلفرانش Villefranche ونيس Nice، وسيراكيوز Siracusa، مما أدى إلى الحفاظ على استمرار الحيوية المؤسسية لنظامهم ، كما أنهم سعوا إلى إيجاد قاعدة جديدة . كانت الغالبية الساحقة فى نظام الاسبتارية من الفرنسيين ولكن الإمبراطور الإسبانى شارل الخامس هو الذى أقام فى النهاية على جزيرة مالطة الصغيرة الجدباء، التى كانت هى وجوزو القريبة ، إقطاعية من التاج الصقلى مع التزامات بالدفاع عن رأس جسر فى مدينة طرابلس (الليبية) فى شمال أفريقيا، التى كان الإسبان قد استولوا عليها سنة ١٥١٠م . ولكن الرهبان الفرسان الذين كانوا لا يزالون يأملون فى العودة إلى رودس ، أو القيام بغزوات فى اليونان، قاموا وبصحبتهم بعض رعاياهم اللاتين واليونانيين من رودس باحتلال قلعة بيرجو Birgu البحرية وظهيرها سنة ١٥٣٠م ؛ ولم يكن أمامهم بدائل كثيرة. فإذا ما وضعنا فى اعتبارنا التحالف بين الفرنسيين والأتراك ، فإن الحركة الأولى إلى مالطة كانت فى أصلها تطوراً إسبانيا فى تاريخ الاسبتارية؛ والواقع أن قائد التنظيم من سنة ١٥٣٦م إلى سنة ١٥٥٣م كان الفارس الأراجونى خوان الهوميديسى Juan de Hamedes .

أما الاسبتارية ، الذين عرفوا منذ ذلك الحين باسم فرسان مالطة، فقد شنوا المزيد من الحملات البرمائية فى بلاد اليونان ، حيث تم نهب مودون فى سنة ١٥٣١م ، وفى تونس سنة ١٥٣٥م ، وجربة (فى تونس) سنة ١٥٥٩م ، وهكذا . وقد وفرت مالطة وميناؤها الممتاز الاستقلال الأساسى ؛ إذ إنها كانت تقع ما بين صقلية الإسبانية

وشمال أفريقيا العثمانية وبذلك وفرت قاعدة تمكن تنظيم فرسان مالطة من الاستمرار في عملياته البحرية الحربية العدوانية ضد أساطيل الأعداء وقراصنتهم . وقد تفاوض الاسبتارية على واردات القمح المعفاة من الضرائب من صقلية كما بنوا الحد الأدنى من التحصينات في الميناء الكبير. وإذ وصلوا ومعهم ذخائرهم المقدسة وأجزاء من محفوظاتهم ، أظهروا قدرة غير عادية على التكيف في نقل الاستمراريات الموحدة لدولتهم من جزيرة إلى أخرى بل إنهم أظهروا مرة أخرى أن بقاء النظام الرهباني العسكرى لايحتاج إلى الاعتماد على قاعدة إقليمية بعينها . وفى سنة ١٥٥١م ضاعت منهم طرابلس التى لم تكن محصنة بما فيه الكفاية وكانت دفاعاتها غير كافية، كما أن جوزو تعرضت للنهب والتدمير بصورة قاسية . وكانت قلعة سانت أنجيلو البحرية، وبلدة إيزولا ، أو سنجليا Isola or Senglea القريبة، وحصن سانت إيلمو Saint Elmo فى مدخل الميناء قد تمت تقويتها كثيراً عندما هاجمها العثمانيون سنة ١٥٦٥م . وكانت أساليب الأتراك العسكرية خرقاء . وقد قاوم قائد الاسبتارية خوان الفاليتى Jean de la Valetta الذى كان محارباً قديراً فى الحصار النهائى على رودس سنة ١٥٢٢م ، بعزم وحكمة تكتيكية ، وساعده سكان مالطة ؛ والحنكة الاستراتيجية فى استخدام حملة النجدة التى قادها جارثيا الطليطلى Garcia de Toledo ، نائب الملك فى بالرمو والذى كان هو نفسه قائد تنظيم سانتياجو . وقد اكتسب الاسبتارية هيبة ضخمة بسبب تماسكهم العنيد فى مثل هذا الموقف الذى لايمكن الدفاع عنه من الناحية الفنية، وتم طرد العثمانيين من قاعدة كان من المحتمل أن تصير خطراً استراتيجيا متقدماً .

وبعد ذلك بست سنوات ، عندما تمت هزيمة الأتراك فى ليبانتو، تم تقديم خمس سفن حربية ومائة فارس من نظام رهبانى عسكرى جديد كان مكرسا لسان ستيفن (سانتو ستيفانو) الذى كان قد تم تأسيسه فى سنة ١٥٦٢م على يدى كوسيمو الأول ميدتيشى Cosimo ide Medici ، دوق تسكانيا ، الذى صار القائد الكبير الوراثى لهذا

التنظيم . وقد حوّل جزءًا من الأسطول التسكانى الضعيف إلى قوات بحرية دائمة جاهزة على غرار أسطول مالطة ومصمم لحماية شواطئه وسفنه ولدعم رعاياه من غير الفلورنسيين المحيطين بحكمه من خلال خلق طبقة نبلاء جديدة وتحديدها . وفى مدن معينة معارضة لفلورنسا، مثل سيينا Siena ولوكا Lucca بقى النبلاء إلى حد كبير على ولائهم لتنظيم فرسان مالطة، ولكن فى الأماكن الأخرى اجتذب تنظيم سانتو ستيفانو كثيرا من العائلات بعيدا عن الاسبتارية ، حتى مع أن النبلاء فيها كانوا يفتقرون إلى هيبة تنظيم فرسان مالطة. فقد كان الفرسان قادرين على دخول التنظيم وضمان الوضع النبيل بمنحهم منطقة قيادة برعاية العائلة Jus Patronatus وكان يمكنهم الزواج ، كما كان الحال فى سانتياجو؛ وكانوا مرتبطين بأداء ثلاث سنوات خدمة عسكرية يقضون جزءًا منها فى البحر . وكان يمكن لأبناء قادة المناطق المتزوجين أن يرثوا قيادات آبائهم تحت حماية العائلة . كما كان يمكن التغاضى عن عدم انتساب أمهاتهم إلى طبقة النبلاء بدفع مبلغ إضافى من المال أو زيادة المبلغ المدفوع ؛ وعلاوة على ذلك، كان يمكن للتتابع السريع فى عمليات التنازل عن الألقاب من جانب القادة الأحياء أن يساعد عددًا من أعضاء العائلة نفسها على أن يجعلوا أنفسهم نبلاء بسرعة تامة . وقد اختلف هذا كله اختلافًا بيِّنا عن ممارسات مالطة فيما يتعلق بالعزوبية ونبالة الأصل، بيد أنها وفرت أيضا إسهامًا بحريًا كافيًا فى الحرب المقدسة.

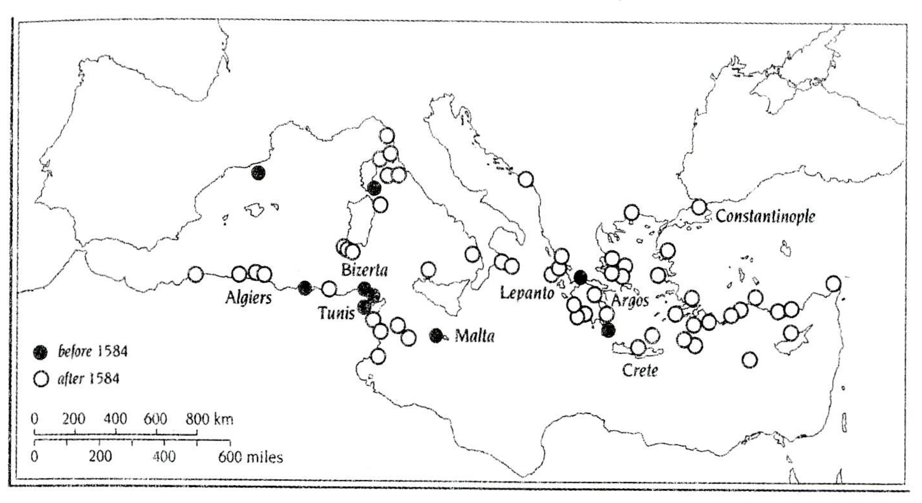
وسرعان ما صار لتنظيم فرسان سانتو تيفانو، بأكاديميته البحرية الخاصة وديره وكنيسته فى بيزا التى صممها جيورجيو ڤاسارى Giorgio Vasari ، مئات من الفرسان الذين كان بعضهم من خارج تسكانيا ، وتم تأسيس ما لا يقل عن ستمائة وخمس وتسعين قيادة فيما بين سنة ١٥٦٣م وسنة ١٧٣٧م وكان أسطولها بتنظيمه الجيد فى قاعدته بليڤورنو يدافع عن شواطئ تسكانيا وتجارتها ، كما حارب الأعداء فى ميادين أبعد مسافة ، وكان غالبًا ما يبحر إلى جانب سفن الاسبتارية؛ وقد أسهم بسفينتين حربيتين فى نجدة مالطة فى سنة ١٥٦٥م. وكانت السفن الحربية التسكانية التى وصل

عددها أحيانا إلى عشر سفن أو أكثر ، تشن غارات عدوانية على شواطئ شمال أفريقيا ، وفى جميع أنحاء بحر إيجه ، وفيما حول قبرص ، وكان أبرزها تحت قيادة قائدها الأكبر جاكوبو إنجرامى **Jacopo Inghirami** . وكانوا يبحرون

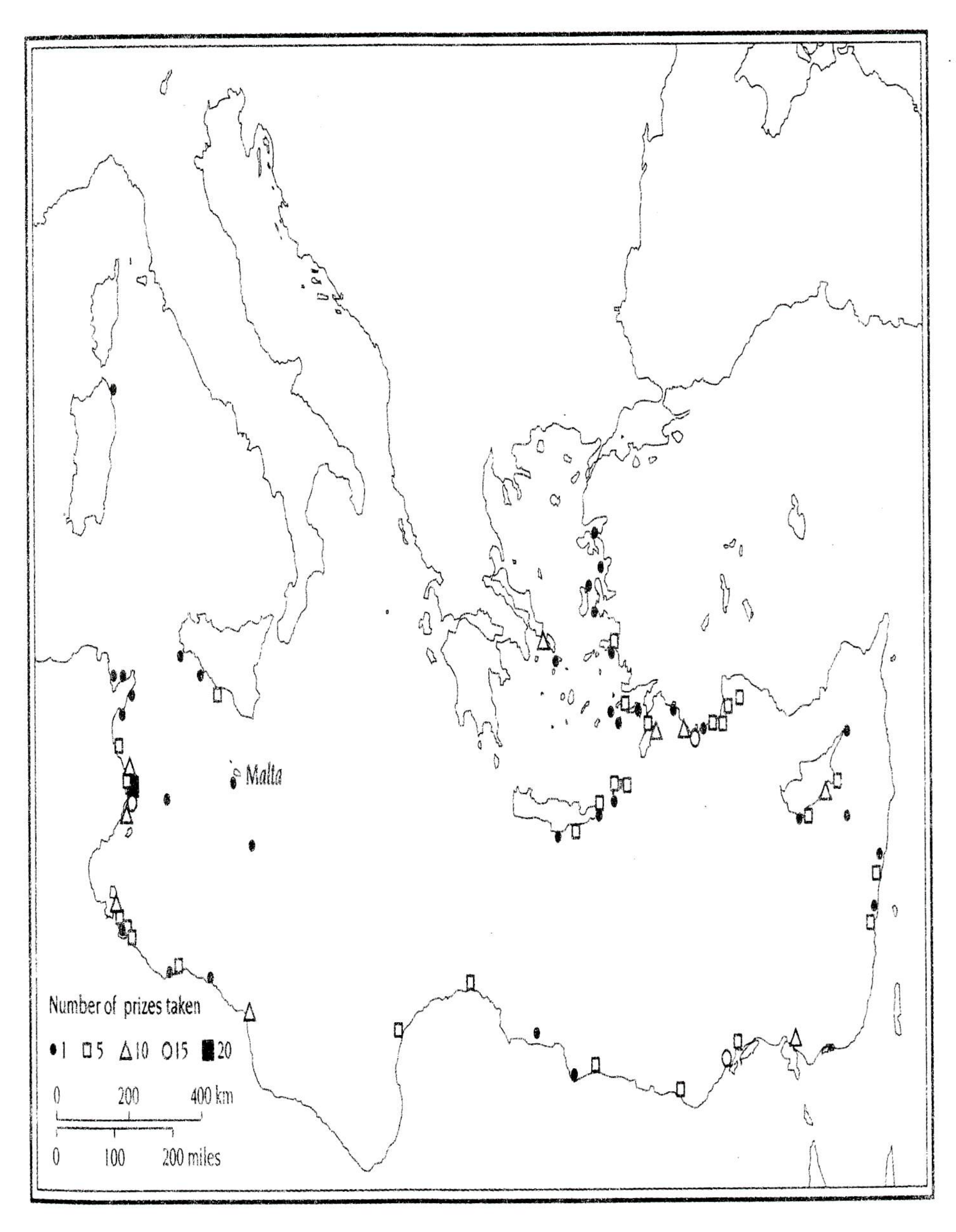


منظر رسمه مجهول فى القرن السابع عشر لأسطول تنظيم سانتو ستيفانو يتم تسليحه فى ليڤورنو بتسكانيا ، وعضو من التنظيم وصليب التنظيم على صدره يقف فى مقدمة الصورة.

على شكل أسطول كان يأخذ الفدية والأسلاب ويقسمها ، ولكن بخلاف الاسبتارية، لم تكن لتنظيم سانتو ستيفانو عمليات قرصنة شبه خاصة. وبعد سنة ١٥٨٤م حول التنظيم ثقل عمليات القرصنة التى يقوم بها باسم المسيحية من غرب المتوسط إلى أراضى شرق المتوسط المغربية . ففى السنوات الثمانى ما بعد ١٦١٠م أخذ تنظيم سانتو ستيفانو أربع وعشرين سفينة مغربية وأسر ألف وأربعمائة وتسعة أسرى فى غرب المتوسط، كما نهب عدة بلدات واستولى على تسع وأربعين سفينة تركية ويونانية وألف ومائة وأربعة عشر أسيراً فى شرق المتوسط. وقد حارب تنظيم سانتو ستيفانو، مثل الاسبتارية ومثل التيوتون بدرجة قليلة مع البنادقة فى حرب كريت التى خاضوها من سنة ١٦٤٥م إلى سنة ١٧٣٧م، ولكن من بعدها زادت أعماله قليلاً . وكان منصب أمير البحار قد ألغى فى سنة ١٧٣٧م وقد ألغى نابليون التنظيم فى سنة ١٨٠٩م . وفى السنة نفسها قام نابليون بإنهاء تاريخ تنظيم الفرسان التيوتون الذى خسر أراضيه فى ألمانيا . وتم نقل قيادة أركانه إلى ڤيينا، بيد أن خصائصه العسكرية وكل تطلعاته لبناء دولة تنظيم كانت قد ذهبت مع الريح .



خريطة غارات أساطيل نظام سانتو ستيفانو فيما بين عام ١٥٣٦م وسنة ١٦٨٨م توضح النشاط المنتشر إلى شرق المتوسط.



الغنائم التى حصل عليها القراصنة المالطيون Corso فى المياه الإسلامية فيما بين سنة ١٦٥٤م وسنة ١٦٩٤م .

في سنة ١٥٦٨م حاول كوسيمو دى ميديتشى أن يُدمج نظام سان لازاروس فى نظام سانتو ستيفانو، ولكن بدلاً من ذلك وحد البابا جزءًا منه سنة ١٥٧٢م مع نظام سان موريس ، وعين عمانويل فيليبرتو Emanuele Filiberto ، دوق سافوى ، وخلفاءه قادة أعلى دائمين مع التزامهم بالحفاظ على سفينتين حربيتين؛ والحقيقة أن سفينتين خدمتا فى تونس سنة ١٥٧٤م، ولكن النشاط العسكرى لذلك التنظيم توقف بعد سنة ١٥٨٣م . واستمرت النظم الرهبانية العسكرية الجديدة فى الظهور ، فقد أسس البابا بيوس الثانى Pius II نظام فرسان بيت لحم سنة ١٤٥٩م، واستخدم ممتلكات مختلف النظم الرهبانية العسكرية الصغرى التى تم حلُّها . وقد خطط العدد القليل من فرسانه، تحت قيادة أستاذهم ، دايمبرتو دى أموروسا Daimberto de Amorosa للدفاع عن جزيرة ليمنوس Lemnos فى بحر إيجه، ولكنها سقطت بأيدى الأتراك وانتقل الرهبان الفرسان إلى سيروس Syros وبنوا نُزُلاً للإقامة هناك سنة ١٤٦٤م . وفى أعقاب غزو ليمنوس على أيدى البنادقة فى السنة نفسها، عادوا إليها، ولكن الأتراك استولوا على الجزيرة مرة أخرى فى سنة ١٤٧٩م واختفى التنظيم عمليا. وبعد ذلك بوقت طويل، فى سنة ١٦١٠م، ساعد شارل جونزاجا Charles of Gonzaga ، دوق مانتوا Mantua ونيفيرس Nevers على إنشاء النظام الرهبانى البابوى المسمى نظام جنود المسيح Ordre de la Milice باعتباره جزءًا من مشروعات فرنسية واسعة لمحاربة الأتراك والبروتستانت الألمان. وفى سنة ١٦٢٣م حوَّل البابا أوربان الثامن هذا التنظيم إلى تنظيم عسكرى تمامًا مع القسم بالطهارة والعفة الزوجية . وقد انضمت إليه مجموعات من الإيطاليين والألمان ، وتم الإسهام بالأموال، كما تم بناء أسطول بحرى، ولكن لم يحدث أى فعل .

الفترة الحديثة : بقاء دولة تنظيم

بعد سنة ١٥٦١م لم يبق سوى تنظيم فرسان مالطة هيئة مستقلة وفعالة عسكريًا . فقد كان يديرها محاربون أشداء يعرفون ما يعملون ؛ إذ كان القائد چان دى لاڤاليت

قد وقع فى أسر المسلمين وظل كذلك ما يزيد على سنة كاملة. وقد وفر حصار سنة ١٥٦٥م للاسبتارية غرضًا جديدًا وثقة متجددة ؛ فقد بدأوا على الفور بناء مدينتهم الجديدة فى ڤاليتا، والتى تولى تجميلها چيرولامو كاسار Girolamo Cassar ، كما بدأوا فى تشييد نظام كبير للتحصينات المنتشرة حول الميناء الكبير.

وقد تحولت الجزيرة إلى ثكنة قوية هددت المواصلات الاستراتيجية بين إستنبول والإسكندرية التى كانت تعتمد عليها الجبهة الإسلامية من مصر إلى تونس ، والجزائر، والمغرب بصورة جزئية . وقد وقف الاسبتارية باعتبارهم العقبة الرئيسية ضد هذا الخطر، وأكدت دعايتهم على التضامن الإسلامى حتى يبقوا على الخوف من الأعداء حيًا فى صدور الغرب ولكى يبرروا موقفهم والحرب المقدسة التى كانوا يعولون عليها من الناحية الأيديولوچية. ولأن تحصينات مالطة الحجرية الضخمة لم تتعرض أبدًا لهجوم خطير، وهو أمر يدل فى حد ذاته على كفاءتهم، فإنهم أعطوا الانطباع بأنهم نظام حكم يستحوذ عليه الخوف من الغزو. وقد بقيت على الدوام بعض عناصر الخطر، كما أن هذه التحصينات ، التى كانت فى حاجة مستمرة إلى التجديد، امتدت فى النهاية إلى الكثير من أنحاء الجزيرة ؛ وكان آخر أعمال البناء الكبرى فى برنامج البناء المستمر تقريبا ، هو تشييد حصن تجنى Fort Tigné ، الذى استكمل بناؤه سنة ١٧٩٤م. وكانت التحصينات تتطلب الكثير من الاستثمارات المالية وفرض الضرائب محليًا ولكنها وفرت لسكان الجزيرة الحماية وفرص العمل. فقد كانت دور صناعة السفن تدعم الحملات البحرية الكبرى، وكان الاقتصاد متنوعًا كما أن البلدات الجديدة والمستشفى وخدمة الحجر الصحى، ومخازن التجارة ذات الموقع الجيد، كلها توسعت بسرعة . وقد تضاعف سكان مالطة وجوزو تقريبا فى مدى مائة سنة، من حوالى تسعة وأربعين ألفا وخمسمائة سنة ١٦٨٠م إلى واحد وتسعين ألفًا سنة ١٧٨٨م ، وبينما كان هناك بعض السخط على الحكومة ، كما كان الحال فى كافة أرجاء أوربا، كان المالطيون ، مثل أهل رودس قبلهم ، يلقون معاملة طيبة نسبيا وراضين . هذه الإنجازات تم تأمينها بالتدخل الدبلوماسى بلا كلل فى البلاط البابوى، والفرنسى والبندقى وغيرها ، وذلك عندما صار الاسبتارية بالفعل موجودين بكثرة فى الوظائف

العلمانية. وصارت ڤاليتا أكاديمية بارزة للقادة البحريين والذين كان بعضهم قد صاروا ضباطًا فى الأسطول الفرنسي، ولكن **بحلول القرن** الثامن عشر ، كانت الحرب فى البحر، إلى جانب التهديد العثمانى **نفسه، آخذة فى** التدهور.



تفصيل من رسم يرجع إلى القرن الثامن عشر لمجهول عن أسر القيادة Capitana فى طرابلس بواسطة الأسطول المالطى، تبين السفينة ذات المجاديف براياتها الثلاث المرفرفة والتى كانت سفينة قيادة أسطول الاسبتارية وسفينة إبحار على الخط من الطراز الذى قدمه الاسبتارية ١٧٠٥م .

لقد تأسس إنجاز مالطة العسكرى على أعداد لاتحصى من الأحداث الصغيرة ، عندما ساد الاسبتارية بكفاءة على البحر من تونس إلى كلابريا ولم يكن هدفهم الإغراق أو القتل بقدر ما كان ضمان الأسلاب والفدية والعبيد. وقد تراوحت الحظوظ ونال الاسبتارية حظهم من الخسائر؛ فمثلاً تم أسر ثلاث من سفنهم سنة ١٥٧٠م مما قلل حضور التنظيم فى معركة ليبانتو فى السنة التالية إلى ثلاث سفن فقط. وبعد تلك المعركة لم تبن القوى العظمى أبدا أساطيل كبيرة، لأن تكلفتها باتت أكبر من اللازم . وبدلاً من ذلك كان هناك توازن فى القوى البحرية بالبحر المتوسط بذلت مالطة الكثير للحفاظ عليه. إذ لم تكن معركة ليبانتو قد دمرت القوة العثمانية؛ فالحقيقة أن الأتراك كانوا قد فتحوا قبرص سنة ١٥٧١م وفى سنة ١٥٧٤م استعادوا تونس. وزاد الاسبتارية اعتداءاتهم . وفى سنة ١٦١١م ، مثلاً ، هاجموا كلاً من كورنثة فى بلاد اليونان وكركينا قبالة الساحل التونسى ؛ ومن ناحية أخرى، كان هناك إنزال تركى صغير على مالطة سنة ١٦١٤م . وكان هناك تعاون مع البندقية فى الدفاع عن كريت من سنة ١٦٤٥م إلى سنة ١٦٦٩م، فى أثناء حرب أشعلها هجوم شنه الاسبتارية على قافلة مصرية . واستمرت السفن المالطية والتُسكانية فى الإبحار ضد العثمانيين ولكن الحرب التركية التى انتهت سنة ١٧١٨م شهدت آخر حملاتهم الكبرى فوق مياه شرق المتوسط . وفى سنة ١٧٠٥م كان الاسبتارية قد قدموا سفناً شراعية ثقيلة عرفت باسم سفن الخط لكى تحل محل سفنهم التى تسير بالمجاديف . وكانت هناك مؤسسات خاصة مولت هذه السفن الحربية، والتى كان المفروض أن يمضى الفرسان أربع فترات كل منها ستة أشهر فى الخدمة عليها قبل أن يحصلوا على رتبتهم فى التنظيم . وقد تضاءلت الحرب فى البحر وكان بوسع الاسبتارية أن ينسبوا لأنفسهم الفضل فى هذا، ولكن الأعمال العدائية لم تتوقف تماما قط؛ ففى سنة ١٧٤٠م ، مثلاً ، كان هناك هجوم على أوران Oran. وقضى الروس على القوة البحرية العثمانية فى سنة ١٧٧٠م ، ولكن المخاطر ظلت باقية مع هذا ؛ وفى النهاية، عندما تم أسر سفينة تونسية بالقرب من جوزو فى أبريل سنة ١٧٩٨م، كان أسطول الاسبتارية لا يزال مؤلفًا من أربع سفن، وسفينتين على الخط، وفرقاطتين .

وكما حدث فى رودس ، أسهمت القرصنة فى توفير فرص العمل وفى إنعاش اقتصاد الجزيرة . ولم تكن القرصنة المالطية قرصنة خالصة ، كما أنها لم تكن القرصنة الحكومية القياسية التى ترخص بها سلطة عامة تحت قواعد سارية قانونًا ولكن دونما خصائص دينية. لقد كانت شكلا من أشكال الحرب المقدسة المحدودة، من الناحية النظرية وليس من الناحية الفعلية، فى نطاق الهجمات على سفن الأعداء (الكفار) . وإذ يأمر بها القائد، الذى كان يتلقى عشرة بالمائة من الأسلاب، ومنظمة بصرامة بواسطة محكمة خاصة، سمحت للاسبتارية وغيرهم بالاستثمار فى حملات القرصنة بتسليح سفينة وتقسيم الأرباح التى يتم الحصول عليها من الأسلاب والفدية . وكان هناك الكثير من الأسلاب فى بحر إيجه وفى البحر المتوسط ، عندما انتقلت العمليات من طرابلس إلى البلوبونيز ، وإلى رودس، وإلى قبرص. وقد أدت الهجمات على الملاحة البندقية بصفة خاصة إلى مواجهات دبلوماسية وإلى مصادرة موارد الاسبتارية من القرصنة على البندقية . وقد شارك الاسبتارية فى الكثير من الحملات الكبرى فى القرن السادس عشر وفى الحروب البندقية- التركية فيما بين سنة ١٦٤٥م وسنة ١٧١٨م ، ولكن بعد سنة ١٥٨٠م تحول التركيز على القرصنة Corso بأمر الحكومة ، وصارت مالطة، صارت مالطة دولة قرصنة مثل نظيراتها فى شمال أفريقيا وكانت سفنها نشيطة على امتداد السواحل المغربية حيث واجهت قرصنة شمال أفريقية مضادة فى صراعات كانت تمتد أحيانا إلى مياه الأطلنطى . وقد أسهم البحارة المالطيون والمستثمرون المالطيون إسهامًا تامًا فى عمليات القرصنة بأمر الدولة، على حين كان الاسبتارية لا يمولون بناء السفن فقط، وإنما خدموا على متنها ؛ ومن بين ٤٨٣ مغامرة معروفة فى القرن الثامن عشر، كان منها حوالى ١٨٣، أو نسبة ثمانية وثلاثين بالمائة ، تحت قيادة الاسبتارية . وقد أدت غلبة الفرنسيين على تنظيم الاسبتارية ، مع تحالفهم مع الأتراك ، إلى كبح جماح فرسان تنظيم الاسبتارية بحيث قللوا عملياتهم فى شرق المتوسط وقللوا من غنائمهم. وحتى سنة ١٦٧٥م ، كان لا يزال هناك ما يقرب من عشرين أو ثلاثين قرصانًا نشطًا ، ولكن منذ ذلك الحين حتى سنة ١٧٤٠م نزل الرقم بين عشرة وعشرين قرصانًا؛ ومن بعدها كان العدد أقل من ذلك،

ولم تصدر تصاريح للقيام بعمليات قرصنة فى شرق المتوسط. ولم يحدث سوى بعد أزمة ١٧٩٢م أن تم إحياء قرصنة الدولة فى مالطة لفترة وجيزة . وفى ذلك الحين كان الاسبتارية ناجحين تمامًا فى حراسة البحار ونشر السلم فيها بدلاً من شن حرب دينية مبررة أخلاقيًا ، بيد أن تنظيم الاسبتارية كان لا يزال يقدم نشاطًا مفيدًا عزز التجارة الغربية، لاسيما عندما أرغم الرعايا العثمانيين على البحث عن سلامتهم بالإبحار على متن السفن المسيحية.

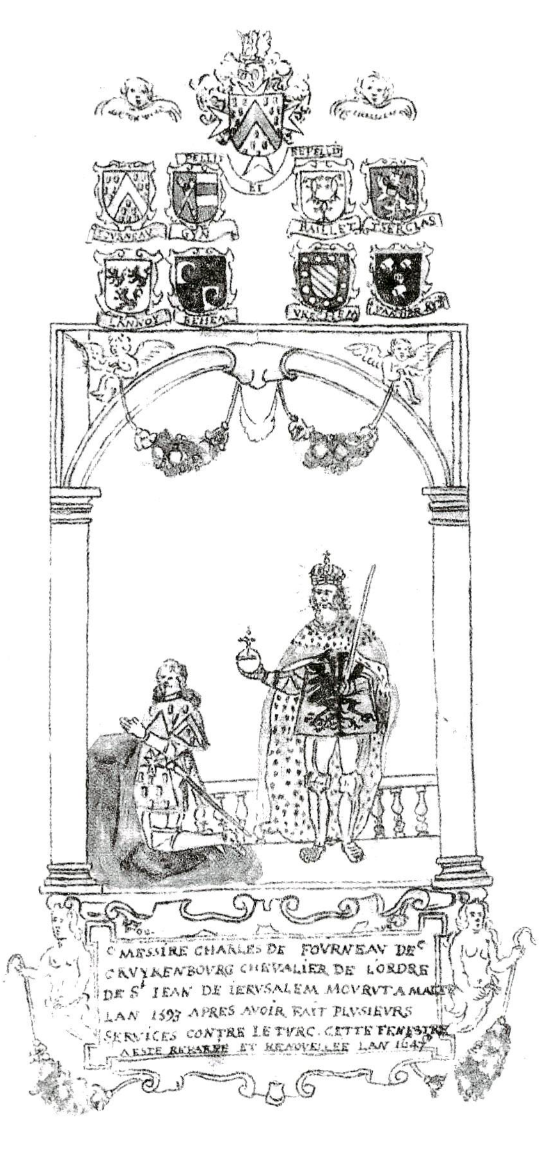
وبقيت المؤسسات الاسبتارية على جمودها . ذلك أن مجال إدارتها ، الذى امتد بعيدًا إلى ما وراء الدولة - التنظيم فى الجزيرة ، اعتمد بشكل كبير على القائد. وفيما بين سنة ١٥٢٦م وسنة ١٦١٢م، كان الاجتماع العام ينعقد بمعدل مرة كل ستة أشهر، ولكن منذ سنة ١٦٣١م حتى سنة ١٧٧٦م، عندما نشبت أزمة مالية قاهرة ، لم يعقد الاجتماع أبدًا . وقد صار الاسبتارية ، الذين لم ينلهم الإصلاح جديًا قط، أكثر خضوعًا للحكم الفردى، بل إن قادتهم صاروا يسعون إلى السيادة والسلطة فى أشكال مختلفة. وقد تم كسر احتكار جنوب فرنسا لمنصب القائد فى سنة ١٣٧٤م، وبعد ذلك كان هناك قادة إيبيريون وإيطاليون وفرنسيون كذلك؛ وفى القرن الثامن عشر كان هناك اثنان من البرتغاليين أنطونيو مانويل دى فيلهينا ومانويل بينتو دى فونسيكا حكما بين أولئك القادة على مدى ما يقرب من ست وأربعين سنة، وحكم بينتو منها مدة اثنتين وثلاثين سنة . وكان انتخاب حاكم لمدى الحياة يضمن الاستمرارية، والاستقرار، وعدم وجود الأطفال ووراثة النساء، ولكن نظام السيادة شجع على إطالة فترة الحكم وأنتج حكم المسنين فى جميع أنساق الإدارة العليا. وقد أدت موارد القائد الشاسعة وحمايته إلى مساعدته على كسب النفوذ ، ومساندة المجالس، أو انتخاب الفرسان بفضل إنعامه السيادى، ومن ثم كان بوسعه أن يصبح حاكما فرديا (أوتوقراطيا) لاسلطان عليه. وقد أدى مثل هذا السلوك إلى خلع القائد چان قس لاكاسيير Jean L'Evêque de la cassiere ، الذى كان سعى بشكل أخرق لكبح السلوك غير القانونى للرهبان الفرسان، ولم يُسفر سعيه سوى عن إعادته إلى وضعه السابق بعد أن واجه تمردًا عارمًا وزيارة إلى روما.



الصورة التى رسمها أنطوان دى فافرى Antoine de Fauray سنة ١٧٤٧م تمجيداً لمنصب القيادة فى التنظيم الرهبانى العسكرى ، والتى تبين القائد البرتغالى مانويل بينتو دى فونسكا Manoel Pinto de Fonseca ، الذى حكم مالطة من ١٧٤١ إلى ١٧٧٣م، مشيراً إلى رمز السيادة.

لقد تشبث الفرنسيون ، مع الولايات الثلاث من ولايات الاسبتارية السبع، بالأرض بصورة غريزية ، كما تشبثوا بمناطق القيادة والموارد التى اعتمد عليها بقاؤهم. كان هناك تدخل ملكى سافر، ولكنه لايقاوم ، فى رئاسة الاسبتارية بفرنسا وصل إلى درجة الفضيحة ، وعموما تطور نظام الترقى إلى منافسة بيروقراطية معقدة تسمح بتعدد الوظائف ، والغياب عن مكان الوظيفة ، وغير ذلك من المفاسد . وقد لعب التدخل المستشرى ، خاصة فى التعيينات ، من جانب البابوات الذين فشلوا فى الصمود أمام ضغوط الحكام والأفراد الآخرين دوراً مهماً فى تقويض الأساس الأخلاقى للنظم الرهبانية العسكرية. كانت محاباة الأقارب أمراً حتمياً ؛ ففى إحدى الحالات المتطرفة كان الابن الأكبر لأخت قائد الاسبتارية أدريان الوجناكورتى Adrien de Wignacourt قد عُيِّن قائداً على لاجنى – لو – سك Lagny - le- Sec وهو لا يزال فى الثالثة من عمره سنة ١٦٩٢م، واستمر فى هذا المنصب حتى موته بعد اثنتين وثمانين سنة . وتم قبول مانويل بينتو دى فونسكا فى سن الثانية ومات قائداً للتنظيم فى الثانية والتسعين من عمره . ومع هذا فإن الاسبتارية لم يتدهوروا بأية حال من الأحوال . فقد بقى هذا التنظيم قوياً فى أراجون وبوهيميا ، وفى أجزاء من ألمانيا وفى إيطاليا ، خاصة فى نابولى وصقلية . وبحلول سنة ١٥٨٣م حينما لم يكن هناك من حوالى ألفين من الإخوة سوى مائة وخمسين من السرجندية ومائة وثلاثين قسيساً، صار الفرسان هم الأغلبية الغالبة . وفى سنة ١٧٠٠م كان لا يزال هناك حوالى خمسمائة وستين مركز قيادة فى فرنسا ، وشبه جزيرة أيبيريا، وإيطاليا، والإمبراطورية.

وفى كل مكان تقريبا كان رداء الاسبتارية بصليبه ذى النجوم الثمانى يُضفى أسمى درجات النبالة . ففى إيطاليا ، بتشرذمها السياسى ، ساعد الاسبتارية على الحفاظ على شريحة من النبلاء الإيطاليين الذين جاءوا من خلفية مشتركة بأصولهم العائلية وعاداتهم وسلوكياتهم والتجربة التعليمية المشتركة فى مقر التنظيم بمالطة . هؤلاء الرجال عرف كل منهم الآخر بوصفه عضواً فى نادٍ متعدد الجنسيات يتم التحكم فى الالتحاق به من خلال سيطرة العائلة على موقع القيادة فيما عرف باسم jus pa- tronatus ومن خلال نظام جامد صارم للبرهنة على الأصل النبيل. وقد أدى التحول



مشروع يرجع إلى سنة ١٦٤٧ لإعادة بناء نافذة تذكارية فى ترنات Ternat ببلچيكا تخليداً لذكرى الاسبتارى شارل دى فورنو دى كروكمبورج Charles de Fourneau de Gruquembaurg الذى خدم ضد الأتراك ومات فى سنة ١٥٩٣م فى مالطة ؛ والرسم التخطيطى محاط بثمانية أسماء لعائلات وشعارات النبالة تبين أصله النبيل.

التدريجى من الحصان إلى السفينة ، والتحول العام لفن الحرب إلى فن يمارسه البروليتاريا، وظهور الأجهزة الإدارية غير الأرستقراطية فى الخدمة المدنية بالبلاط الملكى ، إلى تهميش دور النبالة القديمة التى كان شرفها وقيمها الفروسية قد ظهرت من خلال السيف الذى كان قد جار عليه الزمان. وبينما أدت المجادلات الحية إلى إعادة تحديد مفاهيم النبالة وتعديلها ، لم تكتف الأرستقراطية الأوربية بالاستفادة من النظم الرهبانية العسكرية فى تحديد وضعها والدفاع عنها ، ساعية إلى إقصاء النبلاء الجدد من الدخول فى النظم وبذلك يمنعونهم من الدخول إلى مقاطعاتهم وما تدره من فوائد . وفى تنظيم التيوتون والاسبتارية كان هذا التكالف بين النبلاء فعالاً فى الأديرة والأقاليم خارج دولتى التنظيمين، ولكن فى مالطة، مثلما كان الحال من قبل فى بروسيا ورودس، كانت الشريحة الأوليجاركية المغلقة ، التى ترجع فى أصولها إلى خارج التنظيم – الدولة ، ترفض إلى حد كبير دخول النخبة المالطية الأصيلة حتى لاتتطور إلى عامل سلالى مزعج داخل حكومة التنظيم .

وقد تمتع الاسبتارية بهيبة كبيرة فى الغرب وكان لكثير منهم اتصالات وروابط عائلية وسياسية لها تأثيرها مع الحكام ودوائر البلاط فى أقاليم الوطن. ولم تكن السلطة البابوية مجرد رابطة نظرية ؛ فالواقع أن المساندة ، والتدخل المدمر أحيانا، من جانب روما استمر فى التأثير على سياسة الاسبتارية. ولم تكن الاتهامات التى وجهت للاسبتارية فى القرن الثامن عشر بحياة الرفاهية ، وانعدام الأخلاق ، والخمول ، غير مبررة دائمًا ولكنها كانت مشابهة بطريقة مذهلة للانتقادات التى تكررت مرارًا وتكرارًا فى القرن الرابع عشر بل وقبل ذلك بالفعل . وعلى الرغم من عيوب تنظيم الاسبتارية من الناحية المؤسسية ، فإنه لم يكن تجسيداً لمثال متدهور فى العصور الوسطى عاش واستمر فى حالة من المفارقة النهائية . فقد ارتفع عدد الإخوة فعليًا من ١٧١٥ فردًا سنة ١٦٣٥م إلى ٢٢٤٠ فردًا سنة ١٧٤٠م . وغالبًا ما كان النبلاء فى بواكير العصر

الحديث من ذوى التعليم الجيد، وقد اجتذب تنظيم الاسبتارية أعضاء من ذوى الاهتمامات والمواهب العسكرية والدبلوماسية ، والعلمية والفنية العصرية تمامًا ، وكانوا رجالاً على اطلاع واسع وناشطين فى جميع أنحاء أوربا الغربية بل وفى أماكن بعيدة عن ديارهم مثل روسيا والأمريكتين . وقد عكست مكتبة الاسبتارية فى ڤاليتا مدى اتساع ثقافتهم التى جمعت بين الجانب النظرى والجانب العملى . وثمة مثال باكر تجسد فى سابا دى كاستيجليونى العالم الإنسانى Sabba di Castiglione ، الذى جمع التماثيل الكلاسيكية عندما كان مقيما فى رودس، وتم إرساله سفيرًا إلى روما ، ثم تقاعد فى مقاطعته بفاينزا Faenza حيث أنشأ مدرسة للأطفال الفقراء.

وكما كان الحال فى جميع النظم الرهبانية العسكرية ، كانت الأيمان التى يقسمها الاسبتارية تفسر بشكل أكثر تساهلاً كما كانت الحياة الطقوسية فى المقاطعة تلقى إهمالاً متزايدًا . وكان الرهبان الفرسان قادة المقاطعات غائبين عن مقاطعاتهم فى أغلب الأحوال؛ يديرون مقاطعاتهم على اعتبار أنها وحدة اقتصادية فى المقام الأول ؛ وقد كان بإمكانهم بناء ثروات شخصية معتبرة يتركون جزءًا منها خارج التنظيم عند موتهم. وحضر ممثلو الاسبتارية المجمع الإصلاحى الكبير فى ترنت Trent ، وعلى أية حال، لم يكن الموضوع بالنسبة لهم هو الإصلاح الداخلى وإنما كان الدفاع الناجح عن الإعفاءات التى يتمتع بها الإخوة فى التنظيم، وفوق هذا وذاك ، الدفاع عن أعوانهم من غير الأعضاء من السلطة الأسقفية، بيد أنه كانت هناك اهتمامات دينية قوية بين الاسبتارية تطورت، وخاصة فى فرنسا القرن السابع عشر ، بالتعاون مع الرهبان الچيزويت وغيرهم من الحركات الرهبانية الحديثة التى أطلق عقالها مجمع ترنت . وكان بعض الاسبتارية منشغلين بنشاطهم فى أعمال الإحسان، والرعاية، والبعثات التبشيرية، وفى تحرير الأسرى المسيحيين من أيدى المسلمين، وفى الأعمال الدينية

والروحية المعاصرة ؛ وسعوا للبحث عن سُبل يمكن للمتدينين من غير القساوسة بواسطتها أن يتابعوا مهمة الاسبتارية التى كانت دينية وعسكرية فى آن معا . وقد تطابق هذا كله مع الحفاظ على وظيفة الفروسية فى مالطة ، حيث كان هناك تبادل تكافلى بين رئاسة الدير والدير وهو ما أكد أن مالطة كانت على صلة حميمة بالفكر المعاصر.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا التبادل انتشار حركة التنوير ، بل والماسونية ، بين الرهبان الفرسان فى مالطة مما زاد من النفور من النظام القديم ancien régime . وكثيراً ما كان القادة يتشاجرون مع الأساقفة ، ورؤساء محاكم التفتيش البابوية ، وممثلى شعب مالطة ورجال الكنيسة بها وقد أنتجت الأقاليم الفرنسية الثلاثة ، بضياعها التى كانت غالبًا تحت إدارة جيدة، هى والغابات المملوكة لهم ، حوالى نصف دخل التنظيم من الخارج وضمنت للفرنسيين نصيباً فى المناصب . كما تبخرت وظيفتها العسكرية وتضاءلت مواردها ، وتعثر التنظيم فى مشروعات يائسة إلى حد ما، مثل مشروعات الدخول فى تحالفات روسية، وبريطانية وأمريكية ، وتأسيس شركة حبشية ، وخلق رئاسة ديرية فى بولندا ، وشراء ضياع فى كندا، وتملك كورسيكا ؛ وقد اشترى تنظيم الاسبتارية ثلاث جزر فى الكاريبى سنة ١٦٥١م ولكنه اضطر إلى بيعها سنة ١٦٦٥م . وفى سنة ١٧٩٢م صادر المجلس الوطنى أملاك الاسبتارية فى شتى أنحاء فرنسا، مما كان يحمل نذر عواقب مالية كارثية ؛ وفى سنة ١٧٩٨م واجه نابليون مقاومة قليلة وساق القائد الألمانى المتذبذب ، فرديناند ڤون هومبج Ferdinand von Hompesch ورفاقه الرهبان خارج مالطة التى كان يفترض أنها منيعة . وكان هناك حوالى مائتين من ثلاثمائة وثلاثين من الاسبتارية فى الجزيرة فرنسيين ، وعلى الرغم من خلفية انحطاط الروح المعنوية وعدم الاستعداد، كان كثير من الفرنسيين مستعدين للمقاومة . ولو أن هناك قيادة صارمة وأساليب قتالية أفضل فربما أمكن إنقاذ مالطة.

ولكن الجماعات الانهزامية والتحذيرية عملت على الاستسلام . ورفض العدد القليل من الاسبتارية الإسبان أن يقاتلوا . وكانت هناك مؤشرات حديثة على السخط الشعبى تجاه التنظيم؛ وفشلت بعض القوات المالطية فى القتال ، فقد كان هناك ذعر وفوضى فى ڤاليتا وحوادث متفرقة من العصيان والتخريب. وضغطت مجموعة من النبلاء المالطيين من أجل المفاوضات ويبدو أن القائد كان يخاف من نشوب انتفاضة الجماهير التى تحكمها دولة تنظيم الاسبتارية ، وربما كان على خطأ فى تقديراته.

كانت فرنسا وإسبانيا ، أكبر مؤيدى تنظيم الاسبتارية ، قد انقلبتا ضده ، ولم تكن المساعدة متاحة سوى من القوتين غير الكاثوليكيتين في روسيا وبريطانيا . ولم يكن من صالح الفرنسيين إزاحة الاسبتارية وترك السيطرة على الجزيرة لتسقط فى أيدى أعدائهم ، كما حدث بالفعل . كان الفرنسيون قد أفادوا تجاريًا من تأمين الاسبتارية للجزء الأوسط من البحر المتوسط ومن استخدام ميناء مالطة ، بيد أن بعض الرهبان الفرنسيين كانوا ملكيين أكثر مما ينبغى ، كما كان بعض الثوريين فى باريس متصلبين مذهبيًا بأكثر مما يجب . وربما كانت المصادرات التى جرت سنة ١٧٩٢م، والتى سرعان ما امتدت إلى سويسرا وإيطاليا وغيرهما ، ذات تأثير حاسم . إذ كان التنظيم يحمى البحر المتوسط بكفاءة وفعالية، وحتى بعد سنة ١٧٩٨م ربما يكون قد وجد وظيفة فى الصراع المسلح الذى نشب فى شمال أفريقيا على مدى عدة عقود بواسطة القوى الأوربية بل والولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنه بالنسبة لكثير من المراقبين حدث أن ظهر إلى الوجود مجتمع متغطرس من رجال الدين الأرستقراطيين بدا أحيانا خارجًا عن سياق عصر الثورة، لا لأن مالطة كانت مستعصية على الحكم أولا يمكن الدفاع عنها ولكن لأن الأسس الكامنة تحت الدولة - التنظيم ، وتمتعها بالأراضى الشاسعة ، والامتيازات الواسعة فى الغرب، لم يعد أمرًا مقبولاً.

الفترة الحديثة : تدهور الوظيفة العسكرية :

فى الواقع احتفظ تنظيم التيوتون بالوظيفة العسكرية فى حدها الأدنى بعد سقوط مالطة سنة ١٧٩٨م . إذ كان قد خسر بروسيا سنة ١٥٢٥م ولكنه احتفظ بممتلكاته ومـوارده فى كثير من الأجزاء الكاثوليكية ، بل وبعض الأجزاء البروتستانتية ، فى ألمانيا. وبعد سنة ١٥٢٥م كانت قيادة أركان القائد الألماني فى مرجنتهايم Mergentheim فى فرنكونيا حيث حكم مزيج من القادة Hoch-und Deutsch meister بلاطًا تافهًا مُزخرفًا من موضع ومكانة أى أمير ألمانى . وفى الوقت نفسه ، تحولت ليڤونيا ، حيث كان التنظيم ما زال يسيطر على كثير من المدن والقلاع ، إلى منطقة لوثرية(*) إلى حد كبير ، ولكن الرهبان الكاثوليك واصلوا قتالهم، لاسيما فى مواجهة الروس الأرثوذكس ولكنهم حاربوا أيضا ضد مقاومة الجماهير الليڤونية. وفى سنة ١٥٥٨م شن إيڤان الرهيب (قيصر روسيا آنذاك) غزوات جديدة ضد ليڤونيا وخسر التيوتون فيللين Fellin بعد ذلك بسنتين . ثم حدث فى سنة ١٥٦١م أن تحول آخر قائد ليڤونى ، وهو جوتثارد كيلتر Gotthard ketteler للبروتستانية وحول التنظيم إلى دولة – تنظيم علمانية ؛ وذهبت أجزاء من ليڤونيا إلى بولندا ، وصار القائد السابق هو الدوق العلمانى الوراثى لكورلاند وسيميجاللن Curland and Semigallen ، ومع مجئ سنة ١٥٧٧م انخفض عدد أعضاء تنظيم التيوتون كله إلى مائة وواحد وسبعين فردًا .

كانت مرجنتهايم دولة تنظيم Ordensstaat ولكنها تمتعت باستقلالها باعتبارها إمارة ألمانية تحت حكم قادة التنظيم التيوتونى، ولاسيما ماكسيميليان الهابسبورجى

(*) أى أن ليڤونيا أعلنت انضمامها إلى مذهب مارتن الاحتجاجى (بروتستانت) ضد سلطة البابوية الكاثوليكية . (المترجم)

منذ سنة ١٥٩٥م، والذين كانوا فى الغالب أعضاء من البيت الحاكم فى النمسا . وقد حافظ تنظيم الفرسان التيوتون على الآليات القديمة فيما يتعلق بالاجتماعات العامة والأدلة الصارمة على الأصول النبيلة . وكان هناك الكثير من المناقشات حول المزاعم الإقليمية ، حتى فى بروسيا ، والحلول الوسط مع البروتستانت الذين كانوا قد أخذوا عدة مقاطعات ؛ وتم التركيز بشدة على التقاليد القديمة وعلى الأرستقراطية الألمانية ؛ وربما كان الفرسان التيوتون تحت وطأة الخجل من نموذج زملائهم من النبلاء الألمان الذين كانوا ناشطين فى مالطة ، ولذلك قدموا مرارًا وتكرارًا مشروعات للدفاع عن قلعة أو حصن ما أو حتى لنقل التنظيم كله لكى يحارب ضد الأعداء على الجبهة المجرية ، كما كانوا يفعلون من حين لآخر فى القرن الخامس عشر . وقد أحيا بعض الفرسان تقاليد العصور الوسطى عن بامبورج Baumburg «أى قلعة الشجرة» فى تورون To-run حيث يفترض أن الفرسان الرهبان وراء نهر الفستولا Vistula ، ولأنه لم يكن بحوزتهم أية مبان ملكًا لهم ، حصنوا أنفسهم ضد الوثنيين البروسيين فى شجرة كبيرة؛ ومع هذا فإنه منذ نجح ماكسميليان الهابسبورجى منذ سنة ١٥٩٥م فى إرسال عدد قليل من الأفراد للقتال ضد الأتراك ، فإنهم كانوا يخدمون فعلاً بوصفهم أعضاء فى البلاط الإمبراطورى لا باعتبارهم أعضاء فى تنظيم رهبانى عسكرى . وفى أثناء القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر كان تنظيم فرسان التيوتون يطلب اثنين وثلاثين نُزُلاً للإيواء من النبلاء وحافظ على قسم العزوبية. وبعد سنة ١٦٠٦م كان من المفروض أن يقوم الفرسان الرهبان بالخدمة العسكرية ثلاث سنوات ؛ ولكنهم فى الحقيقة استطاعوا أن يكرسوا أنفسهم لإدارة مقاطعاتهم ، والإدارة فى الجهاز الإدارى مرجنتهايم ، أو الانضمام لجيش نظامى. ومنذ سنة ١٦٤٨م كانت لكل من اللوثريين والكالفينيين(*) حقوق متساوية فى التنظيم الذى صار يضم أتباع ثلاثة مذاهب .

(*) أتباع چون كالفن مؤسس إحدى فرق البروتستانت الأولى. (المترجم)

وفى سنة ١٦٥٨م كان هناك مشروع للعمل المشترك مع البندقية ومالطة ، ومشروع آخر فى سنة ١٦٦٢م لبناء أسطول حربى للتيوتون فوق مياه نهر الدانوب. وفى سنة ١٦٦٤م قام القائد يوهان كاسبر ڤون أمبرنجن Johann kaspar von Am-pringen بقيادة فرقة ضد الأتراك فى المجر وفى سنة ١٦٦٨م أخذ حملة صغيرة فاشلة للقتال فى كريت. وقد أدى بعض الرهبان الفرسان مهمتهم العسكرية فى مدن الحاميات على الحدود العثمانية، ومات منهم عدد قليل فى الحروب التركية. ومنذ سنة ١٦٩٦م موَّل القائد فوجًا عسكريًا كان الرهبان الفرسان فيه يخدمون باعتبارهم ضباطا فى الجيش النمساوى وقادة لمقاطعات تنظيم التيوتون أيضًا، وكانوا بمثابة وحدة من وحدات الجيش الإمبراطورى؛ وفى سنة ١٧٤٠م حاربوا فى الحرب البروسية - النمساوية، ولكن بوصفهم ممثلين لدولة إمارة ألمانية وليس باعتبارهم أعضاء فى نظام رهبانى عسكرى. وكانت الخدمات العسكرية التى يؤديها الفرسان التيوتون قد صارت مسألة ثانوية للغاية. ففى سنة ١٦٩٩م لم يكن هناك سوى أربعة وتسعين فارسا وثمانية وخمسين قسيسًا ؛ وفى السنوات المائة واثنتين وتسعين ما بين ١٦١٨م وسنة ١٨٠٩م ، كان يوجد ٧١٧ من الفرسان الرهبان ، كان منهم ١٨٤ من فرانكونيا ، ومنهم حوالى ٣٦٢ فرداً على الأقل ، أو حوالى نصف العدد الكلى، ضباطًا فى الجيش فى وقت من الأوقات ، وصار تسعة وثمانون منهم قادة عموميين (جنرالات) . لقد بقى التنظيم فى مرجنتهايم حتى سنة ١٨٠٩م لينقل مقره بعد ذلك إلى ڤيينا فى الأراضى النمساوية . وعلى الرغم من أنه تم استيعاب تنظيم التيوتون فى جيش علمانى أصلاً مثلما حدث لتنظيم سانتو ستيفانو والنظم الرهبانية العسكرية الإسبانية ، فإن ذلك كان بدرجة أقل، ولكن قاعدته الألمانية ، بمواردها وقوتها البشرية خارج النمسا ضمنت للتيوتون درجة معينة من الاستقلال .

صارت النظم الرهبانية العسكرية الإسبانية أقل نشاطًا من الناحية العسكرية . ففى سنة ١٦٣٧م، كان مجمل أعضاء التنظيمات الرهبانية العسكرية الثلاثة ١٤٥٢ فردًا، كان منهم حوالى ٩٤٩ فـردًا ، أو مـا يقـرب من الثلثيـن ينتمون إلى تنظيم سانتياجو . وفيما بين سنة ١٦٣٧م وسنة ١٦٤٥م ، حث فيليب الرابع الذى واجهته حرب فرنسية، مرارًا وتكرارًا الرهبان الفرسان على الوفاء بالتزاماتهم العسكرية ، ولكن النبلاء كانوا قد هجروا عاداتهم العسكرية الحربية ، وواجه التاج، الذى منح العضوية لمرشحين غير مناسبين بالمرة ، مراوغات ، واحتجاجات وأعذارًا على نطاق واسع . وفى سنة ١٦٤٠م اجتمع ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعون محاربًا ليشكلوا فرقة حربية من النظم الرهبانية العسكرية بما فيها تنظيم مونتيسا، ولكن مائة وتسعة وستين منهم فقط ، أى حوالى عشرة بالمائة كانوا من الرهبان الفرسان ؛ وكان بقية الإخوة أصغر مما يجب ، أو أكبر سنًا مما ينبغى ، أو مرضى أكثر من اللازم ، أو ليسوا على استعداد للقتال دفاعًا عن بلادهم. وأرسلوا بدلاء على نفقتهم الخاصة، ودفعوا غرامات، أو تملصوا ببساطة من الانضمام إلى القوات المقاتلة . وفى النهاية، تم إرسال الفرقة لمحاربة المتمردين القطلانيين داخل الحدود الإسبانية . ومن بعدها تم استبدال واجب الخدمة ببدل نقدى إلى حد كبير. ولم تكن خدمة الفرقة الحربية التى كونتها النظم الرهبانية العسكرية حقا خدمة تؤديها مجموعة من رجال الدين المتحدين فى هيئة واحدة ؛ وإنما كانت ، مثل الفرسان التيوتون الذين حاربوا الأعداء المسيحيين للبيت الحاكم فى النمسا ، وكان ذلك التزاما بالدفاع عن أملاك حاكمها العلمانى. وفى سنة ١٧٧٥م ، قدمت الفرق العسكرية الثلاث التى حافظت عليها نظم القنطرة ، وسانتياجو ومونتيسا ٤٦٨ رجلاً لاغير فى حصار الجزائر . وقد بقيت النظم الرهبانية العسكرية القشتالية باعتبارها مصدرًا مهمًا للدخل والحماية، كانت توفر لقمة العيش لعدد من الموظفين الملكيين، كما خدمت فى تحديد شريحة نبيلة فى شكل مؤسسى ، مثلما حدث فى الأماكن الأخرى ، واستمر المجلس الملكى للنظم الرهبانية العسكرية فى الدفاع عن احتكار معين للمولد والشرف من خلال نظام البراهين الصارمة على نبالة المولد للدخول فى النظم . وقد صارت النظم الرهبانية العسكرية الإسبانية نظما

عتيقة مهجورة؛ فلم يعد بناؤها يتناسب مع أية وظيفة مفيدة. وكانت النظم الرهبانية العسكرية البرتغالية قد تلاشت فيما بين سنة ١٨٢٠م وسنة ١٨٣٤م، وفى آخر الأمر تمت مصادرة أملاك الأنظمة الرهبانية العسكرية القشتالية الثلاثة سنة ١٨٣٥م .

لقد اعتمدت مشاركة النظم الرهبانية العسكرية فى الحرب المقدسة بين سنة ١٣١٢م وسنة ١٧٩٨م على النوعية والكفاءة فى أدائها أكثر من اعتمادها على عدد أعضائها . فمثلاً ، لم تقدم هذه النظم سوى عدد قليل من إجمالى مائتين وثمانى سفن حربية مسيحية فى ليبانتو سنة ١٥٧١م. بيد أن الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى كتب سنة ١٤٠٩م تقريبا : «لاينبغى لأحد أن يفترض بالنظر إلى سفنهم القليلة الراسية فى رودس أن قوة الاسبتارية ضعيفة وواهنة؛ فعندما يرغبون فى القيام بهذا، يمكن أن يجتمع عدد كبير منهم من شتى أنحاء العالم حيث ينتشرون ». وكان هناك بطبيعة الحال أولئك الذين كانوا يترددون فى الخدمة . فعندما تقابل ستة من الاسبتارية من دير البندقية سنة ١٤١١م فى تريفيزو Treviso لاختيار أربعة أسماء كان مقدمهم سيختار منهم واحداً يرسله إلى رودس، سعى أنجيلو روسى Angelo Rossi لإعفاء نفسه على أساس أنه كان قد خدم بالفعل من أجل الدير على مدى عشر سنوات فى روما، وعلى أساس أنه كان متورطًا فى قضية مطولة سوف تلحق الأذى بالتنظيم إذا ما خسر القضية بسبب غيابه ، وعلى أساس أن أخاه له أسرة كبيرة تحتاج إلى حمايته ، وعلى أساس أنه هو نفسه كان فقيراً بالقدر الذى لايسمح له بالذهاب . وإذا ما كانت مشاركة التنظيم أحيانا فى الحملات الصليبية وحرب الاسترداد الإسبانية Reconquista محدودة فى مداها ، وإذا ما كانت انتصارات تنظيم الفرسان التيوتون التى كانت مهمة فى استعمار الشرق الألمانى وتنصيره ، قد تبخرت فى نهاية الأمر ، فإن الدفاع عن رودس ومالطة ، ومقاومتهم للأتراك ، كانت إنجازات كبرى. وكانت المصالح الوطنية تميل دائما إلى تجاوز المُثُل الصليبية ، وفى العالم الحديث لم تبق النظم الرهبانية العسكرية حية



تمرينات الجنود المسلحين بالبنادق الذين يخدمون بوصفهم مشاة فى فرقة نظام التيوتون كما تم رسمها فى لوحة بالألوان المائية فى سنة ١٧٢٥م تقريبًا ؛ وقد احتفظ التيوتون بفرقة خدم فيها كثير من الرهبان - الفرسان باعتبارهم جزءًا من جيش الهابسبورج الإمبراطورى.

سوى حيث كانت تستطيع تأمين قاعدة أرضية مملوكة لها وتحافظ عليها باعتبارها حكومات ثيوقراطية شبه علمانية غريبة فى طبيعتها ، وعندما كانت تجد المبررات العسكرية التى تسمح لهم بالاحتفاظ بالضياع التى كانت سندا لهم فى النهاية . وعندما اقتربت النهاية كانت تلك حالة الاسبتارية فقط، وإلى مدى صغير جداً ، كانت تلك حالة التيوتون أيضا.

بعد القرن السادس عشر احتفظ الاسبتارية وحدهم باستراتيجية عسكرية إيجابية وضعتها الهيئة الحاكمة فى التنظيم ، على الرغم من أن تنظيم سانتو ستيفانو أوضح كيف يمكن لنظام رهبانى عسكرى إقليمى أن يستغل التقاليد الصليبية والحساسيات الأرستقراطية بنجاح من أجل غايات عسكرية وبحرية ، بالتوجه الذكى والثابت . وقد استطاع الاسبتارية فقط أن يزعموا أن تنظيمهم لم يتعرض لأى تغيير جوهرى فيما بين سنة ١٣١٢م وسنة ١٧٩٨م . وقد أسهمت النظم الأخرى بقدر ضئيل أو غير مباشر فى أنشطة الحكام المحليين الذين سيطروا عليها . وبالنسبة للباقين كان اهتمامهم الأكبر منصباً على بقائهم باعتبارهم هيئات أرستقراطية استمرت فى الوجود إلى حد كبير من أجل مصالحها الخاصة. أما النظم الوطنية الخالصة ، وبعض القيادات الوطنية أو غيرها من الأقسام المحلية فى النظم متعددة الجنسيات، فقد تم استيعابها والهيمنة عليها من جانب الدولة العلمانية ، على الرغم من أن الفرسان التيوتون والنظم الرهبانية العسكرية الإسبانية والبرتغالية استمرت فى الإسهام بشكل محدود من خلال مشاركتها فى الجيوش والأساطيل الوطنية. وقد برهن الحل الاسبتارى، وهو حل بحرى كانت قاعدته دولة – تنظيم فى جزيرة، على أنه الحل الأكثر نجاحاً ، ولكنه كان يعتمد على أديرته فى الغرب . وكان هذا قد اتضح سنة ١٤١٣م ، عندما هدد الرهبان – الفرسان بالتخلى عن رودس ما لم يتلقوا دعماً مالياً ولم يغيروا رأيهم سوى عند وصول الإعانات الإنجليزية ، وقد اتضح ذلك مرة ثانية فى أعقاب المصادرات النهائية التى بدأت سنة ١٧٩٢م.

لقد كانت النظم الرهبانية العسكــرية جزءًا من النظام القديم ancien régime الذى حلت عليه لعنة الفناء واختفت تدريباتهم العسكرية معهم. وعلى الرغم من أن مالطة بوجه خاص كانت لها بعض الجاذبية تجاه الأمور الحربية ، فنادرا ما كانت النظم الرهبانية العسكرية توجه الغرائز العدوانية للطبقة العسكرية فى شكل دينى للحرب . وباستثناء دورها الهامشى للغاية داخل إمبراطورية الهابسبورج ، أدت المصادرات والاضطهادات التى مورست بعد سنة ١٧٩٢م من جانب الثورة الفرنسية ومن جانب نابليون بالفعل إلى التعجيل بنهاية النظم الرهبانية العسكرية بوصفها هيئات عسكرية . وفى بعض الأحيان نجا قساوسة التنظيم وأديرته النسائية وكانت هناك مشروعات لاتحصى لإعادة البناء والإحياء ، فى بعض الأحيان باعتبارها إخوة أرستقراطية ، وفى أحيان أخرى فى شكل زائف أو على هيئة جماعات ديرية أو جماعات من الزهاد تتظاهر بأنها خلفاء للداوية . وكانت النظم الرهبانية العسكرية قد فعلت شيئا للحفاظ على المثال الجماعى للحرب المقدسة المسيحية ، وكان الاسبتارية يسبقون زمانهم فى أنشطتهم سواء باعتبارهم قوة بوليسية عالمية تكونت من دول مختلفة وباعتبارهم منظمة طبية عالمية. وبعد سنة ١٧٩٨م عاشت النظم الرهبانية العسكرية بطرق غير عسكرية من خلال مبانيها وأعمالها الفنية ، ومن خلال سجلاتهم ومؤرخاتهم ، وفوق هذا وذاك من خلال أنشطتهم فى مجال الرعاية والصحة .

(١٤)

صور الحروب الصليبية في القرنين التاسع عشر والعشرين

إليزابيث سيبيرى

بعد معاهدة كارلوفيتز سنة ١٦٩٩م ، كان التهديد الماثل بالغزو التركى لوسط أوربا قد انقضى . ومن ثم كان ممكنًا تبنى رؤية أكثر استرخاء للشرق المسلم . وقد لاقت خطابات السيدة مارى ورتلى مونتاجو Lady Mary Wortley Montagu (١٦٨٩-١٧٦٢م)، وهى زوجة سفير بريطانى لدى البلاط العثمانى فى إسطنبول ، وتصف تفاصيل الحياة التركية ، رواجًا وشعبية حين نُشرت سنة ١٧٦٣م، كما كان هناك ناد يعرف باسم «نادى الديوان Divan Club» لايدخله على أمثال الوجيه سير فرانسيس داشوود (١٧٠٨-١٧٨١م) Francis Dashwood الذى عاش فترة فى الإمبراطورية العثمانية . وثمة صورة مرسومة فى بيت سير فرانسيس فى ويست وايكومب فى بكنجهام شاير ، تصوره بعباءته وعمامته الشرقية وكتب تحتها «الفقير داشوود باشا» . وقد تمثل الميل للاستشراق فى أوبرا موزار المسماة IL Seraglio (١٧٨٢م) ، وفى الشعبية التى حظيت بها ترجمات «ألف ليلة وليلة». بل إن هذا الولع امتد إلى تصميم الحدائق . وهكذا جاءت حدائق القرن الثامن عشر فى باينشيل Painshill بسوراى Surrey على شكل خيمة تركية.

وقد أثارت حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨م المزيد من الاهتمام بالشرق. إذ كانت قواته تضم المهندسين والباحثين الذين نُشرت أبحاثهم وسرعان ما كان هناك تدفق منتظم من رسامى الخرائط ، والفنانين، والكتاب الذين زاروا المواقع الشهيرة

التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وسجلوا انطباعاتهم من خلال وسائطهم المتنوعة. والقائمة طويلة وممتدة ولكن الأمثلة تجسدت فى الشعراء الفرنسيين ألفونس دى لامارتين Alphonse de Lamartine وچيرار دى نيرڤال ؛ والروائيين الإنجليز من أمثال أنطونى ترولوب Anthony Trollope الذى تفاوض لعقد معاهدة مع مصر لصالح مستخدميه فى مكتب البريد سنة ١٨٥٨م ؛ والفنانين داڤيد روبرتس David Roberts ، وإدوارد لير Edward Lear، وچان – ليون چيروم Jean - Léon Gérôme . وقد انعكس الاهتمام بالثقافة الإسلامية والتاريخ ، والدين الإسلامى فى سلسلة من الدراسات، ومنذ عشرينيات القرن التاسع عشر فصاعداً ، انعكس هذا الاهتمام فى عدد من جمعيات المستشرقين الدارسين . ومع تقدم سنى القرن التاسع عشر، صار السفر أكثر سهولة وأكثر أماناً وزاد تدفق الزوار المتسلحين بالكتب الإرشادية ؛ فقد كان عصر الصفقات السياحية قد هلّ.

وقد بحث آخرون تطور الاهتمام بالشرق الأدنى والشرق الأوسط كما أرخوا له . وثمة جانب لم يتم الالتفات إليه بالتفصيل يتمثل فى التعامل مع الحروب الصليبية باعتبارها ظاهرة تاريخية ومنبعاً للخيال ، ويبدو أن مؤرخى القرن الثامن عشر قد تبنوا نظرة متشككة إلى حد ما تجاه الحروب الصليبية ، وهو ما يتسق ومواقفهم تجاه العصور الوسطى ومفهوم الفروسية جميعا. إذ كتب إدوارد جيبون فى كتابه «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» إن الحملات الصليبية «قد أعاقت نضج أوربا بدلاً من أن تدفعها إلى الأمام» ، إذ إنها شتتت الطاقات التى كان يمكن استخدامها بطريقة أكثر فائدة فى الوطن. كذلك كان ڤولتير وداڤيد هيوم يرفضان الحروب الصليبية كما أن المؤرخ الاسكتلندى وليام روبرتسون William Robertson وصف الحركة الصليبية باعتبارها «لحظة فريدة من الحماقة الإنسانية »، على الرغم من أنه ذكر فعلا بأنها كانت لها بعض العواقب المفيدة مثل تطور التجارة والمدن الإيطالية .

ولم يكن الكتاب والمعلقون فى القرن التاسع عشر ليحجمون عن انتقاد جوانب بعينها فى الحركة الصليبية، ولكنهم بشكل عام رأوها من منظور أكثر وردية ،

باعتبارها تجليًا للفروسية المسيحية المشتبكة فى قتال ضد العدو المسلم الدخيل . وبينما يوجد دائما خطر فى رسم موضوع بعينه ومن ثم إبرازه بشكل لايستحقه ، فإن دراسة الصور التى راجت فى القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين عن الحروب الصليبية، بحيث تبيِّن تطور هذا الموضوع بسبل واسعة التنوع ومن أجل تنويعة من المقاصد والأهداف ، لهى دراسة جديرة بالاهتمام. وبشكل أكثر عمومية، فإنها توضح المنظور الحديث لكل من الشرق الأوسط والعصور الوسطى.

ومن المنطقى أن نبدأ بأولئك الذين شاهدوا الأرض المقدسة بأم عينهم. وبينما كان الاهتمام الأساسى بلاشك منصبًا على الأماكن التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس، فإن عدداً من الرحالة أيضا يبدو أنهم كانوا على وعى بميراث الحروب الصليبية . فلم يكونوا جميعا متعاطفين تجاه الحركة الصليبية . وهكذا علق إدوارد دانييل كلارك Edward Daniel Clarke فى كتابه الموسوم Travels in Various Countries of Europe, Asia and Africa الذى نشر سنة ١٨١٢م، بقوله :«إنه خطأ شائع للغاية أن نفترض أن كل شىء همجى جاء من جانب المسلمين، وأن ننسب إلى المسيحيين ، فى تلك الفترة، رقيًا وتحضراً أكثر مما كانوا عليه بالفعل . إن الاهتمام الواجب بالتاريخ يوضح أن المسلمين كانوا فى الحقيقة أشد استنارة من الذين غزوا ديارهم ؛ كما أنه لايوجد دليل يجعلنا نصدق أنهم كانوا يبتهجون بأعمال الدمار ... لم يكن هناك ما يفوق خيانة المسيحيين وسلوكهم المخزى ، فى أثناء تلك الحروب التى جرت فى الأرض المقدسة، إلا فى القليل النادر».

لقد كانت النظرة إلى الحروب الصليبية مؤيدة لها على أية حال . إذ إن الكاتب والمؤرخ الفرنسى شاتوبريان Châteaubriand انطلق من باريس فى يوليو سنة ١٨٠٦م، لكى يصل إلى إستنبول فى سبتمبر ، ثم يصل إلى مقصده النهائى ، القدس، فى ٧ أكتوبر . وعند عودته إلى فرنسا ، كتب تقريراً عن رحلاته Itinéraire de Paris á Jerusalem ، نشر فى سنة ١٨١١م، وقد وُصف بأنه أكثر الكتب انتشاراً عن فلسطين فى

أوائل القرن التاسع عشر . ففي غضون ثلاث سنوات صدرت منه اثنتا عشرة طبعة .
وكان شاتوبريان قد قرأ في طفولته حكايات عن الفروسية قرأتها له أمه وأخبرته عن جده الكبير جيوفرى الرابع Geoffrey IV شاتوبريان الذى كان قد ذهب فى حملة صليبية مع الملك لويس التاسع ، كما أن كتابه يعج بالإشارات إلى الحركة الصليبية «سافرنا إلى القدس تحت راية الصليب. وربما سأكون آخر فرنسى أترك بلدى فى رحلة إلى الأرض المقدسة بالأفكار، والمشاعر ، والأهداف التى يحملها الحاج الصليبى». وقد انتقد شاتوبريان أولئك الذين تشككوا فى أخلاقية أو عدالة الحروب الصليبية ويبدو أنه كان يحمل القليل من التعاطف أو الفهم تجاه المسلمين . فبينما كان فى القدس، قرأ كتاب تاسو Tasso الموسوم «تحرير القدس» Gerusalemme Liberata وهى ملحمة شعرية يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر عن الحملة الصليبية الأولى، ويبدو أنها كانت ذات شعبية هائلة ، صدرت فى طبعات عديدة وترجمات كثيرة وعوملت وكأنها مصدر من المصادر الأولية. وكانت نقطة الذروة فى حج شاتوبريان عندما تم تنصيبه فارساً من فرسان الضريح المقدس فى موضع مقبرة المسيح بسيف جودفرى البويونى . وأقسم هو من جانبه أن يكون مستعداً لأن يلحق بإخوانه الفرسان، كامل التسليح لكى يحرر الضريح المقدس من «سيطرة الكفار» . وإذا ما حكمنا بروايات الرحالة الآخرين فى القرن التاسع عشر الذين زاروا بيت المقدس، يبدو أن هذا الاحتفال كان قد صار تقريبا أحد الملامح القياسية فى الزيارات التى يقوم بها الأوربيون البارزون، وكانت عناصره الرئيسية مهماز جودفرى البويونى وسلسلته وسيفه، تعقبه وليمة يدفع تكاليفها الفرسان الجدد. وفى مدينة مسلمة لم يكن ذلك يخلو من السخرية وفيما بعد علق أحد المراقبين بأن هذه الاحتفالات العاطفية كانت تجرى «على مسمع من الأفندية المسلمين الذين كانوا يجلسون فى الشرفة يدخنون الشيشة فى هدوء، أو يشربون الشربات، وهم غير واعين ببساطة لمغزى الأيمان التى قطعت والوعود التى بُذلت ».

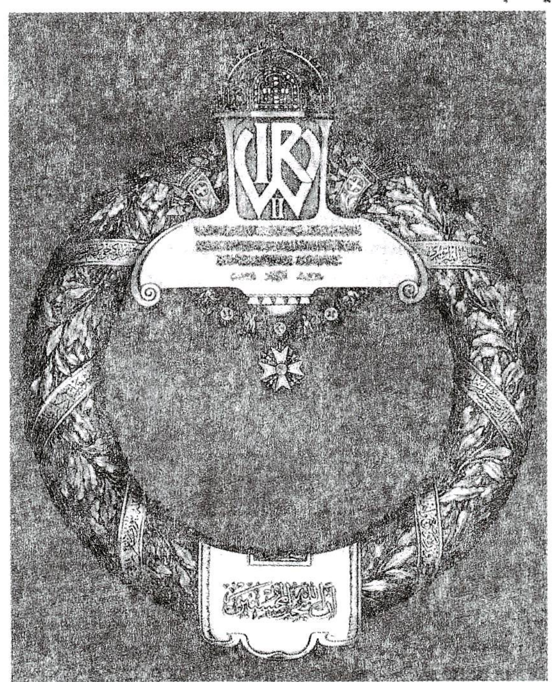
وقد اجتذبت الحروب الصليبية بنيامين دزرائيلى الذى تولى رئاسة الوزارة . فقد ذهب فى رحلة سياحية كبرى سنة ١٨٣١م، وهو فى سن السابعة والعشرين، قبل انتخابه عضواً فى مجلس العموم بست سنوات ، وزار دزرائيلى استنبول ، والقاهرة والقدس . وفى هذه المدينة الأخيرة زار مقابر الفرسان الصليبيين ، إلى جانب المواقع الأشهر فى القدس. وبعد عودة دزرائيلى إلى إنجلترا ظل مولعًا بالشرق ، بأماكنه وتاريخه ، وكان الشرق بمثابة الخلفية فى العديد من كتبه ، بما فى ذلك كتابه المفضل الذى يحمل عنوان «تانكرد» (نُشر ١٨٧٤م) ، وهو كتابه الأخير فى ثلاثية إنجلترا الفتاة Young England الذى كان عنوانه الفرعى «الصليبى الجديد The New Crusader».

والبطل فى كتاب تنكرد شاب نبيل لديه جميع المميزات التى يمكن للثروة والسلطة أن توفرها . ومع هذا فإنه يقرر رفض غواية الممتلكات الدنيوية والمكانة ليقوم برحلة حج إلى الأرض المقدسة، سائراً على خطى واحد من أسلافه ، كان قد شارك فى الحروب الصليبية ونال شهرته بإنقاذ حياة ريتشارد قلب الأسد. وفى هذه الرواية يتم تخليد مآثر الصليبى فى سلسلة من نسجيات الجوبلان المعروضة فى غرفة ببيت عائلة تنكرد عرفت باسم معرض الصليبيين. ويقول دزرائيلى فى رنة أسى ورثاء : «قبل أكثر من ستة قرون، كانت إنجلترا قد أرسلت فارسًا، وزهرة نبلائها وشعبها ، لكى ينقذ القدس من أولئك الذين اعتبروهم كفاراً والآن، بدلاً من الحملة الصليبية الثالثة ، فإنهم يبددون طاقاتهم الزائدة فى بناء السكك الحديدية» . وتظهر الإشارات إلى الحروب الصليبية أيضا فى بعض رواياته الأخرى . فعلى سبيل المثال فى رواية كونينجسباى Conings-by تتضمن الملابس التنكرية فى احتفال إيتون مونتم Eton's Montem «أبطال الضريح المقدس» ويعلق ماركيز سيدونيا بقوله : «لم يكن العقل هو الذى أرسل المسلمين من الصحراء لغزو العالم هو الذى ألهم الصليبيين... إن الإنسان يكون عظيما بالفعل عندما يتصرف بفعل العواطف ، التى لايمكن مقاومتها أبدًا سوى عندما يلجأ إلى الخيال» .

وقد زار الكاتب الأمريكي مارك توين Mark Twain ميدان معركة حطين في أثناء رحلته في الأرض المقدسة (The Innocents Abroad, 1869) ، وعلى الرغم من أنه ربما كان ساخراً من عجائب فن عصر النهضة في إيطاليا، فإنه تأثر كثيرا بسيف جودفرى البويوني الشهير «ليس هناك نصل في العالم المسيحي ينطوى على هذا القدر من السحر مثل هذا – ليس هناك نصل في كل هذا الصدأ في قاعات أوربا العتيقة قادر على أن يستحضر مثل هذه الرؤى من الخيال في عقل من ينظر إليه ... إنه يثير داخل الإنسان ذكرى الحروب المقدسة التي كانت نائمة في ذهنه على مدى السنين كما يملأ أفكاره بصورة تكسوها الدروع ... إنه يحدثه عن بلدوين وتنكرد وصلاح الدين وريتشارد قلب الأسد العظيم» .

كذلك قام قيصر ألمانيا ڤيلهلم برحلة إلى الأرض المقدسة ، ومصر وبلاد الشام رتبها له توماس كوك في سنة ١٨٩٨م . وكان هدف الرحلة تكريس كنيسة المخلِّص التي كان البروتستانت الألمان قد بنوها في القدس. وعلى أية حال ، زار القيصر أيضا في القدس المستعمرة التي تأسست حديثا لفرسان المعبد الألمان، وإذ تصور نفسه واحداً من الصليبيين، أو على الأقل وريث الصليبيين ، أراد أن يدخل المدينة القديمة على ظهر حصانه . وكان هذا الشكل من الدخول وقفا على الغزاة في التراث التاريخي، ولمساعدة القيصر على شق طريقه تم هدم سور المدينة قرب بوابة يافا ورُدم الخندق. وهكذا ركب إلى داخل المدينة ، ولكنه لم يمر من خلال البوابة . ولكي تتصاعد الدراما المسرحية ، ارتدى القيصر زيا احتفاليًا أبيض من النوع الذي يرتديه القائد الميداني . وفي دمشق وضع راية من الساتان وإكليلا من البرونز عليه نقش كتب فيه : «من إمبراطور عظيم إلى إمبراطور عظيم» على قبر صلاح الدين، وقد تمت إعادة الإكليل إلى إنجلترا بعد الحرب العالمية الأولى مع لورنس على سبيل التذكار وهو معروض الآن في متحف الحرب الإمبراطوري في لندن.

وكان لورنس نفسه بطبيعة الحال واعياً تماماً بالماضى الصليبى. فقد كتب بحثه للتخرج عن القلاع الصليبية ، وكان أحد أجداده وهو سير روبرت لورنس **Sir Robert Lawrence** مشهوراً بأنه كان فى صحبة ريتشارد الأول أثناء حصار عكا . وفى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» كتب لورنس : «لقد أحسست أن رؤية سوريا مرة أخرى سوف تكشف عن الأفكار الاستراتيجية التى منحنى إياها الصليبيون والفتح العربى الأول ، وأن أوفقها مع عاملين جديدين : السكك الحديدية وموراى **Murray** فى سيناء ». وفى تأبينه والثناء عليه بعد موته كتب فورستر **Forster** يشير إلى مفهوم الحملة الصليبية، باعتباره مفهوما يدل على مجموعة من الرجال يغادرون أحد البلاد لكى يقوموا بأعمال نبيلة فى بلد آخر ، وهو ما استحوذ على لورنس فى شبه الجزيرة العربية ثم فى عمله بالقوات الجوية فيما بعد .



إكليل من قبر صلاح الدين. إكليل برونزى وُضع على قبر صلاح الدين فى دمشق بيدى قيصر ألمانيا ڤيلهلم ثم أخذه لورنس T.S. Lawrence إلى بريطانيا تذكارا من الحرب العالمية الأولى

شهدت ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر تأسيس القنصليات الأوربية فى الأرض المقدسة - بريطانيا (١٨٣٨م) فرنسا وسردينيا وبروسيا (١٨٤٣م) ، النمسا (١٨٤٩م) ، وإسبانيا (١٨٥٤م) - وتقدم لنا مذكرات القنصل البريطانى چيمس فين James Finn الذى تولى المنصب من سنة ١٨٤٥م إلى سنة ١٨٦٣م توضيحًا مثيراً للمنافسات القومية التى كان تاريخ بعضها يعود إلى زمن الحروب الصليبية . والحقيقة أن القناصل استغلوا مآثر بلدانهم الصليبية لتعزيز مواقعهم . ومن الواضح أن القنصل الفرنسى كان يصر على أسبقيته على بقية زملائه على أساس أن سيده الملكى كان هو «حامى المسيحيين فى الشرق»، كما أن نظيره السردينى كان يرتدى زى ممثل ملك بيت المقدس (الصليبى)، وهو لقب كان يدعيه لنفسه كل من ملك سردينيا وإمبراطور النمسا. وكانت ملاحظات فين عن المزاعم الفرنسية: «حقا إن الفرنسيين فى تركيا لهم مكانة سامية عليهم الحفاظ عليها، ليس فقط لأنهم حماة المسيحية فى الشرق بموافقة عامة ، ولكن بفضل زعمهم بأنهم ورثة الصليبيين وخلفاؤهم . ففى رأيهم أن الأمم الأخرى آنذاك كانت تعانى لكى تشاركهم الحروب المقدسة ؛ ولكن بطرس الناسك كان رجلاً فرنسيًا ؛ كما كان مجمع كليرمون مجمعًا فرنسيًا وكذلك كان جودفرى البويونى وأخوه بلدوين فرنسيين ، كما كانت آخر حملة صليبية تحت قيادة الملك لويس التاسع شخصيًا». وكانت هناك عدة زيارات قام بها أعضاء الأسر الملكية الحاكمة فى أوربا إلى القدس فى منتصف القرن التاسع عشر، وقد سجلت السيدة فين (زوجة القنصل) فى مذكراتها أن الأمير إدوارد أمير ويلز ، والذى صار فيما بعد الملك إدوارد السابع ، نصب خيمته فى سنة ١٨٦٢م تحت شجرة الصنوبر الضخمة حيث أقام جودفرى البويونى معسكره سنة ١٠٩٩م، «على الرغم من أن الباشا لم يعرف ذلك». ولوحظ أيضا أن إدوارد كان أول وريث للعرش البريطانى يضع قدمه فى فلسطين منذ الحملة الصليبية التى قادها اللورد إدوارد سنة ١٢٧٠م.

كان الڤيكتوريون منجذبين كثيرا إلى أفكار فروسية العصور الوسطى ومفاهيمها، وهناك اثنان من المجلدات الأربعة لكتاب كينيلم ديجبى Kenelm Digby الرائع عن الفروسية ، والذى يحمل عنوان The Broad Stone of Honour` ، قد أخذا اسميهما عن اسم اثنين من أبطال الحملة الصليبية الأولى جودفرى Godefridus وتنكرد Tancredus. فقد كتب ديجبى ردًا على بعض الحجج التى ساقها المتشككون فى القرن الثامن عشر «إن جرائم الصليبيين قد بولغ فيها بشكل مهول »، وكان من حق المسيحيين أن يجبروا المسلمين على «عدم إيذاء العقيدة سواء بممارساتهم أو باضطهاداتهم الصريحة» . وكان جودفرى وتنكرد بطليه الصليبيين المفضلين ، ولكنه امتدح أيضا الصليبيين العاديين «فقد صبت ألمانيا وفرنسا وإنجلترا زهرة شبابها ونبلائها ؛ وكانوا رجالاً لا تقودهم أية مصالح أساسية أو توقعات شخصية ، ولكنهم ذهبوا بقلوب مخلصة تخلوا عن أعز البركات فى بلدانهم ومواطنهم دفاعًا عن القضية التى كانت غالية عليهم ، ولكى ينقذوا خُدَّام مخلصهم المضطهدين من الإهانة والخطأ ».

وأولئك الذين بدوا تجسيدًا لمثال الفروسية فى عيون معاصريهم كانوا يوصفون أحيانًا بأنهم صليبيون . فمثلا كتب چورج سميث George Smythe ، لورد سترا نجفورد ، سنة ١٨٣٧م عن صديقه اللورد چون مانرز Lord John Manners :

كان ينبغى لك أيها الصديق الغالى أن تعيش فى تلك الأيام الخوالى

حيث الأفعال من أجل المشروع السامى والفروسية

كانت تحظى بتعاطف العيون

التى كانت تبتسم لمرأى الشجاعة – أو للقصائد الموزونة

التى ينشدها الحاج العائد على قيثارة فى مديحهم

ثم تليها بالتأكيد حكاية بروڤنسالية عن الزمن القديم

تتحدث عن جبل صهيون والحملة الصليبية، كانت قد حكت

عن اسمك الفروسى ، وعن ألف من أعمالك الراقية

كما أن تشارلز ليستر Charles Lister ، ابن اللورد ريبيلسديل Lord Ribblesdale والذى كان من جرحى الحرب العالمية الأولى، والذى زار استنبول مع مجموعة من الأصدقاء ربما كان مثل دزرائيلى «ملهما بروح الصليبيين القدامى».

وبعد ذلك بفترة ما، وصف چون بوشان John Buchan ، أو برى هربرت Aubrey Herbert الذى خدم بوصفه ضابط مخابرات بريطانيا فى الشرق الأدنى بمصطلحات مماثلة على أنه «نوع من الناجين الباقين من زمن الحروب الصليبية» . ولاشك فى أن هربرت مع لورنس ، الذى كان أيضًا من أصدقاء بوشان ، كانا بمثابة النموذج الذى نسجت على مثاله شخصية ساندى آربوثنوت فى ثانية روايات بوشان "Greenmantle"، «فى الأيام السالفة كان لابد له أن يتولى قيادة حملة صليبية أو يكشف طريقًا جديدا إلى جزر الهند . أما اليوم فهو يطوف وحسب كما لو كانت الروح قد أخذته». وفى الرواية التى بعدها، "The Island of Sheep" يتحدث أربوثنوت Arbuthnot فى شئون الشرق الأدنى فى مجلس اللوردات . ويبدو محتملاً أن حل عقدة الرواية Greenmantle كان القصد منه أصلاً أن يحدث فى الآستانة (إستنبول)، والفعل يشكل نوعًا من الحملة الصليبية ضد مؤامرة ألمانية لكى تخمد ثورة إسلامية ضد الطرق البرية إلى الهند، ولكن كان لابد من تعديل القصة بعد حملة الدردنيل الكارثية. وفى سياق مختلف تماماً رأى المستكشف النرويجى أموندسن Amundsen نفسه على أنه «نوع من الصليبيين فى بعثة استكشافية قطبية. لقد أردت أن أعانى فى سبيل قضية– ليس فى الصحراء الحارقة فى الطريق إلى القدس ولكن فى الشمال المتجمد».

من الواضح أنه كان هناك كثير من الفخر والمباهاة فى الانتساب إلى أحد الأسلاف الصليبيين كما يمكن أن نجد الإشارات إلى الصليبيين فى كل وسائط النشر. فقد كان شعار عائلة وارد Ward ، مثلاً ، وهم ڤيسكونتات بانجور Bangor ، يشير إلى

الحروب الصليبية Sub cruce salus ويرمز إليه فارس مدرع على صدره صليب أحمر وأمير تركى مقيد اليدين. كما تمتلك عائلة de ver نجمة خماسية يعتقدون أنها من علامات مآثرهم الصليبية . وفى سنة ١٨٢٤م وضعت ترجمة لرواية تاسو، التى تحمل عنوان Gerusalemma Liberata ، قائمة «من النبلاء وعلية القوم الإنجليز الذين خرجوا فى حملات صليبية» ، ومنهم روجر دى كلينتون ، الذى كان من أسلاف إيرل لنكولن، دوق نيوكاسل اليوم، والذى قتل فى معركة أنطاكية ، وإنجلرام دى فيين Ingelram de Fiennes جد لوردات ساى وسيلى Saye and Sele . وقد احتفظت بعض العائلات بالأحجار الخلابة وبأشياء غامضة يربطها تاريخ العائلة بالحملات الصليبية ، ليتم عرضها على الزوار. إن لدى عائلة ماكفرسون Macphersons فى كلونى، مثلاً، حزام من الجلد المغربى الأحمر اشتهر بأن واحداً من الصليبيين جلبه من الأرض المقدسة، وشاع الاعتقاد بأن الحزام يساعد على توليد النساء بأمان.

ويصدق الشىء نفسه على فرنسا القرن التاسع عشر. فقد كتب الملك لويس فيليب فى مذكراته أن شعارات النبالة الصليبية صارت مثل «الإقطاعيات الوراثية»، وكانت هناك منافسة شرسة بين العائلات الفرنسية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر لوضع معاطفها وأسلحتها فى قاعات الحروب الصليبية Salles de Croisades فى قصر فرساى ، والتى خصصها الملك لأولئك الذين كان أسلافهم قد جلبوا المجد لفرنسا بمشاركتهم فى الحملات الصليبية. والحقيقة أن بعض العائلات لجأت إلى وثائق مزيفة اشتروها من مسيو كورتوا Monsieur Courtois لإثبات قضيتهم . وكانت مزاعمهم تخضع للتدقيق من جانب أمير جوانفيل. كما كان أبطال الروايات يقتبسون عن الأسلاف الصليبيين ويستشهدون بهم . فبطل رواية "Guy Living stone" التى كتبها لورنس G.A. Lawrence لايملك فقط وجه «واحد من أولئك الصليبيين الحجريين الذين يتطلعون إلينا من مقاعدهم فى الكنيسة المستديرة بالمعبد»، فهو سليل سير ماليز بوان دى فير ليفينجستون Sir Malise Point de Fer'living stone ، أحد الذين شاركوا فى

الحملة الصليبية ، وحارب كتفا بكتف بجانب ريتشارد الأول ملك إنجلترا فى عسقلان . وفى روايته الموسومة Guy Mannering يجعل سير والتر سكوت أحد نزلاء ملجأ جالواى يخبر زائرًا إنجليزيًا بقوله : «كنت أود لو أنك سمعت قصص أبى عن الحروب القديمة لعائلة ماكدينجواى... وكيف أبحروا إلى الأرض المقدسة- أى إلى القدس وأريحا ... وكيف جلبوا الذخائر المقدسة مثل تلك التى لدى الكاثوليك ، وهناك راية معلقة قرب سقف المنزل».

وإذا ما وضعنا هذه الخلفية فى اعتبارنا ، فلن يكون هناك داع للدهشة من أن إنجلترا ، مثلاً، قد شهدت فى القرن التاسع عشر محاولات لإحياء النظم الرهبانية العسكرية بل والقيام بحملة صليبية . فقد كان فرسان القديس يوحنا الاسبتارية ، الذين عرفوا آنذاك باسم فرسان مالطة، ، قد نجوا عندما استولى نابليون على قاعدتهم سنة ١٧٩٨م ، وكما سنرى جرت محاولة سنة ١٨٢٧م لإحياء الفرع الإنجليزى الذى يضم مجموعة حيوية من الفيكتوريين غريبى الأطوار . وكما حدث بالنسبة للداوية، كان اللاعبون الرئيسيون فى الجهود المبذولة لإحياء التنظيم الرهبانى العسكرى فى إنجلترا هم سير سيدنى سميث ، الذى دافع دفاعًا بطوليًا عن عكا ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٩م(*) ، والذى كان واضحًا أنه رأى فى نفسه صليبيا من صليبيى الأيام الأخيرة وتشارلز تنيسون دى إينكورت، عم الشاعر ألفريد تنيسون. وكان سميث منضما إلى نظام فرسان الداوية الجديد الماسونى الفرنسى واعترفوا به مقدمًا كبيراً على إنجلترا ، وقد تخلى عن اللقب لابن چورج الثالث دوق سسكس Sussex، فى محاولة لتحسين أحوال التنظيم ، ولكن يبدو أن عدد المنضمين كان قليلاً ولم يعمر الفرع الإنجليزى كثيراً بعد تأسيسه .

(*) هذه إشارة إلى حملة نابليون بونابرت الفاشلة على عكا فى تلك السنة، أثناء أحداث الحملة الفرنسية على مصر، التى استمرت ثلاث سنوات (المترجم) .

وكان الداعية الرئيسى إلى القيام بالحملة الصليبية هو سير وليام هيلارى ، الذى كان فارساً فى الفرع الإنجليزى ومؤسس The Royal National Lifeboat Institution . وعندما سمع بأخبار عودة عكا إلى سيطرة السلطان العثمانى سنة ١٨٤٠م(*) كتب كتيبا صغيراً عنوانه : Suggestions for the Christian reoccupation of the Holy Land as a sovereign state by the Order of st . John of Jerusalem .

وقد لاحظ هيلارى : «لقد كان احتلال الأرض المقدسة ، على مدى عدة قرون، أهم من أى موضوع جذب اهتمام البشر على الإطلاق» . وقد داعبت خياله فكرة تأسيس محمية، تقوم بتأمين عكا فى أيدى الأوربيين وتعيد بناء نظام رهبان الاسبتارية (القديس يوحنا) وتعيده إلى مجده الأصلى على السواء. وفى أغسطس سنة ١٨٤١م نشر ما أسماه «خطاب إلى فرسان القديس يوحنا عن الاحتلال المسيحى للأرض المقدسة Address to the Knights of St. John on the Christian occupation of the Holy land" .

استخدم فيه لغة تذكرنا بالدعاية إلى الحملات الصليبية فى العصور الوسطى . «لايبقى بالنسبة لى مع كل الاحترام، غير أن أتوسل إلى إخوتى الفرسان... لتشكيل حملة صليبية جديدة، ليست مثل حملات الأيام الخوالى ، لكى يحولوا الأرض المقدسة إلى حقل للمذابح وسفك الدماء، وإنما حملة صليبية للسلام» . وقد بذل الفرع ما فى وسعه للمضى قدماً بمشروع هيلارى، ولكن ، بالنظر إلى معركة هذا الفرع للحصول على الاعتراف والتعقيدات السياسية فى ذلك الوقت، باءت كل الجهود بالفشل .

وقد استخدمت تخيلات الحروب الصليبية من حيث ربطها بالصراعات المعاصرة. وهكذا اعتبرت حرب القرم شكلا من الحملات الصليبية لإنقاذ الأماكن المقدسة ، على

(*) بعد معاهدة لندن التى فرضت على محمد على باشا التنازل عن أملاكه وحقوق عائلته الوراثية بسبب تدخل القوى الأوربية ضده فى صراعه مع الباب العالى (المترجم)

الرغم من أنه فى هذه المناسبة تحالفت الأمم التى كانت قد شاركت فى الحملات الصليبية الأصلية مع الأتراك المسلمين . وقد علق القنصل البريطانى فى القدس زمن الحرب على هذا بقوله : «إن صيحة الرب يريدها» أخرجت الحملة الصليبية الأولى التى شنت ضد المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الضريح المقدس؛ ولكن صيحات الحرب التى نتأملها الآن كانت موجهة بواسطة ممثلى الأمم نفسها التى حاربت فى تلك الحملة الصليبية الأولى؛ ولكنها الآن يتم خوضها دفاعًا عن المسلمين الذين يحوزون الكنز نفسه، ضد قوة (روسيا) لم تصبح مسيحية تمامًا سوى منذ عصر الحروب الصليبية ولها بنفس القدر تطلعات تشتهى امتلاك الضريح المقدس».

وقد شهد القرن التاسع عشر أيضًا بداية البحث العلمى والكتابة العلمية عن الحملات الصليبية . ففى سنة ١٨٠٦م عقد معهد فرنسا Institut de France مسابقة لكتابة مقال عن تأثير الحروب الصليبية على الحرية الأوربية ، والحضارة ، والتجارة، والصناعة الأوربية . وفاز بالجائزة هيرين A.H.L. Heeren ، أستاذ التاريخ بجامعة جوتنجن . وقد اقتبس هيرين عن كتاب بونجار Bongar «أعمال الفرنج Gesta Dei Per Francos » الذى نشر فى سنة ١٦١١م فى هانوفر، باعتباره المصدر الأساسى لبحثه . وفى بواكير القرن التاسع عشر كانت مهمة جمع الروايات الغربية عن الحروب الصليبية وتحريرها ، وترجمتها لا تزال فى بدايتها . وكان الرهبان البندكتيون قد بدأوا هذه المهمة، ولكن الثورة الفرنسية تسببت فى توقفها . وفى النهاية استكملتها أكاديمية المخطوطات والآداب Academie des Inscriptions et Belles Let-tres ، التى أنتجت «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية "Recueil des Historiens des Croisades وهو ستة عشر مجلدًا عن المؤرخين الغربيين - والعرب، واليونانيين ومجلدان عن القوانين - فيما بين سنة ١٨٤١م وسنة ١٩٠٦م . وفى سنة ١٨٧٥م أسس الكونت بول ريان Paul Riant جمعية الشرق اللاتينى Société de

والتى تضمن إنتاجها المجلدين اللذين صدرا بعنوان سجلات L'Orient Latin الشرق اللاتينى Anchives de l'Orient latin ومجلة الشرق اللاتينى Revue de L'Orient Latin . وبالإضافة إلى ريان كان هناك من مؤرخى الحروب الصليبية الكبار فى القرن التاسع عشر ڤيلكنWilken ، وروهريخت Rohricht وهاجنماير Hagenmeyer، وميشو Michaud .

ويفوح من حياة چوزيف ميشو العملية (١٧٦٧-١٨٣٩م) أريج التدوين التاريخى للحروب الصليبية فى القرن التاسع عشر ، وهو موضوع يستحق طبعًا أن نتناوله بشكل ملائم. وقد نُشر كتابا ميشو «تاريخ الحروب الصليبية Histoire des Croisades فى ثلاثة مجلدات ، و«مكتبة الحروب الصليبية Bibliothéque des Croisades فى أربعة مجلدات سنة ١٨٢٩م(*). وفى سنة ١٨٣٠-١٨٣١م سافر إلى إستنبول وبلاد الشام وفلسطين (القدس) ومصر. واستكشف الطريق الذى سارت عليه الحملة الصليبية الأولى مع اثنين من المهندسين ، وكان مثل شاتوبريان قد تم تنصيبه فارسًا من فرسان الضريح المقدس. وعند عودته ، راجع ميشو كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» فى ضوء تجاربه . وعلى الرغم من أنه كانت لديه انتقادات على سلوك الصليبيين ووحشيتهم ؛ فإنه وصف الحركة الصليبية بأنها أحد الأقسام الرئيسية ذات الأهمية الفائقة» فى التاريخ الإنسانى، فلم تكن تعليمية فقط، ولكنها وفرت بشكل خارق للعادة مادة تهذيبية لرجل الدولة، والفيلسوف ، والشاعر ، والروائى ، والمواطن».

هذا التحليل القائم على أساس المصادر الأولية لايبدو ، على أية حال ، أنه استحوذ على الخيال الشعبى أو على الخيال الفنى . فحيثما يكون من الممكن تحديد

(*) وهو عبارة عن نصوص مستخرجة من المصادر الأصلية ترجمها ميشو. (المترجم)

مصدر لمختلف تفسيرات القرن التاسع عشر للحروب الصليبية فى الموسيقى، والفن، والأدب فمن الأرجح أن يكون المصدر الحملة الصليبية الأولى كما ترواها وركواتو تاسو Torquato Tasso واللمحات التى لمعت عن الحروب الصليبية والصليبيين فى روايات سير والتر سكوت وتاريخ ميشو، أو الروايات التى كتبها فوشيه الشارترى وچون چوانفيل ، ژو چيفرى فيلهاردوان، الذين كانوا من شهود العيان والمشاركين فى الأحداث .

وتحكى لنا رواية تاسو Gerusalemme Librata التى نشرت فى سنة ١٥٨١م قصة الحملة الصليبية الأولى، متداخلة فى نسيجها بالموضوعات الفرعية بما فيها قصة حب محبط وشخصيات جديدة مثل الملك المسيحى رينالدو والعرّافة أرميدا Armida لإضفاء الحيوية على حبكة الرواية الأصلية، هذا المزج بين العناصر أجتذب الموسيقيين والفنانيين التشكيليين ويمكن أن نقتفى أثر استخدام رواية تاسو مصدراً للفن منذ بداية القرن السابع عشر . وثمة مثال فى القرن التاسع عشر على استلهام الأوبرا من تاسو يتمثل فى أوبرا أرميد Armide التى ألفها Rossini وعرضت لأول مرة سنة ١٨١٧م ، على حين ألف برامز قصة موسيقية درامية (كانتاتا Cantata) بعنوان رينالدو Rinaldo . وهناك أيضا العديد من اللوحات المرسومة فى القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع منها غرفة تاسو التى رسمها الفنان النمساوى فوهريخ J. Fuhrich فى كاسينو ماسيموCassino Massimo فى روما . وقد قرأ كل من سكوت وردزورث Scott Wordsworth ، وسوثاى Southey ، ودى كوينسى De Quincey رواية Gerusa-lemme مترجمة . وفى رواية The Broad Stone of Honour ، يقتبس دجبى Digby فيها الأريج نفسه باعتبارها من المصادر الأولية للحملة الصليبية الأولى.



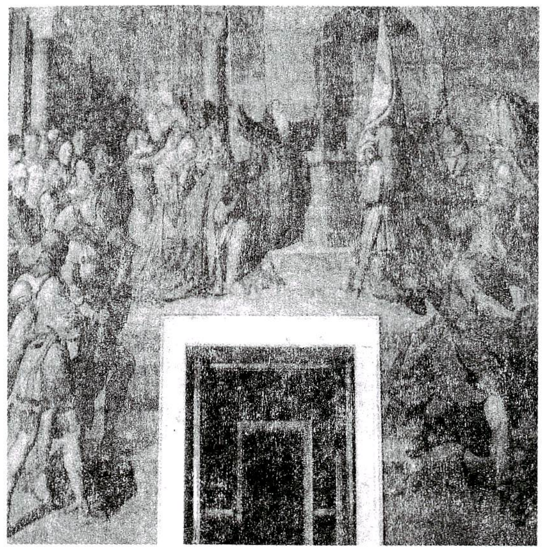
رسم لرسام مجهول يُظهر الأتراك بعمائمهم وقلعة الشجرة الأسطورية التى يفترض أن تنظيم فرسان التيوتون قاوم منها البروسيين سنة ١٢٣١م : وإذ رسمت هذه الصورة حوالى سنة ١٦٠٠م فى أثناء الحرب التركية، فإنها أكدت تورط التنظيم فى الصراع آنذاك؛ وتوحى الأسلحة بأن الرسم قد أنجز بتكليف من كاسبر ماتاوس ڤون ڤولكنشتين – تروسبرج ، قائد قاعدة التنظيم فى سيترزج Sterzing فى إقليم التيرول Tyrol.





زحف الصليبيين – رسم رومانسي لعصبة من الصليبيين رسمه فنان المساحات الواسعة الأمريكي چورچ إينيس George Inness ١٨٢٥-١٨٩٤م.

وقد تضمنت الترجمات الإنجليزية التى تمت فى القرن التاسع عشر لأعمال تاسو ترجمة قام بها أمين المكتبة فى دير ووبورن **Woburn** المدعو ويفين **J.H.Wiffen** ، وقد أشار فى مقدمته إلى كتاب **History of the Crusades** الذى ألفه تشارلز ميلز **Chavles Mills** (١٨٢٠م)، وكان قد نشر فى وقت قريب ، ولكنه لاحظ «أن مستر ميلز .. رسم بألوان حقيقية طبيعة هذه الحملات الفريدة ؛ ولكنه لم يكن على استعداد لأن يستمر فى الوهم، سواء كان مستمداً من أغانى المنشدين الأوائل ، أو من قصة خلاّبة من حكايات تاسو ، ليضفى على شخصية الصليبى ما لا أعرفه من الإخلاص ، والكرم ، والحب». وعلى أية حال ، فلم يكن كل المعجبين بتاسو يرون الصليبيين من خلال المنظار الوردى نفسه. وقد أعلن أحد الذين عرضوا لأعماله: «إن الاعتراض الكبير على قصيدة تاسو يكمن فى النظرة الزائفة التى تعطيها عن الإنجازات التى تحتفى بها ... يجب أن ننسى الجرائم وأعمال القسوة التى ارتكبها الصليبيون وكذلك تعصبهم الذى نزل بهم إلى مادون المسلمين وعلينا أن نجاهد لكى نصدق أن تحرير بيت المقدس كان غرضاً جديراً باعتراض أسمى درجات الذكاء».



الصليبيون فى الضريح المقدس فى بيت المقدس (١٨٢٨-١٨٢٩م) لوحة للفنان النمساوى فوهريخ J.H. Fuchrich من حجرته لتاسو فى كاسينو ماسيمو بروما مثال على شعبية كتاب تاسو Gerusalemme liberata باعتباره مصدرا للتصورات عن الحروب الصليبية .

كان سير والتر سكوت ، بطبيعة الحال، أكثر كتاب الرواية التاريخيـــة شعـبية فى القرن التاسع عشر وتشير أربعة من كتبه إلى الحملات الصليبية ، إما باعتبارها خلفـية أو باعتـبارها الموضـوع المركـزى للرواية ؛ وهـى إيڤـانهـو **Ivanhoe** (١٨١٩م) والتعـويذة **The Talisman and The Betrothed** اللتان نُشرتا سويًا تحت عنوان **Tales of the Crusades** (١٨٢٥م) ، ورواية **Count Robert of Paris** (١٨٣١م) . ومـن بيـن هـــذه الروايـــات كانـــت رواية إيڤانهـــو الأكثر شعبية وألهـــمت الموسيقيين والفنانيـــن والتشكيليين ، وكُتّاب الدراما . وقد حضـــر ســـكوت نفســـه عرضًا لأوبرا روسينى التى تحمل عنوان إيڤـانهـو فى باريس فى شـهـر أكـتـوبر سنة ١٨٢٦م وكتب فى صحيفته «فى المساء بمسرح الأوديون شـــاهدنا إيڤانهـــو . كانـــت عرضًا



ريبيكا وسـيـر بريان دى بواجيلبـرت رسـمـهـا الفنان الفرنسى ليون كـوجنييه Leon Cogniet (١٨٣١م) ، مشـهـد من رواية سـيـر والترسكوت التـاريخـية إيڤـانهـو فى زمن الحملة الصليبية الثالثة.

فخماً ، فالجنود النورمان يضعون خوذات مدببة وما يشبه دروع الزرد إلى حد كبير، كانوا فى خير مظهر ... لقد كانت أوبرا وبطبيعة الحال كانت القصة قد تعرضت لقدر كبير من التشويه والحوار عبارة عن كلام فارغ ». كذلك كان إيفانهو موضوع أوبرا ألفها سير آرثر سولليفان Sir Arthur Sullivan الذى يشتهر أكثر بأنه مؤلف أوبريتات جلبرت W.S. Gulbert . وقد تضمنت اللوحات المرسومة عن هذا الموضوع لوحة كوجنييه Leon Cogniet التى تحمل اسم ريبيكا وسير بريان دى بواجلبرت Re-becca and sir Brian de Bois Guilbert وهى الآن فى مجموعة والاس بلندن . كذلك كانت هناك أوبرات ولوحات قائمة على أساس رواية The Talisman (التعويذة) ، التى وقعت أحداثها فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة نفسها، وشخصية صلاح الدين وريتشارد الأول هما الشخصيتان المحوريتان فيها، وبينما لم يكن سكوت مراقبا محايدا وطرح بالفعل تساؤلات عن قيمة الحملة فى مقالته «Essay on Chivalry" التى كتبها للموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica ، نشرت فى سنة ١٨١٨م وعلى العموم، فإنه رسم للحركة الصليبية صورة تغلفها الرمزية .



يقظة صليبى. صورة رومانسية لصليبى وحيد رسمها الفنان الألمانى فريدريخ لنسينج لقد وفرت الحروب الصليبية مجالاً معتبراً للخيال الرومانسى والتفسيرات المزاجية الفردية للحوادث التاريخية الأساسية .

وهناك ثلاث لوحات مختلفة توضح مدى التخيل الذى تقدمه . ففى لوحة الألمانى كارل فريدريخ ليسينج بعنوان «يقظة الصليبى»، والتى يرجع تاريخها لسنة ١٨٣٦م ، وتصور صليبيًا وحيدًا ، تشويه للعناصر بطريقة تذكرنا بالملك لير المهجور على الأرض البور اللعينة. والحقيقة أن الحروب الصليبية تبدو وقد صارت موضوعًا مفضلاً لدى ليسينج ومدرسة دوسلدورف. وكان ليسينج يستلهم بطريقة غير مباشرة والترسكوت . وكانت لدى الفنان الأمريكى جورج إينيس صورة مختلفة إلى حد ما عن الصليبيين . إذ إن لوحته المسماة «زحف الصليبيين» والمعروضة الآن فى متحف فروتلاندز Fruit-lands بالقرب من بوسطون بماساشوستس، تبين عصبة من الصليبيين، يميزهم الصليب الأحمر على معاطفهم ، وهم يعبرون جسرًا على خلفية تغلفها الرومانسية . وقد سعى الرسام وليم بل سكوت William Bell Scott إلى لم الشمل بين صليبى وعائلته . ففى لوحته المسماة «العودة من حملة صليبية طويلة Return From a long Crusade» ، رسم صليبيا عائدًا إلى زوجته وابنه بعد طول غياب . وكادت امرأته المندهشة ألا تعرفه ، والتى ربما كانت قد سلمت بأنه مات ؛ ويختبئ ابنه وراء أمه ، خائفًا من هذا الغريب الذى يبدو عليه التعب .

وفى وقت أقرب بنى ريتشارد هولنز موراى Richard Hollins Murray ، الذى اخترع علامات سلامة الطريق المسماة بعيون القط، والذى اشترى ضيعة ديمور فى هيرفورد شاير، والذى كان قائدا سابقا لإحدى مقاطعات فرسان الاسبتارية ، حجرة موسيقى وأروقة منعزلة هى بالفعل نصب تذكارى للحملات الصليبية وتنظيم الاسبتارية. وهى تحتوى على نوافذ بالزجاج الملون ، وتماثيل ، ولوحات مرسومة تصور الاسبتارية والداوية ، ومجموعة من المعاطف والأسلحة لعائلات من هيرفورد شاير Herefordshire ممن شارك أسلافها فى الحروب الصليبية . وثمة مجموعة من الجداريات فى الأروقة تصور شابًا يرحل فى حملة صليبية وجودفرى البويونى يدخل القدس ؛ وموضوع الزجاج الملون فى غرفة الموسيقى يتناول حياة فارس فى زمن الحروب الصليبية.

أمـا فى الموسـيقى، فكانت هناك الأوبرا المزاجيـة التى ألفهـا روسـينى تحت اسم الكونت أورى Count Ory ، وعرضت للمرة الأولى فى سنة ١٨٤٨م. وتدور حبكتها حول أخت الكونت فورموتييه Fourmoutiers، الغائب فى حملة صليبية . وفى غيابه يحاول الكونت أورى وصديقه ريمبو Raimbaud إغواء البنت ، وفى البداية يتنكران فى هيئة راهبين ، ثم راهبتين ، ولكن قبل أن تتاح لها الفرصة للنجاح يعود الكونت . كما أن أوبرا أرولدوا التى ألفها ڤردى Verdi ، التى عرضت للمرة الأولى سنة ١٨٥٧م، تحكى قـصـة أرولدو ، وهو صليبى عـائد لتـوه من فلسطين، حيث كـان واحـداً من جـيش ريتشـارد، وزوجته ميـنا Mina التى ارتكبت جريمة الزنا فـى أثنـاء غيـابه . وبعد اللف والدوران الضـرورى ، تنتـهى الأوبرا بالمصـالحـة على شـواطئ لـوش لومـــوند Loch Lomond.

كذلك ألهمت الحروب الصليبية كتاب المسرحيات الرومانسية والروائيين والشعراء. وقد ناقشنا بالفعل روايات سكوت الصليبية . وثمة مثال على موضوع صليبى فى رواية تشـارلز كينجسلى Charles Kingsley التى تحمل عنوان «مأساة القديس The Saint's Tragedy» فى مديح سـانت إليزابيث المجرية St. Elizabeth of Hungary ، وهى زوجة الصليبى لويس الثورنجى Louis of Thuringia وقد كتب كينجسلى : «كيف حـارب آباؤنا الصليبيون الأفذاذ وماتوا من أجل الرب: دعك من حبهم ، وإيمانهم ، وجرأتهم الصبيانية ، فإن البعد يضفى البهجة والرونق على أيام الزمن القديم» . وبينما يفارق الزوجان الملكيان كل منهما الآخر ، تنشد جوقة صليبية :

مقبرة الرب أمامنا

ووطننا وراءنا

وسفننا سوف تقفز فوق موجة متدحرجة

أمام ريح طيبة

وفرسان الصليب الأحمر وصغار الضباط

فى جميع أنحاء المدينة المقدسة

بقوة وإيمان ، على اليمين على الشمال

سوف يطأون الوثنيين بأقدامهم

وثمة مشهد مماثل يفوح منه الخيال عن الحروب الصليبية يمكن أن نجده فى القصائد التى كتبها وردزورث Wordsworth بعنوان Ecclesiastical Sonnets . ففى مسحه الذى قام به عن تاريخ الكنيسة خصص أربع سونيتات (أى قصائد ، كل قصيدة Sonnet تتألف من أربعة عشر بيتا متوالية) للحديث عن الحروب الصليبية . وإحداها تحمل عنوان «الصليبيون» وتجرى على النحو التالى :

نطوى الأشرعة ونمضى بالمجاديف الوئيدة

فى هذه الأقاليم المشرقة ونخطف نظرات عديدة

على أشياء كأنها الحلم - الخيال

عن الحياة النابضة التى يصبها القدر

حول الصليبيين ، حتى على الشواطئ النائية

تنتهى مهمتهم ؛ أو يعودون إلى الرقاد

بعد أن أوفوا نذرهم ، فى هيئة جسد تشابكت ساقاه

يتمددون فى ورع فوق أرضيات مذابحهم

فهل أنا منخدع ؟ أم هو قُداس الموتى تغنيه

أصوات لاتخرس أبدا عندما تطلق السماء

أعمق ، وأرق ، وألطف الأنغام المنسجمة ؟



صورة على الزجاج الملون لفارس من الاسبتارية فى حجرة الموسيقى (١٩٣٢- ١٩٣٦م) فى دينمور Dinmore بهيرفورد شاير Herefordshire . والنافذة كلها تصور مشاهد فى حياة فارس أثناء زمن الحملات الصليبية .

قدّاس تدافع عنه الأرض بصوت غير هيّاب

عندما يكون عليها أن تحكى عن مدى الشجاعة والطيبة والحكمة

التى لهثت فى لهفة من أجل أن ينالوا مكافأتهم السامية

وهناك مثال آخر عن الرواية التى تحكى عن الحملة الصليبية هى رواية Hubert's Arthur التى ألفها فردريك رولف Frederick Rolfe ، بارون كورفو ، وفيها ينسج رولف حكاية معقدة تشمل آرثر ، دوق بريتانى، الذى يبحر صوب عكا، ويخوض المعركة ، ويهزم المسلمين، ثم يستولى فى نهاية الأمر على القدس ويتزوج الملكة.

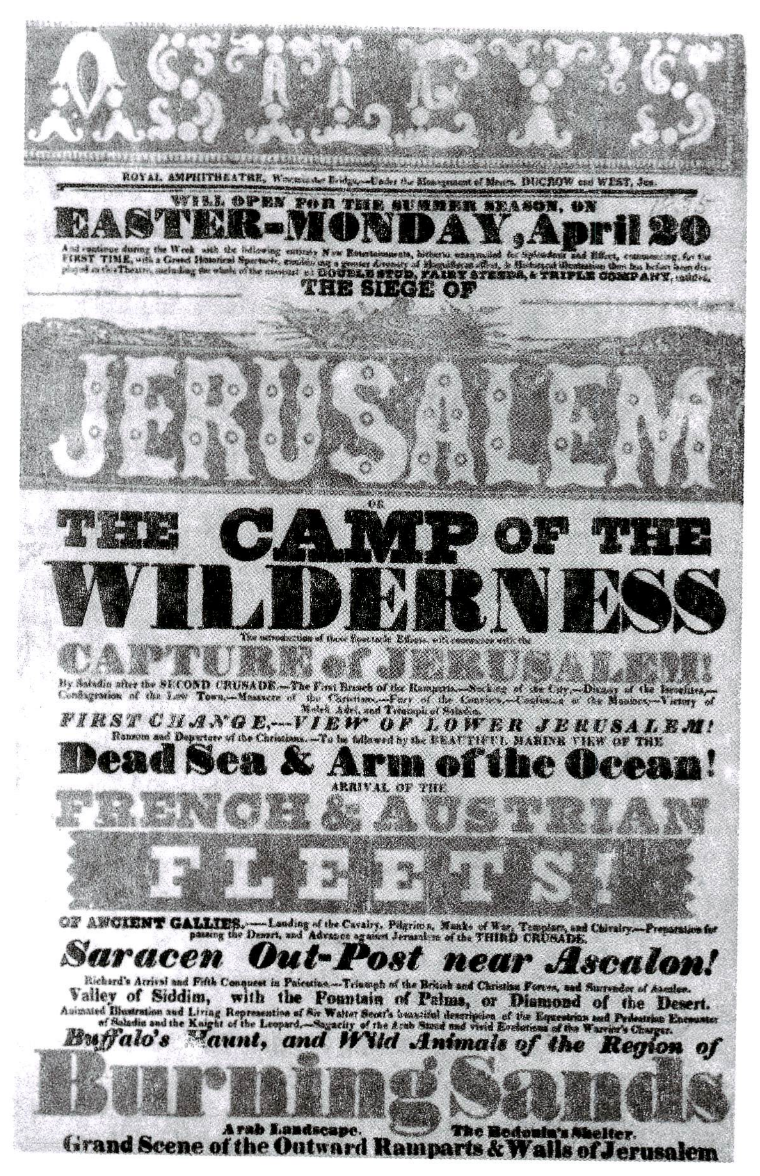
كذلك سلمت الحروب الصليبية نفسها للمسرح وفى إنجلترا القرن التاسع عشر كان مكان المشاهدة المسرح المدرج فى لندن . وفى سنة ١٨١٠م أنتج أستلى Astley مسرحية قدمها للجمهور بعنوان The Blood Red Kinght ، استمر عرضها ١٧٥ ليلة وجلبت للملاك أرباحًا قدرها ثمانية عشر ألف جنيه إسترلينى. وكانت حبكة المسرحية تهتم بمحاولات فارس الدم الأحمر لغواية إيزابيللا ، زوجة أخيه ألفونسو الصليبى. ويعود ألفونسو مهزوما ، ولكنه عندئذ يطلب تعزيزات ، عندما ، حسب تعبير إعلان المسرحية «تم الاستيلاء على القلعة بهجوم عنيف» وقد غطت صفحة النهر الذى يحيط بالقلعة الزوارق المشحونة بالمحاربين، على حين كانت شرفات الحصن تتعرض لقتال عنيف من الحراس الراكبين والمشاة . وقد تم رسم الرجال والخيول مذبوحين يعانون سكرات الموت فى جميع الاتجاهات ، على حين كان الجنود والخيول الأخرى قد غرقوا فى النهر ، وهو ما يشكل تأثيرا جديدًا وغير مسبوق تمامًا فى هذه البلاد أو فى غيرها، وتنتهى بالهزيمة الكاملة لفارس الدم الأحمر».

وفى سنة ١٨٢٥م كان موضوع الحملة الصليبية The Siege of Jerusalem (حصار القدس) الذى أخذ المشاهدين ، مازجًا الحقيقة بالخيال ، من خلال استيلاء صلاح الدين على المدينة المقدسة، ومنظر للبحر الميت ، ووصول الأسطولين الفرنسى والنمساوى، ورمال الصحراء المحرقة ، وظهور كوراكشيو Coraccio ثور صلاح الدين الأبيض ، وفاصل من باليه* سيوى كبير، والمواجهة بين الفارس الفهد وأحد فرسان الداوية (من رواية التعويذة لسكوت) بوليمة صلاح الدين الفاخرة والأيام الأخيرة فى الحملة الصليبية الثالثة - وهى متعة تستغرق المساء بطوله . وفى سنة ١٨٤٣م ، كان هناك إنتاج مسرحى آخر عنوانه «ريتشارد وصلاح الدين»، أو «الصليبيون فى القدس» يقدم للمتفرجين المواجهة بين أبطال الحملة الصليبية الثالثة.

وعلى العموم ، يبدو أنه كان لدى المسرح فى القرن التاسع عشر القليل ليقدمه عن تصورات الحروب الصليبية ، على الرغم طبعا من أن عدداً من نصوص الأوبرا قد وضعت على أساس مسرحيات مثل مسرحية «حكاية الحملة الصليبية الأولى«Die Kreuzfahrer » التى كتبها الألمانى أوجست ڤون كوتزبى August von kotzebue ، والتى أوحت إلى لويس سبوهر Louis Spohr بتأليف أوبرا تحمل الاسم نفسه . وعلى أية حال ، فإن «الصليبيون» كان هو عنوان المسرحية التى كتبها هنرى آرثر جونز عن الإصلاح الاجتماعى فى القرن التاسع عشر : «إن راية الإصلاح الاجتماعى نافعة من حيث اعتبارها نقطة حشد لكل ما هو أنبل وأحط، وأحكم وأغبى ما فى عالم اليوم... وفى الحقيقة فإن الحركة عنصر درامى فى حياة الناس فى القرن التاسع عشر مثلما كانت الحروب الصليبية فى عالم القرن الثالث عشر».

وإذا كانت التفسيرات الرومانسية والمزاجية قد سادت ، فعلى أية حال ، لايعنى هذا أن كاتبيها كانوا غير مدركين للسياق التاريخى الذى كانوا يكتبون ، أو يرسمون أو يؤلفون موسيقاهم فى إطاره. ولم أستطع تحديد أية صلة واضحة بين الأحداث فى الشرق الأدنى مثل صعود محمد على وهزيمته هو وابنه إبراهيم باشا - الذى دفعت هزيمته فى عكا سنة ١٨٤٠م السير وليم هيلارى للدعوة إلى حملة صليبية- ونقاط الذروة ونقاط الدرك الأسفل فى استخدام القرن التاسع عشر لتصورات الحروب الصليبية ولاشك فى أن العصور الوسطى والحروب الصليبية بصفة خاصة قد استخدمت لتكون بمثابة طريدة للتصورات للتعبير عن أفكار معينة وعن طموحات بعينها. فمثلاً ، تحتاج رواية دزرائيلى التى تحمل عنوان تنكرد Tancred إلى أن نشاهدها فى سياق خططه لتوسع الإمبراطورية البريطانية فى الشرق والسيطرة على الطريق إلى الهند. وكانت هناك تنويعة أخرى على موضوع الحروب الصليبية تمثلت فى الاحتفال بأبطال الحروب الصليبية الوطنيين أو بتراث الحروب الصليبية الوطنى.

وهكذا كان البطل الظاهر فى إنجلترا هو ريتشارد قلب الأسد، الذى كان موضوعًا للعديد من اللوحات المرسومة كما خلد ذكراه تمثال صنعه البارون ماروشيتى Baron Marochetti موضوع الآن خارج مبنى البرلمان فى لندن . وفى فرنسا طبعا كان الملك لويس التاسع ، هو البطل البارز وحسبما ذكرنا من قبل، شكلت «قاعات الحروب الصليبية Salles des Croisades » فى قصر فرساى تاريخا تصويريًا للمشاركة الفرنسية فى الحملات الصليبية، مع مشاهد من المعارك الشهيرة وصور أبطال الحروب الصليبية الوطنيين. وثمة مثال آخر فى لوحة ديلاكروا التى تحمل عنوان «دخول الصليبيين القسطنطينية» ، وهو مشهد من الحملة الصليبية ، وهى ترسم الغزاة النبلاء



الحملة الصليبية على شكل مسرحية . إعلان عن عرض لمسرحية حصار القدس فى مسرح آستلى بلندن سنة ١٨٣٥م ويبدو أن القصة بنيت بشكل فضفاض على أحداث الحملة الصليبية الثالثة . الرابعة. وهى محفوظة الآن فى متحف اللوفر بباريس .



(١) ريتشارد الأول صليبياً : تمثال صنعه بارون ماروشيتى خارج مبنى البرلمان فى لندن .



(٢) جودفرى البويونى، البطل القومى تمثال صنعه سيمونيس فى الميدان الكبير ببروكسل - بلچيكا .

للقسطنطينية يستكشفون المدينة على ظهور جيادهم ويتلقون التماسات بالرحمة من السكان . وإذا ما كان الصليبيون يلقون الاعتراف من فيلهاردوان Geoffrey of Villehardauin أمر مشكوك فيه على أية حال . وفي بلچيكا كان بطل الحروب الصليبية الوطني هو جودفرى البويوني، الذى صنع له سيمونيس Simonis تمثالاً كان معروضا في قصر البللور Crystal Palace سنة ١٨٥١م، ويمكن مشاهدته الآن في الميدان الكبير ببروكسل . وهو يظهر زعيمًا نبيلاً على صهوة جواده، ولكن في بويون Bouillon نفسها تمثال يمثل جودفرى أكثر شبابًا يحملق حزينًا عبر الوادى في وطنه . وعند مستوى أكثر دنيوية ثمة كتالوج Catalogue of Furniture and Household Requisites، نُشر في لندن ١٨٨٣م يحتوى على شخوص من الفرسان مصنوعة من البرونز لريتشارد قلب الأسد ، ولويس ، وجودفرى البويونى يمكن الحصول عليها بالبريد.

وفي إيطاليا حفزت قصيدة I Lombardi alla Prima Crociata «اللمبارديون في الحملة الصليبية الأولى» مشاعر الفخر بإنجازات الإيطاليين في الحروب الصليبية. وقد ألهمت عددًا من رسامي الموضوعات التاريخية، مثلما ألهمت ڤيردى الذى كانت الأوبرا التي ألفها I Lombardi قد عرضت أول مرة في ميلانو سنة ١٨٤٣م . وقد لاحظت التقارير المعاصرة أن الموسيقى مست وترًا في القومية الإيطالية: إذ يبدو أن أهل ميلانو قد قرروا أنهم هم اللمبارديون ، وأن الأرض المقدسة التي كانوا يدافعون عنها هي إيطاليا، وأن النمساويين كانوا نظراء المسلمين ، وقد أتاحت المناظر الكبيرة، مثل مشاهدة الصليبيين لبيت المقدس، للمنتجين أن يطلقوا العنان لتخيلاتهم وللأفكار الرومانسية عن العصور الوسطى . ولأنها كانت دوما قابلة للتعديل ، أنتج ڤيردى نسخة فرنسية من الأوبرا بعنوان «القدس»، تم عرضها أمام الملك لويس فيليب في قصر التويلرى وفاز مؤلفها بجائزة وسام الشرف Légion d'Honneur.

كانت حملة لويس التاسع على مصر موضوعًا لأوبرا ألفها مايبير Meyerbeer ، على الرغم من أن الحبكة، التى تتضمن فرسان الاسبتارية فى رودس ، وأميرة مسلمة، ومسيحيًا اعتنق الإسلام، ربما لم تلق الاعتراف من جانب چون چوانڤيل . ومرة أخرى قدم المنتجون ثيابا شرقية غريبة متقنة، ربما كانت لها صلة قليلة بمصر فى القرن الثالث عشر. وبعد ذلك بقليل ، ألف الموسيقار النرويجى إدڤارد جريج Edvard Grieg الموسيقى الخاصة بمسرحية Sigurd Jorsalfar ، (سيجورد الصليبى)، عن حملة الملك سيجورد إلى الأرض المقدسة سنة ١١٠٧م، وهناك مغزى وراء عرض هذه المسرحية باعتبارها جزءًا من احتفالات الترحيب بالملك الجديد للنرويج هاكون Haakon فى سنة ١٩٠٥م.

وثمة مثال فى الصدارة عن استغلال تصورات الحروب الصليبية فى القرن العشرين يرتبط بالحرب العالمية الأولى ، فيما يتعلق بالحملات العسكرية وفى الأدب، إذ لم يركز جميع المعاصرين على الخسائر الثقيلة وحقائق الحياة القاسية فى الخنادق . وقد اتخذ البعض ، ربما على سبيل الهروب من الحقيقة المباشرة ، نظرة رومانسية ورأوا فى الحرب حملة صليبية نبيلة ، تم خوضها دفاعًا عن الحرية، لكى يحولوا بين النزعة العسكرية البروسية والسيطرة على أوربا ولتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة المسلمين.

ففى بريطانيا تطورت فكرة الحرب المقدسة فى عظات يلقيها رجال الكنيسة الأنجليكانية، وكان اثنان من أكبر اللاعبين هما من يسمى أسقف ميادين المعارك، وهو الأسقفويننجتون – إنجرام Winnington - Ingram أسقف لندن، وباسيل بورشييه Basil Bourchier نائب سانت جودى هامبستيد وبالتالى كان القسيس الخاص للقوات المسلحة. وقد كتب بورشييه : «إن هذه ليست حربًا مقدسة فحسب ، إنها أكثر الحروب

التى تم شنها قداسة ... إن أودين يقف ضد المسيح(*). إن برلين تسعى لإثبات تفوقها على بيت لحم . وكل طلقة يتم إطلاقها ، وكل طعنة حربة تصيب هدفها، وكل حياة يتم التضحية بها، إنما هى فى الحقيقة من أجل اسمه» وقد رأى بورشييه فى حملة الدردنيل آخر الحملات الصليبية، التى كانت لابد أن تؤدى فى نهاية الأمر إلى إنقاذ الضريح المقدس «من قبضة الكفار النجسة».

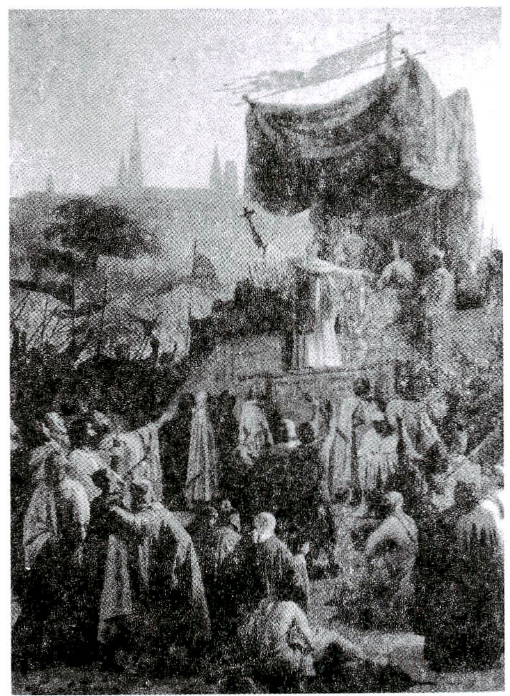
هذه التصورات لم تستغلها الكنيسة وحدها. ففى خطبة ألقاها لويد چورچ فى مايو ١٩١٦م بعنوان «كسب الحرب» أعلن «إن الشباب من كل ركن فى هذه البلاد تدافعوا إلى راية الحق العالمى كما لو كانوا يتدافعون للاشتراك فى حملة صليبية كبرى». وقد نشرت مجموعة من خطبه التى ألقاها فيما بين سنة ١٩١٥م وسنة ١٩١٨م تحت عنوان «الحملة الصليبية العظمى».

(*) هذه إشارة إلى أودين رب الحرب فى الأساطير الجرمانية الوثنية ، وهو إله حربى النزعة كان الجرمان يعتقدون أنه رب الأرباب ويعتقدون أنه يرضى عمن يموت مقاتلاً وسيفه فى يده. وهذه إشارة إلى أن الألمان - أعداء الإنجليز فى الحرب العالمية الأولى- كانوا أعداء المسيح على حد زعم هذا الأسقف . وهى دعاية ظالمة على أية حال . (المترجم)



تفسير أوبرالى للحملة الصليبية . مشهد على خشبة المسرح لميناء دمياط فى مسرحية مايبير المسماة il Crociato in Egitto على مسرح لاسكالا فى ميلانو سنة ١٨٢٦م .





معركة أنطاكية (شوبان) والدعوة للحملة الصليبية الثانية (سنجول) . مثالان عن الرسوم الصليبية من صالة الحروب الصليبية Salles des Croisades في ڤرساي .

نشر أوردى وارد F. W. Orde Ward كتابًا عما أسماه أشعار وطنية فى سنة ١٩١٧م، يحمل عنوان «آخر الحملات الصليبية»، وكتبت كاترين تينان Katherin Tynan التى خدم ولداها فى الجيش:

ابنك وابنى، نظيفان مثل السيوف الجديدة

رجلى ورجلك والآن رجل الرب

ابنك وابنى من أجل الحملة الصليبية العظمى

وراية المسيح ترفرف فوقهم- إنهم فرساننا الجدد

ونجد موضوع الحروب الصليبية واضحا بشكل خاص فى التقارير المكتوبة عن حملة الدردنيل وحملات فلسطين . وقد وصف الشاعر روبرت بروك Rupert Brooke نفسه بأنه صليبى فى خطاب إلى صديقه چاك راڤرات ، كما كتب الماچور ڤيڤيان جلبرت Vivian Gilbert كتابًا ، نُشر فى سنة ١٩٢٣م بعنوان «حكاية الحملة الصليبية الأخيرة – مع اللنبى إلى القدس "The Romance of the Last Crusade - with Allenby to Jerusalem عن تجربته الخاصة فى فلسطين . والكتاب مكرّس «لأمهات جميع الأولاد الذين حاربوا من أجل حرية الأرض المقدسة» وتبدأ ببريان جورناى Brian Gurnay، الذى انتهى لتوه من السنة الأولى فى أوكسفورد سنة ١٩١٤م، يحلم بغنائم الصليبيين لسلفه سير بريان دى جورناى، الذى كان مشاركًا فى الحملة الصليبية الثالثة . ويتحرق بريان الشاب شوقًا إلى حملة صليبية أخرى تعيد الاستيلاء على بيت المقدس : «لكى أحارب من أجل قضيتك ، لكى أشارك فى تلك الحملة الصليبية الأخيرة؛ إننى على استعداد لأن أترك عظامى فى الأرض المقدسة . أو من أجل فرصة لأن أفعل مثلما فعل أى واحد من أولئك الفرسان فى الزمن القديم، لكى أنجز شيئا واحدًا

يستحق التقدير في حياتي» . ووفقًا لما قاله محارب آخر في حملة اللنبى ، فإن الأوامر صدرت بمنع الجنود من تسمية أنفسهم بالصليبيين. ولكن إذا لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بشكل رسمي ، فمن الواضح تماما أن الكثيرين رأوا أنفسهم يسيرون على خطى الصليبيين . وكتب جلبرت عن الجنود الذين كانوا تحت قيادته : «ماذا يهم إذا ما كنا نرتدى الملابس الكاكى بدلا من الدروع اللامعة . لقد كانت روح الصليبيين فى جميع هؤلاء الرجال تحت قيادتى والذين عملوا فى بهجة للإعداد للمغامرة الكبرى. وحتى إذا كانوا يلبسون قبعات صغيرة مدببة قبيحة الشكل بدلاً من الخوذات ذات الريش المتماوج ، ألم تكن شجاعتهم عظيمة مثل شجاعة الصليبيين، ومُثُلهم على درجة الرقى نفسها ، التى كانت عليها مثل فرسان الزمن القديم الذين كانوا قد انطلقوا بإيمان لايتزعزع تحت قيادة ريتشارد قلب الأسد لتحرير الأرض المقدسة». وقد لاحظ جيلبرت أنه من بين جميع الحملات الصليبية التى تم تنظيمها وتجهيزها لتحرير المدينة المقدسة، لم تنجح سوى اثنتين فقط هما : «الأولى بقيادة جودفرى البويونى والثانية تحت إمرة إدموند اللنبى» . بل كان هناك كارتون عن الحملات الصليبية . ففى ديسمبر ١٩١٧م عرض كارتون تحت عنوان «الحملة الصليبية الأخيرة» يصور ريتشارد قلب الأسد يتطلع إلى القدس وتحته نص «أخيراً تحقق حلمى» .

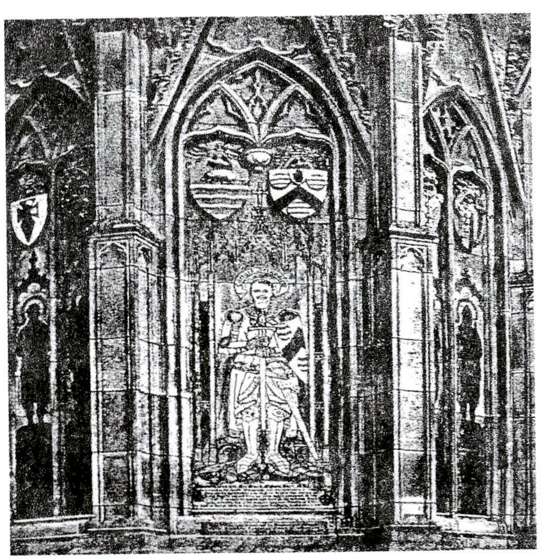
وتوضح بعض النصب التذكارية التى خلدت الحرب العالمية الأولى هذا الاستغلال لموضوع الحروب الصليبية . فالنصب التذكارى فى سلدمير Sledmere بيوركشاير ، موطن سير مارك سايكس ، الذى شارك فى معاهدة سايكس - بيكو الشهيرة - أخذ شكل صليب اليانور Eleanor Cross . وعندما مات السير مارك سايكس فى سنة ١٩١٩م ، كان قد بقى بالصدفة جزء لم يتم ملؤه من النُصب التذكارى. والنصب التذكارى له عبارة عن



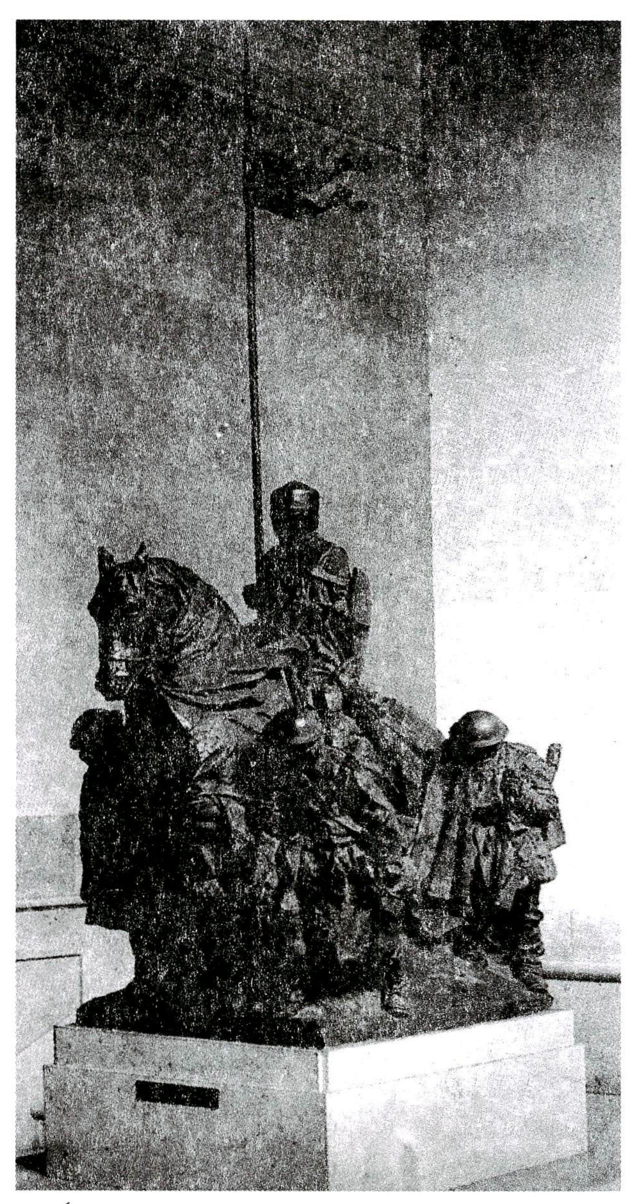
كارتون يسجل استيلاء اللنبى على القدس فى ديسمبر ١٩١٧م ويرسم شبيها مباشراً مع ريتشارد الأول والحملة الصليبية الثالثة.

تمثال مزركش من النحاس الأصفر يرتدى سلاحه ويحمل سيفًا . وتحت قدميه يرقد مسلم، وفوقه لفافة كتب عليها "Laetare Jerusalem" وفى الخلفية تخطيط لشكل القدس نفسها . وقد أدخل المثال جيرترود آليس ميريديث وليامز Gertrude Alice Meredith Williams تصميما بعنوان «روح الصليبيين» فى مسابقة لعمل نصب تذكارى للحرب فى بيسلى Paisley وهو الآن فى المتحف الوطنى لويلز فى كارديف، ويصور فارسًا من العصور الوسطى فى كامل سلاحه على صهوة جواده يحيط به أربعة جنود فى ملابس القتال الخاصة بالحرب العالمية الأولى.

كذلك تم استحضار ذكريات الحروب الصليبية فى مؤتمر الصلح بقصر فرساى الذى أعقب نهاية الحرب. فبعد أن قام واحد من المندوبين الفرنسيين بتعداد المزاعم الفرنسية فى سوريا والتى تعود إلى زمن الحروب الصليبية ، علق الأمير فيصل (وهو المرحوم الملك فيصل) بقوله: «هل تتفضل وتخبرنى من الذى كسب الحروب الصليبية منا؟» .



سير مارك سايكس صليبيا، نصب تذكارى ضمن نصب على طراز صليب إليانور فى سلدمير بيوركشاير.



روح الصليبيين ، تمثال من عمل جيرترود أليس ميريديث وليامز نموذجًا لنصب تذكارى للحرب العالمية الأولى فى بيسلى١٩٢١م.

كما استخدم كلا الجانبين في الحرب الأهلية الإسبانية تصورات الحروب الصليبية لكي يوضح قضيته ويدعمها. وهكذا، فمن ناحية ، كان فرانكو (الدكتاتور الإسباني الراحل) يحارب في «حملة صليبية للتحرير» لإنقاذ إسبانيا من الشيوعية والإلحاد وقد تم تصويره في صورة الصليبي الذي يخوض حرب الرب في الإعلانات واللوحات التي أُنتجت أثناء فترة حكمه. ومن ناحية أخرى، كان أعضاء «الفيالق الدولية International Brigades يكرمون باعتبارهم «صليبيين من أجل الحرية». وثمة كتاب متعدد الأجزاء عن تاريخ الحروب الصليبية نشر فيما بين سنة ١٩٤٠م وسنة ١٩٤٣م بعنوان "Historia de la cruzada espanola" (تاريخ الحملة الصليبية الإسبانية)، كما أن كلمة «حملة صليبية» تظهر في عناوين عدد من حكايات السير الذاتية وفي الروايات التي كتبت عن الحرب الأهلية . فعلى سبيل المثال كتب چاسون جورناى الذي كان عضوًا في «الفيالق الدولية»، وسقط جريحًا سنة ١٩٣٧م في مؤلفه الموسوم «الحملة الصليبية في إسبانيا»، والذي نُشر سنة ١٩٤٧م، «لقد كانت الحملة الصليبية ضد الفاشيست الذي كانوا هم مسلمي جيلنا». وبالفعل كانت «واحدة من أعمق الحملات الصليبية الأيديولوچية تغلغلاً في المشاعر في تاريخ أوربا الغربية».

وقد عاودت تصورات الحروب الصليبية الظهور في الحرب العالمية الثانية . ذلك أن تقرير الچنرال أيزينهاور عن الحرب، والذي نشر سنة ١٩٤٨م ، كان عنوانه «الحملة الصليبية في أوربا» ومن الواضح أنه رأى الحرب كما لو كانت حملة صليبية شخصية من نوع ما . «فقط بتدمير المحور أمكن وجود عالم متحضر ؛ لقد صارت الحرب بالنسبة لي حملة صليبية بالمعنى التقليدي لتلك الكلمة التي يُساء استخدامها غالبًا». وفي نوفمبر سنة ١٩٤١م ، أطلق اسم سرى على عملية لرفع الحصار عن طُبرق «عملية الصليبي» كما أن الأوامر اليومية التي أصدرها أيزينهاور في يوم ٦ يونيو ١٩٤٤م،

جرت على النحو التالى: «أيها الجنود والبحارة ورجال الجو فى القوات المتحالفة ، إنكم على وشك القيام بحملة صليبية عظمى ... إن آمال الناس المحبين للحرية وصلواتهم فى كل مكان معكم». وثمة مثال آخر على استخدام تصورات الحروب الصليبية يمكن أن نجده فى رواية ستيفان هيمس Stefan Heyms التى تحمل عنوان «الصليبيون» ونشرت سنة ١٩٥٠م، وقد هرب من النازى سنة ١٩٣٣م ، يصف الحرب العالمية الثانية بأنها «حملة صليبية مقدسة ضرورية» لإيقاف الطاغية.

إن مدى صور الحروب الصليبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين قد تراوح على هذا النحو. فعلى حين شهد القرن التاسع عشر بدايات البحث العلمى فى الحركة الصليبية، كانت الصورة الشعبية عن الحروب الصليبية مثقلة بالخيال ولاتربطها سوى رابطة واهنة بحقيقة الحركة الصليبية كما وصفتها تقارير شهود العيان وحكاياتهم . فقد أطلق الموسيقيون والفنانون التشكيليون ، والكتاب ، العنان لخيالاتهم لكى تمرح فى تاريخ الحركة الصليبية بلا قيود، ولم تكن مصادرهم الرئيسية الحوليات والمؤرخات التى كتبها مؤرخو العصور الوسطى وإنما روايات توركواتو تاسو، ووالتر سكوت الخيالية، ولاشئ فى هذا يدعو للدهشة لأنهم كانوا يسعون إلى تلبية مطالب الجماهير التى كانت لديها مفاهيم رومانسية عن الحياة فى العصور الوسطى وغنائم الفرسان المسيحيين كما كانت تشدهم حكايات الرحالة عن الشرق العجيب . لقد كان هناك فخر كبير بأبطال الحروب الصليبية مثل ريتشارد قلب الأسد فى إنجلترا وجودفرى البويونى فى بلچيكا . كذلك استخدمت تصورات الحروب الصليبية فى الصراعات المعاصرة ، أشهرها فى الحرب العالمية الأولى عامة وفيما يتعلق بحملة اللنبى فى فلسطين بصفة خاصة . والمثال الأكثر وضوحًا على سوء استخدام التصورات الصليبية يتمثل فى حرب القرم ، التى تحالفت فيها القوى الأوربية الغربية مع الأتراك المسلمين، ومع ذلك وصفت بأنها حرب صليبية .

(١٥)

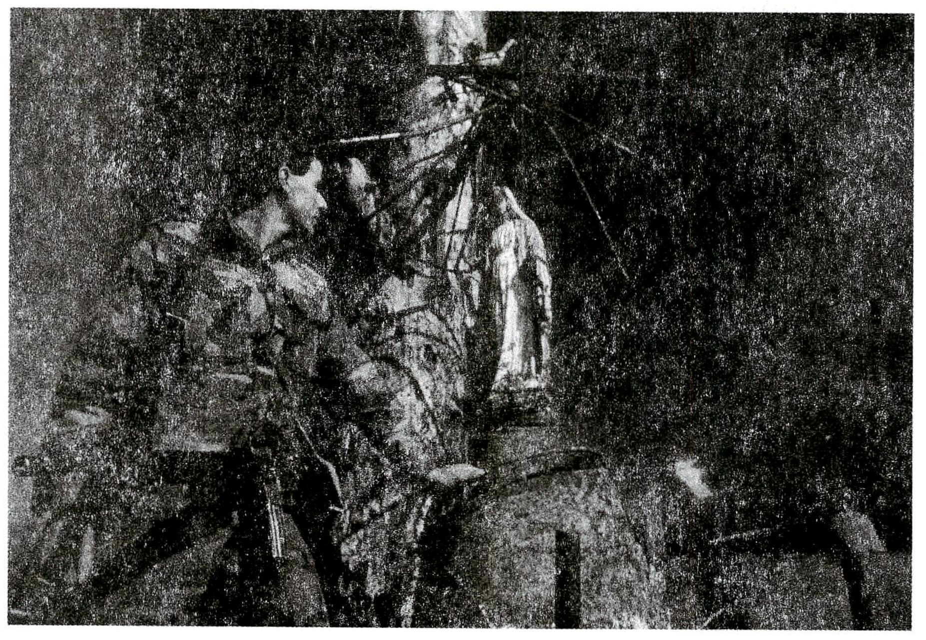
الإحيــــاء والبقــــاء

جوناثان رايلى سميث

يتذكر الناس الحروب الصليبية اليوم حيثما يكون هناك صراع أيديولوچى ، كما أن الصور واللغة المرتبطة بها أو بالجهاد الذى يمثل المقابل لها يتم استدعاؤها إلى الذهن بانتظام فى العنف الذى لف المسيحيين والمسلمين فى البلقان أو فى الشرق الأدنى. والواقع أن الموارنة فى لبنان، الذين توحدت كنيستهم مع روما فى سنة ١١٨١م، كانت لديهم دائمًا رابطة حنين تشدهم إلى القرون التى شهدت الاستيطان الغربى، وهى فترة، رأى مؤرخوهم أنها كانت العصر الذهبى . وفى أوربا كانت البلاغة قد صارت إلى حد كبير نتاجًا للوجدان وعلى الرغم من التشابهات التى يُفطن إليها دائمًا ، وليس أقرب إلى الفكرة الأصلية مما كانت عليه المشاعر الفياضة التى تحدث عنها الفصل السابق . وعلى أية حال، فقد حدث تطور مدهش ، فقد تم إحياء لاهوت العنف الذى كان كامنا تحت الحركة الصليبية ، ولاسيما فى أمريكا اللاتينية.

وكل التبريرات المسيحية عن العنف الإيجابى تقوم جزئيًا على أساس الاعتقاد بأن ديانة بعينها أو نظامًا سياسيًا بصفة خاصة أو مجرى للأحداث السياسية دخل فيه المسيح بحميمية . ومن ثم فإن مقاصده من أجل الجنس البشرى ترتبط بنجاح هذا النظام أو فشله . وبالنسبة للمبررين المحدثين للعنف المسيحى ترتبط الرغبات بمجرى للأحداث السياسية يطلقون عليه اسم التحرير. والمسيح موجود حقًا فى هذه العملية، فى التجليات التاريخية لمسيرة الإنسان إلى الأمام. إنه هو المحرر، هو أكمل تعبير عن التحرير ، الذى يقدمه للبشر هدية . وإذا كان الطريق الوحيد للحفاظ على تماسك

مقاصده من أولئك الذين يقفون فى طريقها هو استخدام القوة، فإن هذا إذن يتسق مع رغباته فى العملية التاريخية والإسهام فى عنف المسيح مطلوب من أولئك المؤهلين للقيام به باعتباره واجبًا أخلاقيًا . وهذا هو السبب فى أن بعض أعضاء مجلس فرع فى مجلس الكنائس العالمى التى ورد ذكرها فى سنة ١٩٧٣م أصرت على أنه فى أحوال وظروف بعينها كانت المشاركة بقوة السلاح التزامًا أخلاقيًا ، وهو السبب فى أن كاميلو توريس **Camilo Torres** أكثر الأشخاص مأساوية فى حركة التحرير ، وهو قس كولمبى وعالم اجتماع ، استقال من مناصبه ، وانضم إلى حرب العصابات وقُتل فى فبراير سنة ١٩٦٦م ، وذكر عنه أنه قال إن «الكاثوليكى الذى ليس ثوريًا يعيش فى خطيئة أخلاقية». وتأكد أن هذا رأيه حقًا من عبارته المكتوبة فى أغسطس ١٩٦٥م بأن «الثورة ليست فقط أمرًا مسموحًا به، ولكنها إجبارية بالنسبة لأولئك المسيحيين الذين يرون أنها الطريقة الفعالة والناجزة الوحيدة لتحويل الحب لجميع الناس إلى حقيقة».



مريم العذراء المباركة وجندى مارونى . لقد سار الصليبيون الأوائل خلف راية «سيدتنا» التى كانت هى أيضا حامية فرسان الداوية والفرسان التيوتون وقد أضفى الموارنة الذين أخضعوا أنفسهم لروما سنة ١١٨١م على فترة الحروب الصليبية هالة من الرومانسية.



إحياء العنف المقدس . كاميلو توريس قس كولومبى وعالم اجتماع، انضم إلى الثوار واعتبر شهيداً بعد موته فى نظر المتشددين فى حركة التحرير المسيحية.

لقد كان الالتزام بالثورة التى يضمها الحب موضوعًا بارزًا فى كتابات توريس ويمكن أن يكون هناك قدر قليل من الشك بأن ما كان يحركه نمط من الإحسان العميق والأصيل . ففى يونيو ١٩٦٥م ، عندما أصدر بيانًا عن استقالته من سلك القساوسة ، ولابد أنه كان بالفعل يفكر فى المشاركة فى العنف ، كتب يقول : «بالثورة وحدها ، وبتغيير الأحوال الجامدة الصعبة فى بلادنا ، يمكن أن نساعد الناس على أن يحبوا بعضهم البعض... لقد قررت أن أنضم للثورة بنفسى، وبذلك أقوم بجزء من عملى بتعليم الناس حب الرب بأن يحبوا بعضهم بعضًا . إننى أعتبر هذا الفعل أساسيًا بالنسبة لى باعتبارى مسيحيًا ، وباعتبارى قسيسًا ، وباعتبارى كولومبيًا ». وقد صدم موته العنيف أولئك الذين كانوا متعاطفين مع مثله العليا ويشهدون على قوة حبه . وبالنسبة لأحد قادة حرب العصابات، «لقد وحّد المفهوم العلمى عن الحرب الثورية ، معتبراً أنها الطريقة الوحيدة لتطوير القتال فى سبيل الحرية، مع المسيحية الشاملة، التى مدّ نطاقها ومارسها باعتبارها حبا بلا حدود للفقراء والمستغلين والمقهورين وباعتبارها تكريسًا كاملاً للمعركة من أجل تحريرهم». وقد نقل عن قس أرجنتينى قوله :



الحفاظ على تقاليد الاسبتارية . سان جون أمبولانس لتنظيم فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) فى عمله ، وتكرر النظم الرهبانية الخمسة التى تحمل اسم القديس يوحنا الآن أنفسهم لتنفيذ المهام الأصلية لتنظيم الاسبتارية .

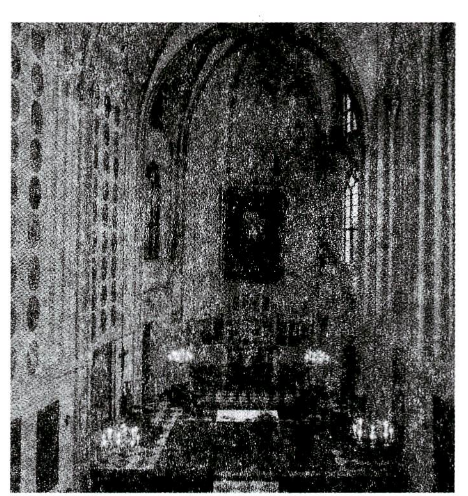
«المسيح هو الحب وقد أردت أن أكون رجلاً مُحبًا ؛ بيد أن الحرب لايمكن أن توجد فى علاقة السيد – والعبد. وما كان موت كاميلو يعنيه بالنسبة لى هو أن على تكريس نفسى لسحق علاقة السيد – بالعبد فى الأرچنتين . كان على أن أقاتل مع العبيد، أى الشعب ، مثلما حاربوا ، وليس باعتبارى معلما من النخبة ... ولكن بوصفى مشاركًا أصيلاً ، معهم وليس من أجلهم، فى بؤسهم ، وفى إخفاقاتهم، وفى عنفهم. وإذا لم يكن بمقدورى أن أفعل هذا ، فإننى لست رجلاً من الشعب، أى رجلاً من رجال الرب، أى رجلاً يؤمن بالإخوة ، التى هى معنى الحب» . وفى ترديد لصدى الاستشهاد الصليبى، وضع أحد علماء اللاهوت الكاثوليك كاميلو توريس فى مكانة «أطهر ، وأنبل ، وأكثر أصالة بين المعارضين والشهداء فى المسيحية الجديدة». وقد تم طرح الحجج والمجادلات بطريقة تذكرنا بالتبريرات التقليدية التى سيقت حول الإجراءات الوحشية التى اتخذت ضد الهراطقة وتقول هذه الحجج والمجادلات إنه فى الثورة ، مع أنها ربما لاتكون ثورة عنيفة بالضرورة ، لايتجلى الحب للمقهورين وحدهم وإنما لمن قهرهم أيضا، ما دام الهدف هو تحرير أولئك الظالمين من ظروف الخطيئة التى يحيون فيها.

ولكن إذا كان العنف المقدس، وهو فى هذه الحال عصيان مسلح، قد عاد إلى المشهد المسيحى ، فإن تلك المؤسسات التى يرجع تاريخها إلى زمن الحروب الصليبية وعاشت زمنًا طويلاً منذ ذلك الحين قد رفضته . وبطبيعة الحال فإن الارتباط بالحركة الصليبية من جانب الكنيسة المارونية والكنيسة الأرمنية، وبعض من الستة وعشرين منظمة رهبانية فروسية ، مثل نظام المبشرين (تنظيم الدومينيكان) ارتباط غير مباشر ، على حين أن منظمات أخرى ، مثل النظم الرهبانية الفروسية الإسبانية قد غيرت وظائفها بدرجة كبيرة لدرجة أنها باتت معروفة بالكاد. بيد أن هناك تنظيمين اثنين ظلا على حالهما كما أن الخط الذى يصلهما بالحروب الصليبية واضح ، بل إنهما تطورا باعتبارهما مؤسستين حيتين على نحو مختلف . أولهما ، "Sovereign Military Hospi- taller Order of st John of Jerusalem of Rhodes «نظام الاسبتارية العسكرى الحاكم

لفرسان القديس يوحنا في القدس ورودس ومالطة and of Malta (أو نظام فرسان مالطة) . وهذا هو نفسه تنظيم فرسان الاسبتارية الذى لعب دوراً مهمًا للغاية فى فلسطين وبلاد الشام، وقبرص ، ورودس ، ومالطة، فى تاريخ الحركة الصليبية.

وبعد أن استولى نابليون على مالطة من الاسبتارية (فرسان مالطة) سنة ١٧٩٨م تشرذم التنظيم الذى حاق به الفقر والإحباط ، وتوزعت قياداته، أو ما بقى منها ، وظل يؤدى دوره دونما اعتباركثير للحكومة المركزية ، التى كانت على أية حال قد وقعت فى براثن الفوضى من جراء انتخاب مجموعة من أعضاء التنظيم تساربول Tsar Paul I ، الروسى- ولم يكن قد كرُس فارسًا راهبًا ، ولا كاثوليكيا، ولا أعزبا (وهى الشروط الأساسية لتولى هذه الوظيفة) ليكون قائداً للتنظيم . ولم تستمر طويلاً رئاسة بول التى اعترفت بها البابوية اعترافا ضمنيًا صامتًا . فبعد اغتياله عانى التنظيم فترة من عدم الاستقرار استمرت ثلاثة عقود قبل تأسيس قيادة أركانه فى روما سنة ١٨٣٤م . ومن ذلك الحين أعاد التنظيم بناء نفسه تدريجيًا ، وتخلى عن طموحه بإعادة بناء نفسه قوة عسكرية على أرض مستقلة – أى جزيرة يونانية يمكن الاستيلاء عليها من الأتراك فى عشرينيات القرن التاسع عشر ؛ الجزائر التى اقترح أن تكون دولة – تنظيم فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر – وعاد إلى دوره الأصلى والأولى، أى العناية بالمرضى والفقراء ، فى الدولة البابوية أولاً ثم فى جميع أنحاء العالم . وعلى الرغم من أن عدد أعضاء التنظيم الحقيقيين قليل نسبيًا ، فإن ما يزيد على عشرة آلاف كاثوليكى يرتبطون بهم باعتبارهم أعضاء علمانيين فى التنظيم.

ويرتبط بهذا أيضا ، وإن كان الارتباط غير مباشر بدرجة أكبر، أربعة تنظيمات باسم سان چون (أو القديس يوحنا) وهى لأنها جمعيات خيرية دينية بروتستانتية خالصة ، ليست تنظيمات تابعة للكنيسة ولكنها تنظيمات فروسية تحت رعاية ، أو كسبت شرعيتها ، من مصادر التشريف المعترف بها مثل البرلمان الفيدرالى الألمانى، وملوك السويد ، وهولندا والمملكة المتحدة . وثلاثة من هذه التنظيمات وهى :




تنظيم فرسان التيون الآن . هذا التنظيم الكاثوليكى الآن تنظيم يضم القساوسة وحدهم (يسارًا) فارس من تنظيم فرسان مالطة يقوم بصلاة القداس لقس من فرسان لقس من فرسان التيوتون (يمينا) الكنيسة الفخمة فى ڤيينا التى تمثل قيادة أركان التيوتون.

Die Balley Brandenburg des Ritterlichen Ordens Sankt Johannis von Spital zu Jerusalem

ويعرف عموما باسم (فرسان القديس يوحنا) والتنظيم الثانى هو **Johanniterordeni Sverige** والثالث **Johanniter Orde in Nederland** ، وهى كلها تنظيمات انحدرت من تنظيم البيليويك فى براندنبرج **Bailiwick of Brandenburg** ، وهى مقاطعة تابعة للاسبتارية صارت جمعية خيرية دينية بروتستانتية وانفصلت عن بقية التنظيم فى زمن حركة الإصلاح الدينى، على الرغم من أنها حافظت على صلة واهية مع الحكومة فى مالطة . أما التنظيم الرابع، الذى يحمل اسما مطولاً، فهو :

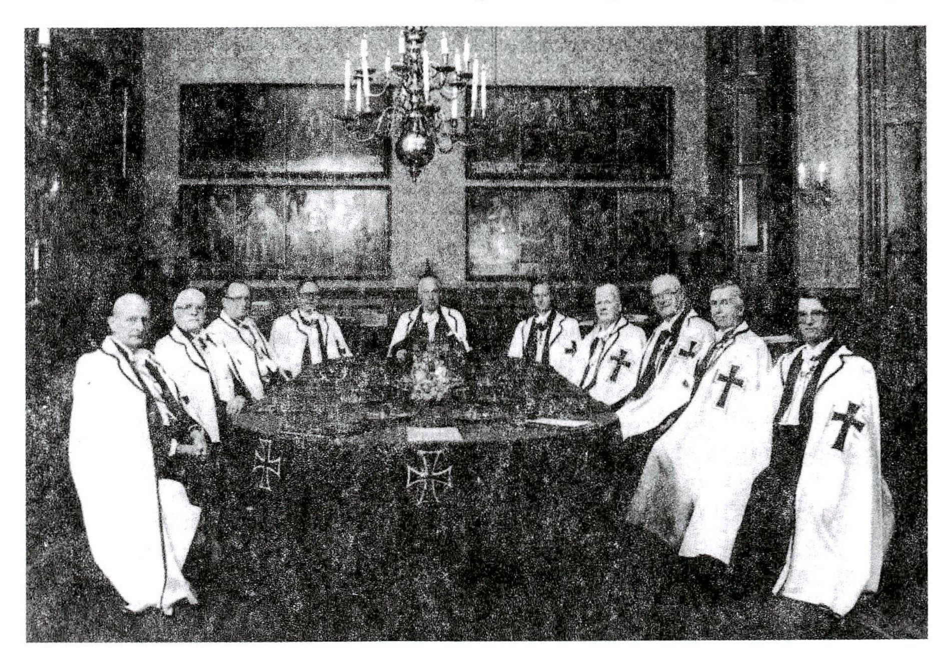
The Grand Priory of the Most venerable Order of the Hospital of St John of Jerusalem.

وهو يرجع فى أصله إلى ما قامت به المجموعات الفرنسية فى سنة ١٨٢٧م لجمع الأموال فى سوق لندن ولتجهيز أسطول صغير فى حملة تبحر من إنجلترا لمساعدة اليونانيين الذين كانوا يحاربون من أجل الاستقلال عن تركيا ، وفى مقابل ذلك تلقت المجموعات وعداً بامتلاك جزيرة فى بحر إيجه تكون بمثابة موطئ قدم تنطلق منها عملية إعادة غزو رودس . وكل الذين استثمروا فى المشروع وكل الضباط فى قوات المرتزقة هم الذين صاروا فرسان مالطة فيما بعد . أما التنظيم الإنجليزى للقديس يوحنا الذى نتج عن ذلك فلم يحظ بالاعتراف من جانب القيادة الكبرى فى روما ، ولكن الأعمال الجيدة التى أنجزها ، والتى آتت ثمارها فى خدمة الإسعاف التابعة لفرسان القديس يوحنا، والتى نالت اعتراف الملكة ڤيكتوريا التى اعتبرته تنظيما تابعًا للتاج البريطانى اعتباراً من سنة ١٨٨٨م.

والمؤسسة الصليبية الثانية الباقية هى تنظيم الفرسان التيوتون **Der Deutsche Orden** الذى كانت قيادة أركانه فى ڤيينا، على الرغم من أنه تحول منذ سنة ١٩٢٣م إلى تنظيم يضم القساوسة وحدهم. ولاوجود آخر للفرسان التيوتون سوى فى تنظيم

(منطقة أوترخت للفرسان التيوتون) . وهم مثل منطقة براندنبرج الاسبتارية، حولوا أنفسهم إلى جمعية خيرية دينية من النبلاء البروتستانت فى زمن الإصلاح الدينى.

هذه التنظيمات الباقية من زمن الحروب الصليبية عبارة عن مؤسسات خيرية مسيحية مشغولة بالعمل الخيرى أو رعاية المرضى والمسنين . وكان أفرادها يمزجون على الدوام بين قتال الأعداء ورعاية المرضى، بما يوضح مدى متانة العلاقة فى فكر العصور الوسطى بين الحرب والتمريض ، وكان هذا التراث هو الذى ساعدهم على الانسحاب من وظائفهم العسكرية على حين بقوا مخلصين لجذورهم . وفى أنشطتهم الحالية يمكن أن نسمع صدى بعيداً للقناعة التى سادت فى العصور الوسطى بأن الحركة الصليبية كانت عملاً من أعمال الحب.



الوحيدون الباقون من تنظيم فرسان التيوتون . أعضاء منطقة أوترخت للفرسان التيوتون فى اجتماع عام. والصور المعلقة على الحوائط خلفهم تصور قادتهم الرئيسيين الذين كانوا يرسمون بسلاحهم حتى وقت قريب.

جدول تاريخي

١٠٩٥م	(مارس) مجمع بياتشنزا الكنسى (بياكنزا).
	(يوليو- سبتمبر) رحلة البابا أوربان الثانى التبشيرية.
	(٢٧ نوفمبر) إعلان الحملة الصليبية الأولى فى مجمع كليرمون.
	(ديسمبر - يوليو ١٠٩٦م) اضطهادات اليهود فى أوربا.
١٠٩٦-١١٠٢م	الحملة الصليبية الأولى.
١٠٩٦م	البابا أوربان الثانى يقارن الحرب ضد المسلمين فى إسبانيا بالحملة الصليبية.
١٠٩٦-١٠٩٧م	وصول جيوش الموجة الثانية من الحملة الصليبية إلى القسطنطينية.
١٠٩٧م	(١ يوليو) معركة ضوروليوم.
	(٢١ أكتوبر - ٣ يونيو ١٠٩٨م) حصار أنطاكيا.
١٠٩٨م.	(١٠ مارس) بلدوين البولونى يسيطر على الرها.
	(٢٨ يونيو) معركة أنطاكية.
١٠٩٩م	(١٥ يوليو) سقوط القدس بأيدى الصليبيين.
	(٢٢ يوليو) انتخاب جودفرى البويونى أول حاكم لاتينى لبيت المقدس.
١١٠١م	(أغسطس - سبتمبر) الموجة النهائية من جيوش الحملة الأولى تُهزم أمام الأتراك بآسيا الصغرى.

١١٠٧-١١٠٨م حملة بوهيموند أمير ترنتو الصليبية.

١١٠٨م (سبتمبر) استسلام بوهيموند للبيزنطيين .

١١٠٩م (١٢ يوليو) الاستيلاء على طرابلس.

١١١٣م أول امتياز بابوى لمستشفى القديس يوحنا (الاسبتارية).

١١١٤م الحملة الصليبية القطلانية على جزر البليار.

١١١٨م حملة البابا جلاسيوس الثانى الصليبية فى إسبانيا.

(١٩ ديسمبر) سقوط سرقسطة بأيدى الصليبيين.

١١١٩م (٢٧ يونيو) معركة ميدان الدم.

١١٢٠-١١٢٥م حملة البابا كاليكستوس الثانى إلى الشرق وفى إسبانيا.

١١٢٠م (مارس - أبريل) المرسوم الصليبى الصادر عن مجمع اللاتيران الكنسى الأول.

١١٢٤م (٧ يوليو) استيلاء الصليبيين على صور.

١١٢٥-١١٢٦م غارة ألفونسو الأول ملك أراجون فى الأندلس.

١١٢٨-١١٢٩م حملة صليبية إلى الشرق جنّدها هيو الباينزى Hugh of Payns.

١١٢٩م (يناير) اعتراف مجمع تروى الكنسى بتنظيم فرسان الداوية.

(نوفمبر) الصليبيون يهاجمون دمشق .

١١٣٥م (مايو) مجمع بيزا الكنسى . الغفران الصليبى يمنح لأولئك الذين يحملون السلاح ضد أعداء البابا وضد النورمان فى جنوب إيطاليا.

١١٣٩-١١٤٠م حملة صليبية إلى الشرق.

١١٤٤م (٢٤ ديسمبر) المسلمون يستعيدون الرها.

١١٤٥م (١ ديسمبر) البابا إيوچينيس الثالث يعلن الحملة الصليبية الثانية فى المرسوم المسمى Quantum Praedecessores.

١١٤٦-١١٤٧م سان برنار الكليرڤوى يدعو إلى الحملة الصليبية الثانية.

١١٤٦م اضطهاد اليهود فى حوض نهر الراين.

١١٤٧-١١٤٩م الحملة الصليبية الثانية.

١١٤٧م (١٣ أبريل) البابا ايوچينيس يصرح بشن حملات صليبية فى إسبانيا وفيما وراء الحدود الشرقية الشمالية لألمانيا وكذلك فى الشرق.

(٢٤ أكتوبر) الاستيلاء على ليسبون.

١١٤٨م (٢٤-٢٨ يوليو) انسحاب الصليبيين من حصار دمشق.

١١٤٩م (١٥ يوليو) تكريس الكنيسة الجديدة فى الضريح المقدس.

١١٥٣م. حملة صليبية فى إسبانيا.

١١٥٤م نور الدين محمود يدخل دمشق فى ٢٥ أبريل.

١١٥٧-١١٨٤م سلسلة من النداءات البابوية بشن حملات صليبية على الشرق، يكون الرد عليها عدداً من الحملات الصغيرة والمتوسطة.

١١٥٧-١١٥٨م حملة صليبية فى إسبانيا.

١١٥٨م تأسيس نظام كالاتراڤا.

١١٦٣-١١٦٩م حملات على مصر قام بها الملك أماريك (عمورى) ملك بيت المقدس.

١١٦٩م استكمال إعادة تزين كنيسة الميلاد فى بيت لحم، تحت رعاية الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول، وملك بيت المقدس أماريك، والأسقف رالف أسقف بيت لحم.

(٢٣ مارس) مصر تحت حكم صلاح الدين الأيوبى لصالح نور الدين محمود.

١١٧٠م تأسيس تنظيم الرهبان الفرسان المسمى سانتياجو.

١١٧١م حملة صليبية فى إقليم البلطيق.

١١٧٤م (١٥ مايو) وفاة نور الدين محمود.

(٢٨ أكتوبر) صلاح الدين يدخل دمشق.

١١٧٥م حملة صليبية فى إسبانيا.

١١٧٦م تأسيس النظم الرهبانية العسكرية آفيس (تنظيم إيفورا) والقنطرة (تنظيم سان خوليان دل بيريرو).

١١٧٧م حملة صليبية إلى الشرق يقوم بها فيليب الفلاندرى.

١١٨٣م (١١ يونيو) حلب تخضع لصلاح الدين .

١١٨٦م (٣ مارس) الموصل تخضع لصلاح الدين.

١١٨٧م (٤ يوليو) معركة حطين.

(٢ أكتوبر) صلاح الدين يحرر القدس.

١١٨٨م (يناير) فرض عشور صلاح الدين فى إنجلترا.

١١٨٩-١١٩٢م الحملة الصليبية الثالثة.

١١٨٩م (٣سبتمبر) سقوط سيلفز فى البرتغال على يد الصليبيين.

١١٩٠م (١٠ يونيو) غرق الإمبراطور فريدريك الأول فى قليقية.

١١٩١م (يونيو) ريتشارد الأول ملك إنجلترا يستولى على قبرص.

(١٢ يوليو) استسلام عكا لريتشارد الأول ملك إنجلترا وفيليب الثانى ملك فرنسا .

(٧ سبتمبر) معركة أرسوف.

١١٩٢م (٢ سبتمبر) معاهدة يافا.

١١٩٣-١٢٣٠م الحملة الصليبية الليفونية (تجددت سنة ١١٩٧م)

١١٩٣م حملة صليبية فى إسبانيا.

١١٩٧-١١٩٨م حملة صليبية ألمانية إلى فلسطين.

١١٩٧م حملة صليبية فى إسبانيا.

١١٩٨م تأسيس تنظيم الفرسان التيوتون.

(أغسطس) البابا إنوسنت الثالث يعلن الحملة الصليبية الرابعة.

١١٩٩م (٢٤ نوفبمر) إعلان الحملة الصليبية ضد ماركورد الأنويلرى Mark-ward of Anweiler.

١٢٠٠م تقريبًا (ديسمبر) فرض الضرائب علي الكنيسة لتمويل الحروب الصليبية.

١٢٠٢م تأسيس تنظيم سان چورج دى ألفا ما.

١٢٠٢-١٢٠٤م تأسيس تنظيم إخوة السيف.

١٢٠٢م الحملة الصليبية الرابعة.

١٢٠٤م (٢٤ نوفمبر) الصليبيون يستولون على زارا.

البابا إنوسنت الثالث يسمح بالتجنيد من أجل الحملة الصليبية الليڤونية على أسس منتظمة.

(١٢-١٥ أبريل) الصليبيون ينهبون القسطنطينية.

(٩ مايو) انتخاب بلدوين الفلاندرى أول إمبراطور لاتينى فى القسطنطينية.

١٢٠٤-١٢٠٥م غزو جيوفرى الفيلهاردوينى ووليام الشامبلليتى لشبه جزيرة المورة.

١٢٠٦م حملة صليبية دانمركية إلى أوسيل Osel

١٢٠٨م (١٤ يناير) اغتيال بيتر الكاستلناوى المبعوث البابوى فى لانجدوك.

١٢٠٩-١٢٢٩م إعلان الحملة الصليبية الألبيچنسية.

١٢٠٩م الحملة الألبيجنسية.

١٢٢١م (٢٢ يوليو) نهب بيزييه Béziers.

ملك المجر يمنح فرسان التيوتون حق المرور فى ترانسلڤانيا.

١٢١٢م صليبية الأطفال .

حملة صليبية فى إسبانيا .

(١٧ يوليو) معركة لاس ناڤاس دى تولوزا.

١٢١٣م (أبريل) البابا إنوسنت الثالث يعلن الحملة الصليبية الخامسة.

تخفيض الحملة الصليبية الإسبانية والحملة الألبيچنسية لصالح ميدان الحرب بالشرق.

(١٢ سبتمبر) معركة موريه Muret.

١٢١٥م تنظيم المبشرين (الدومنيكيان) فى تولوز.

١٢١٣م (أبريل) البابا إنوسنت الثالث يعلن الحملة الصليبية الخامسة.

تخفيض الحملة الصليبية الإسبانية والحملة الألبيچنسية لصالح ميدان الحرب بالشرق.

(١٢ سبتمبر) معركة موريه Muret .

١٢١٥م تنظيم المبشرين (الدومينيكان) فى تولوز.

(١٤ ديسمبر) دستور Ad Liberandam يحظى بموافقة مجمع اللاتيران الكنسى الرابع، ويسمح بفرض الضرائب على الكنيسة لتمويل الحروب الصليبية بصورة منتظمة.

١٢١٦م (٢٨ أكتوبر) الملك هنرى الثالث ملك إنجلترا يشن حملة صليبية ضد المتمردين الإنجليز.

١٢١٧-١٢٢٩م الحملة الصليبية الخامسة.

١٢١٨م (٢٧ مايو- ٥ نوفمبر ١٢١٩م) حصار دمياط .

١٢١٩م حملة صليبية دانمركية على أستونيا.

١٢٢١م (٣٠ أغسطس) الصليبيون فى مصر يلقون الهزيمة فى المنصورة.

١٢٢٥م دعوة تنظيم الفرسان التيوتون إلى بروسيا.

١٢٢٦م تجديد الحملة الصليبية الألبيچنسية.

١٢٢٧م التصريح بحملة صليبية ضد الهراطقة فى روسيا (تجددت سنة ١٢٣٤م).

١٢٢٨-١٢٢٩م حملة الإمبراطور فردريك الثانى الصليبية.

١٢٢٩-١٢٣٣م الحرب الأهلية فى قبرص.

١٢٢٩م (١٨ فبراير) إعادة القدس إلى الصليبيين بمعاهدة.

(١٢ أبريل) صلح باريس ينهى الحملة الصليبية الألبيچنسية.

تنظيم الفرسان التيوتون يبدأ غزو بروسيا.

١٢٢٩-١٢٥٣م حملة صليبية فى إسبانيا.

١٢٢٩-١٢٣١م حملة جيمس الأول ملك أراجون على مايوركا.

١٢٣١م حملة صليبية يقوم بها حنا بريين لمساعدة القسطنطينية.

حملة فرديناند الثالث حاكم قشتالة فى إسبانيا.

١٢٣٢-١٢٣٤م حملة صليبية ضد هراطقة ستيدنجر Stedinger فى ألمانيا.

١٢٣٢-١٢٥٣م غزو چيمس الأول ملك أراجون لڤالنسيا.

١٢٣٦م الإعلان عن حملة صليبية جديدة لمساندة القسطنطينية.

(٢٩ يونيو) فرديناند الثالث ملك قشتالة يستولى على قرطبة.

١٢٣٧م تنظيم الفرسان التيوتون يبتلع تنظيم إخوة السيف فى ليڤونيا.

١٢٣٩-١٢٤٠م حملة صليبية لمساندة القسطنطينية.

١٢٣٩-١٢٤٠م	حملة ثيبو الشمبانى وحملة ريتشارد الكورنوولى .
١٢٣٩م	إعلان الحملة الصليبية ضد الإمبراطور فردريك الثانى (تجديد سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٤٤م) .
	حملة صليبية سويدية فى فنلندا .
١٢٤١م	إعلان الحملة الصليبية ضد المغول .
١٢٤٢م	أول ثورة بروسية ضد تنظيم الفرسان التيوتون .
	(٥ أبريل معركة على بحيرة بيبوس Peipus .
١٢٤٤م	(١٦ مارس) سقوط مونتسيجور Montségur .
	(١١ يوليو - ٢٣ أغسطس) الخوارزمية - يحررون القدس من الصليبيين) .
	(١٧ أكتوبر) معركة لافوربى (معركة غزة ٦٤٢ هجرية) .
١٢٤٥م	السماح لتنظيم فرسان التيوتون بشن حملة صليبية دائمة فى بروسيا .
١٢٤٨-١٢٥٤م	حملة لويس التاسع ملك فرنسا الصليبية الأولى .
١٢٤٨م	سقوط آخن بأيدى الصليبيين الذين يحاربون ضد فردريك الثانى .
	(٢٣ نوفمبر) أشبيلية تسقط فى يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .
١٢٤٩م	الاستيلاء على دمياط فى ٦ يونيو .
١٢٥٠م	(٨ فبراير) الصليبيون فى مصر يلقون الهزيمة فى المنصورة .
١٢٥٠-١٢٥٤م	الملك لويس التاسع فى فلسطين .
١٢٥١م	الحملة الصليبية الأولى للرعاة .
١٢٥٤م	حملة صليبية على بروسيا يقودها الملك أوتوكار الثانى ملك بوهيميا، ورودلف الهابسبورجى وأوتو البراندنبرجى مؤسس Konigsberg .
	الدعوة إلى حملات صليبية ضد مانفرد شتاوفن وضد إيزيلينو وألبريك رومانو .

١٢٥٦-١٢٥٨م حرب سان ساباس فى عكا .

١٢٥٨م (١٠ فبراير) المغول ينهبون بغداد .

١٢٥٩م اللاتين فى أخايا يلقون الهزيمة على أيدى البيزنطيين فى معركة بلاجونيا .

١٢٦٠م الفرسان التيوتون فى ليفونيا ينالون هزيمة أمام الليتوانيين فى معركة دوربى الثورة البروسية الثانية .

حملة صليبية قشتالية ضد سُلاً فى المغرب .

(٣ سبتمبر) معركة عين جالوت .

(٢٣ أكتوبر) الظاهر بيبرس يصير سلطان مصر .

١٢٦١م (٢٥ يوليو) البيزنطيون يستردون القسطنطينية من الصليبيين .

١٢٦٥-١٢٦٦م الحملة الصليبية بقيادة شارل آنجو ضد جنوب إيطاليا .

١٢٦٦م (٢٦ فبراير) معركة بننتو .

١٢٦٨م (١٨ مايو) سقوط أنطاكية بأيدى المماليك .

(٢٣ أغسطس) معركة تاجليا كوزو .

١٢٦٩-١٢٧٢م الحملة الصليبية الثانية للملك لويس التاسع.

١٢٦٩م حملة صليبية أرجوانية فى فلسطين .

١٢٧٠م (٢٥ أغسطس) موت لويس التاسع فى تونس .

١٢٧١-١٢٧٢م إدوارد ملك إنجلترا فى فلسطين .

١٢٧٤م (١٨ مايو) مرسوم صليبى صادر عن مجمع ليون الثانى Constitu-tiones prozelo fidei.

١٢٧٥م تقريباً تأسيس تنظيم سانتاماريا دى إسبانيا .

١٢٧٧م	(سبتمبر) نائب شارل آنجو ، الذى كان قد اشترى تاج بيت المقدس من أحد المطالبين به ، يصل إلى عكا التى صارت عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية .
١٢٨٢م	(٣٠ مارس) صلوات المساء الصقلية (ثورة أهالى صقلية ضد الفرنسيين من آل آنجو) .
١٢٨٣-١٣٠٢م	حملة صليبية ضد أهالى صقلية والأراجوانيين .
١٢٨٥م	حملة صليبية فرنسية ضد أراجون .
١٢٨٦م	(٤ يونيو) مملكة بيت المقدس يُعاد توحيدها تحت حكم الملك هنرى الثانى ملك قبرص .
١٢٨٧م	(١٨ يونيو) حملة صليبية إلى الشرق بقيادة أليس بلوا .
١٢٨٨م	حملة صليبية إلى الشرق بقيادة چون جريلى .
١٢٨٩م	(٢٦ أبريل) سقوط طرابلس بأيدى المماليك (السلطان المنصور قلاون) .
١٢٩٠م	حملة صليبية إلى الشرق بقيادة أوتواندسون وحملة ضد سكان شمال إيطاليا .
١٢٩١م	(١٨ مايو) سقوط عكا فى أيدى المماليك (السلطان الأشرف خليل بن قلاون) .
	(يوليو) سقوط صيدا وبيروت .
	(أغسطس) الصليبيون يخلون طرطوس وقلعة الحجاج Château Pélerin.
١٣٠٢م	المسلمون يأخذون جزيرة أرواد ويطردون الداوية .
	انتهاء حكم الصليبيين فى جبيل .
	(٣١ أغسطس) اتفاقية كالتابللوتا Caltabellotta.

١٣٠٦م الاسبتارية يبدأون غزو رودس .

١٣٠٦-١٣٠٧م حملة صليبية لتأييد مزاعم شارل ڤالوا فى حكم القسطنطينية .

(١٣ أكتوبر) القبض على جميع فرسان الداوية فى فرنسا .

١٣٠٩م الحملة الصليبية الشعبية .

فرسان التيوتون ينقلون رئاسة الأركان مارنيبرج فى بروسيا .

١٣٠٩-١٣١٠م الحملة الصليبية القشتالية والأراجونية فى إسبانيا .

حملة صليبية ضد البندقية .

١٣١٠م حملة صليبية للاسبتارية لتقوية قبضتهم على رودس .

١٣١١م رئاسة أركان الاسبتارية صارت فى رودس .

(١٥ مارس) معركة هالميروس (نهر كفيسوس) شركة القطلان تعتزم السيطرة على أثينا وطيبة .

١٣١٢م (٣ أبريل) حل تنظيم فرسان الداوية .

(٢ مايو) البابا كليمنت الخامس يمنح معظم ممتلكات الداوية إلى الاسبتارية .

١٣١٤م حملة صليبية فى المجر (تجددت فى أعوام ١٣٢٥م و١٣٣٥م و١٣٥٢م و١٣٥٤م) .

(١٨ مارس) حرق آخر قائد للداوية چيمس مولاى وچيوفرى شارناى .

١٣١٧م تأسيس تنظيم مونتيسا .

١٣١٩م تأسيس تنظيم المسيح .

١٣٢٠م الحملة الصليبية الثانية للرعاة .

١٣٢١م حملة صليبية ضد فرارا وميلانو والجبلينيين فى أحراش أنكونا ودوقية سبوليتو (امتدت لكى تغطى مانتوا سنة ١٣٢٤م) .

١٣٢٣م حملة صليبية نرويجية ضد الروس فى فنلندا .

١٣٢٥م حملة صليبية فى بولندا (تجدد فى أعوام ١٣٤٠م، ١٣٤٣م، ١٣٥١م، ١٣٥٤م، ١٣٥٥م، ١٣٦٣م، ١٣٦٩م) .

١٣٢٧م حملة صليبية تم إعداد خطتها ضد الكاثوريين فى المجر .

١٣٢٨م إعلان حملة صليبية ضد الملك لويس ملك ألمانيا .
حملة صليبية فى إسبانيا .

١٣٣٠م الإعداد لحملة صليبية ضد القطلان فى أثينا .

١٣٣١م الإعلان عن حملة صليبية جديدة إلى الشرق .

١٣٣٢-١٣٣٤م أول عصبة صليبية .

١٣٣٤م سفن العصبة الصليبية تهزم الأتراك فى خليج أدراميتيون .

١٣٣٧م سقوط أياس بأيدى المماليك .

١٣٤٠م حملة صليبية ضد الهراطقة فى بوهيميا .
(٣٠ أكتوبر) معركة نهر سالادو .

١٣٤٢-١٣٤٤م حصار الجسيراس .

١٣٤٤م حملة صليبية فى جزر الكنارى يتم التخطيط لها .
(٢٨ أكتوبر) العصبة الصليبية تحتل سميرنا .

١٣٤٥-١٣٤٧م حملة صليبية للجنوية للدفاع عن كافا ضد المغول .

١٣٤٨م حملة صليبية يقوم بها الملك ماجنوس ملك السويد إلى فنلندا (تجدد سنة ١٣٥٠م و١٣٥١م) .

١٣٤٩-١٣٥٠م حصار جبل طارق .

١٣٥٣-١٣٥٧م حملة صليبية لاستعادة السيطرة على الدولة البابوية فى إيطاليا .

١٣٥٤م اقتراح بشن حملة صليبية على أفريقيا .

حملة صليبية ضد سيسنا وفاينزا .

١٣٥٩م العصبة تهزم الأتراك فى لامبساكوس .

١٣٦٠م حملة صليبية ضد ميلانو (تجدد سنة ١٣٦٣م وسنة ١٣٦٨م) .

١٣٦٥-١٣٦٧م الحملة الصليبية التى قام بها بطرس الأول ملك قبرص .

١٣٦٥م (١٠ أكتوبر) الاستيلاء على الإسكندرية لمدة ستة أيام على يد بطرس الأول ملك قبرص .

١٣٦٦م (أغسطس - ديسمبر) حملة أماديوس أمير سافوى على الدردنيل وبلغاريا .

١٣٧٤م الاسبتارية يتولون الدفاع عن سميرنا .

١٣٧٧م ترك أخايا للاسبتارية لمدة خمس سنوات مما أدى إلى حكم الشركة النافارية .

١٣٧٨م الألبان يأسرون قائد الاسبتارية خوان فرنانديز دى هيريريا .

١٣٧٩م الشركة النافارية تستولى على طيبة .

١٣٨٣م الحملة الصليبية لأسقف نورفيتش ضد الكلمنتيين فى الفلاندرز .

١٣٨٦م حملة حنا الجونتى فى قشتالة .

اتحاد بولندا وليتوانيا ، تحول ليتوانيا إلى المسيحية فى طريقه إلى التحقق .

١٣٩٠م حملة صليبية ضد المهدية (فى تونس) .

١٣٩٤م إعلان الحملة الصليبية إلى نيقوبوليس .

١٣٩٦م حملة نيقوبوليس الصليبية .

(٢٥ سبتمبر) معركة نيقوبوليس .

١٣٩٨م حملة صليبية للدفاع عن القسطنطينية يتم الإعلان عنها (تجددت سنة ١٣٩٩م و١٤٠٠م) .

١٣٩٩-١٤٠٠م حملة چون بوسيكو الصليبية .

١٤٠٢م (ديسمبر) سقوط سميرنا فى يدى تيمورلنك .

١٤١٠م (١٥ يوليو) معركة تاننبرج .

١٤٢٠-١٤٣١م الصليبية الهسية .

١٤٢٠م أول حملة صليبية هسية .

١٤٢١م الحملة الصليبية الهسية الثانية .

١٤٢٢م الحملة الصليبية الهسية الثالثة .

١٤٢٦م (٧ يوليو) معركة خيروكيتيا .

١٤٢٧م الحملة الصليبية الهسية الرابعة .

١٤٣١م الحملة الصليبية الهسية الخامسة .

١٤٣٢م حاكم المورة البيزنطى يستولى على إمارة آخايا .

١٤٤٠-١٤٤٤م المماليك يهاجمون رودس .

١٤٤٣م (١ يناير) إعلان الحملة الصليبية على ڤارنا .

١٤٤٤م صليبية ڤارنا .

(١٩ نوفمبر) هزيمة الصليبيين فى ڤارنا .

١٤٥٣م (٢٩ مايو) فتح القسطنطينية على أيدى الأتراك العثمانيين .

(٣٠ سبتمبر) الإعلان عن حملة صليبية جديدة إلى الشرق (تجددت سنة ١٤٥٥م) .

١٤٥٤م (١٧ فبراير) عيد فى ليل Lille .

١٤٥٥م حملة صليبية جنوية للدفاع عن خيوس .

١٤٥٦م الحملة الصليبية لسان چون كابيسترانو .

(٤ يونيو) الأتراك يحتلون أثينا .

(٢٢ يوليو) الدفاع عن بلجراد من جانب الصليبيين تحت قيادة جون هونيادى وسانت چون كابيسترانو .

١٤٥٧م الأسطول البابوى يستولى على ساموثراس وثاسوس وليمنوس .

١٤٥٩-١٤٦٠م كونجرس صليبى فى مانتوا .

١٤٥٩م تأسيس تنظيم بيت لحم .

١٤٦٠م (١٤ يناير) إعلان الحملة الصليبية للبابا بيوس الثانى .

١٤٦٢م لسيبوس بأيدى الأتراك .

١٤٦٤م (١٥ أغسطس) البابا بيوس الثانى يموت منتظراً قيام حملة صليبية تحتشد فى أنكونا .

١٤٧٠م سقوط الجبل الأسود فى أيدى الأتراك .

١٤٧١م (٣١ ديسمبر) إعلان الحملة الصليبية .

١٤٧٢م العصبة الصليبية تهاجم أنطاليا وسميرنا .

١٤٨٠م (٢ مايو - أواخر أغسطس) الأتراك يحاصرون رودس .

(١١ أغسطس) الأتراك يستولون على أوترانتو .

١٤٨١م الإعلان عن حملة صليبية لاستعادة أوترانتو فى ٨ أبريل .

(١٠ سبتمبر) استعادة أوترانتو من الأتراك .

١٤٨٢-١٤٩٢م حملة صليبية فى إسبانيا .

١٤٨٧م ملقا تسقط فى أيدى الإسبان .

١٤٨٩م بازا ، والمرية وجوادكس تسقط فى أيدى الإسبان .

انتهاء الملكية فى قبرص .

١٤٩٠-١٤٩٢م حصار غرناطة .

١٤٩٠م اجتماع فى روما بخطط لحملة صليبية جديدة .

١٤٩٢م (٢ يناير) سقوط غرناطة .

١٤٩٣م حملة صليبية فى المجر .

١٤٩٩-١٥١٠م حملة صليبية إسبانية فى شمال إفريقيا (١٤٩٧م مليلة ، ١٥٠٥م المرسى الكبير : ١٥٠٨م جزر كنارى ، ١٥٠٩م أوران ، ١٥١٠م صخرة الجزائر ، وبوچى وطرابلس .

١٤٩٩م الأتراك يستولون على ليبانتو .

١٥٠٠م الأتراك يستولون على كورون ومودون .

(١ يونيو) إعلان حملة صليبية .

١٥١٢-١٥١٧م مجمع اللاتيران الكنسى الخامس يناقش الحركة الصليبية .

١٥١٣م إعلان حملة صليبية فى أوروبا الشرقية .

١٥١٦-١٥١٧م الغزو العثمانى لمصر .

١٥١٧م (١١ نوفمبر) إعلان حملة صليبية .

١٥٢٠م (يونيو) ميدان ثياب الذهب : ملك فرنسا وملك إنجلترا يتقابلان استعداداً لحملة صليبية جديدة .

١٥٢٢م (يوليو - ١٨ ديسمبر) حصار رودس الذى ينتهى باستسلامها للأتراك .

١٥٢٣م (١ يناير) الاسبتارية يغادرون رودس .

١٥٢٥م ألبرت البراندبورجى ، قائد تنظيم الفرسان التيوتون يعتنق المذهب اللوثرى .

١٥٢٩م (٢٦ سبتمبر - أكتوبر) الحصار العثمانى الأول لڤيينا .

١٥٣٠م إعلان حملة صليبية فى ٢ فبراير .

(٢٣ مارس) الاسبتارية يحصلون على مالطة وطرابلس ليبيا من الإمبراطور شارل الخامس بوصفه ملك صقلية .

١٥٣٥م (يونيو - يوليو) الحملة الصليبية التى شنها الإمبراطور شارل الخامس على تونس .

١٥٣٧-١٥٣٨م العصبة الصليبية تتجه إلى شرق المتوسط .

١٥٣٨م (٢٧ سبتمبر) أسطول تابع للعصبة الصليبية يلقى الهزيمة قبالة شاطئ بريڤيزا .

١٥٤٠م نوبليا ومونيڤاسيا Nauplia and Monemvasia تسقطان فى أيدى الأتراك .

١٥٤١م (أكتوبر - نوفمبر) حملة صليبية للإمبراطور شارل الخامس ضد الجزائر .

١٥٥٠م (يونيو - سبتمبر) حملة صليبية على المهدية بقيادة الإمبراطور شارل الخامس .

١٥٥١م (١٤ أغسطس) الاسبتارية يسلمون طرابلس إلى الأتراك .

١٥٦٢م جونثارد كيتلر ، رئيس تنظيم فرسان التيوتون فى ليڤونيا يعتنق المذهب اللوثرى ويصير دوقا .

تأسيس تنظيم سانتو ستيفانو .

١٥٦٥م (١٩ مايو - ٨ سبتمبر) الحصار الكبير الذى فرضه الأتراك على مالطة .

١٥٦٦م خيوس تسقط فى أيدى الأتراك .

١٥٧٠-١٥٧١م العصبة الصليبية المقدسة (تجددت سنة ١٥٧٢م) .

سقوط قبرص بأيدى الأتراك .

١٥٧٠م (٩ سبتمبر) نيقوسيا تسقط بأيدى الأتراك .

١٥٧١م (٥ أغسطس) سقوط فاماجوستا فى أيدى الأتراك .

(٧ أكتوبر) معركة ليبانتو .

١٥٧٢م أسطول العصبة الصليبية فى شرق المتوسط .

الاتحاد بين تنظيمى سان لازاروس وسان موريس .

١٥٧٣م (١١ أكتوبر) دون چون حاكم النمسا يستولى على تونس .

١٥٧٤م (أغسطس - سبتمبر) الأتراك يستردون تونس .

١٥٧٨م حملة صليبية للملك سيباستيان ملك البرتغال على المغرب .

(٤ أغسطس) معركة القصر الكبير .

١٥٨٨م الأرمادا .

١٦١٤م الأتراك يشنون غارة على مالطة .

١٦١٧م تأسيس تنظيم ميليشيا المسيح .

١٦٤٥-١٦٦٩م الأتراك يغزون كريت التى دافعت عنها عصبة صليبية .

١٦٦٤م الاسبتارية يهاجمون الجزائر .

١٦٦٩م (٢٦ سبتمبر) إيراكليون تستسلم للأتراك .

١٦٨٣م (١٤ يوليو - ١٢ سبتمبر) الحصار العثمانى الثانى لڤيينا .

١٦٨٤-١٦٩٧م عصبة صليبية مقدسة .

١٦٨٥-١٦٨٧م البنادقة يحتلون البلوبونيز .

١٦٨٦م القوات المسيحية يستولون على بودا .

١٦٩٩م صلح كارلوفيتز .

١٧٠٧م الاسبتارية يساعدون فى الدفاع عن أوران .

١٧١٥م الأتراك يعيدون احتلال البلوبونيز .

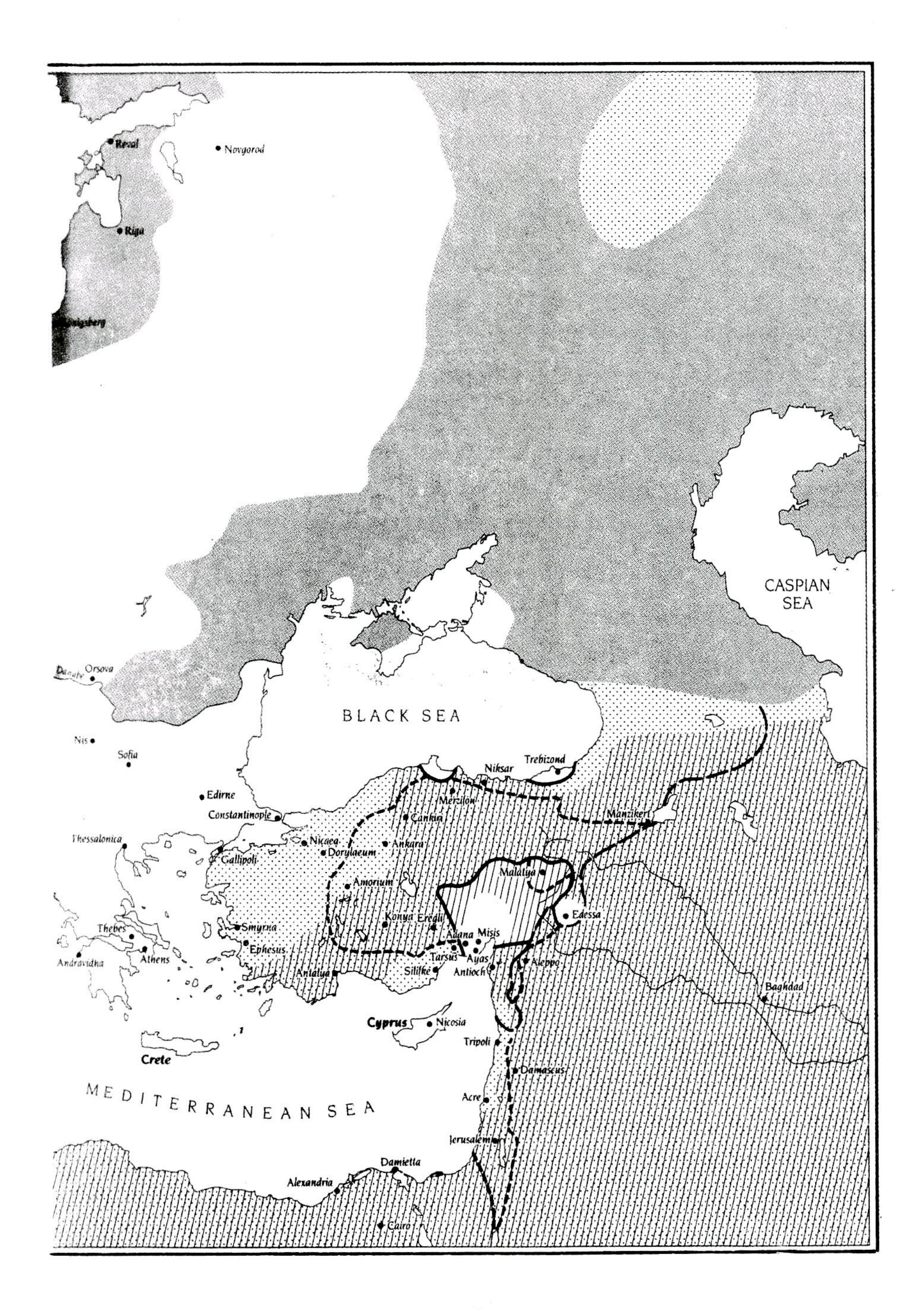
١٧٤١-١٧٧٣م مانويل بينتو ، قائد الاسبتارية يتخذ كل مظاهر السيادة .

١٧٩٢م الاستيلاء على ممتلكاتهم فى فرنسا .

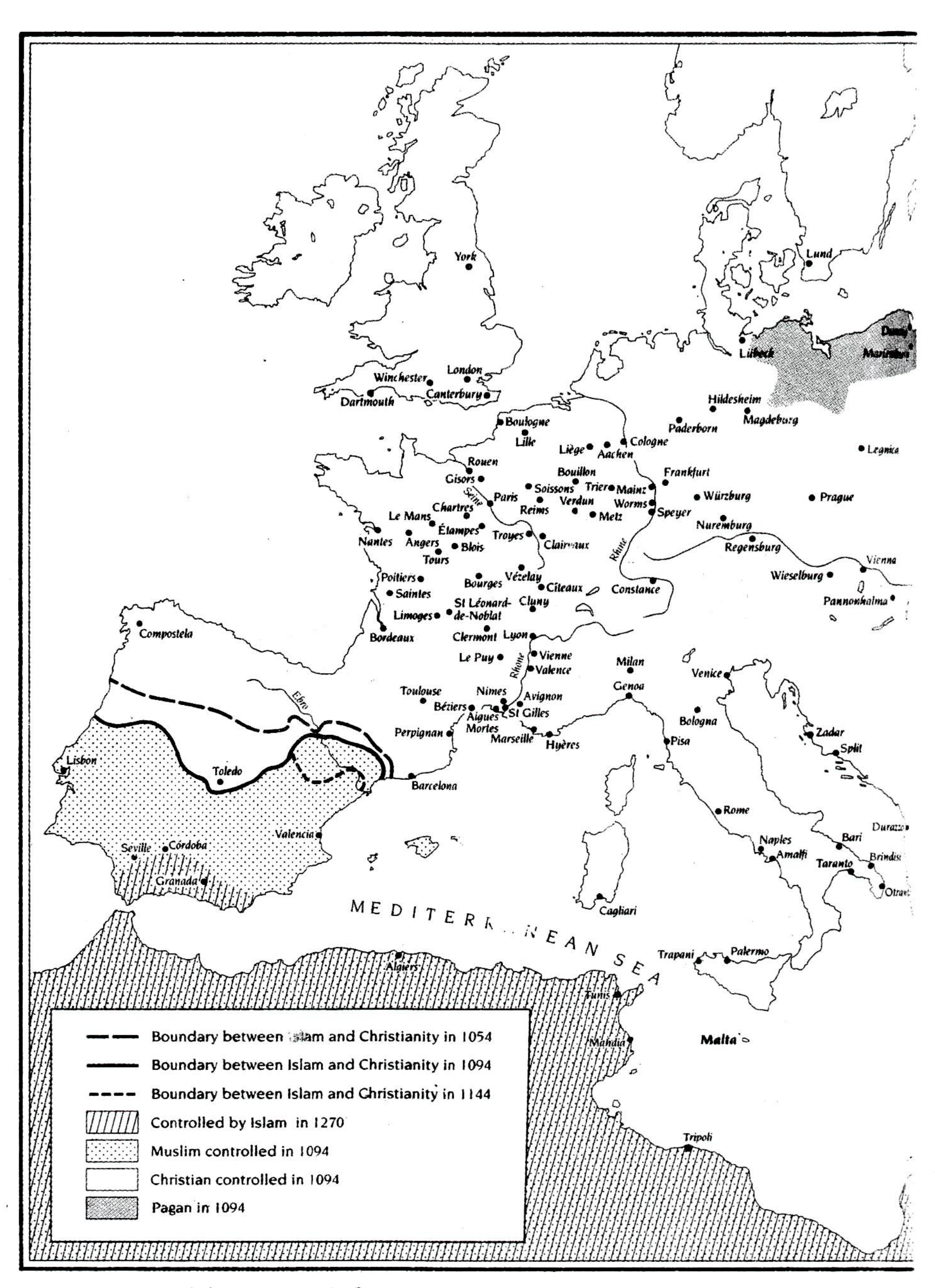
١٧٩٨م (١١ يونيو) استسلام مالطة لنابليون .

ملحق

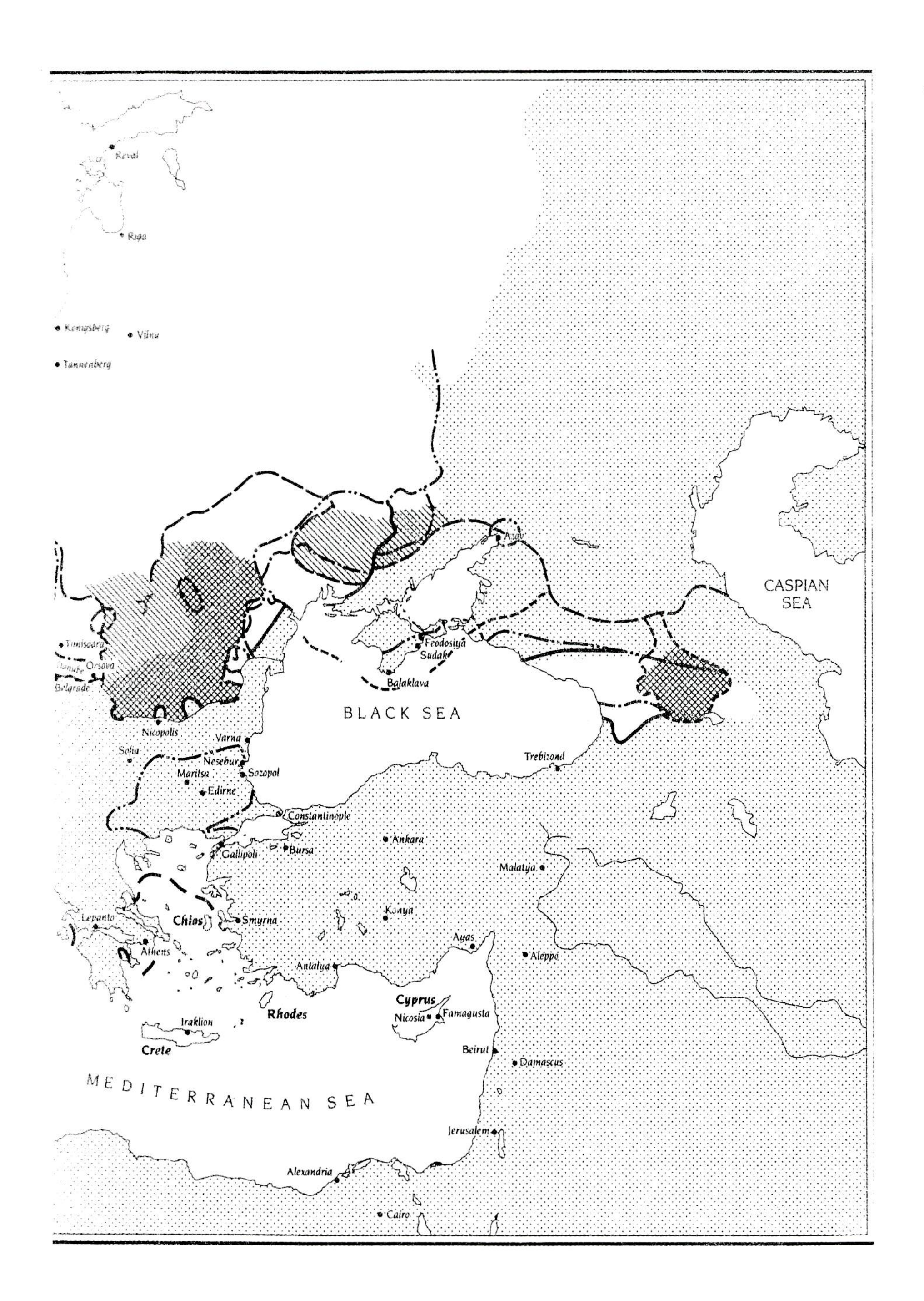
الخرائط

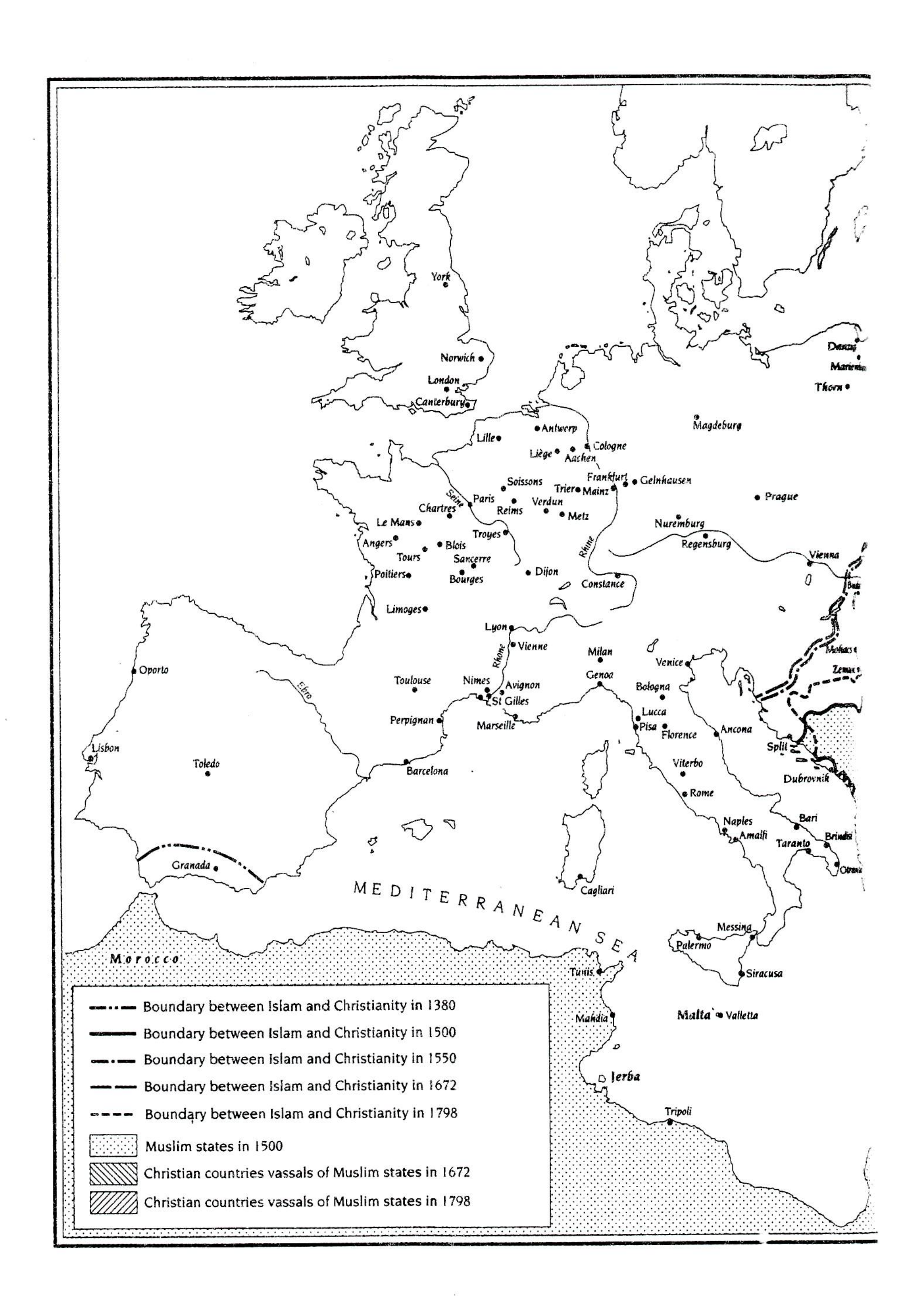


Reval
Novgorod
Riga
Königsberg
Danube
Orsova
Nis
Sofia
BLACK SEA
CASPIAN
SEA
Edirne
Constantinople
Thessalonica
Gallipoli
Nicaea
Dorylaeum
Ankara
Cankiri
Merzifon
Niksar
Trebizond
Manzikert
Amorium
Malatya
Edessa
Konya
Eregli
Adana
Misis
Tarsus
Ayas
Silifke
Antioch
Aleppo
Smyrna
Ephesus
Antalya
Thebes
Athens
Andravidha
Baghdad
Cyprus
Nicosia
Tripoli
Damascus
Crete
MEDITERRANEAN SEA
Acre
Jerusalem
Damietta
Alexandria
Cairo

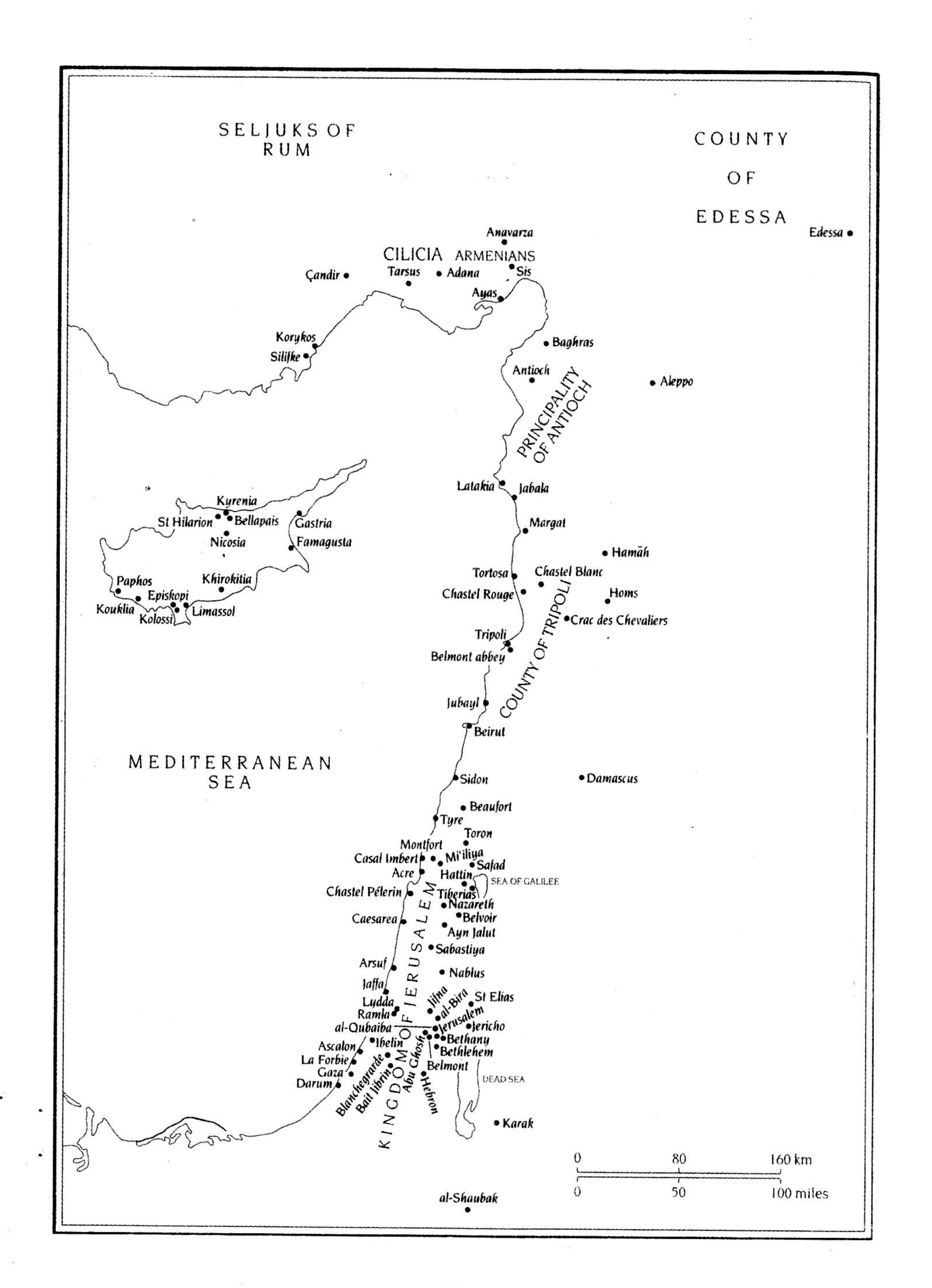


MAP 1. Europe and the Near East before c.1300

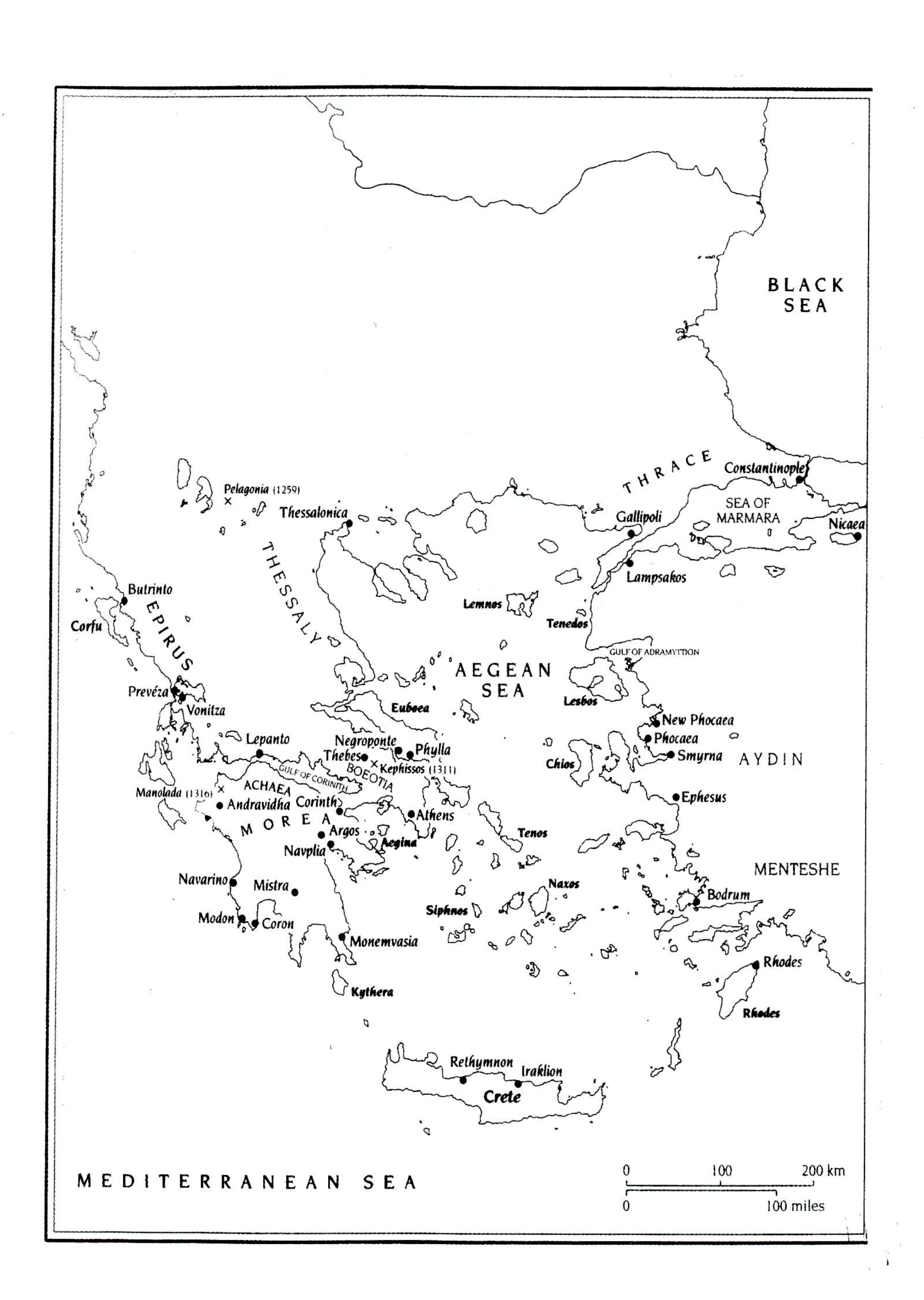

Reval
Riga
Konigsberg
Vilna
Tannenberg
Timisoara
Orsova
Belgrade
Azov
CASPIAN
SEA
Feodosiya
Sudak
Balaklava
BLACK SEA
Nicopolis
Varna
Sofia
Nesebur
Maritsa
Sozopol
Edirne
Trebizond
Constantinople
Ankara
Gallipoli
Bursa
Malatya
Konya
Lepanto
Chios
Smyrna
Athens
Ayas
Aleppo
Antalya
Cyprus
Nicosia
Famagusta
Iraklion
Rhodes
Crete
Beirut
Damascus
MEDITERRANEAN SEA
Jerusalem
Alexandria
Cairo

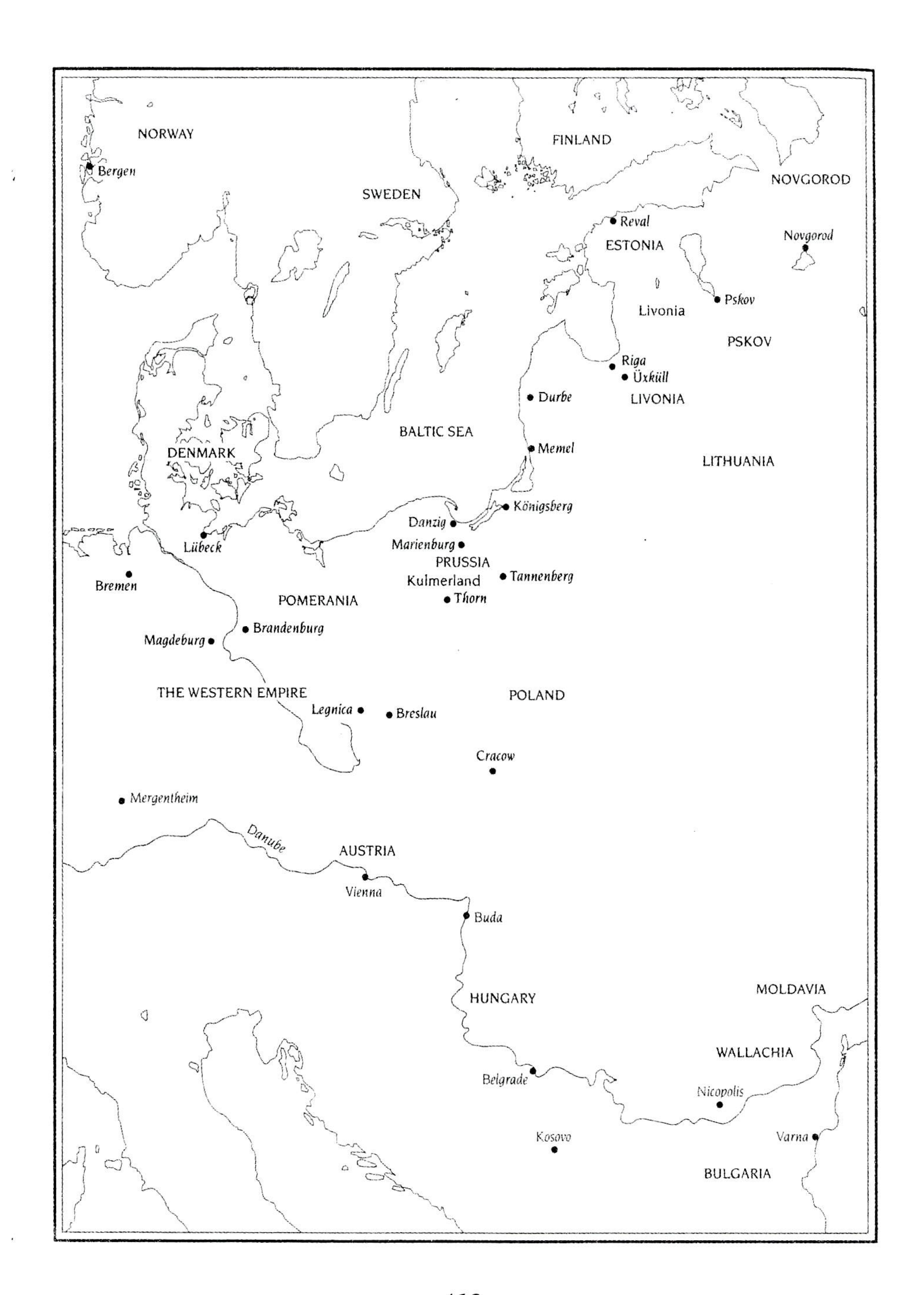


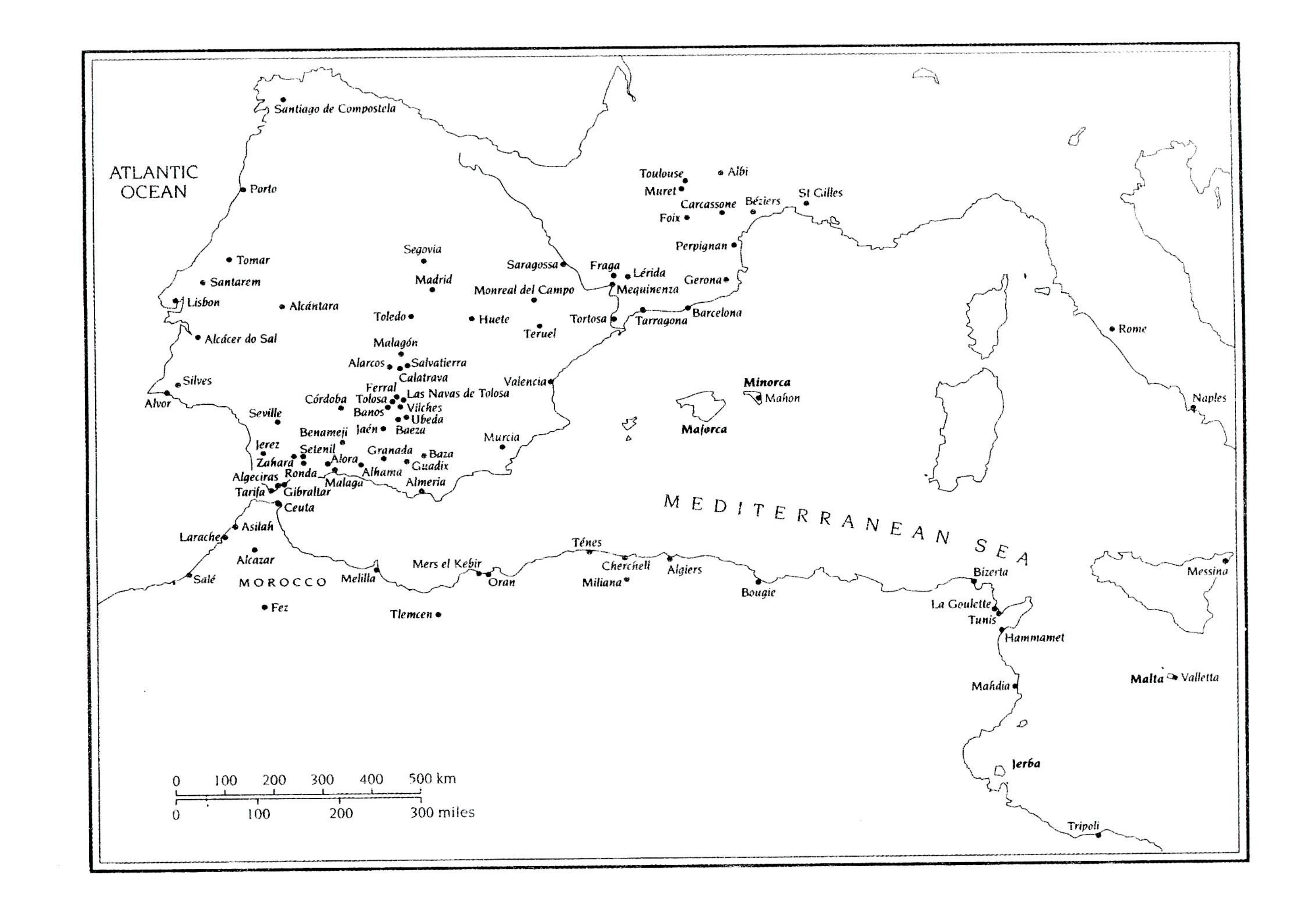
York
Norwich
London
Canterbury
Antwerp
Lille
Liège
Aachen
Cologne
Magdeburg
Thorn
Frankfurt
Gelnhausen
Soissons
Trier
Mainz
Paris
Seine
Reims
Verdun
Metz
Chartres
Le Mans
Troyes
Angers
Tours
Blois
Sancerre
Poitiers
Bourges
Dijon
Constance
Rhine
Nuremburg
Regensburg
Prague
Vienna
Limoges
Lyon
Vienne
Rhone
Milan
Venice
Oporto
Toulouse
Nimes
Avignon
St Gilles
Genoa
Bologna
Ebro
Perpignan
Marseille
Lucca
Pisa
Florence
Ancona
Split
Lisbon
Toledo
Barcelona
Viterbo
Dubrovnik
Rome
Naples
Amalfi
Bari
Taranto
Granada
MEDITERRANEAN SEA
Cagliari
Messina
Palermo
Siracusa
Morocco
Tunis
Malta
Valletta
Mahdia
Jerba
Tripoli
Boundary between Islam and Christianity in 1380
Boundary between Islam and Christianity in 1500
Boundary between Islam and Christianity in 1550
Boundary between Islam and Christianity in 1672
Boundary between Islam and Christianity in 1798
Muslim states in 1500
Christian countries vassals of Muslim states in 1672
Christian countries vassals of Muslim states in 1798



SELJUKS OF RUM
COUNTY OF EDESSA
Edessa
Anavarza
CILICIA ARMENIANS
Çandir
Tarsus
Adana
Sis
Ayas
Korykos
Silifke
Baghras
Antioch
Aleppo
PRINCIPALITY OF ANTIOCH
Latakia
Jabala
Margat
Hamāh
Tortosa
Chastel Blanc
Chastel Rouge
Homs
Crac des Chevaliers
Tripoli
Belmont abbey
COUNTY OF TRIPOLI
Jubayl
Beirut
Kyrenia
St Hilarion
Bellapais
Gastria
Nicosia
Famagusta
Paphos
Khirokitia
Episkopi
Kouklia
Kolossi
Limassol
MEDITERRANEAN SEA
Sidon
Damascus
Beaufort
Tyre
Toron
Montfort
Casal Imbert
Mi'iliya
Safad
Acre
Hattin
SEA OF GALILEE
Chastel Pélerin
Tiberias
Nazareth
Caesarea
Belvoir
Ayn Jalut
Sabastiya
Arsuf
Nablus
Jaffa
Lydda
Jilna
al-Bira
St Elias
Ramla
Jerusalem
al-Qubaiba
Jericho
Ascalon
Ibelin
Bethany
La Forbie
Bethlehem
Gaza
Belmont
Darum
DEAD SEA
Blanchegarde
Bait Jibrin
Abu Ghosh
Hebron
KINGDOM OF JERUSALEM
Karak
0 80 160 km
0 50 100 miles
al-Shaubak


BLACK SEA
THRACE
Constantinople
SEA OF MARMARA
Nicaea
Gallipoli
Lampsakos
Pelagonia (1259)
Thessalonica
THESSALY
Butrinto
EPIRUS
Corfu
Lemnos
Tenedos
GULF OF ADRAMYTTION
AEGEAN SEA
Lesbos
Preveza
Vonitza
Euboea
New Phocaea
Phocaea
Smyrna
AYDIN
Lepanto
Negroponte
Thebes
Phylla
Kephissos (1311)
BOEOTIA
GULF OF CORINTH
Chios
ACHAEA
Manolada (1316)
Andravidha
Corinth
Ephesus
MOREA
Athens
Argos
Aegina
Tenos
Navplia
MENTESHE
Navarino
Mistra
Naxos
Bodrum
Siphnos
Modon
Coron
Monemvasia
Rhodes
Kythera
Rhodes
Rethymnon
Iraklion
Crete
MEDITERRANEAN SEA
0 100 200 km
0 100 miles


NORWAY
Bergen
FINLAND
SWEDEN
NOVGOROD
Reval
ESTONIA
Novgorod
Pskov
Livonia
PSKOV
Riga
Üxküll
Durbe
LIVONIA
BALTIC SEA
Memel
DENMARK
LITHUANIA
Königsberg
Danzig
Lübeck
Marienburg
PRUSSIA
Bremen
Kulmerland
Tannenberg
POMERANIA
Thorn
Brandenburg
Magdeburg
THE WESTERN EMPIRE
POLAND
Legnica
Breslau
Cracow
Mergentheim
Danube
AUSTRIA
Vienna
Buda
MOLDAVIA
HUNGARY
WALLACHIA
Belgrade
Nicopolis
Kosovo
Varna
BULGARIA



ATLANTIC OCEAN
MEDITERRANEAN SEA
MOROCCO
Santiago de Compostela
Porto
Tomar
Santarem
Lisbon
Alcácer do Sal
Silves
Alvor
Alcántara
Segovia
Madrid
Toledo
Malagón
Alarcos
Salvatierra
Calatrava
Ferral
Tolosa
Las Navas de Tolosa
Baños
Vilches
Úbeda
Baeza
Jaén
Córdoba
Benameji
Seville
Jerez
Zahara
Setenil
Alora
Ronda
Algeciras
Tarifa
Gibraltar
Málaga
Alhama
Granada
Guadix
Baza
Almería
Murcia
Valencia
Huete
Monreal del Campo
Teruel
Saragossa
Fraga
Lérida
Mequinenza
Tortosa
Tarragona
Barcelona
Gerona
Toulouse
Muret
Foix
Carcassone
Albi
Perpignan
Béziers
St Gilles
Majorca
Minorca
Mahón
Ceuta
Asilah
Larache
Salé
Alcazar
Fez
Melilla
Tlemcen
Mers el Kebir
Oran
Ténès
Miliana
Cherchell
Algiers
Bougie
Bizerta
La Goulette
Tunis
Hammamet
Mahdia
Jerba
Tripoli
Malta
Valletta
Messina
Naples
Rome
0 100 200 300 400 500 km
0 100 200 300 miles

المراجع

Bibliographies

H. E. Mayer, *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge* (Hanover, 1960).

J. McLellan and H. W. Hazard, 'Select Bibliography of the Crusades', *A History of the Crusades* (ed.-in-chief K. M. Setton) 6, ed. H. W. Hazard and N. P. Zacour (Madison, Wis., 1989), 511–664.

General

P. Alphandéry and A. Dupront, *La Chrétienté et l'Idée de Croisade*, 2 vols. (Paris, 1954–9, repr. 1995).

H. E. Mayer, *The Crusades*, 2nd edn., tr. J. Gillingham (Oxford, 1988).

D. C. Nicolle, *Arms and Armour of the Crusading Era, 1050–1350*, 2 vols. (White Plains, NY, 1988).

J. H. Pryor, *Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649–1571* (Cambridge, 1988).

J. S. C. Riley-Smith, *The Crusades: A Short History* (London and New Haven, Conn., 1987).

—— (ed.), *The Atlas of the Crusades* (London and New York, 1991).

S. Runciman, *A History of the Crusades*, 3 vols. (Cambridge, 1951–4).

K. M. Setton (ed.-in-chief), *A History of the Crusades*, 2nd edn., 6 vols. (Madison, Wis., 1969–89).

Crusading Thought and Spirituality

E. O. Blake, 'The Formation of the "Crusade Idea"', *Journal of Ecclesiastical History*, 21 (1970), 11–31.

J. A. Brundage, *Medieval Canon Law and the Crusader* (Madison, Wis., and London, 1969).

M. G. Bull, *Knightly Piety and the Lay Response to the First Crusade: The Limousin and Gascony, c.970–c.1130* (Oxford, 1993).

P. J. Cole, *The Preaching of the Crusades to the Holy Land, 1095–1270* (Cambridge, Mass., 1991).

E. Delaruelle, *L'Idée de croisade au moyen âge* (Turin, 1980).

C. Erdmann, *The Origin of the Idea of Crusade*, tr. M. W. Baldwin and W. Goffart (Princeton, NJ, 1977).

J. Gilchrist, 'The Erdmann Thesis and the Canon Law, 1083–1141', *Crusade and Settlement*, ed. P. W. Edbury (Cardiff, 1985), 37–45.

E.-D. Hehl, *Kirche und Krieg im 12. Jahrhundert: Studien zu kanonischem Recht und politischer Wirklichkeit* (Stuttgart, 1980).

N. J. Housley, *The Later Crusades, 1274–1580: From Lyons to Alcazar* (Oxford, 1992).

B. Z. Kedar, *Crusade and Mission: European Approaches toward the Muslims* (Princeton, NJ, 1984).

J. S. C. Riley-Smith, *The First Crusade and the Idea of Crusading* (London and Philadelphia, 1986).

—— *What were the Crusades?*, 2nd edn. (London, 1992).

F. H. Russell, *The Just War in the Middle Ages* (Cambridge, 1975).

E. Siberry, *Criticism of Crusading, 1095–1274* (Oxford, 1985).

The Crusading Movement, 1095–1274

R. Chazan, *European Jewry and the First Crusade* (Berkeley, Los Angeles, and London, 1987).
C. R. Cheney, *Pope Innocent III and England* (Stuttgart, 1976).
E. Christiansen, *The Northern Crusades: The Baltic and the Catholic Frontier 1100–1525* (London, 1980).
P. J. Cole, *The Preaching of the Crusades to the Holy Land, 1095–1270* (as above).
G. Constable, 'The Second Crusade as seen by Contemporaries', *Traditio*, 9 (1953), 213–79.
—— 'Medieval Charters as a Source for the History of the Crusades', *Crusade and Settlement*, ed. P. W. Edbury (Cardiff, 1985), 73–89.
—— 'The Financing of the Crusades in the Twelfth Century', *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, ed. B. Z. Kedar, H. E. Mayer, and R. C. Smail (Jerusalem, 1982), 64–88.
H. E. J. Cowdrey, 'Pope Urban II's Preaching of the First Crusade', *History*, 55 (1970), 177–88.
G. Dickson, 'The Advent of the Pastores (1251)', *Revue Belge de Philologie et d'Histoire*, 66 (1988), 249–67.
V. Epp, *Fulcher von Chartres: Studien zur Geschichtsschreibung des ersten Kreuzzuges* (Düsseldorf, 1990).
R. A. Fletcher, 'Reconquest and Crusade in Spain c.1050–1150', *Transactions of the Royal Historical Society*, 5th ser. 37 (1987), 31–47.
J. France, *Victory in the East: A Military History of the First Crusade* (Cambridge, 1994).
M. Gervers (ed.), *The Second Crusade and the Cistercians* (New York, 1992).
J. B. Gillingham, *Richard the Lionheart*, 2nd edn. (London, 1989).
J. Goñi Gaztambide, *Historia de la Bula de la cruzada en España* (Vitoria, 1958).
N. J. Housley, *The Italian Crusades: The Papal-Angevin Alliance and the Crusades against Christian Lay Powers, 1254–1343* (Oxford, 1982).
P. Jackson, 'The Crusades of 1239–41 and their Aftermath', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 50 (1987), 32–60.
—— 'The Crusade against the Mongols (1241)', *Journal of Ecclesiastical History*, 42 (1991), 1–18.
W. C. Jordan, *Louis IX and the Challenge of the Crusade: A Study in Rulership* (Princeton, NJ, 1979).
S. D. Lloyd, *English Society and the Crusade, 1216–1307* (Oxford, 1988).
D. W. Lomax, *The Reconquest of Spain* (London and New York, 1978).
C. T. Maier, *Preaching the Crusades* (Cambridge, 1994).
J. M. Powell, *Anatomy of a Crusade, 1213–1221* (Philadelphia, 1986).
D. E. Queller, *The Fourth Crusade: The Conquest of Constantinople 1201–1204* (Philadelphia, 1977).
J. Richard, *Saint Louis: Crusader King of France*, ed. S. D. Lloyd, tr. J. Birrell (Cambridge, 1992).
J. S. C. Riley-Smith, *The First Crusade and the Idea of Crusading* (as above).
R. Rogers, *Latin Siege Warfare in the Twelfth Century* (Oxford, 1992).
M. Roquebert, *L'Épopée Cathare*, 3 vols. (Toulouse, 1970–86).
H. Roscher, *Papst Innocenz III. und die Kreuzzüge* (Göttingen, 1969).
C. J. Tyerman, *England and the Crusades, 1095–1588* (Chicago and London, 1988).

The Crusading Movement, 1274–1700

A. S. Atiya, *The Crusade of Nicopolis* (London, 1934).
E. Christiansen, *The Northern Crusades* (as above).
J. Goñi Gaztambide, *Historia de la Bula de la cruzada en España* (as above).

F. G. Heymann, *John Zizka and the Hussite Revolution* (Princeton, NJ, 1955).
N. J. Housley, *The Avignon Papacy and the Crusades, 1305–1378* (Oxford, 1986).
—— *The Italian Crusades* (as above).
—— *The Later Crusades, 1274–1580* (as above).
M. Keen, 'Chaucer's Knight, the English Aristocracy and the Crusade', *English Court Culture in the Later Middle Ages*, ed. V. J. Scattergood and J. Sherborne (London, 1983), 45–61.
D. W. Lomax, *The Reconquest of Spain* (as above).
W. E. Lunt, *Financial Relations of the Papacy with England*, 2 vols. (Cambridge, Mass., 1939–62).
W. Paravicini, *Die Preussenreisen des europäischen Adels*, 3 vols. so far (Sigmaringen, 1989–).
S. Schein, *Fideles Crucis: The Papacy, the West, and the Recovery of the Holy Land, 1274–1314* (Oxford, 1991).
R. C. Schwoebel, *The Shadow of the Crescent: The Renaissance Image of the Turk (1453–1517)* (Nieuwkoop, 1967).
K. M. Setton, *The Papacy and the Levant (1204–1571)*, 4 vols. (Philadelphia, 1976–84).
—— *Venice, Austria, and the Turks in the Seventeenth Century* (Philadelphia, 1991).
C. J. Tyerman, *England and the Crusades* (as above).

Crusade Songs and Literature

E. Asensio, '*¡Ay Iherusalem!* Planto narrativo del siglo XIII', *Nueva Revista de Filología Hispánica*, 14 (1960), 247–70.
J. Bastin and E. Faral (eds.), *Onze poèmes de Rutebeuf concernant la croisade* (Paris, 1946).
J. Bédier and P. Aubry (eds.), *Chansons de croisade* (Paris, 1909).
M. Böhmer, *Untersuchungen zur Mittelhochdeutschen Kreuzzugslyrik* (Rome, 1968).
N. Daniel, *Heroes and Saracens: an Interpretation of the Chansons de geste* (Edinburgh, 1984).
P. Hölzle, *Die Kreuzzüge in der okzitanischen und deutschen Lyrik des 12. Jahrhunderts: das Gattungsproblem 'Kreuzlied' im historischen Kontext*, 2 vols. (Göppingen, 1980).
C. von Kraus, *Des Minnesangs Frühling* (Leipzig, 1944).
K. Lewent, *Das altprovenzalische Kreuzlied* (Erlangen, 1905: repr. Geneva, 1976).
U. Mölk, *Romanische Frauenlieder* (Munich, 1989).
M. del C. Pescador del Hoyo, 'Tres nuevos poemas medievales', *Nueva Revista de Filología Hispánica*, 14 (1960), 242–7.
M. Richey, *Medieval German Lyrics* (Edinburgh and London, 1958).
M. de Riquer, *Los Trovadores: Historia literaria y Textos*, 3 vols. (Barcelona, 1983).
S. N. Rosenberg and H. Tischler, *Chanter m'estuet: Songs of the Trouvères* (London and Boston, 1981).
O. Sayce, *The Medieval German Lyric 1150–70: The Development of Themes and Forms in their European Context* (Oxford, 1982).
S. Schöber, *Die altfranzösische Kreuzzugslyrik des 12. Jahrhunderts* (Vienna, 1976).
I. Short (ed.), *La Chanson de Roland* (Paris, 1990).
E. Siberry, *Criticism of Crusading* (as above).
D. A. Trotter, *Medieval French Literature and the Crusades (1100–1300)* (Geneva, 1988).
F.-W. Wentzlaff-Eggebert, *Kreuzzugsdichtung des Mittelalters: Studien zu ihrer geschichtlichen und dichterischen Wirklichkeit* (Berlin, 1960).

Islam and the Crusades

C. Cahen, *Pre-Ottoman Turkey* (London, 1968).
M. A. Cook (ed.), *A History of the Ottoman Empire to 1730* (Cambridge, 1976).
N. A. Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh, 1960).
—— *The Arabs and Mediaeval Europe*, 2nd edn. (London, 1979).
R. Elgood, *Islamic Arms and Armour*.(London, 1979).
N. Elisséeff, *Nur ad-Din: Un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades*, 3 vols. (Damascus, 1967).
R. Fletcher, *Moorish Spain* (London, 1992).
F. Gabrieli, *Arab Historians of the Crusades* (London, 1969).
H. A. R. Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, ed. S. J. Shaw and W. R. Polk (London, 1962).
P. M. Holt, *The Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517* (London and New York, 1986).
R. S. Humphreys, *From Saladin to the Mongols: The Ayyubids of Damascus 1193–1260* (Albany, 1977).
C. Imber, *The Ottoman Empire, 1300–1481* (Istanbul, 1990).
H. Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical Age 1300–1600* (London, 1973).
R. Irwin, *The Middle East in the Middle Ages: The early Mamluk Sultanate 1250–1382* (London and Sydney, 1986).
S. K. Jayussi (ed.), *The Legacy of Muslim Spain* (Leiden, 1992).
M. A. Köhler, *Allianzen und Verträge zwischen fränkischen und islamischen Herrschern im Vorderen Orient: Eine Studie über das zwischenstaatliche Zusammenleben vom 12. bis 13. Jahrhundert* (Berlin and New York, 1991).
B. Lewis, *The Muslim Discovery of Europe* (London, 1982).
M. C. Lyons and D. E. P. Jackson, *Saladin: The Politics of Holy War* (Cambridge, 1982).
J. S. Meisami (ed. and tr.), *The Sea of Precious Virtues (Bahr al-Fava'id) A Medieval Islamic Mirror for Princes* (Salt Lake City, 1991).
T. Nagel, *Timur der Eroberer und die islamische Welt des späten Mittelalters* (Munich, 1933).
J. M. Powell (ed.), *Muslims under Latin Rule, 1100–1300* (Princeton, NJ, 1991).
E. Sivan, *L'Islam et la Croisade: Idéologie et Propagande dans les Réactions Musulmanes aux Croisades* (Paris, 1968).
P. Thorau, *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century*, tr. P. M. Holt (London and New York, 1987).
Usamah ibn Munqidh, *Memoirs of an Arab Syrian Gentleman*, tr. P. K. Hitti (New York, 1929).

The Latin East

B. Arbel, B. Hamilton, and D. Jacoby (eds.), *Latins and Greeks in the Eastern Mediterranean after 1204* (London, 1989).
E. Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages* (Princeton, NJ, 1983).
M. Balard, *La Romanie génoise* (XII^e–début du XV^e siècle) (Genoa, 1978).
T. S. R. Boase (ed.), *The Cilician Kingdom of Armenia* (Edinburgh and London, 1978).
A. Bon, *La Morée franque: recherches historiques, topographiques et archéologiques sur la principauté d'Achaïe (1205–1430)* (Paris, 1969).
D. S. Chambers, *The Imperial Age of Venice* (London, 1970).
N. Cheetham, *Mediaeval Greece* (New Haven, Conn., and London, 1981).
P. W. Edbury, *The Kingdom of Cyprus and the Crusades, 1191–1374* (Cambridge, 1991).

—— and J. G. Rowe, *William of Tyre: Historian of the Latin East* (Cambridge, 1988).
M.-L. Favreau-Lilie, *Die Italiener im Heiligen Land vom ersten Kreuzzug bis zum Tode Heinrichs von Champagne (1098–1197)* (Amsterdam, 1989).
B. Hamilton, 'Women in the Crusader States: The Queens of Jerusalem (1100–1190)', *Medieval Women*, ed. D. Baker (Oxford, 1978), 143–73.
—— *The Latin Church in the Crusader States: The Secular Church* (London, 1980).
G. Hill, *A History of Cyprus*, 4 vols. (Cambridge, 1940–52).
N. J. Housley, *The Later Crusades, 1274–1580* (as above).
D. and I. Hunt (eds.), *Caterina Cornaro, Queen of Cyprus* (London, 1989).
D. Jacoby, *La Féodalité en Grèce médiévale. Les 'Assises de Romanie': sources, application et diffusion* (Paris, 1971).
—— *Studies on the Crusader States and on Venetian Expansion* (London, 1989).
B. Z. Kedar, 'Gerard of Nazareth: A Neglected Twelfth-Century Writer in the Latin East', *Dumbarton Oaks Papers*, 37 (1983), 55–77.
—— (ed.), *The Horns of Hattin* (Jerusalem, 1992).
F. C. Lane, *Venice: a Maritime Republic* (Baltimore and London, 1973).
R.-J. Lilie, *Byzantium and the Crusader States*, tr. J. C. Morris and J. E. Ridings (Oxford, 1994).
C. Marshall, *Warfare in the Latin East, 1192–1291* (Cambridge, 1992).
H. E. Mayer, 'Studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem', *Dumbarton Oaks Papers*, 26 (1972), 93–182.
—— *Bistümer, Klöster und Stifte im Königreich Jerusalem* (Stuttgart, 1977).
—— *Probleme des lateinischen Königreichs Jerusalem* (London, 1983).
—— 'The Wheel of Fortune: Seignorial Vicissitudes under Kings Fulk and Baldwin III of Jerusalem', *Speculum*, 65 (1990), 860–77.
D. M. Metcalf, *Coinage of the Crusades and the Latin East in the Ashmolean Museum Oxford* (London, 1983).
D. M. Nicol, *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations* (Cambridge, 1988).
J. Prawer, *The Latin Kingdom of Jerusalem: European Colonialism in the Middle Ages* (London, 1972).
—— *Histoire du royaume latin de Jérusalem*, 2nd edn., 2 vols. (Paris, 1975).
—— *Crusader Institutions* (Oxford, 1980).
—— *The History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem* (Oxford, 1988).
J. Richard, *Orient et Occident au moyen âge: contacts et relations* (XIIe–XVe siècles) (London, 1976).
—— *Les Relations entre l'Orient et l'Occident au moyen âge* (London, 1977).
—— *The Latin Kingdom of Jerusalem*, tr. J. Shirley, 2 vols. (Amsterdam, New York, and Oxford, 1979).
J. S. C. Riley-Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174–1277* (London, 1973).
G. V. Scammell, *The World Encompassed: The first European maritime empires, c.800–1650* (London and New York, 1981).
K. M. Setton, *The Papacy and the Levant* (as above).
—— *Venice, Austria, and the Turks* (as above).
R. C. Smail, *Crusading Warfare (1097–1193)*, 2nd edn., intr. C. Marshall (Cambridge, 1995).
F. Thiriet, *La Romanie vénitienne au moyen âge* (Paris, 1959).
S. Tibble, *Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099–1291* (Oxford, 1989).

Architecture and Art in the Latin East

B. Bagatti, *Gli antichi edifici sacri di Betlemme* (Jerusalem, 1952).

M. Benvenisti, *The Crusaders in the Holy Land* (Jerusalem, 1970).

T. S. R. Boase, *Castles and Churches of the Crusading Kingdom* (Oxford, 1967).

H. Buchthal, *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem* (Oxford, 1957).

H. Buschhausen, *Die süditalienische Bauplastik im Königreich Jerusalem von König Wilhelm II bis Kaiser Friedrich II* (Vienna, 1978).

P. Deschamps, *Les Châteaux des croisés en Terre Sainte*, 3 vols. (1. *Le Crac des Chevaliers*. 2. *La Défense du royaume de Jérusalem*. 3. *La Défense du comté de Tripoli et de la principauté d'Antioche*) and 3 albums of plates (Paris, 1934–73 (actually 1977)).

—— *Terre Sainte romane* (La Pierre-qui-Vire, 1964).

R. W. Edwards, 'Ecclesiastical Architecture in the Fortifications of Armenian Cilicia', *Dumbarton Oaks Papers*, 36 (1982), 155–76, 41 pls.; 37 (1983), 123–46, 91 pls.

—— *The Fortifications of Armenian Cilicia* (Washington, DC, 1987).

C. Enlart, *Les Monuments des croisés dans le royaume de Jérusalem: architecture religieuse et civile*, 2 vols. and 2 albums of plates (Paris, 1925–8).

—— *Gothic Art and the Renaissance in Cyprus*, tr. and ed. D. Hunt (London, 1987).

J. Folda, *Crusader Manuscript Illumination at Saint-Jean-d'Acre, 1275–1291* (Princeton, NJ, 1976).

—— *Crusader Art in the Twelfth Century* (Oxford, 1982).

—— *The Nazareth Capitals and the Crusader Shrine of the Annunciation* (University Park, Pa., 1986).

A. Gabriel, *La Cité de Rhodes MCCCX-MDXXII*, 2 vols. (Paris, 1921–3).

H. W. Hazard (ed.), *The Art and Architecture of the Crusader States*, vol. 4 of K. M. Setton (ed.-in-chief), *A History of the Crusades* (Madison, Wis., 1977).

Z. Jacoby, 'The Workshop of the Temple Area in Jerusalem in the Twelfth Century: Its Origin, Evolution and Impact', *Zeitschrift für Kunstgeschichte*, 45 (1982), 325–94.

N. Kenaan-Kedar, 'The Cathedral of Sebaste: Its Western Donors and Models', *The Horns of Hattin*, ed. B. Z. Kedar (Jerusalem, 1992), 99–120.

G. Kühnel, *Wall Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291* (Berlin, 1988).

T. E. Lawrence, *Crusader Castles*, ed. R. D. Pringle (Oxford, 1988).

H. E. Mayer, *Das Siegelwesen in den Kreuzfahrerstaaten* (Munich, 1978)

D. M. Metcalf, *Coinage of the Crusades and the Latin East in the Ashmolean Museum Oxford* (as above).

W. Müller-Wiener, *Castles of the Crusaders* (London, 1976).

R. D. Pringle, *The Red Tower* (London, 1986).

—— *The Churches of the Crusader Kingdom of Jerusalem. A Corpus*, 3 vols. (in progress) (Cambridge, 1992–).

K. Weitzmann, 'Icon Painting in the Latin Kingdom', *Dumbarton Oaks Papers*, 20 (1966), 49–84 (68 pls.).

The Military Orders to 1798

U. Arnold (ed.), *800 Jahre Deutscher Orden* (Munich, 1990).

M. Barber, *The Trial of the Templars* (Cambridge, 1978).

—— *The New Knighthood: A History of the Order of the Temple* (Cambridge, 1994).

—— (ed.), *The Military Orders: Fighting for the Faith and Caring for the Sick* (London, 1995).
H. Boockmann, *Der Deutsche Orden: zwölf Kapitel aus seiner Geschichte* (Munich, 1989).
M. Burleigh, *Prussian Society and the German Order: An Aristocratic Corporation in Crisis, c.1410–1466* (Cambridge, 1984).
R. Cavaliero, *The Last of the Crusaders: The Knights of St John and Malta in the Eighteenth Century* (London, 1960).
E. Christiansen, *The Northern Crusades* (as above).
A. Demurger, *Vie et mort de l'Ordre du Temple*, 2nd edn. (Paris, 1989).
A. J. Forey, *The Templars in the Corona de Aragón* (London, 1973).
—— *The Military Orders from the Twelfth to the Early Fourteenth Centuries* (London, 1992).
—— *Military Orders and Crusaders* (Aldershot, 1994).
E. Gallego Blanco (tr.), *The Rule of the Spanish Military Order of St James, 1170–1493* (Leiden, 1971).
M. Gervers, *The Hospitaller Cartulary in the British Library (Cotton MS Nero E VI)* (Toronto, 1981).
G. Guarnieri, *I Cavalieri di Santo Stefano nella Storia della Marina Italiana, 1562–1859*, 3rd edn. (Pisa, 1960).
R. Hiestand, 'Kardinalbischof Matthäus von Albano, das Konzil von Troyes und die Entstehung des Templerordens', *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, 99 (1988), 295–325.
A. Hoppen, *The Fortification of Malta by the Order of St John, 1530–1798* (Edinburgh, 1979).
N. J. Housley, *The Avignon Papacy and the Crusades, 1305–1378* (as above).
—— *The Later Crusades, 1274–1580* (as above).
E. J. King (tr.), *The Rule, Statutes and Customs of the Hospitallers, 1099–1310* (London, 1934).
E. Kollias, *The City of Rhodes and the Palace of the Master* (Athens, 1988).
A.-M. Legras, *L'Enquête dans le Prieuré de France*, intr. A. T. Luttrell (*L'Enquête pontificale de 1373 sur l'Ordre des Hospitaliers de Saint-Jean de Jérusalem* 1. Paris, 1987).
D. W. Lomax, *La orden de Santiago (1170–1275)* (Madrid, 1965).
A. T. Luttrell, *The Hospitallers in Cyprus, Rhodes, Greece and the West (1291–1440)* (London, 1978).
—— *Latin Greece, the Hospitallers and the Crusades, 1291–1440* (London, 1982).
—— *The Hospitallers of Rhodes and their Mediterranean World* (London, 1992).
V. Mallia Milanes (ed.), *Hospitaller Malta 1530–1798. Studies in Early Modern Malta and the Order of St John of Jerusalem* (Malta, 1993).
H. Nicholson, *Templars, Hospitallers and Teutonic Knights: Images of the Military Orders, 1128–1291* (Leicester, 1993).
J. F. O'Callaghan, *The Spanish Military Order of Calatrava and its Affiliates* (London, 1975).
Las Ordenes Militares en el Mediterráneo Occidental (s. XII–XVIII) (Madrid, 1989).
Las Ordenes Militares en la Peninsula durante la Edad Media: Actas del Congreso internacional hispano-portugués (Madrid and Barcelona, 1981).
Les Ordres militaires, la vie rurale et le peuplement en Europe occidentale (XII^e–XVIII^e siècles) (*Flaran* 6, Auch, 1984).
P. Partner, *The Murdered Magicians: The Templars and their Myth* (Oxford, 1982).
J. S. C. Riley-Smith, *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus c.1050–1310* (London, 1967).
D. Seward, *The Monks of War: The Military Religious Orders* (London, 1972).
A. Spagnoletti, *Stato, Aristocrazie e Ordine di Malta nell'Italia Moderna* (Rome, 1988).
J. M. Upton-Ward (tr.), *The Rule of the Templars* (Woodbridge, 1992).
L. Wright, 'The Military Orders in Sixteenth- and Seventeenth-Century Spanish Society', *Past and Present*, 43 (1969), 34–70.

The Nineteenth and Twentieth Centuries

D. D. Eisenhower, *Crusade in Europe* (London, 1948).

M. Girouard, *The Return to Camelot: Chivalry and the English Gentleman* (New Haven, Conn., and London, 1981).

A. Marrin, *The Last Crusade: The Church of England in the First World War* (Durham, NC, 1974).

M. H. T. Michel de Pierredon, *Histoire politique de l'ordre souverain de Saint-Jean de Jérusalem (Ordre de Malte)*, 2nd edn., 3 vols. so far (Paris, 1956–).

J. S. C. Riley-Smith, 'The Order of St John in England, 1827–1858', *Fighting for the Faith and Caring for the Sick*, ed. M. Barber (London, 1995).

N. Shepherd, *The Zealous Intruders: The Western Discovery of Palestine* (London, 1987).

E. Siberry, 'Tales of the Opera: The Crusades', *Medieval History* (forthcoming).

—— 'Through the Artists' Eyes: The Crusades' (forthcoming).

—— 'Victorian Perceptions of the Military Orders', *Fighting for the Faith and Caring for the Sick*, ed. M. Barber (London, 1995).

M. A. Stevens (ed.), *The Orientalists: Delacroix to Matisse—European Painters in North Africa and the Near East* (London, 1984).

J. Sweetman, *The Oriental Obsession: Islamic Inspiration in British and American Art and Architecture, 1500–1920* (Cambridge, 1988).

H. Thomas, *The Spanish Civil War*, 3rd edn. (London, 1990).

A. Wilkinson, *The Church of England and the First World War* (London, 1978).

J. Wolffe, *The Protestant Crusade in Great Britain 1829–1860* (Oxford, 1991).

المحرر فى سطور :

جوناثان رايلى سميث .

- المؤرخ البريطانى ربما يكون أهم مؤرخى الحروب الصليبية فى العالم الغربى الآن . وقد نشر عدة كتب ومقالات عن الحروب الصليبية بداية من سنة ١٩٦٧م حتى الآن .
- ولد فى ٢٧ يونيو ١٩٣٨م ومتزوج وله ثلاثة أبناء .
- عمل فى عدد من الجامعات البريطانية .
- عضو مؤسس (١٩٨٠م) فى جمعية دراسة الحروب الصليبية فى الشرق اللاتينى وكان رئيساً من ١٩٨٧ - ١٩٩٥م .
- تتلمذ على يديه عدد كبير من الباحثين فى مجال الحروب الصليبية .
- حالياً أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى كلية التاريخ بجامعة كمبردج .

المترجم فى سطور:

قاسم عبده قاسم .

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق .
- متخصص فى تاريخ الحركة الصليبية ، وله عدد كبير من الكتب والمقالات فى تاريخ الحركة الصليبية .
- أشرف على عدد من الرسائل الجامعية تدور حول الاتجاهات الجديدة فى دراسة الحركة الصليبية .
- ترجم عدة كتب فى تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ العصور الوسطى بشكل عام .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٨٣م ، وعلى جائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م .

التصحيح اللغوية : **عايدى جمعة**
الإشراف الفـنى : **حسن كامل**